د. هاني يحيى نصري

الإسلام
والمعرفة الفلسفية





الإسلام
والمعرفة الفلسفية

هذا الكتاب هو محاولة جر العقل الإسلامي من الماضي الى الحاضر، إذ لا يكفي ترداد أن الاسلام يصلح لكل زمان ومكان، دون أن ندرس الفكر الفلسفي الذي يشكل الزمان الذي نعيش فيه، لنشكل فلسفتنا الخاصة فيه، آن ذاك نساهم بتقديم الإسلام الى حضارة القرن الواحد والعشرين لا كإيديولوجيا فرقية، أو دفاع عن الذات يسميه الغرب إرهاباً، بل كدعوة بها حاجات كل من يبحث عن مصيره من هذا التواجد فالوجود ككل، فبلا فلسفة ستظل أسير مغالق فكرك.



ISBN 614-417-025-0

9 786144 170250

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الاسلام والمعرفة الفلسفية

بالفلسفة تفهم

الطبعة الأولى

1434 هـ ـ 2013 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

majd_pub@hotmail.com

http:// www.editionmajd.com

ISBN 978-614-417-025-0

الدكتور هاني يحيى نصري

الاسلام والمعرفة الفلسفية

بالفلسفة تفهم

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

وبلا فلسفة

ستظل كما أنت سجين مغالق فكرك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

[الأحزاب 34]

الإهداء

إلى أبي؛

لا يصحّ حديثي ولا تصح محاضراتي عن أبي معرفة دون أسسها القرآنية، التي حباني بها والدي الدكتور يحيى خليل نصري رحمه الله، فله الفضل والأجر، ولي الصياغة ليس إلا.

الباب الأول

الميتافيزياء

الميتافيزياء هي في كل سؤال نحاول الإجابة عنه بما يتجاوز حدود قدرة العقل المنطقي- العلمي، وأقصد بالمنطقي الذي يستخدمه العلم من استقراءات واستنتاجات واستدلالات وقياسات في أطر المقولات والرمزية التواصلية من لغة وإيماءات .... الخ.، عبر منهج أبستمولوجي ما "Epistemology".

ونحن حين نبحث في أسس فكرنا الإنساني أبستيمولوجيا لا أنتربولوجيا فقط، نجد أننا بصدد مجردات "Abstractions" لا نستطيع أن نخضعها لأي ملاحظة موضوعية – عيانية – امبيريقية Empirical [1]، فلا تمت بأي صلة للآنية والفعلية "Actuality"، بل هي في مجال الاحتماليات المتعالية عن التجربة.

فإذا ادعينا أو تمسكنا باحتمال من هذه الاحتمالات على أنه "حقيقي" "Truth" يمثل الواقع، وبنينا عليه سلفاً سياقاً نثرياً ما، كنا في حيز التمني بالأدب القصصي الخيالي "Fiction" أو العقائدي الحزبي.

---

[1] انظر كتابنا، الميتافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، عام 1998 م.

فتقدم الفلسفة من تقدم الميتافيزياء ورهن عدم الرضا عن هذه المشخصات التصورية "Fiction"، التي من الأفضل عند محبي الحقيقة أن يعاملوها على أنها تمنيات احتمالية. لا أن يبنوا قناعاتهم وبالتالي سلوكهم على أساطيرها.

وكأن لسان حال هؤلاء يقول: من الأفضل العيش بالشك "Scepticism" أو بالأدرية على أحسن الأحوال "Agnosticism" على العيش بالدوغمائية العقائدية "Dogmatism"، التي لا يناقش صاحبها ما تأمره به السلطات السياسية أو اللاهوتية من تبني سياقات التمني النثرية، بالأدب العقائدي الحزبي أم الديني المشخص، بناء على واقع سياسي مفروض.

لذلك، يرتبط التقدم الفلسفي في امة من الأمم بمدى عدم رضا أفرادها عن التمنيات الاعتقادية، التي صاغتها نصوصهم الأدبية أو العقائدية، وبدون هذا المدخل تقف حدود الفهم الإنساني إزاء أطر جاهزة، يحميها المجتمع لتقتل تقدم فكر الآمة؟!

وفي الإسلام توجد فسحة لكسر هذه !لأطر من خلال "ضمير الغائب"[*] في النص القرآني، لكن التقليدية التي وصلت الى الإسلام من الأديان السابقة، تعتبر كل كسر بمثابة خروج خوارج، وتلك مسألة "ثيولوجية" ذات أبعاد "فرقية" خطيرة، لا تناقش فقط فلسفيا بل لاهوتياً واجتماعياً ونفسياً أيضاً.

أما ما نحن بصدده فتقدم الفلسفة برأينا مرتبط بروح الضمير الغائب النصي القرآني عندنا كمسلمين من جهة، وبمدى ما تساهم به الفلسفة من تقدم علمي من جهة أخرى، إضافة الى قدرتها – أي الفلسفة – على اختراق النصوص الأدبية المتشددة بالمبنى، على حساب كل معنى قولي أن نصي ميتافيزيائيا، بغض النظر عما إذا كان هذا الخرق يتم من أشخاص يعرفون الفلسفة أو يجهلونها، لان المهم هنا هو مدى حب الباحث عن المعرفة – طالبها– للحقيقة، لا التزويقات السفسطية الأدبية، التي قد تبهر السامع دون أن تطال فكره إلا لتجعله تابعاً لقائلها.

---

[*] الذي لا يمكن فقهه دون خلفية فهم فلسفي عميق للنص القرآني الكريم.

أما صلة الفلسفة بالتاريخ فهي من خلال تاريخية الفكر في صيغه الاجتماعية، لا من خلال أحداث التاريخ الكرونولوجية. لأنه لا يمكن فهم تاريخ الفلسفة من أي باحث فيها إذا هو لم يعانِ من مشكلة المصير، بصيغ أفكار الفلاسفة التي بحثت فيه، وهذا يعني فقط الباب الذي يمكن منه الدخول الى التفلسف نفسياً واجتماعيا وسياسيا وكوزمولوجيا، وهو باب متى فتحه الإنسان سيعاني من كل التساؤلات التي عانى منها الفلاسفة في تلك المجالات سابقاً.

أما حلولهم التي قدموها كائنا من كانت عبقريتها مقنعة، فهي من منظار فردي عظمته في كونه قد التقط كل هذه المشكلات الكوزمولوجية والانطولوجية من زاوية وجودية واحدة، لذلك لا يمكن النظر الى تلك الحلول. إلا على أنها الكلمة الأولى لا الأخيرة حول مشكلات الوجود والكينونة، فكل طرح لأي مشكلة فلسفية هو بالأول والأخير يرتبط بكل المشكلات الفلسفية التي تتطلع منذ بداياتها – الفردية والتاريخية – وتنبثق من مشكلة المصير الخاصة بكل فرد.

تلك المشكلة التي تنبع أول ما تنبع عند الإنسان من رغباته في البقاء، دون أي تمحيص لا لمعاني الوجود الدائم، ولا لمعاني الرغبة والإرادة الايروسية "Eros" وصلتها بالمعاني الفلسفية، العقلانية والتجريبية للإيدوس "Eidos"، كتجريدات فكرية "Forms" فقط. هكذا لا تقوم فلسفة عند صاحبها دون تمييز بين تاريخ الأفكار وتاريخ المذاهب الفلسفية المختلفة، فمن جماعهما يكون المرء فلسفته الفردية. ومثال ذلك، لا يمكنك قراءة "نيتشه" دون جماع الأفكار الفلسفية الأوروبية والألمانية و"الهيغلية" و"الشوبنهورية" السابقة لها، وإلا بدت كتاباته شذرات تخبطات أفكار، يعززها جنونه اللاحق بسبب "السفلس" لا بسبب الفلسفة، كما يحب أن ينعت "العوام" الفلسفة بذلك.

إن تقدم الفلسفة يرتبط إذا بأصول الأفكار المصيرية ذات القيمة الفكرية، والتي تساهم بدفع الفرد نحو الوعي الشمولي والخصوصي الأعمق، وهذا يعني أن التتابع التاريخي لمن يسمون فلاسفة كان وسيكون بلا فائدة لتقدم الفلسفة، بل قد

يكون معيقاً لها، فالدوغما "Dogma" الكنسية عند "الأكويني" كالدوغما الإيديولوجية عند "ماركس" أعاقا الفلسفة بمحاكم التفتيش و"الكي جي بي K G B " أحقاباً طويلة في أوروبا وروسيا الحديثة، مما استتبع عند كليهما ظهور اسميه نومينالية "Nominalism" سميت الأولى بالأكوينية – قديمة وحديثة –، والثانية بالماركسية التي يتمسك بها عجائز الأحزاب الاشتراكية المتقدمون نحو قبورهم اليوم. وهذا يقودنا الى أهمية الحقيقة والبحث عنها بكل لغة، لا مجرد التزويقات الكلامية، واختراع مشتقات لفظية لا معنى لها إلا بالصيغ التنويمية الإيحائية السلطوية "Hypnosis" التي تعمل على غل أدمغة الناس بالسلطة – الترهيب – والإيحاء – الترغيب – ، كي يخضعوا!؟

الفلسفة إذا عمل متمرد على كل قمع فكري بأي أسلوب كان، فإذا نجح المجتمع بتبنيها صار حقا مجتمعا ديمقراطيا متقدما(*) لذلك لا ديمقراطية دون تقدم فلسفي يبحث في الصيغ الديمقراطية الملائمة لكل مجتمع على حده حسب خلفياته الميتافيزيائية !!

الطبيعة الحرة: لا حرية مع الباطل والكذب والخوف من فضحهما، وهذا هو أساس حب الحقيقة، وبالتالي أساس التقدم الفكري الذي يستتبع تقدما اجتماعياً عبر الفلسفة، والتي لا يقوم لها قائم دون ضبط الحقيقة اللفظية والكتابية – اللغوية – بالصدق في كل تعبير، وعدم إدخال الغث فيه بالوعظية "السلطانية" دينية كانت أم ايديولوجية، وبعبارة أخرى يعد انعدام الحرية إعداماً للفلسفة والعكس، يمارسه كل سفسطائي ايديولوجي يسود على واعظ ديني، فيطويه كي يكون صنيعة الحكام الدكتاتوريين والسلاطين؛ بلقب "مفتي السلطان"!!

والطبيعة الحرة التي تبنى على التفلسف ليست ملكاً للنجاح، فهي التي كانت أساس الثورة الفرنسية، لكنها صارت بالسفسطة لعبة "روبسبير" وأمثاله، وأداة

(*) على أن لا تؤخذ الديمقراطية هنا كقدوس قام بذاته، متجاوزة معانيها الاجتماعية، وهذا يحتاج الى بحث لاحق.

"نابليون" الكورسيكي غير الآبه بالدم الفرنسي، وهي الطبيعة الحرة ذاتها التي كانت أساس ثورة أكتوبر الروسية، لكنها صارت أداة طغيان الشيوعية اللينينية ثم "الجورجية الستالينية"؟! وهي كالطبيعة الحرة الأمريكية منذ ثورة "جورج واشنطن"، التي تتلعب بها الشركات البترولية اليوم مع أمثال "بوش" ؟!

الطبيعة الحرة لا تعني النجاح التاريخي، بل تعني وتعتني دوماً بروح الأمة التي لا يقدر الطغيان على إخضاعها(*) وهذه الروح تتجلى بالخوف الدائم من كل متسلط عليها يوجهها جهة عدو وهمي كما هو حال "بوش" مع "فوبيا" الإسلام، التي حاول أن يشيعها في الغرب "Islamo-Phobia"، من خلال الظن الأمريكي العام الخاطئ بأنهم قد هزموا الشيوعية "بفوبيا" مماثلة، لأنهم لا يريدون - بل لا يرون- الطبيعة الحرة عند الروس، التي رفضت اتحاداً سوفيتياً هو في واقعه استعمار لشعوب ترفض الأممية الشيوعية القهرية عليها، أي لأن الأفكار المسبقة التي زرعتها دعاية "C.I.A." في ذهن الأمريكي بأن الروسي صنف من الدببة القطبية، أعمتهم عن روح الحرية والطبيعة الإنسانية الحرة عند الروسي، أسقطت وحدها الشيوعية دون مساعدة من أحد، عدا المناخ الفكري الذي سنتحدث عنه.

وكل هذه الرؤى الخاطئة حول تجذر الطبيعة الحرة، وأكاد أقول: فطرية الفلسفة عند الإنسان، ناتجة عن العمى الذي يصيب الطاغية حين يخضع الناس خوفا منه.

وخلافا لما يقال عن شجاعة الحرية وقوتها، يمكننا تشبيهها برأس المال كقوة قاهرة لكنها جبانة، لان طالبها كطالب المال يريد التمتع بها لا الموت من أجلها، وهذا ما يضلل الطغاة حين يخفي الخاضعون لهم عنهم طبيعتهم الحرة، فيظنون أنهم خضعوا ؟!

(*) الديمقراطية هي قدرة كامنة بكل امة حرة تنعكس على قوانينها التي يحميها رفض الطغيان والرأي الفردي مهما كان خاطئا أو صائبا، ومدى تمسك الأمم بهذه القوانين والأعراف المانعة للتسلط بين أفرادها في كل المجالات هو الذي يحدد مدى صلاحية الأمة للنظام الديمقراطي من عدم صلاحيتها، لتكون أمة مستعبدة ومهيأة للاستعباد.

أما الذين ضحوا من أجل الحرية بحياتهم فبسبب أن الطغاة لم يتركوا لهم مخرجاً آخر، وهذا ناتج من ذعرهم من الحرية، أما الطاغية الذي يترك بعض النوافذ "كميكيافلي" بنصائحه للطغاة، يعرف كيف يبقى، كذلك تفعل الشركات الكبرى في الديمقراطية الأمريكية اليوم، تحت اسم الفلسفة "البرغماتية" !!

وبعبارة أخرى: يمكنك أن تسرق من الإنسان بعضا من ماله، وبعضا من طبيعته الحرة، أما إذا أخذت كل شيء كما فعل الصهاينة بالفلسطيني فأنت أمام شهيد للحرية.

وهذا هو الفرق بين الدكتاتوريات التي تدعي الديمقراطية فتبقى، وبين الدكتاتوريات العرقية التي زالت، وآخرها جنوب أفريقيا، وسيليها الصهاينة.

"الميكيافيلية" و"البرغماتية" و"العرقية" و"الصهيونية - العرقية العصبية" فلسفات شأنها شأن "الماركسية"، لكنها تختلف عن المثالية والتجريبية بالايديولوجيا والدوغما المرافقة لها، وهنا القول الفصل بين الابن الشرعي للفلسفة، وغير الشرعي لها؟! والزنا بمصطلح الفلاسفة هو: الدوغما الإيديولوجية التي تقود دوما الى تأكيدات يقينية وهمية تدعمها السلطة - والتسلط- او العادة والاقتداء، لتحقيق إرادة فكرة ما او مفكر او حتى متسلط بلا فكر؟!

والإرادة هي جزء من كل نفس حية، فلولا الإرادة لما تحقق أي فكر ولما كان للمشاعر أي أهمية عملية، وهي عدوة الأديان الشرقية، فقمة "النرفانا" البوذية في السكون الذي لا اشتهاء فيه إلغاء لها، فهي كركن أساسي من أركان كل نفس إنسانية مجال بحث نفسي واجتماعي وفلسفي، حتى أنه يمكن اعتبار أن كل فَلسَفةُ مؤسس الفلسفة الحديثة "ديكارت" نابعة من تحقيق إرادته بإثبات وجود الله وخلود النفس، غلفها بإطار من الريبية الهادفة للوصول الى إشباع إرادته بأنه ثابت في الوجود بعد الموت، لأنه يتمتع بالفكر "كوجيتو Cogito" أثناء الحياة، (وقد كانت آخر كلماته على فراش الموت تشكل جزءا أساسيا من قناعاته - إرادته - حين

قال: يا أصدقائي انتظروا: علي أن أغادر Il faut partir ")[1]، فيمكننا القول: إن كل فلسفته كانت تعبيرا عن إرادته بالخلود وليس إلا!!

أما البحث الفلسفي عن المصير والذي لا تخلو منه نظرية فلسفية فنابع من إرادة المعرفة، التي تختلف هنا عن "كوجيتو" ديكارت بأنها لا تنطلق من يقين ثابت في معظم الأحيان، وان هي فعلت صارت كالديكارتية تخلط الحقيقة باليقين الذاتي، كذلك فعل "إيرفين شرودنغر" حين اكتشف (الزمن اللامتصل – المستقل – والزمن المتصل في معادلاته الموجية، فأيقن بتأثير من شوبنهور – كون العالم إرادة وتصورا – أن الزمن وهم، ومعه عالم التغير والموت..... فالعالم الحقيقي الواقعي هو العالم اللازمني)[2]، وكثير سواهم من كبار العلماء والفلاسفة خلصوا الى نتائج تلعب فيها الإرادة، وتدعمها ومضات اكتشافات علمية؛ (فالنظرية النسبية..... تطرح أن الزمان والمكان متصلان ببعضهما)[3]، فهل هذا يعني أن الزمن المرتبط بتوسع المكان في الفضاء بعد الانفجار "Big Bang" هو وهم؟! أم سنذهب مع (فيثاغوروس وسقراط ومدارسهما كي نرتفع – نتعالى – عن العالم المادي وكيفية فهمه، ونتحدث عن الفكر فقط: حيث لاحظ هؤلاء الصـــفات اللامادية للعالم الفيزيائي)[4]؟!

فإذا تساءلنا: من أين صدرت الإرادة للأحياء؟

قد يكون الجواب من انفصال المتشابهات المادية بعد الانفجار الكوني الأول "Big Bang" ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، [الأنبياء 30].

فمنذ ذلك الوقت، حوالى خمسة عشر مليار سنة، تحاول كل ذرة معدن العودة الى صاحبتها، وكل مخلوق الى نوعه وجنسه، وكل فرد الى تحقيق كامل

---

(1) John Cottingham , Descartes , Cambridge University Press . N. Y 1992. P 252.

(2) Karl Popper . The World of Parmenides . Routledge. London 2002. P 123.

(3) Ibid. P 17.

(4) Ibid. P 227.

ذاته مع الذوات المشابهة له... أليست هذه كرونولوجية الإرادة؟! التي أعلنتها في كتابي "الحب والفاجعة" بقانون سميته: قانون تلاقي المتشابهات الكوني الحتمي[1].

مصدر الإرادة في العالم قبل الحيواني والإنساني إذاً في كل انفصال بين حدين متلازمين – بين جزئيين من طبيعة مادية واحدة – في سعيهما نحو إعادة اللحمة – في الأشياء – والخلاص من الاغتراب عند الإنسان، والشعور الشقي في كل كائن يفصل عن جماعته او كيانه، يقول "نيتشه":

(الوجود لا يمكن اعتباره ذاتياً ولا هو موضوعي؛ إنه خليط من أحداث متداخلة... فالحركة والسكون ليسا فيه بشكل مستقل بحد ذاتهما... ولا متعارضات فيه أيضاً... مثل المادة والروح)[2]، لكن لأجل الوصل الى تلاقي المتشابهات يخرق الحيوان والإنسان كل القيم، فتتجلى الإرادة بأبشع صور الأسود والقطط حين تقتل جراء إناثها كي تسفدها مثلاً، ومع الإنسان كما عبر عن ذلك "نيتشه" بقوله: (إني لأعرف كم من الكره والحسد في قلوبكم، فأنتم أقل شأناً من أن تعرفوهما، فلا أقل من أن لا تخجلوا منهما)[3].

الإرادة إذن جزء من لعبة تلاقي المتشابهات الكونية، تدفع بكل قوى الحيوان لتحصيلها دون رحمة، والإنسان دون قيم ولا أخلاق، حتى ولو كان الفصم من خالقه، فكم وصل الكفر بالمحب بخالقه إذا سَجّى الموت له حبيباً.

والعوام تسب ربها لأقل معيق لإرادتها في تحقيق أبسط وأسخف فعل!!؟!

لكن العاقل من يعرف أن هذه المواقف تُقصيه عن مسبب وخالق المتشابهات، على أن لا يقع بوهم تشابهه مع خالقه كما ظنت المسيحية فطالت التصوف الإسلامي بالحب الإلهي، والرغبة – الإرادة – الباطلة بوحدة الشهود[*]؟!

---

[1] انظر كتابنا: الحب والفاجعة، بحسون، بيروت 1999م.

[2] Nietzsche, The Will to Power, Vintage Books, N.41968, P 298.

[3] Nietzsche, Thus Spoke Zarathustra, Penguin Books, N.41969, PP 73-74.

[*] وهي مسألة لاهوتية لا تستأهل الخوض بها الآن.

وهذا ما يمكن للمنطق الرد عليه بموافقة "Fact" أن" الشبيه لا يفهم إلا بشبيهه، فإذا لم يكن فيك نواقل حسية تشبه في تركيبها و "مقولاتها" ما تنقله لك من العالم الخارج، فإنك لن تفهم هذا العالم الخارجي المحيط بك، ولذلك لا نفهم ما تعجز حواسنا عن نقله فلا تشعر به، فأنا مثلاً لا أشعر بالرادار لكنني استطيع أن أحوله الى موجات بصرية، أي أحاول فهمه بحاسة أخرى تعوض نقص حاستي بالإحساس بالموجات الرادارية أو القصيرة أيضاً، لأنه طالما كان اللامنظور موجودا فالإنسان مضطر الى الإيمان بخالق ليس بينه وبينه تشابه، فاللامنظور أساس كل دين وهو "كلا محسوس" غائب لكنه ليس معروفاً، فالله تعالى عن شبه أي أمر نعرفه، وهذا يقودنا الى صلة المنطق بالفلسفة!!

المنطق: ليس المنطق حساً عاماً "Common Sense"، إنه تطبيق لكل ميكانيزيمات الفهم من قضاياه ومقولاته على ما نريد الوصول الى يقين فيه، شرط عدم إغفال الصلة الحتمية بين ما نريد كشفه وما لدينا من مكتشفات سابقة تحيط وتقترب منه، وبعبارة أخرى لا يكفي الحذق بالقضايا والقياسات والمقولات..... الخ من آليات منطقية، كي يكون المنطق آداة كشف أي مجهول، بل لا بد من إحاطة هذا المجهول بالمعلومات العملية حوله!!

خذ مثلاً قضية مجهولة – وقابلة للجدل – مثل أهمية "المحتد" في تقييم الرجال: فـــ (عن أنس؛ تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم.... وعنه رضي؛ تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس)[1]، تجد أن علم السلالات الانثربولوجية "Anthropology" يؤكد أن (لا حيوان ولا نبات كان وسيبقى كما هو على حاله اليوم.... فخلال عدة آلاف من السنين تباطأ التطور بصورة ملحوظة، بينما زادت سرعة التطور الثقافي – البشري –، وخلال بضع مئات من السنين القادمة ستحرر البشرية نفسها من المعيقات التطورية للجنس البشري)[2]، فالأبحاث

---

(1) مسند ابن حنبل، دار الفكر، بيروت، ج 6، ص 349.

(2) Herbert Thomas. The First Humans. Thames and Hudson London 1995. P 126.

الجينية – الهندسة الوراثية – أصبحت قادرة على اختزال زمن التطور – ملايين السنين – بإنتاج سلالات نباتية وحيوانية جديدة، والإسلام حين حض على هذا التقدم الطبيعي قبل ولادة علم الهندسة الوراثية بأكثر من ألف سنة، جاء بأحاديث "تخير وضع النطف لأن العرق جساس"، فقال بأهمية المحتد الطيب عند الأكفاء أي أهل الوراثة الجيدة.

إن المنطق بهذا المعنى هو كيفية إحاطة المجهول من أي معلومة بالمعلومات العلمية التي تمت له بصلة، ثم استخدام أدوات الفكر من قياس واستقراء واستنتاج، بشكل قضايا سالبة وسوجبة تحميها مقولات "أرسطية" تقرب هذا المجهول من العلم والمعرفة.

ذلك أن كل قضية فلسفية حين تعد للبحث تستدعي في ذهن الباحث المعنى لكل ما يمت لها بصلة، من قضايا العلم والفلسفة والدين وحتى الفن، وبهذا المعنى وحده يمكننا اعتبار المنطق أداة منهج يوجه سير البحث عن الحتمية، فيما تعارف على تسميته بــ "الأبستيمولوجيا" أي فلسفة المعرفة وطرقها المنطقية، المختلفة باختلاف الفلسفة التي تسيرها وهو معنى "Epistemology"[*] أي النظر الى الأمور بدقة عبر عين العقل والرؤية معا، لكن من أجل أي شيء في نهاية المطاف سوى الرؤية الدقيقة للمصير؟! السؤال الذي لولاه ما أعمل الإنسان فكراً ، وهذا يقودنا الى البحث في فلسفات المصير الإنساني.

---

[*] الابستيمولوجيا هي إطار المنطق من خلال رؤى ميتافيزيائية – فلسفة – مختلفة، فهي ليست من منظور واحد، انظر كتابنا: المنطق والابستيمولوجيا، منشورات وزارة الثقافة بدمشق، عام 2003 م.

الباب الثاني

فلسفات المصير

العقلانية الحديثة:

أقصد بفلسفات المصير العقلانية تلك التي تناولت جماع المشكلات و الحلول الفلسفية لمعضلة المصير من كل مستويات المعرفة الإنسانية من علم وفن ودين وفلسفة، كي تستدعي مطلب "أرخميدس" من الآلهة: (أن تزوده بيقين واحد فقط، منه يستطيع أن يغير كل العالم)[1]، وتحاول تحقيقه بالنظر و العقل فقط. لذلك، نعتها خصومها بالمثالية؟!

أ- **رينيه ديكارت:** وقد كان رائد هذه الفلسفة "رينيه ديكارت 1596- 1650" فقد لاحظ أن وضوح أي أمر مرتبط بمدى فهمه بدون أي مساعدة من الحواس، أي بمعزل عما إذا كان تحت نظرك أم لا، وبمجرد أن يتضح لك أمر ما؛ يتميز هذا الأمر عن سواه عقلياً بصورة بحتة شرط تمتعك بحس عقلي سليم[2].

---

[1] انظر كتابنا: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مجد، بيروت 2002 م، ص 210.

[2] يقول "ديكارت": (أحيانا أوضح أفكاري للناس ذوي العقل السليم.... لكنهم حين يعيدونها.... يعدلونها دائما لدرجة أني لا أعود الى قبول هذه الأفكار بعد ذلك). انظر:

Rene Descartes. Discourse on Method. Penguin Books. N.Y.. 1999. P49.

ومن الواضح لكل إنسان أنه يفكر، وكل واحد يفكر بطريقته، وإن كان الجميع يستعملون الحس العام "Common sense" الذي هو المنطق البسيط، تماما كما يستعمل الجميع عيونهم لكن كل واحد يرى من زاوية مختلفة.

هكذا يبدو للكل أن الفكر جوهر دال على كياناتهم، وهو أوضح جوهر يشعر به الإنسان، رغم تمايزه بين الناس، فالوضوح والتميز هما: أساس ومدخل البحث في المصير، لأنهما يدلان على صلة الوجود بالفكر عند كل إنسان، "أنا أفكر إذاً أنا موجود Cogito Ergo Sum" أو " I Think Therefor Iam "، فهل هذا يعني أن المشاعر او الرغبات لا تدلان على الوجود، وهل الضمير وباقي هذه الحواس الداخلية لا تدل على الوجود؟؟ مثل: أنا اشعر إذاً أنا موجود أو أنا أريد إذاً أنا موجود، او أنا أتبع ما يمليه علي ضميري او حتى أخالفه فانا موجود ، ثم أليست المخالفات السادية للضمير أداة ترسيخ للزمن؟! استعملتها الشعوب بالذبائح البشرية، ويستعملها كل مريض "سادي" في تعذيب من يطلب منه المتعة كي يكون أثرها شديداً على الجملة العصبية، وشدة تهيج الأعصاب تشعر بالوجود أكثر، لذلك كان حب المخاطرة في الرياضة او أي مجال خطر محبب عند فاعله وعند مشاهده!!؟؟

يبدو أن اختيار "ديكارت" للفكر من كل الحواس الداخلية والخارجية عند الإنسان، هو بسبب أن الفكر هو أكثرها وضوحاً وتميزاً عند الإنسان، فكل واحد منا يعرف منذ نعومة أظفاره أنه يفكر، لكن قلما يعرف الناس أنهم يمارسون الإرادة او الرغبة او حتى الأخلاق ليتعرفوا على الضمير، فالنفس الإنسانية مخفية حتى على حاملها إلا من وضوح وتميز الفكر، حتى ولو بدون أي ثقافة عند صاحبها.

وهذا يعني أنه ولو كانت المشاعر والرغبات والضمير – عناصر النفس الأساسية مع الفكر – تشعرنا بالوجود، إلا أنها لا تشعرنا فيه بوضوح وتميز الفكر.

أما الحواس الخارجية فهي بطبيعة لا تعطينا معلومات موثوقاً بها عن الوجود بنا وحولنا، فإذا أردنا معرفة الثوابت وراء تغير الأحوال خارج حواسنا الخارجية وداخلها، علينا أن نستشير العقل لا تضليلات الحواس.

خاصة وأن العلاقة بين أي اقتراح او حكم نصدره وبين الأفكار تظهر أن "الكوجيتو" أي صلة الفكر بالوجود تحوي كلاً من المفاهيم والقضايا – منطقيا – معا بين امتداد المصطلحات، وفهمها معا بما تعبر عنه الأفكار، فمفهوم الإنسان جزء من قضية عامة هي الإنسانية كتصنيف عام، وبهذا المعنى يصبح المنطق علم امتداد المصطلحات لا ما ترمي إليه، وهذا يعني أن العلم يجب أن يبنى على قواعد ميتافيزيائية عقلية، قبل القيام بأي تجربة أمبيريقية كي يحدد اتجاهه، وهذا أساس من أسس الوضوح والتميز المعرفي "الديكارتي"، الذي أثر بدوره بقوة في عصر التنوير "Enlightenment"، وفي صلب تعريفه بأنه عصر استخدام العقل فقط في محاولة حل مشكلات الوجود والتواجد، فلولا الميتافيزياء الديكارتية هذه، لما كان الموسوعيون الفرنسيون يهتمون بالدور الذي لعبوه في تقدم العلم والمعرفة، ولما كان "سبينوزا" ولا "ليبنز".

ب- **باروخ سبينوزا:** فاسبينونزا "بندكت" او "باروخ" في الأصل "1632-1677" حاول أن يصل بجوهر الفكر الى أقصى تحققاته، من منطلق أن كل معرفة هي بالدرجة الأولى عقلانية، واليقين العقلي وحده هو الذي يضمن للمعرفة ضماناتها.

هذه الضمانات وذاك اليقين لا قيمة لهما ما لم ينيرا قبس المصير!!

ولعل المسلمات الأساسية عند "سبينوزا" كما وصفها هو، تدلنا على منهجه في سبيل الحقيقة المصيرية، يقول:

(إن كل ما هو موجود موجود إما بذاته او بعلة او أخرى، وهذا – يعني- أنه من سبب محدد تظهر دوما نتائج محددة شرط أن نعرف – أن الأشياء التي لا شيء مشترك بينها لا يمكن فهمها، فكل فكرة حقيقية – حول موضوع ما – يجب أن تتفاعل معه)[1]، وبناء على هذا فإن صلتنا بالمطلق الذي هو

---

(1) Benedict Spinoza. Ethics, Prometheus Books. N.y. 1989. p. 40.

فكر[1] تتم عبر الفكر، والمطلق لا محدود فهو ضمانة لامحدودية مصيرنا.

هكذا فهم "سبينوزا" صلة الفكر الديكارتي بالمصير[2]، وهو يرى أن غموض مفهوم الجوهر يدفع الى استخدامه بطرق مختلفة في الفلسفة، لكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نحدده بكل كيان لا يعتمد على وجوده بأي شيء خارج ذاته، لذلك لا يمكن أن نطلق اسم الجوهر إلا على الله، فهو سابق سبقاً منطقياً على كل عرض، ونحن لا ندرك الجوهر إلا من خلال أعراضه، أي لا نستطيع أن ندرك إلا من خلال الامتدادات للأعراض في الأشياء، وما الفكر سوى عرض للجوهر الإلهي.

أما الذي قاد ذلك الى وحدة وجود بين الأعراض وجوهرها تعالى الله عن ذلك – فهو شطط استدلالي جعله يعتبر: أن الفكر والمادة، وكل الخلق والخالق، أسماء لشيء أزلي واحد مصيره البقاء.

لذلك يعلن "سبينوزا" أن الفكر والجسد شيء واحد وخلودها واحد، ثم ألا يكفي ما نراه في الواقع من تجاوب الجسد مع الفكر وتفاعلهما، فلو كانا مختلفين كما في ثنائية "ديكارت" كيف نراهما في الواقع يتفاعلان؟!

وهذا يعني أيضاً أن الفكر والامتداد هما امتداد فكر، وما الفكر بظهوره إلا تعبير عن الجسد، والجسد تعبير عن الفكر – بلغة إيماءاته التي يدرسها علم النفس اليوم[3].

وبعبارة أخرى؛ إن ما قاله "سبينوزا" هو: أن الوصف الكلي للجسد هو وصف كلي للفكر، وإلا وقعنا باسمية "تومينالية "Nominal"، وهي الخطر الأكبر على كل ميتافيزياء وعلم، والضرورية لكل فن وترفيه!!

---

(1) Ibid, P 79.

(2) Henry Allison, Benedict de Spinoza, New Haven 1987, An introduction.

(3) Allan Pease, Signals, Bantam Books, N.Y. 1998.

خذ تقدم المعرفة الطبية تجد أن واقعة كالإحساس بأي حاسة "Fact" ليست كما كان يظن بطرف الحاسة بل بكل بساطة بالدماغ، فأنت لا ترى بعدسة العين بل بالقسم الخلفي من دماغك، ولا تسمع بالإذن بل بالدماغ وبه تحس كل استشعاراتك الحسية(*).

والأكثر من ذلك، أن الذي يحول كل هذه الإحساسات الى مدركات هو الفكر في الجسد كله، ولم أقل الدماغ لأن في الجسد ملايين الخلايا التي تفكر بمعزل عن الدماغ حسب برنامج معد مسبقا، ومنها تحديداً الخلايا المناعية، ناهيك عن الانفصال الحاصل بين الدماغ القديم والحديث، فما تحت المهاد "Thalamus" دماغ قديم هو عند الإنسان عبر سلم التطور – بحجم كرة المضرب – يتضمن الجملة العصبية التي تأتي إليه، وتخرج منه بالأوامر للجملة العصبية الممتدة عبر العمود الفقري، بشكل أخطبوطي نحو كل أجزاء الجسم، وهذا الدماغ شبه المستقل بذاته عن الدماغ الحديث – الذي يقوم بالعمليات الفكرية – يسيطر على أجزاء الجسد ووظائفه بمعزل عنه.

إضافة الى أن الغدد الصم تعمل كجزء من الجهاز المناعي بمعزل عن الاثنين؟! ولكي لا أطيل على القارئ يمكننا اليوم أن نؤكد أن قول "سبينوزا": أن الجسد فكر، قول محدد الى حدود أنه واقعة "Fact" طبية ونفسية أيضاً.

لكن هل ينتج من ذلك أن الجسد خالد بخلود الفكر في كل شيء كما ذهب "سبينوزا" الى ذلك؟! أم أن الفكر ينتهي بموت الجسد؟! أي عكس المحمول "Proposition" في القضية المنطقية السابقة؟!

فأين المصير بين هاتين القضيتين؟!

أبالعدم أم بالخلود؟!

إن جواب "سبينوزا" هو في مدى دقة الفكر التي بها تتحدد التميزات الواضحة للأمور والأشياء، ولأن كل فكرة دقيقة تعتبر برهاناً ذاتيا لصاحبها الذي

(*) وعلى هذا السياق يبنى اليوم على النفس التفهيمي "Cognitive Psychology".

التقطها، أطلق عليها "سبينوزا" عبارة: الرأي "Opinion" وهو يتضمن فهم الحقيقة بطريقة عقلانية ذاتية.

والرأي عند معظم الناس مهما كان صاحبه عاجزاً عن شرحه للآخرين هو؛ أساس العقائد التي قد يموت من أجلها او عليها الناس، بغض النظر عن مدى تحديد هذه الآراء منطقيا، لذلك يمكننا أن نعلن أن الإنسان حيوان قابل لأن يضحي من أجل أتفه الأفكار التي لا يمكن الإجماع على وضوحها او تميزها - او هما معاً - منطقياً، بين كل عقول استقصائية علمية، فأعلم أنه من أجل فكرة يمكنها أن تطرق فكرك مات ولا زال يموت الكثيرون(*).

وفي الواقع لا يمكن أن تقدم المعرفة ولا أن يتقدم العلم إلا بإسقاط الأفكار المشوشة، التي تفتقر للوضوح والتميز، حتى يصل الفكر الى الخروج عن طغيان الآراء الإيحائية في كل ما نفكر به، أي من القناعات الذاتية الموروثة، وبذلك توضع كل الظواهر تحت سلطة العقل، فتتضح الوقائع بشكل سياق ممتد، يمكن لأي فكر تبنيه بسهولة ويقين - كالرياضيات تماماً -.

وهذا التجريد الفكري هو الضرورة العمومية للعقلانية، التي تريد الاقتراب لأقرب مسافة ترجيحية "Plausibility" من فهم المصير، كما يمكن فهم "سبينوزا".

وبهذا وحده يمكن الاقتراب من حل المعضلتين السابقتين اللتين يقود إليهما تحليل فكر "سبينوزا" بين الخلود والعدم، والجواب لا يمكن أن تجده عند "سبينوزا" إلا بصيغة رأيه "Opinion" في وحدة الوجود "Monism" ، لا بالمعنى الصوفي بل بمعنى واحدية الكون في الأصل والمصدر وبالتالي بالمصير.

وهنا يجب أن ننبه القارئ الى أن كل ما ذكرناه عن وحدة الوجود هذه - وما ناقضناه - يختلف عن وحدة الوجود الصوفية، بدعوى أنها ناتجة عن آراء

(*) وشرح سبب ذلك يعود الى علم النفس وخاصة قوة "الإيحاء" التي يمارسها الكبار على عقول أولادهم قبل مراحل النضوج الفكري لدى هؤلاء الصغار: "فيهودوهم أو يمجسونهم او ينصرونهم.... "كما جاء في الأثر الشريف، على أن لا نفهم من كلمة: "الإيحاء" أي مغناطيسية تنويمية مضللة.

ذوقية ذاتية حسب تعبير "سبينوزا" وهو أمر لا نراه يختلف كثيرا بين وحدة الوجود الصوفية – واضحة الرأي الذوقي الذاتي – ووحدة الوجود الفلسفية هذه، التي تنطلق من محمول واحدية الكون في الأصل والمصدر، الذي يستند الى نظريات علمية قابلة للتغير بتغير احتمالاتها مثل: احتمال أن ما نعرفه عن "الانفجار الأول" اليوم "Big Bang" قد يكون واحداً من سلسلة بها عوالم ذات أبعاد مختلفة – او وقائعها مختلفة، لذلك يدعي العقل العملي نتيجة لملاحظة تمدد الكون، بسبب تباعد المجرات عن بعضها بسرعة الضوء أن: (الكون دائم التغير، وستكون المادة المظلمة هي ما يحدد مصيره النهائي... وحركة النجوم داخل المجرات توحي بأن هناك مادة مظلمة موجودة – أيضاً – فيما حولنا .... وهي تتكون من جسيمات لم تتم رؤيتها بعد)[1]. إضافة الى هذا يرى "كارل ساغان" أن: "Big Bang" الذي به بدأ الكون أي (الانفجار الكبير ليس بداية خلق الكون، بل مجرد نهاية الدورة السابقة التي دمر فيها التجسيد الأخير للكون)[2] وهو يذهب الى أبعد من ذلك حين يقرر أننا (موجودون في منتصف دورة لانهائية من الموت والانبعاث دون أن تتسرب أي معلومات – لنا – من التجسد السابق للكون الذي يَرِفُ عبر "الانفجار الكبير")[3]، وهو يشبه نظرية العود الأزلي عند "الرواقيين" و"نيتشه"!!

والذي أريد تأكيده هنا: أن العقل النظري قد يصل الى طروحات فلسفية عميقة، لكنها لا يمكن أن تتحول الى واقعية ما لم يؤكدها العقل العملي التجريبي – الامبيريقي –، فمهما كانت صحة محمول واحدية الكون التي طرحها "سبينوزا" Monism، فإن الركون التجريبي عليها يظل قريباً من الصحة "Plausible" ترجيحيا لا واقعيا، فإذا نحن ادعينا حسب العقل العملي التجريبي أن (الأوزوت والحمض النووي الموجود في جسمنا، والكلسيوم الموجود في أسناننا، والحديد في دمنا، والكربون الموجود في شطائر التفاح، كانت كلها قد صنعت في داخل النجوم

---

[1] فرانك كلوز، النهاية، عالم المعرفة، الكويت نوفمبر 1994م، ص 235-237.
[2] كارل ساغان، الكون، عالم المعرفة، الكويت أكتوبر 1993م، ص 237.
[3] المرجع السابق.

المنهارة، وبالتالي فنحن نتألف من مواد نجمية)[1]، لا نستطيع أن نتيقن من ذلك كحقيقة واقعة، قبل أن نتأكد من تأثير الجسيمات التي – لا – تتم رؤيتها، من مادة مظلمة تحيط بأرضنا وبنا أيضاً من كل جانب.

فمن حيث المادة المرئية يتطابق قول "ساغان" مع واحدية الكون عند "سبينوزا" ولكننا لا نعرف عن المادة المظلمة، فالمونية "Monism" نظرية ناقصة تجريبياً على أحسن الأحوال؟!

لو صحت لاستطعنا مع "سبينوزا" أن نرى قبسة مصير يقينية "Certainity"؟! فالإنسان جزء من الطبيعة كما قال "سبينوزا" شرط أن تعرف كل قوانينها – المرئيـــة واللامرئية – وهو أمر لا يتحقق بمئات من السنين قبل أن نعلـــن معه أن "الطبيعة – حسب رأيه – هي سبب كل حدوث، مدعياً أن الإنسان المتحرر من الثيولوجيا (الإنسان الحر يجد نفسه في موضعه الحق بصحبة فكرة الله او الكون)[2] بمعنى أن الله ليس مسبب أسباب الكون ولا هو خالقه – حسب سبينوزا" – بل هو الكون والكون هو؟!

وضعف هذه النظرة الفلسفية يكمن في النتيجة التي وصلت إليها من عقل نظري تضمنت نتيجته في مقدماته، فأسرع الفيلسوف الى تلك النتيجة عبر نسق من التعريفات والبديهيات في النظرية التي لا تستند على أي أساس عملي، كائناً ما كان من ضروراته التجريبية؟! وفي عصر لم يمده التقدم العلمي فيه بما فيه الكفاية على الأقل لدعم وجهات نظره، كتلك التي دعمت وجهة النظر السابقة "لساغان" والتي نقدناها حول كوننا كبشر نتألف من مواد نجمية متشظية فقط، وغض النظر عن اللامرئي الذي تتكون منه الجسيمات المظلمة فيما حولنا، وربما بنا أيضا؟!

أي في عصر كانت التجريبية غير راسخة بعد، وهي اليوم غير كافية، وإن كانت بداية محاولة أكاديمية لاكتشاف الألوهة – تجريبياً – من خلال هذا الجهد المبذول في الدول المتقدمة لفهم الفضاء.

---

[1] المرجع السابق، ص 205.

[2] زكي نجيب محمود، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مكتبة الانكلو مصرية، عام 1963، ص 181.

وأثناء عملية هذا الاكتشاف اللانهائي بلا نهائية الفضاء تتقدم المعرفة الإنسانية، بصورة أفضل من تعميمات الواحدية المونية "Monism" ، نحو المُسلمة الإسلامية التي نعبّر عنها دوماً بعبارة "الله أكبر" كلما كشفت لنا الدراسات "الأسترونومية" عظمة كبيرة من عظمات الكون.

وهذا يعني أن عبارة "سبينوزا" أنه: (لا يمكننا الحصول على أي كيفٍ ايجابي بأفكار خاطئة)[1] تحتاج الى تأكيدات تجريبية حتى تصبح احتمالية مرجحة "Plausible"، أما اليقين المطلق فمرتبط بالمعرفة المطلقة غير المتاحين للبشر.

وهذا يعني أن الحرية أيضاً التي رآها "سبينوزا" بشكل ايجابي على أنها ليست سلبية التملص من الضرورة، بل هي وعي هذه الضرورة، وعلى هذا يمكننا أن نضيف هذا الوعي يجب أن يتضمن العقل العملي مع النظري أيضاً، عبر قدرة فاعليتنا الإنسانية على (نقل المجهول الى حيز المعلوم، أي العدم الى حيز الوجود، وهذه الفاعلية هي أساس كل "نبوة" وأساس كل دين، كما هي أساس كل معرفة وعلم)[2]، وبتضافرهما يتوسع فكر الإنسان نحو الوعي وعي قوانين او ضرورات الوجود كلها، شرط تحقيق شروط امبيريقية تدعم هذا الوعي، لا عقلانية – مثالية – فقط!!

وهذا ما ظل غير واضح في فلسفات المصير العقلانية الحديثة التي تابعت عقلانية "سبينوزا" وسارت بخطها النظري البحت، إذ ما دام "سبينوزا" قد قدم تفسيراً للفردانية "Individual" على أنها كيفية حالة "Mode" من حالات الجوهر "Substance"، وكل جوهر هو لانهائي حتماً عند "سبينوزا" لأنه صفة من صفات الله (فإن الله، او الجوهر، يتضمن صفات لانهائية، كل منها يعبر عن لانهائية وأزلية جوهرية)[3] وهذا يعني أنه من الواضح (أن الموجود المطلق اللانهائي، يجب أن يحتوي صفات لانهائية، كل واحدة منها تعبر عن جوهر خالد)[4].

---

(1) Ethics, op. cit. P 194.

(2) انظر كتابنا، الفكر والوعي، مجد، بيروت 1998 م، ص 158.

(3) Ibid, P 45.

(4) Ibid.

فإذا كان هذا صحيحاً وكان كل واحد منا مصنوعاً من عدد لا نهائي من الجواهر الخالدة التي تصنع خلايانا – تبرمجها – أثناء عملية التخلق في رحم الأم وتصنع في كل واحدة من هذه الخلايا كما – أصبحنا نعرف اليوم – نواة في داخلها برنامج كمبيوتري اسمه "الجينوم" ويحوي الجسم البشري (100 ترليون من الخلايا معظمها يقل عرضه عن 1/10 من الملليتر، ويوجد في داخل كل خلية بقعة سوداء – مثل "شيبس" "Chips" الكمبيوتر – تسمى النواة، وفي داخل النواة مجموعتان متكاملتان من الجينوم البشري)[1]، برمجتها لا نهاية من التجارب الوراثية للأسلاف، منذ وحيدات الخلية حتى اليوم، عبر ما يمكنني تسميته: ميكانيزم الخلق!!

هذه الجواهر الخالدة التي تبرمج كل خلية بمعمل لانهائي من الخبرات الوراثية، ثم تسمح بتبادلها بين الأحياء، مثال ذلك ما وجده العلماء من أنه: (تستطيع البكتريا أن تكتسب جينات من بكتيريا أخرى بمجرد التهامها... فإن الجينات التي انتهت إلينا جميعاً، ربما تكون قد أتت – إلينا – من الكثير من الأنواع المختلفة)[2] ومن بعضنا بعضاً بالاتصال السلالي والجنسي، فإن هذه الجواهر الخالدة كانت في حدس "ليبنز" حين تحدث عن شيء سماه:

الموناداتMonads

ولهيام غوتفريد ليبنز: وقصة المونادات مع "ليبنز Leibniz " بالنسبة الى ما أظهره علم البيولوجيا اليوم حول "الجينات" تشبه قصة الذرة مع "دموقريطس" بالنسبة لما أظهره علم الفيزياء الذرية اليوم، إنها قصة "الحدوس" النظرية التي يؤكدها التجريب – بالعقل العملي العلمي – .

وقد بدأت هذه القصة مع "ليبنز" حين حاول أن يفهم سبب ومعنى الفردية ضمن النوع، عبر الاختلافات اللانهائية للكم والكيف وبالإضافة، وللقدرة على الفعل والتفاعل والانفعال وسواها من المقولات "Categorical Nonrelation"، أي ما تسببه الفردية من انفصال متصل مع النوع في صلب طبيعة كل شيء فردي ضمن نوعه.

---

[1] مات ريدلي، الجينوم، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 2001 م ص 11.

[2] المرجع السابق، ص 26.

مما يستدعي ضرورة وجود عدد لانهائي من الجواهر المفردة الناتجة عن كل تفاعل داخل كل نوع فيزيائياً كان أم بيولوجياً، على أنه من المحتم في حال وجود مثل هذه الجواهر المفردة – المونادات – أن تكون هي الجوهر الحقيقي للأشياء والأحياء الفردية ضمن نوعها، وبالتالي فهي مغلقة ذات اكتفاء ذاتي، وقابلة للإدراك دون أن يكون لها أي امتداد الى الآخرين والأشياء قبل تحققها بهم.

فإذا اعتبر "اسبينوزا" أن كل الظواهر الفردية مجرد حال من حالات الجوهر – جوهرها –، يكون قد تغاضى عن الفردية، وبذلك يصبح خلود الأفراد مرتبطاً بالقوانين الطبيعية – التي يعتبرها إلهية أيضاً –، بينما الخلود عند "ليبنز" بالروح القائمة كجوهر فردي ضمن كل نوع أي ما سماه: "موناد Monad" او الجوهر الذي يسميه الناس روحا أي الجوهر الروحي لكل فرد، فهو حتماً غير مادي.

وقد (توسع "ليبنز" في كتابة علم الجواهر الروحية – المونادولوجيا –)[1] لأنه أساس مفهوم "الروح" الذي أعيا الفلاسفة قبله "De Anima"، والمرتبط بعلاقة الفلسفة بالدين فيما يسمى "بالثيودوسيا Theodicy"، والتي هي جزء من "الثيولوجيا Theology "، في دفاعها عن حضور الله في وجه الموت!!

وفي الإسلام كما بدأ نجد أن: خالق الخير والشر هو ضمانة الخير للخيرين والشر للشريرين، والروح للأحياء والعدم بعد العذاب للمتهافتين، وهذه أمور من أمر الله وشؤونه لا يستطيع إنسان معرفتها او التدخل بها، بشفاعة او بغير شفاعة دون أمر من الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، [الإسراء / 85].

وقد جاء قليل العلم بالبحث في الروح عند "أرسطو" حيث قال: (لقد أكد "ديموقريطس" ببساطة الهوية الواحدة بين الروح والفكر.... فبعضهم قال بمبدأ واحد وحيد، وآخرون بمبادئ كثيرة)[2]، فإذا ذهب "أفلاطون" الى اعتبار الروح

---

[1] الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 280.

[2] Aristotle, De Anima, Penguin Book, N.Y., pp 134 -135.

كناية عن الفكر المتجلي بالكائنات، فإن "أرسطو" يقول (من الأفضل أن لا نقول أن الروح تتعلم وتفكر، بل أن الإنسان هو الذي يفعل ذلك بسبب الروح)[1]، فالروح قوة تحرك الملكات، فهي موزعة بكل عضو على حدة في خلايا الجسد بشكل كيف لا كم، وهي تظهر بالأحياء من خلال التغذية ثم النمو فالانحلال او الموت، فهي والجسد شيء واحد، فالشيء الحي يجب أن يتواجد، والروح تدل على التواجد بأنها محرك لا يتحرك للجسد[2]، وصلتها بالعقل في كونهما غير ماديين[*].

ولما كان الفكر (وحده خالد وأزلي)[3]، والروح من طبيعة مشابهة، فهي خالدة وأزلية؟! لكن هل خلودها كخلود الفكر، عمومي لا فردي؟!

هكذا تركنا "أرسطو" مع مشكلة الفردية والنوع ثانية، مما دفع "بليبنز" لحل هذا الإشكال بالجواهر المفردة – المونادات – الموزعة بالجسد توزع "D.N.A" بالخلايا حسب تعبير اليوم.

وعبارة "موناد" باللاتينية تعني الواحد القائم بذاته يليه "الداياد" أي الاثنين ثم "الترایاد" أي الثلاثة.... وهكذا، وأول من استعمله للدلالة على تطور الفردية من صور بسيطة الى مركبة، هي السيدة "كونوي (1631-1679) Lady Anne Finch" في بحوثها الكثيرة حول القبالة اليهودية – السحر – وأصبحت بعد ذلك من أتباع "الكويكر Quakers " التلموديين المتطرفين، وتأثر بصياغتها "ليبنز" الذي لم يكن أقل منها تطرفا في مسيحيته، وقبلها أشاع "برونو (1548-1600) Bruno Giordan"، الذي قتلته محاكم التفتيش حرقا، مفهوم "الموناد"، للدلالة على عبادة الطبيعة، ومن هذين أطلق "ليبنز (1646-1716) Leibniz Gottfried Wilhem"، معنى الوحدة القائمة بذاتها، شبيها بالجواهر المفردة التي قال بها "ديموقريطس" كما اشرنا سابقا "Atomism"،

---

(1) Ibid. P 147.

(2) Ibid. P 193.

(*) وكل محاولة لربط الفكر بالعقل – الدماغ فقط – تظل صحيحة للتفهيم "Cognitive" وخاطئة، لوجود خلايا الجسد المستقلة عن الدماغ.

(3) Ibid. P 205.

من جزء بلا أجزاء، يدخل عند "ليبنز" بالمركبات شبه دخول "D.N.A" بجوهر الخلية حسب تعبير اليوم، ليجعلها مركبة بعد أن كانت بسيطة، أي ليركب عليها صفات وراثية ما، لكنه أصغر من ذلك بكثير الى حد القول أنه يدخل على كل فرع من فروع "D.N.A" ليحمله صفة وراثية او مكتسبة ما، وكأنه الجزئي اللامرئي المؤثر بكل صيغة مرئية.

فلا امتداد ولا شكل له، تماماً كجزئيات العالم المظلم في الكون، وكأن العالم اللامرئي الكوني مؤلف من هذه الجواهر الفردة – مونادات – التي تؤثر بكل مرئي وعنصر قابل للتكون منها ثم انحلاله، لكنها هي بحد ذاتها لا تتكون ولا تنحل، او يشوبها نقص ولا فساد.، إنها المبدأ اللامتمايز لكل هوية متمايزة، ويتضمن كل كمالات وجودها[1].

و"ليبنز" حين لخص كل فلسفته بكتاب "المونادولوجيا" عام 1714 في "فيينا" قبل موته بوقت قصير لأمير "سافوي" اخذ عليه عهود الإخفاء لهذا الكتيب، حول نظام كيفية اتصال الجواهر وتكوين الفردية، فلم ينشر عمله هذا إلا بعد موته بأربع سنوات، لأن غايته هي التوفيق بين العقل والدين[2]، مخاطراً بهذه المقولة أمام محاكم التفتيش في عصره!!

يقول "ليبنز" في كتابه: "أبحاث جديدة في الإدراك الإنساني" رداً على "لوك" في كتابه: "بحث في الإدراك الإنساني":

(الذين تحدثوا عن الخلود بواسطة النعمة – الإلهية .... يقتربون ضمناً من أتباع "ابن رشد"، والذين يتصورون ذوبان النفس وعودة اتحادها في محيط الألوهة كفكرة يقيم مذهبي وحده الدليل على بطلانها)[3].

وما رأي "ليبنز" إلا أن الخلود هو مصير كل إنسان، ببساطة لأنه مركب من "مونادات" خالدة؟! هي "الأشياء بذاتها" التي تحمل الجواهر "Noumenon"، كما

---

[1] جورج طعمه، فلسفة ليبنز، أطلس، دمشق 1965 م، ص 107- 125.

[2] المرجع السابق، ص 104.

[3] المرجع السابق، ص 157.

سنراها عند "كانط Kant" ، كعكس لما يمكن أن يقع تحت الحواس "Phenomena" الظواهر التي تتجول كل المعرفة العلمية بحدودها، بينما "النومن" هو الحامل اللامنظور لكل جوهر ظاهر بفردية ما!!

فهوية ما لا يرى – اللامنظور "النومن" إن شئت – تعرف بقانون "ليبنز" "المونادولوجي": "Indiscernibles" أي حول اللامرئي كأساس لكل مرئي منظور(*)؟! به فقط يمكن صناعة عالمنا الذي برأي "ليبنز" هو أفضل العوالم الممكنة؟؟؟؟؟

شرط أن يعني "ليبنز" بذلك: أفضل عالم ممكن قبل الجحيم او معه، كخطوة نحو الإطلاق الفردوسي الديني، وإلا فإنه يستأهل سخرية "فولتير" التجريبية القاسية!!

قال "فولتير": (عندما أعاد "ليبنز" صياغة أفلاطون، بين صرحه المتهاوي على أفضل العوالم الممكنة، متخيلاً أن كل ما فيه هو على أفضل ومن أجل الأفضل، مؤكداً في شمال ألمانيا أن الله لا يمكنه أن يصنع إلا عالماً واحداً، – بينما – أفلاطون ترك له على الأقل الحرية بصناعة خمسة عوالم... فعلينا أن نكون مكتفين بأن الله لا يستطيع أن يصنع أكثر من هذا من أجلنا، لأنه اختار من كل الاحتمالات ما هو بلا شك أفضلها.... فالخطيئة الأولى جزء أساسي – ضروري – من هذا العالم الأفضل.... من سبب الآم الناس... وأمراضهم وأحزانهم، وموتهم بالآلام؟ ثم بعد ذلك ينعشهم بجهنم لعصور... هل هذا حقاً كل ما هو متوفر؟! فإذا كان ذلك سيئاً بالنسبة إلينا كيف سيكون حسناً عند الله)[1].

هذه أمور لا أظن أن "ليبنز" كان يجهلها، ولا احتمال أن يتهكم بها مثل "فولتير" في مسرحية "كانديد"، بل أن "ليبنز" نفسه كان يمارسها، فقد كان هو نفسه (شرهاً مقتراً مرائياً مخادعاً... لا يدافع عن رأي او ينقد رأياً إلا لمآرب

(*) تماما كأثر المادة المظلمة الكونية على المرئي من الكوني!!

(1) Voltaire, Philosophical Dictionary, Penguin Books, N.Y. pp 68-69.

شخصي)[1] ومن أطماعه السياسية كي يبعد الإفرنسيين عن نهر "الراين"، قدم الى لويس الرابع عشر (مشروعاً - صليبياً - بغزو فرنسا لمصر، وهكذا كانت طبيعة "ليبنز")[2] في أفضل العوالم الممكنة.

إن تشبثه بأفضل العوالم الممكنة نظير تشبثه بميتافيزياء "المونادات"، فإذا كان الموناد الأكبر خلق مونادات كاملة، فنسق ما تبدو فيه يجب أن يكون كاملاً، مهملاً المعيار التجريبي حول افتراضاته هذه، لاستحالة ذلك في عصره وحتى اليوم؟! ومتغاضياً عن كل مآسي الحياة التي يدله عليها "الحس العام"؟!

وإذ يدعي فيزيائيي اليوم أنهم قد توصلوا الى نظرية قادرة على وصف قوى الطبيعة في إطار شامل بنظرية "الأوتار الفائقة"، لا يزال من الصعب جداً وضع نظرية (تحكم الأشياء - الفيزيائية - الكبرى والصغرى - الميكروسكوبية وما أدق - تتلاءمان معاً في وحدة متماسكة)[3]، على أن لا ننسى أن (تاريخ الفيزياء يحفل بأفكار تبدو لأول وهلة غير قابلة للاختبار)[4]، ومنها نظرية "المونادات" لليبنز، كما ظل منطقه الرمزي (مدفوناً في المكتبة الملكية "بهانوفر"، وقد ختم "ليبنز" حياته في حالة من الإهمال شبيهه)[5]، كذلك "موناداته" التي لا يعني العلماء منها اليوم سوى لفت نظرهم الى ما هو أدق من "النترون" والأوتار الاهتزازية ضمن المادة و"شيبس" "Chips" نوى "D.N.A" عند الأحياء، لتظل الفردية وإن لم تعد لغزاً، كمبيوترية احتمال تصالبات صبغية لا نهائية جنسياً داخل كل نوع، يمكنك أن تسمي الفاعلية التي تحملها - ما وراءها - بالمونودات إن شئت؟!

---

[1] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، عام 1936م، ص 179.

[2] المرجع السابق.

[3] بريان غرين، الكون الأنيق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2005، ص 420.

[4] المرجع السابق، ص 252.

[5] الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 277.

جماع المونادات او الروح: هذا ويمثل "الموناد" فردية كل عضوية كحامل لهذه الفردية "ما وراءها" فهو كالمرآة تعكس كل الوجود من وجهة نظر حامله عضوياً، وكعينة لنوعه مادياً – فيزيقياً" –.

وهذا يعني أن لكل "موناد" لا يستطيع أن يرى منه ما يراه الموناد الآخر في موقعه، وهذا "الموناد" هو أساس الوحدة العضوية للكائن، ولكل عينة مادية أيضاً خارج إطار البيولوجيا، فموناد الحديد في الدم وموناد الزنك .... الخ من المعادن فينا تتعاون على تشكيل فرديتنا مع موناداتنا الرديفة العضوية، فتعمل كمبدأ للحياة او الروح؟! "بموناد" واحد يجمعها؟!

وهذا هو الذي ظن "ليبنز" أنه الروح "De Anima" التي عجز الفلاسفة القدامى عن معرفتها؟!

وهي غير خاضعة للزمن خضوع الأشياء الفيزيائية له، ولا جماع موناداتها قابلة للوصف او لقوانين السببية التي تحكم عالم الظواهر، لأن الروح خارج نظام الطبيعة، شأنها في ذلك شأن كل جوهر مفارق.

ذلك أن (معرفة الحقائق الأزلية هي التي تميزنا.... برفعها إيانا الى معرفة نفوسنا ومعرفة الله ..... وهذا ما يسمى فينا بالنفس العاقلة.... فتجعلنا نفكر بما يدعى "أنا")[1]

وقد قاد هذا "ليبنز" الى فكرة الانسجام المسبق من خلال (أكثر تنوع ممكن بأكبر نظام)[2]، مما جعله يقرر أننا نعيش بأفضل إمكانات التواجد، وكل نفس – روح – تمثل كل الكون لأن كمالها في مونادها المشابه لكل مونادات سواها (فهي مرآة كون لا يتحطم)[3] وبناء على هذا ومن خلاله يجب أن نلاحظ أن النفس تحرك الجسد كما لو لم يكن منفصلاً عنها – كما ظن ديكارت –، فأنا أكتب الآن أفكاري

---

[1] فلسفة ليبنز، مرجع سابق، ص 113.

[2] المرجع السابق، ص 118.

[3] المرجع السابق، ص 123.

لا من خلال يدي، بل من خلال عقلي، تماماً كما لا أرى بعيني بل بدماغي، لذلك التقط القلم دون أن انظر إليه، واضع "جشطلتات Gestalt" الجمل والكلمات دون أن أنظر الى حروفها ومقاطعها.

وهذه الكلية الرؤية "Gestalt" دلالة على أن أفعال الروح تقوم وكأنه لا يوجد جسد؟! تلك هي قوة تحقق جماع المونادات في كل إنسان؟! لذلك ذهب "ليبنز" الى أن الروح مجرد صورة تعكس الألوهة القادرة على كل الكون.

وبينهما انسجام، أليس الله تعالى هدف لكل إرادتنا (كسيدنا وكالعلة الغائية التي يجب أن تكون الهدف الكامل لإرادتنا، والتي وحدها تستطيع أن تحقق سعادتنا)[1]، تلك هي رؤية المصير المنسجمة مع الدين المسيحي، عبر عقلانية لم تلتفت نحو أي فكر تجريبي كي يؤيدها مع "ليبنز"، وترك هذا الأمر لدارسيه – كما نفعل – !!

---

[1] المرجع السابق، ص 125.

الباب الثالث

فلسفات المصير التجريبية

ليس المنهج العلمي الامبيريقي "Empiricism" هو الذي يحكم الفلسفات التجريبية وحده، فهي وإن كانت لا تقوم دون تقدم مستندات علمية لما تبحثه من مصير، إلا أنها تفترض أيضاً أن للفكر الكلي الطبيعي منطقه الخاص في انتقاء الوقائع "Facts" من احتمالاتها العقلية الممكنة.

فقانون تلاقي المتشابهات مثلاً لا يعمل في طبيعة كوكبية مثلاً ليس فيها ماء، فلا مطر في ذلك الجو، وان هطل سيكون مطراً نتروجونياً لا مائياً، ولو افترضنا فكراً ما – وهذا شبه محال بدون ماء – على ذلك الكوكب، فإن ذاك الفكر لا يدخل مفهوم الماء في تصوره.

وبمثال أبسط لو كان لون الذهب أخضر، أي لو اختارت الطبيعة ذلك له، لكان مفهوم الذهب الأصفر غريباً عنا، وهكذا كل الوقائع "Facts" في الوجود يأخذها المناطقة على أنها معطيات واقعية لا جدال حولها، او لماذا هي كذلك.

أما من يصر على أن يعرف لماذا هي كذلك، فذلك لأن للطبيعة في المحسومات واللامحسومات – اللامنظورات – منطقها الخاص – عقلانيتها – التي تفرض اختياراً ما لأمر من ضمن مطلق لا نهائية الاحتمالات فيه، فعلينا التعرف على هذا الاختيار لا فرض خياراتنا عليها، وهذا هو موقف الفلسفات التجريبية في الفن والدين والمصير قبل العلم ومعه.

لذلك ربطت الفلسفات التجريبية المعرفة بالخبرات الحسية وحدها، لا لأنها تنكر اللامحسوس، بل لأنها لا تطاله؟!! فهي مثلاً لا تنكر طرشنا على الموجات القصيرة فتدعي عدم وجودها، بل تقول باستحالة التعامل معها دون جهاز بصري كاشف، أي تحولها الى حاسة أخرى حين تعجز بقية الحواس عن إدراكها، فإن لم تقدر قالت باللاأدرية "Agnosticism" وعلقت الحكم، وهنا موطن قوتها وضعفها معاً.

قوتها بأن هذا الموقف ينأى بالقضايا المصيرية عن الواقع – المعلوم إلى الآن –، وضعفها أن ما هو مجهول اليوم لا يعني أن الطبيعة لم تختره كواقع، بل فقط نحن لا نعرفه، فرسل "برتراندرسل" مثلاً أنكر إمكان نقل الصور بسرعة الضوء عبر الفضاء – التلفاز – حين بداياته قبل 1920م، على ضوء الوقائع الفيزيائية المعروفة بزمنه، وثبت خطأ ذلك حين برزت في الفيزياء وقائع "Facts" كانت مجهولة بالسابق[1]، فموقفه صحيح كتجريبي، خاطئ بالمطلق، كذلك كل تجريبية تنكر العقلانية والترجيحات الاحتمالية؟!

على التجريبية إذا أن تعرف كل خيارات الطبيعة للوقائع "Facts"، قبل أن تقول بأمر ما؛ أعلق الحكم عليه، او أرفضه لأنه لا يخضع للواقع الذي أعرفه بشكل محسوس؟! لبساطة أن الواقع يتمدد دوماً عبر الفكر والتجربة معاً – وهذا

---

[1] تقول آسيا بريغز في كتابها؛ التاريخ الاجتماعي للوسائط، عالم المعرفة، الكويت مايو/2005، ص 225: "حذر .... برتراند رسل قراءه من أنه لن يتطور في المستقبل جهاز يمكنه إرسال صورة حقيقية متحركة مثل سباق القوارب او الخيول.. ومن الواجب إسقاط تلك النبوءات المسرفة"؟؟

موقف "كانط" في نقد العقل العملي -، وهو ما يؤيده تاريخ الثقافة كلها بما فيها العلوم الفيزيقية.

فإذا قالت التجريبية أن لا شيء في العقل لم يكن قبل ذلك في الحواس، فالواقع هو: إلا العقل ذاته؟!؟

فالجانب المسبق البرمجة في دماغ الإنسان والذي تحدثنا عنه سابقاً في علوم الأحياء والطب، يحتوي على أفكار قبل تجريبية "Apriori" وغريزية فطرية مفطورة أي مبرمجة بالجينات الدماغية بشكل يسبق كل تجربة، "Innate" هي وراء الكثير من الحدوس "Intuitive" الإبداعية، وإن كان لا يمكن أن نقول إن كل هذه الحدوس قبل تجريبية، فالتداخل هنا هو سبب اختلاط الأفكار حول منشأ الحدوس الإبداعية، حيث يرى البعض أنها نتيجة تراكم الخبرات وهم على حق، وآخرون أن هذه التراكمات تحصل عند كل الناس، لكنها عند الأقلية التي تسمح لها البرمجة الجينية برؤية العالم والأشياء بأسلوب خاص - فردي - مغاير، تكون إبداعية!!

فالقبلية هنا ليست منطقية ذهنية فقط، بل "جينية" قابلة للفهم الحسي الامبيريقي، وهنا تتداخل التجريبية مع العقلانية تداخل الوراثة والبيئة في ظهور كل فكر مبدع.

ولفهم هذا الأمر بصورة أوضح، لا بد من استعراض الفكر التجريبي الذي لا ينافسه طغيانا على الحضارة الأوروبية - والغربية عامة - سوى البرغماتية - التي سنناقشها لاحقا -، وكلاهما السبب - كانا ولا يزالان السبب - الرئيسي وراء تداعي الاشتراكية الشيوعية، لكن بطريقتين مختلفتين؟!

وهما اليوم يريدان مواجهة مع الإسلام، كما واجها الكنيسة في جانبها الدوغمائي الإيديولوجي، على ظن أنه دين أيديولوجي كغيره من الأديان العقائدية؟؟

فإذا انتهى او شبه حسم الصراع بينهما وبين الدوغما العقائدية الشيوعية، فلم يحسم بينهما بحد ذاتهما، لسبب أن التجريبية منهج فكر بحثي، بينما البرغمانية

منهج مناخ اقتصادي و اجتماعي، البحثية فيه و العقلانية ثانويتان، وهو لأنه امتد الى العالم الإسلامي ظن أنه قد طغى على الإسلام، فراح يتحدى مسلماته الأساسية حول الحق والعدل ومناهج العيش الأخروية؟!

خاصة وأن الفراغ الذي تركته محاولات التحرر من الدوغما الكاثوليكية في الغرب، وخاصة في "بروتستانتية" انكلترا، دفع الى تشكيل مجمعات بحثية على شكل تجمع، يجمع طلاباً وأساتذة من أجل حماية مصالحهم المشتركة في حقل معرفي غير ديني "Secular"، معين "Guild" كالأطباء وتلاميذهم او المحامين وتلاميذهم او المهندسين وتلاميذهم.... الخ.، ومن هنا ظهرت كلمة" "الكلية" لهذه الجماعات كل على حدة، وهي تلفظ بالاتينية بعبارة جامعة: "Universitas" التي ظهرت الى حيز التداول لأول مرة مع بداية العصور الوسطى[1].

وهكذا احتكت هذه التجمعات – كل حسب اختصاصاته – بمعارف تنقصها المرجعيات السابقة، فكان لا بد من التجريب لتقرير الوقائع البديهية التي يحتاجها كل علم عملي، وهكذا ربطت الموضوعية بالتجريب الذي دعمه مجموعة من الكتاب الانكليز، وأثنوا عليه كثيراً.

وهذا السير والبحث عما تختاره الطبيعة من كل الاحتمالات التي يمكن أن تكون عليها ظاهرة ما، هو: ما سمي بالإمبيريقية، تلك التي دعمتها الفلسفة الانكليزية التي سميت بالتجريبية: "Empiricist" .

فما يمكن وما لا يمكن معرفته يجب أن يتحكم بما نقوله وما نتبجح فيه، إذ طالما تحد محدودية العقل الإنساني من فهم – الروح – التي هي فينا[*]، او الجواهر التي تحمل عوارض الأشياء في الجمادات، أم الألوهية والخلق من عدم، بدلالة أن كل البحوث الدينية والفلسفية حول هذه الأمور لم تصل الى اتفاق ولم تقدم

---

[1] Diane W. Darst, Western Civilization, McGraw-Hill, N.Y., 1990, P 355.

[*] مثل تخرصات ليبنز "المونادولوجية" غير المدعومة بأي واقعة موضوعية تجريبية، رغم قوة الفكر فيها مثالياً – عقلانياً –.

معرفة محددة يمكن الاعتماد عليها، كالمعرفة التي تقدمها البحوث التجريبية في العلوم الهندسية والطبية والزراعية وحتى الفلكية، التي انتزعت التجريبية هذه الأخيرة من التنجيم وأعطتها صفة بحثية، أوصلتنا اليوم الى علوم الفضاء التي نحبو بسبب تراكماتها التجريبية المعرفية نحو استعمار كواكب خارج الأرض، وربما خارج مجموعتنا الشمسية قريبا.

كل هذا بسبب واقعة "Fact" أن أي معرفة غير قابلة للتصحيح لا تستأهل أن تبحث في الحلقات "السكيولارية – Secular" لأن حقيقتها تكون ذاتية، كالدين وليست موضوعية كالعلوم.

توماس هوبز:

يقول "هوبز" وبسبب محدودية الإنسان لا يستطيع أحد أن يستوعب أكثر من أمر واحد تقريباً لذلك (فإن وظيفة الفكر الصلب كضرورة ضرورية.... خاصة... إذا أخذنا بالاعتبار التعارضات بين آراء الناس)[1]، فمن الضروري البحث عن قوانين الوجود من أجل تجنيب ملكة الفكر الخطأ، ولأجل ذلك يجب إتباع المنهج التجريبي "البيكوني"، ذلك لأن حرية الإنسان (تعتمد على مدى إسكات القوانين التي يخضع لها من كل جانب)[2].

وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نثق بنتاج أي فكر إنساني على أنه واقعي – يعكس الواقع –، إلا في حدود قدرته على دعم نتائجه تجريبياً؟! وخارج هذا نجد أن الفكر الإنساني مملوء بلغو الخرافات او السذاجة، بل بكيلهما معاً!!

فمن الخطأ بمكان ترك فهم المصير الإنساني لهذه التخرصات من جهة، ومن المحال البحث بها من جهة أخرى، لأنها موضوعات ذاتية لا موضوعية، فلا يحق لأي فرد فَرْضُ قناعاته الشخصية فيها على الآخرين، كما يستطيع أن يفرض التجريبي التوقف على قوانين الطبيعة خاصة التي لا تلائمه!!

---

(1) Thomas Hobbes, Leviathan, Penguin Books, N.Y., 1985, P 717.

(2) Ibid, P 271.

وفي نقده لتأملات "ديكارت" "The Meditations"[1] ولسلطته على الفلسفة – وهو معاصره – قرر "هوبز 1588-1679" نظرية ألسنية حاول أن يظهر فيها كيفية انسياق الإنسان وراء ألفاظه، نحو الأخطاء التي تعد "توماناليه Nominal اسمية" لا معنى لها، بمعنى أنها لا تمثل شيئاً من الواقع، مثل القول بوجود الغول او العنقاء، او أبو الهول؟!

وأكثر من ذلك اعتبر "هوبز" كل التسميات الميتافيزيائية من هذا الصنف من اللغو، كالقول بالجوهر اللامادي؟! فالجوهر هو لشيء ما فكيف لا يكون مادياً، مثل هذه التسميات ليست خاطئة فقط؟! بل لا معنى لها لأن لا شيء يمثلها في الواقع.

فكل كلمة حسب "هوبز" تأخذ معناها مما تمثله في الواقع من أشياء، او هذا يعني أن أصل كل الفكر هو الخبرات الحسية، فمن أي مصدر آخر وعلى أي إرجاع يمكننا أن نرجع الأسماء والخبرات اللاحسية؟!

كذلك نقد "هوبز" الاستدلال الديكارتي من "أنا أفكر" الى "أنا فكر"؟! كخلط بين عرض من أعراض الذات – الفكر – وجعله كل الذات الإنسانية[2].

كما نقد سوء فهم "ديكارت" للريبية "Skeptical" التي تهدف لا الى الشك من أجل اليقين، بل من أجل إظهار أننا غير قادرين على معرفة حوامل الأشياء التي تسمى جواهرها، أي أننا عاجزون عن معرفة "النومن Noumenon " حسب تعريف "كانط" للأشياء بذاتها بعد ذلك.

فالريبية الإغريقية منذ "فيرو-و- تيمون" حتى الأكاديمية الأفلاطونية التي استولوا عليها، وكل صراعهم مع "أرسطو"[3] – برأي التجريبية منذ هوبز – هي لتأكيد محدودية الفكر الإنساني في فهم الإطار الظاهري من الوجود فقط "Phenomena"، دون القدرة على فهم الأشياء بذاتها فيه، وحتى فينا فيما: نسميه بالروح، فما بالك بالروح القدس او حتى خالقه[4]؟!

---

(1) Rene Descartes, Meditations on First Philosophy, Cambridge University Press, N.Y., 1993.

(2) John Cottingham, the Cambridge Companion to Descartes, Cambridge university. Press 1992, P 408.

(3) دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 74-78.

(4) وهذا ما يسميه "هوبز" بالدوماغائية كسبب لكل الشرور، انظر:

Thomas Hobbes, Human Nature, Oxford University Press 1994, P 74.

ان فهم محدودية الفكر عند الإنسان، أنه ليس كل شيء في الذات الإنسانية، هو الذي دفع بالتقدم الفكري نحو البحث فيما نعرف إلا بتلهيه في "النوميناليات Nominal" الميتافيزيائية، ولذلك تقدمت المعرفة بعلم النفس خاصة، بكشف الجـوانب النفسية والفلسفية للذات إضـافة الى الفكر فيها، من: مشاعر ورغبات - إرادة -، وبالعلوم عامة، بسبب دفع التجريبية للفلسفة كلها نحو ما يمكن أن يعبر عنه الفهم، من الظواهر فقط، ولولا نقد "هوبز" لديكارت لما بدأ هذا الحوار الهام في صلب التوجه الفلسفي، الذي يوجه العلم والمنطق الى اليوم في كل مناهج البحوث الاستقصائية بأي معرفة كانت.

فهل هذا هو غاية مطاف الفلسفة، والكلمة الأخيرة بها؟!

لقد سبق "هوبز" عصره بآرائه حتى السطحي منها، فالأثر الذي تركته في معاصريه أقل بكثير من أثره الذي تبناه النفعيون لاحقا "Utilitarian" .

أما آراؤه السياسية فتنطلق من هذا الشعور بالإحباط نتيجة عدم اكتراث معاصريه بآرائه، فانحاز الى السلطة الدكتاتورية لتلميذه "شارل الثاني" ضد من بقي من البرلمانيين بعد "كرومويل"، فكان كتابه "التنين او Leviathan" الذي استعمل فيه حججه مع وضد البرلمانيين - حسب تقلب الأحوال[1] -، وهذا يدل بوضوح على أن الفكر بدون سلطة تدعمه، لن يكون موجها للعصر الذي يكتب فيه - المفكر - الفيلسوف؟!

وهذا هو مصير كل مفكر - فيلسوف - يتصدى للأفكار الجاهزة - القبلية - عند أمته، او المجتمع الإنساني ككل، إذا لم يقتل مثل "سقراط" سوف يهمل مثل "هوبز" وكلاهما - مع اختلاف الدرجة - ترك صدى قوياً في الأجيال التالية!!

جون لوك:

ولد لوك عام "1632 وتوفي 1704" وقضى بعضاً من حياته منفياً من "انكلترا" الى "هولندا"، حيث أنجز "مقالات تتعلق بالفهم الإنساني" على غرار مقالاته

[1] انظر كتابنا، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق؛ "هوبز".

التي تتناول السياسة، والتي تتضمن آراءه "الليبرالية"، وقد جمعت ونشرت كلها عام 1947م[1].

والذي يهمنا من امبيريقية "لوك" هو المفاهيم التي قدمها لمفهوم الفهم، وصلته بالمصير الإنساني الفردي، فهو يعارض "الكوجيتو" الديكارتي أيضاً بنقده لمصطلح "ديكارت" حول الأفكار "Ideas"، يقول:

(ان الأفكار هي الموضوع المباشر للفهم، فكل إنسان يعي أنه يفكر... وهو يفكر من خلال مجموعة من المفاهيم التي تلقاها من العالم الخارجي مثل الصلابة والحلاوة والحركة والفيل والحصان.... الخ)[2] وكلها قد جاءت من خبرات حسية سابقة، وخارج هذا الإطار الحسي يقع الإنسان برأي "لوك" ضحية سوء الفهم، لذلك نجد أن الناس لا تختلف على معنى شجرة او جزرة او قمحة، وتختلف حول القضايا التي تقود الى مفاهيم مجازية، أي حول القضايا التي تنطلق من معلوم الى مشبه به – بهذا المعلوم – لاستخدام عبارة "مثل"؛ كالقول: الحرية مثل الطيران من زهرة الى زهرة كالنحل.

حتى عندما نتحدث عن تطور بالعقل الإنساني نتيجة زيادة وسائط الاتصال، او زيادة معلوماتنا عن الوقائع "Facts"، فنحن نستعير من البيولوجيا مفهوم النشوء "Evolution"، فنحن بصدد المجاز هنا، وهذه مشكلة تربوية تعليمية تدفعنا الى التساؤل عن كيفية نقل الأفكار دون مجاز؟!

فإذا كان الشبيه لا يفهم إلا بشبيهه؟! فمن أين أتت أفكارنا التي سماها "ديكارت" بالمتميزة بوضوحها؟؟ دون أن تكون لنا خبرة سابقة بها في حياتنا هذه، كمفاهيم الامتداد واللانهاية والله المتعالي تعالى؟!

ألم تأتِ مع الجينات البشرية المسبقة المبرمجة كأفكار ذاتية "Innate" مزروعة فينا قبل كل تجربة حسية؟!

---

(1) John Locke. Political Writings, Penguin Books, England 1993, P 1.

(2) Locke, Essay on the Human Understandings, Peter H. Niffitch, Oxford 1975.

هذا ما رفضه "لوك" ويبحثه علم الجينات المعاصر الذي يؤكد لنا أن (الأشعة فوق البنفسجية التي تدركها النحلة وغيرها من الحشرات... لا تميزها العين البشرية)[1] ويدرك وجودها ووجود سواها من اللامنظورات العقل الإنساني، إذ (يوجد حولنا أكثر من عالم، لكننا لا ندرك من هذه العوالم إلا عالماً واحداً هو المهم بالنسبة لحواسنا)[2]، وهذا ما لا تريد التجريبية أن تبحث فيه، لأنها تريد كشف عالم الظواهر فقط "Phenomena"، فهي تحد بذلك من قدرة الفكر الإنساني على ولوج اللامرئي، وإن كانت هذه القدرة محدودة جداً كما يمكننا أن نؤكد لكل حي؟! إلا أنه من جهة ثانية لا تنفصل هذه المحدودية عن رؤية المصير بين الأزل والأبد.

إن الفكر الإنساني بالقوة لا يصير بالفعل إلا إذا شحذ، فقطعة الرخام لا تصبح بلاطة مدخل بناء إلا بقليل من الشحذ، لكن إذا شحذت بدقة أكثر صارت عملاً فنيا كتماثيل "مايكل أنجلو"!!

ولهذا يمكننا أن نؤكد لأمثال "لوك" أن الفكر هو شرط أساسي للأفكار، ونضيف شروط الوراثة الجيدة فيه "كجينات" تمكن بالقوة هذا الفكر ليصير أفعالاً، وهذا يعيدنا الى وجود حقائق تجريبية في الدماغ الإنساني نسميها اليوم وراثية، شرط أن لا نخلط بين الرغبة في المعرفة من جهة، والقدرة عليها من جهة أخرى.

وبمصطلح جيني اليوم يمكننا القول مع "تشومسكي": أن (لدى الإنسان جهاز اكتساب اللغة فطرياً، وأن امتلاك هذا الميكانيزم الموروث بيولوجيا شيء مشترك بين جميع البشر)[3]، وهذه النتيجة التجريبية تتفق مع ما ذهب إليه "كانط" بالحقائق التركيبية القبلية "A-Priori Synthetic Truth"، فالإنسان لديه معرفة حدسية بأنه موجود، حتى ولو كان لا يعرف كلمة: "وجود"، فالشعوب البدائية والأطفال

---

[1] إرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، عالم المعرفة، الكويت، عام 2002م، ص 91.

[2] المرجع السابق.

[3] كرستين تمبل، المخ البشري، عالم المعرفة، نوفمبر 2002م، ص 105.

Political Writings, op. cit. P. 150.

يدافعون عن تواجدهم "Being" – كدفاع عن النفس بين كل البشر – وكأنهم يطلبون مزيداً من الوقت كي يعرفوا مكانهم في الوجود؟!

فهل هذا يعني أنه على الناس أن لا يلغوا بالإسميات المصيرية، فكل الأفكار حول أي أمر حسي واضح معقدة وليست بسيطة، ثم ألا ينطبق هذا على ليبرالية "لوك" بذاته، في ثنائية التحرر والميكيافيلية التي انعكست على الشعب الأمريكي معه[1]؟! فيما هيأ ذاك الشعب لاحقاً لرفض – "برغماتيسية" – "شارل بيرس"، وتبني برغماتية "وليم جيمس"؟! التي تنتشر اليوم بثياب وقفاطين العولمة "Globalization"، وتقنياتها المدنية والعسكرية.

هذا ومن المبرر له ربط الأفكار بالمعاني التجريبية – القابلة للتجريب –، لكن هذا يجب أن لا يعني الاقتصار على جعل الأفكار العامة مقتصرة على كل محدد حسيا فقط، فالكلمات تسبب – برأي لوك – في ذهن الإنسان أفكارا، لكن هذه الأفكار قد تكون مختلفة أشد الاختلاف حتى في الأمور المشخصة، فكلمة قلم تعني في ذهن الكاتب أداة الكتابة، وفي ذهن المزارع غرسة – فسلة – الشجرة، وفي ذهن الموظف دائرة معينة من دوائر الدولة..... الخ، كذلك فكرة الألم عندي قد تعني اللذة عند "سادي"، لذلك وبالتحديد من منطلق نقد "لوك" – ذهب "وتغنستين" الى أن لغة كاملة يجب أن تكون بها قواعد تمنع شطط تفسير الأفكار، ليكون لها رموز محددة لها القدرة الدائمة على معان محددة دوماً[2].

لذلك يقول" (إن ما هو أساسي منطقياً هو علاقة المحمول في اعتباره ذا صلة بالوقائع "Fact")[3] كما فسر "رسل" نقد "وتغنستين" للتجريبية وإعطائه دفعا منطقيا لها، من منطلق "لوك" القائل: بأن نوعية صفات الأشياء حين تنتقل الى ذهننا هي التي تنتج فيه الأفكار، فالفكر هو باحث فطري عن النوع، أعني الصفات الأساسية التي تشكل الشيء أمامه، ثم في تفاصيلها تأتي الصفات الثانوية.

---

[1] انظر بشكل خاص كتابه: Second Treatise of Government. Indianapolis. 1980.

[2] Wittgenstein. Tractatus Logico. Routledge. London 2002. P X.

[3] Ibid. P XXII.

ليحصل "لوك" من هذا الظن بأن الإنسان إذا امتلك كل الصفات الأساسية للطبيعة بفكره، أمكن له تفسير العالم والسيطرة عليه، وهذا هو الاتجاه الذي يتحرك فيه العلم منذ "لوك" والى اليوم، بعيداً عن خطل البحث عن الجواهر اللامجدي، طالما أن الجوهر الأساسي لأي شيء غير قابل للمعرفة.

خذ علم النفس مثلا تجد أنه لم يعد يبحث في جوهر الحياة النفسية او الروح، بل صار يبحث بالسلوك البشري، الذي إذا استطعنا حصر صفاته الأساسية "Primary qualities"، استطعنا أن نتنبأ بأفعال "زيد" او "عمر" الثانوية التي هي: "Secondary qualities".

لكن السؤال الهام الذي على التجريبية طرحه على نفسها هو: هل الجوهر الحقيقي للأشياء من الصفات النوعية او الفردية أيضاً؟؟ لذلك يجب الانتباه الى دور الفردية في تمييز الفرد عن نوعه أيضاً، لأن الفردية بكل نوع هي مجرد احتمال تحقق من لانهائية الاحتمالات فيه، وبظهورها يأخذ مفهوم النوع – أي فكرته حسب لوك – بعدا إعجازيا"!!.

و"لوك" إذ يربط الإدراك لا بمجرد الفكر بالوجود، إذ طالما أنني أذكر الماضي ورغائبي تدفعني الى توقع المستقبل، فالوجود مرتبط بالمشاعر والرغبات، وهذا يثير سؤالا مصيريا هاما وهو:

إنني أتذكر نفسي صغيراً ويافعاً وشاباً وكهلاً الآن، فأين ذهب كل هؤلاء؟!

هل الموت هو مرور الزمن قبل توقفه في لحظة الوفاة؟!

فإذا كان هذا هو الموت، وطالما كانت المشاعر والرغبات ذاتية، أي صفات كيفية ثانوية، فالموت امحاء لها، لكن الفكر صفة أساسية لا لكل الكائنات فقط "Primary qualities" بل لكل الوجود، فصلتي العقلية به هي ضامن الخلود لي، منذ أن قرر ذلك "ابن رشد"، حتى "ديكارت" الى اليوم، قال "ابن رشد": (إن العقل الذي بالملكة فيه جزء كائن وجزء فاسد، وأن الفاسد هو فعله، أما هو في ذاته فليس

بفاسد.... يتصل بالعقل الهيولاني – الكلي دون أن – تكون الصور موجودة)[1]؟! وهذا هو مفهوم الخلود الفردي لفكرة الخلود المنطقية – المنطقي – لا الديني الإيماني فقط!!

فإذا أصرت التجريبية على ربط مصير الإنسان بالمشاعر والرغبات عبر سياق الزمن، ستجعله بحالة موات دائم قبل الوصول الى لحظة الوفاة، وهو ما يعارض الحدس الداخلي عبر العقل والذي هو جزء أساسي من النفس أيضاً، بارتباط المصير الفردي لكل إنسان به ككل، فوجود الفرد ليس تذكراً للماضي واشتهاء للمستقبل فقط، بل منهج فكر به تتحدد فرادة كل فرد في عظيم نوعه، عبر بلايين هذه الفرادات العقلية التي مرت من التواجد نحو الوجود، وبجماع خبراتها العقلية يتجلى العقل الكلي مع ما وضعها به من قسر قوانينه ليضبط مصيرنا الواحد.

هكذا يمكننا أن نتصور سبب الوجود من خلال استقراء مصيرنا فيه، تصوراً يخرج عن كونه ميتافيزيائياً سببياً ليس إلا؟!

عقلانية جورج بيركلي:

تلك الكلمة التي تعاديها التجريبية او التي هي برأي "بيركلي" عبارة عن أفكار روحية بحتة، أما الأفكار الحقيقية عنده فمن نتاج تأملات العقل؟! لا من الخلط بين الإحساس – الحواس – والفهم، فمن السخف أن نتصور أن أي فكرة رياضية مجردة لها تشخيص في العقل، كالقول إن فكرة المثلث موجودة بمثلث عقلي، علينا إذاً حسب "بيركلي" أن نربط الوجود بالمدركات العقلية فقط، فأن توجد يعني أن تدرك – تعي –، إذ أنه طالما لكل شيء أمامنا فكرة تمثله فالوجود حتماً مؤسس على أفكار، الواضحة والمتميزة منها قابلة للوعي وتابعة له، بينما تأتي كل الأفكار المختلطة والمشوهة من الحواس وما تسببه من تهيؤات إدراكية.

---

[1] ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، دار المشرق، بيروت 1990 م، ص 1490.

هذا الموقف هو عكس التجريبية، يقول "بيركلي": (لا يوجد سوى جوهر واحد غير الروح، التي تعطي المدركات، ولأجل إثبات ذلك بشكل قطعي، لنأخذ باعتباراتنا الكيفيات الحسية من ألوان وأشكال التي هي أفكار يمكن إدراكها حسياً – بالحواس –، سنجد أن أي مدرك لا يمكن إدراكه إلا من خلال الفكرة التي يمثلها)[1].

أما بالنسبة الى صلة هذه العقلانية بالمصير، فتتضح بأنه من السخف أيضاً الحديث عن جوهر مادي للوجود، لأن مثل هذا الجوهر في منال الأفكار، فهو فكري – لا يفهم الشيء إلا بمثيله –، ويعني هذا أنني أنا وأنت من أصل جوهري واحد، يشكل كل منا احتمالاً من احتمالات تحققه بالواقع، فالإنسانية ككلمة شأنها شأن أي تسمية لها واقع مشخص، كالطاولة يمكن إدراكها بصيغ مختلفة لانهائية، فالإنسانية او الطاولة او الفيل لا تقدم لنا صيغة أحادية، بل مجموعة أفكار، لا يمكن إدراكها إلا بالفكر، وبتطبيق هذا على (أكثر الأفكار صعوبة في القوانين التي تحكم الفكر أي الأمور السامية "Sublime"، كمفهوم الله.... وتوقع الخلود، نجد أن كل هذا ينبثق من الفكر)[2]، فالفكر هو "الجوهر" الوحيد المُشَكِّل للوجود بكل صيغه المختلفة، وكل ما هو أمامي وأنا وكل الناس مجرد تجلٍ من تجلياته اللانهائية.

وكأننا الآن نمثل فكرة في ذهن الخالق قيد التحقق، وهذا هو بالضبط الحوار المستعاد اليوم في الأوساط العلمية في البيولوجيا، والذي يسمى: بالخطة الذكية "Intelligent-Plan" ضد النظريات النشوئية والتطورية "Evolution"، وخاصة في الأوساط العلمية – المتدينة – الأمريكية، منذ مطلع القرن الواحد والعشرين هذا.

وبغض النظر عما إذا كان التطور آلية او – ميكانيزماً – من ميكانيزمات الخَلقْ، او أنه ككل نظريات "الماكرو Macro" لا تنطبق على العوالم المجهرية الدقيقة "Micro" كما في مجال الفيزياء المنظورة وتلك – الفيزياء – الميكروسكوبية

---

(1) George Berkeley, Principles of Human Knowledge, Penguin Books, N.Y., 1988, P 55.

(2) Ibid, P 118.

والعكس، او الرياضيات المستوية والرياضيات الدقيقة، أي بين رياضيات "إقليدس" ورياضيات "ريمان" او "لوبتثوفسكي"!! أقول: بغض النظر عما إذا كانت نتائج بحوث "الخطة الذكية" في البيولوجيا الدقيقة لا تتفق مع التطور في البيولوجيا الفيزيولوجية المنظورة، فإن للفكر الدور الشامل الأكبر في حياة الإنسان، وعليه وحده تقوم الحضارات وتقتتل وتتخالف وتباد أو تزدهر، وآخر برهان تجريبي لهذا الأمر قد جاء من التداعي السريع للقوى العالمية التي رفعت من شأن العمل على حساب النظر، أي التي رفعت من شأن "البلوريتاريا"، وخفضت من شأن النظر العلمي رغم ادعائه، أعني الشيوعية والاشتراكيات الرديفة لها، حيث نراهم اليوم الأقل فهماً وقوة في كل مجالات التعامل، مع الاقتصاد والسياسة وحتى الحروب في القرن الواحد والعشرين، وعلى رأس كل هذا تخلفهم التعليمي والعلمي، المرتبط بالإيديولوجيات التي كانت تقيدهم، وعند القلة منهم لا زالت تخنقهم بأنفسهم وبأيديهم ولا يزالوا يلومون الغرب.

إن التجريبية ليست حزباً سياسياً يحارب حزباً ايديولوجياً آخر هو العقلانية، كما يمكن أن يتصور المطلعون على الفلسفة من خلال الأحزاب السياسية، أنهما محاولتان إنسانيتان للسير في درب الحقيقة، أدركهما "كانط" بفلسفته في نقدي العقل العملي والنظري معا، من أجل استخدام مراكز الضعف والقوة بهما، كي نسير بخطى أثبت في بحثنا عن مصيرنا في هذا التواجد، علنا نكون على ارتباط بالوجود الأكبر، لا مجرد أعراضٍ احتمالية تجريبية لعقل كلي طاغ تتبخر تبخر البعوضة على شباك سلك مكهرب حين الموت[*].

---

[*] فرغ البيت والمقابر ملأى – وعيوني تفيض انسكابا: رباعيات عمر الخيام، المكتبة الحديثة، بيروت ترجمة وديع البستاني عام 1868 م، ص 52.

الباب الرابع

فلسفة التنوير

لا يمكن أن توجد فلسفة تجريبية بحتة بمعزل عن العقلانية، ولا عقلانية تتنكر للتجريب، والمسألة ليست مسألة نظر ثم عمل او عمل ثم نظر، فلا فلسفة بدون عقل ولا عقل دون عقال مادي يحد من تصوراته بواقع ما.

أما عدم قدرة أي إنسان على استخدام عقله دون إطار فكري معين، فهي الدوغمائية التي تنتج عن الإيديولوجيات، وكذلك عدم قدرة أي إنسان أن يوجه فكره إلا من خلال آخر، فهو العماء الفكري والذي لا يحرره منه إلا شعار التنوير، القائل: (عليك أن تتحلى بالشجاعة في استخدام وتوجيه عقلك بنفسك)[1] حتى تشعر بوجودك، وتحدد بنفسك مصيرك.

إذ لا توجد عبودية أشد ولا أقسى من استعباد الفكر، فحتى الحيوانات "تشمس" بمن يريد أن يروضها، أي بمن يريد أن يفرض قراره عليها، او توجهات فكره على توجهات ما هو مغروس بها من مسبقات غريزية – كفكر بسيط –؟!

(1) Immanuel Kant. Philosophical writings. Continuum. N.y 1986. P 263.

لذلك قال "كانط" (إذا ضَمِنْتَ الحرية تضمن التنوير، لأنه سيكون هناك دوماً فكر مستقل)[1] ويتساءل (هل نحن نعيش في عصر التنوير؟! ويجيب: كلا....لأنه ينقصنا الكثير)[2] ؟!

فمن الناحية الفكرية نستطيع أن نقدم خدمة كبيرة للفلسفة العقلانية، إذا حددنا لها الأطر التي تستطيع منطقياً السير!! ومن أجل هذا الغرض تساءل "كانط" عن (كيفية إمكان الأحكام قبل التجريبية التركيبية)[3] وخلص الى: أن الرياضيات تتضمن محمولات – افتراضات – قبلية "A- Priory" أي قبل تجريبية.

ديفيد هيوم – و– عمناويل كانط:

ومع هذا – أي مع كون الرياضيات تركيبية وقبل تجريبية – ذهب "ديفيد هيوم" الى القول أنه: (بالنسبة للمنهجي فإن كل ما هو فكري هو عرض للاعتياد ليس إلا)[4]، لأن العقل وحده لا يستطيع أن يبرز أي فكرة مبتكرة، فكل خبراته لا تستطيع أن تجعلنا نستنتج أن السببية ضرورية لبدء الوجود مثلاً، وجل ما يستطيعه العقل الإنساني هو أن (يبني كل الفكر فيما يخص الطبيعة الإنسانية كلية على الخبرات التجريبية)[5].

فكل البراهين – برأيه – مشتقات من علاقة السبب بالنتيجة، وهو ما عدله بعد ذلك "كارل بوبر" عندما قرر أن الرياضيات كلها فكر تجريدي قبلي – قبل تجريبي –، وهي عدا الهندسة حيث لها مكان وفراغ ولا مكان لها أي للرياضيات وفي قطيعتها قريبة من ترجيح اليقين "Plausibility"[6]، أما الادعاء بيقينتيها فهذا يعني أن كل الوجود علاقات رياضية، وهو ما ينكره الواقع "Facts" .

وهذا أفضل ما يمكن أن يقال عن أي يقين في عالمنا، عالم الفساد والتغير، فـ "ديفيد هيوم" لم يراعِ كون الرياضيات قبل تجريبية، و"بوبر" رأى فيها أنها

---

(1) Ibid, P 264.
(2) Ibid, P 267.
(3) Ibid, P 31.
(4) David Hume, A Treatise of Human Nature, Penguin Books, N.Y. 1985, P 199.
(5) Ibid, P 15.
(6) The World of Parmenides, op. cit, P 252.

ترجيحية "Plausible"، كأفضل ما يمكن أن يقدمه أي يقين في هذا الوجود – التواجد –، بينما ذهب "كانط" الى القول: (أن الفرق بين الأحكام التركيبية والتحليلية... قد اقترب من فهمها "ديفيد هيوم" .... لكنه لم يراعِ السؤال في كونيتهما الكلية، وعلى العكس من ذلك ذهب للتوقف بين إشكاليات السبب والنتيجة، مصراً على أن هذه القضية – المحمول – التي هي القبلية "A-Priori" مستحيلة، مما يقود الى الاستنتاج بأن؛ كل علومنا الميتافيزيائية مجرد أوهام.... وضد مثل هذه التأكيدات المدمرة لصلب الفلسفة.... نجد في حججه أنه لا يمكن أن يكون هناك علم رياضي كامل.... وهو سخف)[1].

لكن حسب "بوبر" لا يوجد أي علم – حتى بالرياضيات – كامل بيقينه، فكل المعرفة الإنسانية ترجيحية "Plausible" ، خاصة وأن عمومية – كونية – الرياضيات زمن "كانط" غير كونيتها اليوم في دراسات العوالم الدقيقة، حيث لا تصلح مفاهيم الاتصال كما اوضحها "إيرفين شرودنغر" في العوالم الدقيقة وهذا يقودنا الى مشكلة "الماكرو Macro – و– الميكرو Micro " في علم الفيزياء وعلوم الأحياء مرة أخرى، حيث قوانين هذا لا تصلح لذاك والعكس؟!

فأقصى الطريق بين "هيوم " و "كانط" بهذا المعنى هو "بوبر" حيث أكد المبدأ الذي قامت عليه الفلسفة في أحكامها على الوجود، وعلى معرفتنا وأدواتها فيه على الترجيح منذ "بارمنيدس" الى اليوم، وهذه الصفة الترجيحية في بنية العقل الإنساني – النظري والعملي – إزاء إلحاح مطلب اليقين عنده، هي التي تدفعه نحو الاستسلام الديني، الذي هو عندنا: الإسلام بلا مواربة ولا ذرائع وثنية او عصبية قبلية – يهوة – فيه.

وقد شعر "كانط" بهذا فكتب أهم أعماله التي بناها على ما وراء الظواهر أي "النومن – Noumenon"، وهو "البرهان الوحيد الممكن لإثبات وجود الله"[2] الذي

---

(1) Philosophical Writings, op. cit, P 32.

(2) Immanuel Kant, The One Possible Basis for a Demonstration of the Existence of God. University of Nebraska Press, London 1994.

يمكنني اعتباره عملاً إسلامياً تنقصه الشهادة كُتبَ عام 1763 م، فوجود "النومن" فيما وراء المتعاليات على التجربة، وكحامل لكل جوهر تجريبي هو الدلالة على وجود الله – لا كتواجد كما يمكنني او أوكده بل – كخالق للوجود والعدم معاً وكفعال بهما من خلال كل جوهر عصي على فهمنا، وهو بذلك يتدخل في خلقه ويحملهم على التواجد بكل لحظة!!

يقول "كانط" (ان مثل جماع هذه الملاحظات كافية لتخدم كقاعدة للنتائج الهامة التي يترتب عليها كل عمومية ثانوية في الأشياء تحت إشراف وجود عاقل)[1]، ويؤكد ذلك بقوله أيضاً (ان الإمكانية الداخلية – الذاتية – التي هي جوهر كل الأشياء – نومنها– هي التي في رفضها يلغى كل فكر.... وهكذا نجد من الضروري أن يقتنع الإنسان بوجود الله، ولكن ليس من الضرورة بمكان البرهان عليه)[2]؟!، دلالة على أن "كانط" يميل الى إثبات وجود الخالق، لا البرهان – الرياضي او المنطقي عليه – طالما أنهما ليسا كل ما نقتنع به ضمن هذين النطاقين!! ذلك أن كل منا مقتنع بمشاعره ورغباته حتى ولو كانت غير صحيحة منطقياً، ولا محسوبة النتائج، فإثبات صحة أمر ما – برأي كانط – لا يعني إمكان البرهان عليه تجريبيا، لأن ضرورة التجريبية لا تطال المتعاليات التي يتعامل معها الفلاسفة والمتدينون.

(إن التميز أمر يستدعي المنطق، لكن الوضوح لا يعتبر كمالاً منطقياً مع أنه يفترض بالمنطق بشكل مسبق، إلا أن المنطق لا ينتجه)[3]، أي بعبارة أخرى: إن المنطق أداة للتمييز لا للإيضاح، فهو بحاجة الى ما هو مثبت ليبرهن عليه، فإذا لم يكن هناك إثبات لوجود الله، عجز المنطق عن البرهان.

فلولا الأبحاث الجينية – مثلا – على أهمية "المَحْتَد" – كما ذكرنا في بداية هذا الكتـــاب حين تحدثنا عن المنطق – لما أمكن البرهان على صحة مطلب

---

(1) Ibid, P 177.

(2) Ibid, P 239.

(3) Immanuel Kant, Lectures on Logic, Cambridge University Press 1992, P 93.

الرسول ﷺ بضرورة أن "تتخيروا لنطفكم...."، فالمنطق بحاجة الى ما هو مثبت - وكذلك المنطق الرياضي - ليبرهن عليه بعد ذلك، أي هو بحاجة الى الوقائع "Fact" قبل أن يضع قياساته و استقراءاته.

المنطق إذا للتمييز لا للإيضاح، والإيضاح لا يتعلق ببرهان بل يتعلق بالوضوح كما تحدث عنه "ديكارت" فإذا لم يكن وجود الله واضحا للبعض مثل "هيوم"، فكل تمييزاته من خلال السببية لا علاقة لها بنفي إثبات الله، خاصة وأنه في التراث الإسلامي تمييزات مشابهة مع "الغزالي" تثبت - تريد أن تبرهن - على وجود الله بالسببية على العكس تماماً من "هيوم"!!

وهذا الدور يحصل دوما بالمنطق حين إقحامه بما هو ليس مجاله كأداة تمييز لا إيضاح "Organon" !! و"الاورغانون" كصفة أعطاها "أرسطو" للمنطق تعني أنه أداة للاستقصاء، أوضحها "كانط" بمجموعة مبادئ للتمييز لا للإيضاح، عليها يمكن تأسيس المعرفة، شرط أن تستند تمييزاتها على وقائع "Facts" تجريبية ثابتة.

هكذا وحد "كانط" بين الإيضاح الفلسفي العقلي والتمييز التجريبي، في نقده للعقلين النظري والعلمي[1]، من أجل تقدم المعرفة، بدل الفصل التعسفي بينهما لإثبات العمومية واللاعقلانية اللتين تقودان الى الريبية "Scepticism"، على ظن أنها قمة التفلسف التي لا قمة بعدها؟! فتبدو الفلسفة بذلك عدمية تدعو الى دوغما اللامعقول، وملحدة هدامة تدعو الى هدم كل قانون متعالٍ على التجربة!!

وهذا ما حصل في الفلسفات الملحدة في القرن العشرين من ماركسية ووجودية، لكن الفوضى التي أحدثتها شأنها شأن كل فوضى كونية فيزيقية كانت أو اجتماعية أو حتى نفسية، تؤدي الى الاختلاط الذي يظهر منه الصفاء، بعد تلاقي المتشابهات فيه!!

---

[1] عمانويل كانط، نقد العقل العملي، دار اليقظة العربية، بيروت 1966 م، وانظر أيضا نقده للعقل النظري:
Kant. Critique of Pure Reason. P.F Collies and Son. Year? N.Y.

فالعلوم التي هزت العقائد الدينية المسيحية في أوروبا منذ عصر النهضة هناك، وأدت الى تغيرات سياسية وأخلاقية في المجتمعات الأوروبية، وَجَدَتْ أن عليها مواجهة أديان أخرى غير المسيحية اليوم، مثل الإسلام، الذي ينتقد بالضبط جوانب المسيحية التي نقدها عصر التنوير على أن لا يختلط النقد بمعنى الشرح والإيضاح والإضافة الايجابية، مع النقض الذي يعني إظهار جوانب التهافت غير المقبول، من كل من يستطيع التمييز بين الإثباتات والبراهين منطقياً، لا بحسه العام فقط "Common Sense" او بادعاء أنه متحيز للتجريبية او للعقلانية، فهذا التمييز برأي "كانط" باطل لا معنى له، والأسوأ – برأينا – هو هذه التمييزات اللاحقة بعد "كانط"، ومنذ "ماركس" بين المادية والمثالية؟!

إذ لا يمكن أن يوجد فيلسوف وغبي بآن، ليقبل أن تكون آراؤه "طوباوية "Utopia" مثالية لا صلة لها بالمصير ولا بالواقع، وهي صفة القصّاصّ لا الفيلسوف، كما لا يمكن أن يكون هناك أي تجريبية دون فكر يريد أن يفحص شيئاً ما!؟

ولعل أساس هذه العنونات "Labelling" الاسمية "النومينالية Nominal "(*) هي أحكام القيمة التي يقحمها الفكر الإنساني حين يعجز عن الشرح، مثل: الأسوأ والأفضل والأحسن والأضل.... الخ وهي بلا قيمة سوى مدى السلطوية التي تطلقها ضد حرية الآخر؟!

وقد تبادلت التجريبية مع العقلانية هذه الأحكام، كما أطلقها من أوغل بالماركسية مدعيا أنها فلسفة ومادية بآن، ناعتاً سواه بالطوباوية والمثالية والاستعمارية وكل نعت تحقيري، برأ نفسه منه بعبارة – ذكي – المشذبة: بتقدمي،

(*) نرجو عدم الخلط بين "النومينالية" أي الاسمية "Nominal" التي لا واقع لها، وبين "النومن Noumenon" في تعريف الشيء بذاته كما هو، كعكس للظاهر أي "Phenomena" ، وهو الذي يحمل هذا الظاهر وجواهره – بواطنه – على الوجود، والذي نستطيع الإشارة إليه في كل ما هو متعال عن التجريب، لكنه يحدد حدود الوجود "Transcendental" كمبدأ لكل منهم مثل الميتافيزياء والإلهيات.

ومتسلط بعبارة" طليعي، وسواه: رجعي متحجر – أي غبي –، وهكذا انتقلت الفلسفة من أحكام القيمة مع الماركسية الى الشتائم؟!

ولتلافي هذا الخروج الفاضح عن الفكر مسبقاً أظهر "كانط" عدم واقعية هذا الخيار الحاد بين التجريبية والعقلانية، بقوله: (إن هناك مصدرين للمعرفة الإنسانية – ينتجان من مصدر واحد غير معروف – وهما تحديدا الإحساس والفهم... وهذه الصفة المتعالية على التجربة "Transcendental" يجب أن تشكل القسم الأول من العلم بالعناصر)[1]. أي كيفية المعرفة العلمية!!

فلا فلسفة دون ميتافيزياء متعالية على التجربة لتسمح بكل تجريبية علمية ممكنة، وقد جاءت ضرورة هذا الترابط بين متعاليات الميتافيزياء مع فلسفة كل علم ممكن حسب قول "كانط" – الذي يصغر "ديفيد هيوم" بثلاث عشرة سنة – من ديفيد هيوم" الذي أيقظه من سباته الدوغماطي، ودفعه الى اتجاه جديد كلية بالبحث بحقل الاستقصاءات الفلسفية، وهو مفهوم السببية الذي طرحه – نقضه هيوم –[2] والذي يرجعه "كانط" الى الحس العام "Common Sense" الناتج عن ملاحظة كل انسجام كوني، حيث يمكن من خلاله التعرف على هوية الغائية في الكون "Purposiveness"، التي لا يمكن إلا الإحساس بها بَعدياً، حيث افتراضاتها – هذه الغائية – هي التي تضع القوانين العلمية – مثال "نيوتن" الذي كان "كانط" معجباً به، وبمنهجه الذي لا علاقة له بالتجريب لأنه منهج رياضي بحت يثبته التجريب لا العكس، شأنه شأن معادلة البعد الرابع مع "اينشتين" بعد ذلك(*).

وبسبب هذا الشعور بالغائية الكونية "Purposiveness" يشعر الإنسان بمصيره، فينسجم بكلية كونية تشعره بالجمال، يقول "كانط":

---

(1) Philosophical Writings, op.cit. P 37.

(2) Antony Fleuo. A dictionary of Philosophy. Gramercy Books. N.Y 1999. P 189.

(*) معادلة الجاذبية عند "نيوتن": س = تع×ز²

كمعادلة الطاقة عند "اينشتين": الطاقة = الكتلة في × مربع سرعة الضوء

كمعادلات فكرية رياضية بحتة أثبتها التجريب بعد ذلك: "E=Mc2" ولم تقم على التجريب، وتشكل معظم الفيزياء اليوم.

(شيئان يملأن العقل بإعجاب متجدد وبروعة وإعجاب؛ السموات فوق راسي، والقانون الأخلاقي بداخلي، وليس علي أن أبحث عنهما... تجريبياً... إني أراهما أمامي)[1].

هذا هو أساس مفهوم السببية في "تومن" الحس العام او المنطق العام في كل إنسان "Common Sense"، الذي يمكن إثباته دون القدرة على البرهان عليه كحقيقة موضوعية خارج الذات البشرية، شأنه شأن كل المتعاليات على التجربة "Transcendental"؟!

وكما أننا لا نستطيع من خلال الخبرات الحسية تعلم مقولات المنطق "Categories"[2]، ولولاهن لما أمكننا أن نعقل أي خبرة، ولا أن نقوم بأي حكم، فمنهن هذه الخبرات أي الوعاء الذي نستطيع أن ندرك من خلاله هذا العالم، كذلك لن نعقل أي شيء دون الشعور بالغائية من خلال السببية، التي تدلنا على تحسس مصيرنا بالغائية الكونية.

وبهذا المعنى يرسخ "كانط" ويتوج الميتافيزياء على رأس كل علم ممكن، لذلك كتب كتابه الهام: "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً" – وترجمته دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بالقاهرة عام 1967م – وأساسها العقل المحض "Pure Reason" الذي يعني المعطى الفكري القبلي – قبل التجريبي – "A- priori".

بهذا أزال "كانط" النقع الذي أثاره "هيوم" حول الميتافيزياء، فأيقظه من "دوغما الاعتقاد بأن لا حاجة للبحث في أسسها – أي الميتافيزياء – لأنها غير قابلة للهدم، كبداهة كان "كانط" يظن أن لا حاجة للمحاججة حولها[3]؟!

أما مبدأ كل علم "Science" فهو السببية، من منطلق البداهة التي تقررها "مقولتا" المكان والزمان الراسختان قبلياً في "مقولات Categories" المنطق المتعالية – السابقة لأي تجربة –.

---

[1] دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 248.

[2] انظر كتابنا، المنطق والابستيمولوجيا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2003م، ص 190– 222.

[3] انظر كتابنا، الميتافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، عام 1998م.

بهذا نجد أن الأحكام التركيبية ممكنة "Synthetic" بشكل قبلي "A- priori"، ومتلائم مع مقولات المنطق التي هي الأساس لكل شكل من أشكال "Forms" الفكر عبر مفاهيمه المختلفة "Concepts" ، مما يعني أن "الابستيمولوجيا" تخضع للمنطق وتتبعه تبعية منطقية، وهذا يستتبع كل بحث ميتافيزيائي ممكن، تماماً كما للذات هوية ما وراء المشاعر والرغبات والفكر، وكل زمن نحدد به حركية حواسنا الداخلية، وكأن الأبستيمولوجيا هي "ذات" الميتافيزياء؟!

هذا ما تدعيه كل عقلانية بمعزل عن أي تجريب امبيريقي، لكن "كانط" حددها بعالم الظواهر الذي لا يمكننا تجاوزه نحو عالم "النومن" المغلق على حواسنا، وبه كل ما قيل عن الجواهر وخلود الروح من عدم خلودها، ومحدودية او إطلاق المادة – قديمة أم محدثة – ووجود الله، وهي موضوعات يمكن أن تثبت ذاتيا دون إمكان البرهنة عليها مع او ضد؟!

وهذه الذاتية تتفق مع كل ذاتية باختلافها الطفيف عن نوعها، وبهذا الاختلاف أساس كل فعل مبدع وقناعة لا تطال الجميع، لكن بها ركن من أركان اليقين، تماما كما لا أستطيع أن أبرهن الآن على وجود شخص آخر تماماً يشبهني وهو يكتب فيما أكتبه الآن، رغم أنه احتمال وارد عندي يمكنني أن أتصوره وأثبته لنفسي، إذا كنت أومن بالزمن الراجع الفيزيائي او بالقرين الديني؟!

الذاتية إثباتات وجماع قناعات، مرهون خطؤها وصوابها بالموضوعية والبرهان المستحيلين في المتعاليات، تلك حدود عالم الظواهر الذي نعيشه ونحاول ضبط الموضوعية بمقولاته، بينما لا يضبط الفكر الذاتي إلا الأفكار، فإذا حصل ما هو نادر بانتقال أحدها الى حيز الاتفاق الموضوعي عليها، خضعت للمقولات وصارت علماً "Science" موضوعياً يمكن لكل ذاتية أن تشارك به، هكذا يتغير وجه الميتافيزياء فتصير علماً!!

وكما يرتبط المستقبل الفردي لكل فرد بذاتيته، يرتبط المصير الفردي ككل بقناعات ذاتيته، فإذا اقتنعت بأن جوهر الحياة مثل جوهرك إرادة وتصوراً كما قال

"شوبنهور"، او إرادة عمياء مثل "نيتشه" او إرادة اعتقاد مثل "وليم جيمس"، ارتبط مصيرك بتلك القناعات منطقياً، تماماً مثل من يعتقد أن جوهر الحياة مثل جوهرك: فكر كما عند "ديكارت" او "بيركلي"، فارتبط مصيرك بالفكر.

وبالجهة السلبية المقابلة من يقتنع بأن جوهر الحياة قهر وتدمير مثل جوهره الذي يشعر به، ارتبط مصيره بالجريمة؟!

لذلك قال "وليم جيمس" (ان الإيمان بواقعة ما يخلق تلك الواقعة)[1]، بل يربطها بمصيره، "فما تريده من نفسك يكون وما تريده من الآخر يكون"؟! فأنت لن تخلد إذا لم تقتنع بالخلود كجوهر "بأناك" الذي لن تطاله الصيرورة، كما تعلم أنها لم تطله الى الآن – منذ لحظة وعيك لم يتغير "أناك" – ولن يكلأك الله برحمته إذا لم تؤمن به، فأنكرت أنه صانع الوجود والعدم، وأكثر من هذا يمكنني القول:

إن الإنسان لا يعاقب من الله بالجحيم او يثاب بالجنة، بل هو الذي يختار احدهما ليعيش فيه طوال حياته – لكل جحيمه – وما هو في الأرض بعد الموت، فاحذر من أفكارك الميتافيزيائية حذرك من جوهر الشر "إبليس"، لأن بها تحدد مصيرك المعلوم تجريبياً اليوم، والغائب الذي تعكسه أحلامك عن الغد، وبهما قبسات المصير!؟

لذلك ركزت مدارس علم النفس المعاصرة على أن صورة الإنسان الحقيقية عن ذاته في أحلامه، سواء باليقظة او عند النوم[*]؟!

وهذا يقودنا الى أهمية الأخلاق والاستاطيقا "Aesthetics" لا بمعنى علم الجمال فقط بل بمعرفة – بمعنى علم هنا – القبح أيضاً، ولا بمعنى التخلقات المختلفة والأخلاق، بل بمعنى خلقك أنت؟! وهذه هي: "صلة القناعة الفردية بمصير الفرد".

---

(1) William James, The will to Believe, Longmans, N.Y 1897, P 25.

(*) الأحلام تعكس انطباعات كل إنسان سواء انطباعاته عن نفسه او عن الآخرين وتجاربه معهم ومع بيئته.

الباب الخامس

صلة القناعات الأخلاقية الفردية بمصير الفرد

حاول "سقراط" أن يقول لنا منذ بداية التفلسف الناضج، إننا خالدون خلود "الإستقصات" الأربعة التي تتولد من بعضها بعضاً، فإذا ذهبت الحرارة حلت البرودة والعكس، كذلك الجفاف والرطوبة، واليباسة والرخاوة، والكثافة واللطافة.... الخ. (كون الواحد من كل زوجين ينشأ عن الآخر، وأن هناك عملية تولد الواحد من الآخر)[1]، وبالقياس على هذا ذهب "سقراط" الى القول: (أن اليقظة تنشأ عن النوم)[2] والموت كنقيض للحياة ينشأ منها وتنشأ منه، وهذا يتلاءم مع ما جاء بالذكر الحكيم – النقـــل – ﴿.... وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، [آل عمران/27]. كما تكررت عبارة ﴿ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ في [الأنعام/95] وفي [يونس/31] وفي [الروم/19]، دلالة على لفت نظر المؤمنين الى أن الموت والحياة متعاقبان ومن مصدر واحد.

---

[1] أفلاطون، آخر أيام سقراط، دار الكتاب العربي، بيروت عام ؟ ص 143.

[2] المرجع السابق، ص 144.

فلما كان الأمر كذلك وكان أروع ما في الحياة؛ المعرفة، لأن الإنسان يمل من كل شيء إلا من مزيد من المعرفة، والمعرفة هي التي تعصم الإنسان من شرور الخطأ والضلال، يقول "سقراط":

(فإذا كانت جميع الحقائق كالجمال والصلاح توجد فعلاً، وإذا كنا نعاود اكتشافنا إياها)[1] – حسب رأيه بنظرية المثُل، التي صاغها بعد ذلك "أفلاطون" – او على الأقل لها وجود قبل وجودنا زمنياً ومنطقياً، يستتبع أننا حين نختارها نختار خلودها اللامركب، بينما الشر ليس بخالد لأنه آني ومركب من سوءات متعددة (الكائن غير المنظور لا يتبدل، أما المنظور – الآني – فلن يبقى)[2].

الروح متعالية على الإحساس فهي لا منظورة، وكذلك كل القيم العليا متعالية "Transcendental" ولا منظورة أيضاً، فكلاهما خالد لأنهما من طبيعة ميتافيزيائية – ومفارقة – واحدة، لذلك على من يسعى الى الخلود حسب "سقراط" أن يقضي حياته على أقرب مسافة ممكنة من هذه المتعاليات، لذلك اعتَبرَ أن (الفلاسفة أنصاف موتى وهم على قيد – وثاق – الحياة)[3]. لأنهم سيجدون كل هذه المتعاليات الرائعة في العالم الأخر؟! فعلى (إنسان كَرّسَ نفسه للفلسفة أن يبتهج متهللاً أمام الموت، واثقاً من أنه سيجد أعظم بركة في العالم الآخر)[4] – اللامنظور – فالنفس سوف تبلغ حين الموت (مكاناً شبيهاً بطبيعتها وقريباً لها)[5].

هذا هو أساس اهتمام كل فلسفة ميتافيزيائية بالأخلاق والقيم، فلا تجد أي منهج ميتافيزيائي يخلو منهما، حتى ولو كان بالسلب مثل "نيتشه"، ولتلاقي الأخلاق مع القيم العليا وباقي المتعاليات، تجد تجسيدها في هذه الحياة: بالجمال.

من هنا كان الثالوث الإغريقي: "الحق والخير والجمال" طريق كل معرفة في الحياة تؤدي الى العرفان بعد الموت، وهو الثالوث الذي لا تخلو منه فلسفة أي

---

(1) المرجع السابق، ص 160.

(2) المرجع السابق، ص 163.

(3) المرجع السابق، ص 127.

(4) المرجع السابق، ص 126.

(5) المرجع السابق، ص 173.

فيلسوف، لتميز فلسفته بين الحقائق وتبدياتها، بين ظواهر الأشياء والشيء بذاته فيها، فيما وراء كل باطن مضلل، وظاهر يتملص من البقاء، وعرضي خائن غدار به كل غوايات التواجد، والضلال عن الوجود بتضليلاته السطحية والمؤذية الى أبعد الحدود.

• وللجمع بين هذه العقلانية المتعالية وكثافة الواقعية، لا بد من تسخير العقلانية للإثباتات التي تقود الى الإيمان الفردي، والإمبيريقية التجريبية لتوجيه السلوك بعد القناعات والإثباتات، نحو الوقائع "Facts" التي تحكم الواقع، بكل برهان ساطع للنوع لا للفرد كالإثبات.

بين الإثبات والبرهان يمكن البحث عن المذاهب الأخلاقية عند الفلاسفة، وكلاهما يشكل الإلزام "Imperative" الأخلاقي، الذاتي الفردي الذي يلزم الإنسان نفسه بنفسه فيه، عبر كل ثوابت المثبتات عنده، والإلزام الاجتماعي الذي يحاول المجتمع فرضه على كل أفراده، وبه يظهر الظن بأن الأخلاق نسبية لاختلاف الالتزامات الاجتماعية بين الأمم.

للإنسان أن يختار بين المثبتات التي ثبتت له عبر قرادته، وبين البراهين التي تظهر عيانا في أخلاق بعض الأمم، فقد يثبت لديك أن الجريمة لا تكافح بقوانين الإعدام، لكن البرهان عند المجتمع هو بجعل الثأر بيد الدولة لا بيد الأفراد، وإلا كانت الفوضى؟! ولا يحل هذا الأمر إلا ببحث مدى تمكن الحقد والثأر من نفوس الناس، فإذا خفت هذه العمومية بين الأفراد، ظهر عندهم مطلب التقويم لا الانتقام، وهو أمر بحاجة الى ثقافة فردية عالية، لا تتوفر في المجتمعات الحالية اليوم كلها.

إن الإثباتات الذاتية فيما يتعلق بالمصير شيء متصل بالخلفية الفكرية والثقافية للإنسان، وبالقناعات الإيديولوجية او بطرق العيش فإذا حصل التوفيق فيها بين العقل والنقل، وهي – أي الإثباتات الذاتية – فيما يتعلق بالأخلاق تنفصل عن العقل الذي ثبت بالنقل او العكس، نحو حاسة داخلية – نفسية – هي الضمير قد

يخالف سلطانه كل عقل ونقل بكل قناعاتهما، ومثال ذلك من يعتنق مذهب السيطرة وضرورتها بفرض إرادة القوة مثلاً على الآخرين، عقلياً ونقلياً قد لا يستطيع ارتكاب القتل الذي يدعو إليه مذهبه النازي او الشيوعي؟!

والمانع هنا هو الضمير!!

الضمير حاسة داخلية إذا تعمل بمعزل عن المثبتات وعن المبرهنات، بها يمكن أن تضفي على الإنسان صفة الإنسانية!! وبدونها لا قيمة لأي فرد مهما كان شكله بشرياً، وهذا يعني أن القوانين الأخلاقية التي تنبع من الضمير بخلاف القوانين المنطقية التي تنبع وتحكم العقل لا تظهر إلا حين الممارسة، فبالقوانين التي تحكم العقل – المنطقية – يمكنك أن تشكل القناعات سلباً دون ممارسة، وإيجاباً بتطبيقها "امبيريقياً"، أما القانون الذي يحكم الضمير فهو إما حي لا يظهر إلا بالممارسة، او ميت يُتَبَجح به دون أي فعل؟! يقول "كانط" (لا يوجد في المنطق أي جانب أمبيريقي.... لأنه أداة "Canon" لكل فكر وعقلانية.... بينما القوانين التي تحكم الطبيعة والأخلاق، على العكس من ذلك، لكل منها جانب تطبيقي "امبيريقي")[1].

فعلى الفلسفة إذا أن تميز بين المبادئ الأساسية التي تحكم الوجود، لا أن تخلط بين ما هو تجريبي برهاني، وما هو عقلاني فكري يثبت العقائد نفياً او إيجاباً!!

وهذا يدفعنا الى تمحيص معنى الفضيلة في الأخلاق، لا كمجرد وسط بين رذيلتين كما عند الإغريق، كالشجاعة وسط. بين التهور والجبن، والكرم بين الإسراف والتقتير، بل أيضاً متى تصبح هذه الفضائل رذائل حين تصبح الشجاعة رذيلة ضد الضعفاء او لأجل التباهي فقط، وكذلك الكرم حين التباهي بتوزيع الصدقات أمام بيوت الأغنياء في الأعياد مثلاً، وهذا الانحراف بالفضائل لا يضبطه إلا الضمير، لأنه هو الذي يحدد النية من خلف أي فعل!!

---

(1) Immanuel Kant, Grounding for the Metaphysics of Morals, Hackette Pub. com. Indianapolis 1981, P 1.

النية: هي التي تحدد الفعل الأخلاقي، فإذا كان كل من يقدم للناس عملاً مبدعا امبيريقيا بنظرهم فاضلا، فالأخلاقي يريد أن يعرف هدفه من هذا العمل، فلا أخلاق دون هدف سامٍ يسعى للحق والخير بذاته فهو جميل، لا لأي هدف آخر حتى ولو كان طلب الثواب سواء في الدنيا او الآخرة، لهذا قيل: إن الجمال - بحد ذاته - يتسأهل كل التضحيات؟!

وعلى هذا الأساس من النوايا يحاسب القانون وتقوم كل القيم الأخلاقية الرفيعة، لهذا اعتبر "كانط" أن أخلاق الواجب "Deontological" المطلقة إلا من هدف الخير المطلق، والحق المطلق، هي أساس كل حكم أخلاقي على أي سلوك كان، سواء في المجتمع وبين الناس من جهة أو بين الفرد وضميره من جهة أخرى، ومثل هذا الفعل الأخلاقي هو الذي ينقل القناعات المثبتة عند الفرد الى برهان امبيريقي على صدقها أمام الآخرين.

وكمثال على هذا الدليل الامبيريقي المعاصر هو: هذا التفاوت الفاضح في نظرة الغرب الى الإسلام، من خلال القلة عندنا التي تفتقد الى كونها قدوة حين تحتك معهم، وإلا فالمبادئ الإسلامية قادرة على الثبات والإثبات بأي فكر، يُشوهها من من المفروض فيه أنه يحملها إليهم!! لهذا يحتفل الأسبان الى اليوم بالخلاص من - المور - الأندلسيين(*)، ولا يتعاطف احد مع العراق او الأفغان او حتى الفلسطينيين، بسبب ما فعلوه حين كانت بيدهم سلطة ما، سواء في بلادهم او في لبنان او المغترب - الشتات-؟!

فهل الجهل هو أساس كل الشرور كما قالت الإغريق، ونسبة الجهلة منا المرتفعة هي السبب؟!

الجهل بماذا ؟! الجواب يكمن بفهم هذه الحاسة الداخلية التي أسمها الضمير فينا، ومعاملتها برقة معاملة حاسة النظر الخارجية من جهة، ومن جهة أخرى التعرف على أن الإجبار - Deon: كلمة إغريقية تعني القسر - الذي يخرج من

(*) بينما نحن نندبهم بكل مناسبة على الدوام؟!

الضمير ضد أي فعل لا يرضى توجهه في هذا التواجد "الانطولوجي"، ومن هنا عبارة "ديو انطولوجي Deontological " التي تعني بالعربية: إجبار الواجب.

وفي ثقافتنا الشعبية الكثير من الوعظ الأخلاقي، وهو ككل قول مردد يمكن أن يتلاعب الإنسان بقيمه، فالشعر الذي تصر كل وسائل الإرسال على تكرار جانب الحب فيه، يمكن تحويل كلماته الى كاريكاتور؟!

فمن كثرة ما سمعنا أغنية:

أحــور المقلــة معسول اللمـــى   جـــال في النفس مجال النفس

رأيناها:

أحول المقلة مضروب العمـــى   جال في النفس مجال الفسوة؟!

وهكذا صار العقلاء ينفرون من كلمات الغزل لكثرة تردادها، ويقلبون معانيها حسب أحوالهم، للهزء من مدعي العبقرية من عميان القلب والنظر في الجامعات؟! وكل الأماكن التي يختلطون بها بمدعي "طه حسين" لأنهم عميان فقط!؟!

الوعظ كالتكرار – إذاعياً او دينيا كل أسبوع- ينفر من الوعاظ وقيمهم، لذلك نحن أكثر البشر تبجحاً بالأخلاق وأقلهم ممارسة لها، كذلك نحن الأكثر بين كل شعوب الأرض نفوراً من الواجب، وبهذا صلب تخلفنا الحضاري وكل إساءة لديننا الحنيف منا!! قبل أن يسيء إليه الآخرون؟!

علينا أن نعرف أن الواجب ليس احتراماً للقانون، بل هو احترام للضمير، والوفاء به أساس كونك إنساناً، إذا خالفته لا تخالف القوانين – الوضعية او الدينية فقط، بل تخالف أساس احترامك لنفسك كإنسان؟!

والإنسان حين يفقد أهم ما فيه: كرامته، بفقدان ضميره فلماذا يسعى الى الخلود بلا ضمير ولا أخلاق؟!

بل كيف يسعى الخلود إليه عبر هذا المصير التعس مع المطلق ببلايين اللانهايات وأكثر، ذلك أن الأبد مع ضمير مثقل بجراح الآخرين أسوأ عقوبة ينالها الطغاة، وبذلك يتحول الخلود الى جهنم عندهم.

قال "سقراط":

(فإذا كانت جميع هذه الحقائق الواقعية المطلقة كالجمال والصلاح، والتي نتحدث عنها دائما موجودة، وإذا كنا حين نعاود اكتشافها نرد إليها جميع مواضع إدراكنا – الى نماذجها – إذا كانت هذه الحقائق موجودة آلا يتبع ذلك أن أرواحنا يجب أن توجد.... وإذا كانت هذه الفرضية مستحيلة، فيكون كذلك وجود هذه الحقائق مستحيلا)[1]، ولأن الروح متعالية على التجربة فهي أشبه ما تكون بالقيم العليا الأخلاقية، فمصيرها هو مصير تلك القيم المتعالية، فإذا فقد الإنسان هذه القيم كيف سيجد روحه بعد الموت وأين؟!

طبيعي أنه سيجدها مع فاقدي القيم مثله؟! أليس هذه جهنم!!

قال "سقراط":

(فإذا كانت الروح حال انعتاقها نقية طاهرة.... فإنها تغادر الى مكان يكون مثلها)[2]، وهكذا خلص "سقراط" الى أن (أسعد البشر الذين عاشوا الصلاح – وهم – يكتسبونه عن طريق العادة والممارسة)[3]، بل حين الإصغاء الى ضميرهم الذي به ينجون في هذه الحياة الطبيعية التي سماها "سقراط" إلهية[4] (فروح الفيلسوف الصحيح تشعر بأنه يتوجب عليها أن لا ترفض فرصة إطلاق سراحها)[5].

لأن الكونية هي هدف المصير مع المطلقات، ولأنها كذلك ذهب "كانط" الى مبدأ أساسي يحددها وهو: أن (كل عمل نريد أن يكون أخلاقياً يجب أن نتصوره

---

[1] آخر أيام سقراط، مرجع سابق، ص 158.

[2] المرجع السابق، ص 167.

[3] المرجع السابق، ص 169.

[4] المرجع السابق، ص 170.

[5] المرجع السابق، ص 171.

قانوناً عاماً... فإذا كان الكذب بالوعود ينسجم مع الواجب، علي أن أسأل نفسي هل أرضى أن يكون فعلي هذا مبدأً عاماً كونياً)[1]، وذلك قبل أي سلوك؟!

وهذا يعني أن ما تفرضه الرغبات او الإرادة على السلوك يجب أن ينسجم مع العقل، في توجهه نحو المعيار الكلي الأخلاقي الذي يفرضه كل واجب منطقي، وهذا هو مفهوم الإلزام الأخلاقي الذي يعبر عنه الإنسان بعبارة: يجب علي فعل كذا؟!

الواجب إذا هو في صلب كل عمل أخلاقي يوجبه "Imperative" الضمير، فهو لا يعني المسؤولية فقط لأن أحداً لن يسألك عن خفايا واجباتك الأخلاقية سوى ضميرك؟!

ومن يمتلك هذه المساءلة يمتلك الفعل الأخلاقي، وبالتالي هو مرشح لخلود نقي من كل مسألة مفارقة سيصير إليها يوم المصير!!

الواجب إذا إجبار يأتي من حاسة داخلية هي الضمير، تماماً كما يأتي النظر من حاسة خارجية، يمكن أن يصيبها العمى، وكذلك الضمير يمكن أن يقتل، وموته يسمى باللغة مجازاً عمى القلب ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، [الحج/46]، وكل مؤسسات الطغيان موجهة نحو تدمير الضمير وإعماء هذه الحاسة الداخلية، فلكي تعتاد القتل مثلاً: تتدرب قوات الكوماندوس "Commando" على سلخ جلود الأرانب وأكلها حية، او قلع عيون القطط حية، فإذا قاوم الضمير ذلك مرة او عشر مرات، فإنه لن يقاوم عشرين مرة فيذوي، من منطلق أن السلوك يصنع التوجه في علم النفس "Behavior create Attitudes" والعكس[2]؟!

الواجب إذاً إجباري "Imperative" لأن الضمير يجبر عليه، كما يجبرك على كل المثل العليا، لكنه مرتبط بحياة هذه الحاسة الداخلية وبمصيرها ارتباط الضوء بالإبصار وارتباط الجمال بالحاسة الداخلية التي تسمى مجازاً بالذوق!!

---

(1) Grounding for the Metaphysics of Morals, op.cit, PP 14-15.

(2) أنظر كتابنا، علم النفس، مرجع سابق، ص 36 وما بعدها.

تلك الحواس الداخلية التي بدت لأفلاطون من شدة قوة التقاطها اللاشعورية للفكر والمشاعر والرغبات والضمير، كما لو أنها كانت قد اختبرت ما تلتقط من عالم "المُثُل"، بينما هي تعكس كل خبرات النوع الجينية فيها، واللاشعوري وكل الأفكار المكتسبة أيضا في خليط اسمه الشخصية، والشخصية هي التي تحدد المثبتات عند الإنسان، وكذلك تقبل او لا تقبل البراهين التي تعرض عليها هذه المثبتات!!

ليواجهها الضمير بالواجب الذي يحرك مصيرها نحو الأهداف السامية، او يتخلى عن هذا المصير إذا قتل، آن ذاك يحتاج المتخلي عن الضمير الى كل الإثباتات على عدم وجود الخلود، لأنه لو وجد لصار الى أحط درجاته الى الأبد، برحلة لانهاية لعذباتها، وهذه الرغبة بالعدم عند العدميين تشبه رغبة النساك بِجَب أنفسهم كي يتجنبوا الجنس الذي يعتبرونه نجساً، وهنا يَجُبُّ العدميون حاسة الضمير لديهم كي لا تطالبهم بالخلود، وهذا الإخصاء – أي الرغبة بالعدمية – بحد ذاته دلالة على أن مثبتات الخلود قائمة حتى في ذات من ينكرها لأنه يخشاها!!

فهذه المثبتات إجبارية إجبار الواجب، بل لولاها لما كان هناك واجب أبداً، تلك هي تبديات الإجبارات الأخلاقية في ارتباطاتها القطعية بالمصير.

وفيما عدا عن ذلك يُمكنني القول: أن الإجبارات الأخلاقية من خلال الثواب والعقاب؛ مجرد إجبارات برغماتية نفعية، لا قيمة لها، ولا هي في ميزان المصير ذات شأن كبير، لكنها ربما في ميزان التعامل الاجتماعي بين الناس خير مساعد على ما يسميه علماء الاجتماع: بالضبط والربط الاجتماعي، فلولا الخوف من الله لدمرت المجتمعات الأمية نفسها؟!

إننا وبالواجب بمعزل عن مكاسبه نجعل من أنفسنا ومن الآخرين قيمة كبرى، تصبح غاية بحد ذاتها في مواجهة المصير، كأمر لا يعرف مدى علوه إلا من يدرك ذلك – ما نقول –، وعدا عن هذا لا كبير فرق في الثواب والعقاب الأخلاقي بيننا وبين كلاب "بافلوف" في منعكساتها الشرطية؟!

لذلك يصرح كل أخلاقي عاقل مع "كانط" بأن (الفرد – الإنساني – ليس هدف الذاتية... التي لها أهمية – قيمة – بحد ذاتها... بل هو هدف الموضوعية التي توجد كغاية بحد ذاتها)[1] يجب أن لا تكون إلا للعقلاء فقط، لأن هدف كل مصير و(كل غاية هو: في كون كل كائن عاقل غاية بحد ذاته)[2]، وبذلك نلمس نسمات الخلود، وبعبارة أخرى: "نسمات الجنة تهب من هذه الثوابت"تلك هي الحرية الحقيقية التي تقود الى المصير المفارق والميتافيزيائي الذي ينتظر كلاً من، "وكل آتٍ قريب" ليحيى من قال ذلك الى الأبد الفاضل.

هكذا نجد أن هذا الإلزام للواجب قبل التجريبي، يدل دلالة ذاتية على قبلية "Apriori" المعرفة، فيمكننا إضافته الى القبليات "القاطاغورية"[3] أي قبليات المقولات "Catagorical"، التي تتضمن كل إلزام قبلي نفهم من خلاله او نصوغ السببية، مما يفتح الباب على مصراعيه بين المنطق والميتافيزياء من جهة، والأخلاق من جهة أخرى.

مما يعني أن سلوكنا يخضع الى قوانين ما وراء الطبيعة – ما وراء طبيعية – إضافة الى خضوعه لقوانين الطبيعة، ونتيجة هذا التلازم أحياناً والتعارض أحياناً أخرى بين الواقع والميتافيزياء[4]، يتخذ البعض جانب الواقعية المسرف كالتجريبيين – ومن يدعون المادية، ديالكتيكية كانت أم مجرد مادية ملحدة –، ويتخذ آخرون جانب الميتافيزياء – فلسفية كانت أم مفارقة دينية –، وبهذا يظهر لكل مراقب حيادي او معلق أحكام "Agnostics"، أن: هناك قوة تحرك كلا الفريقين لولاها ما اختلفت وتضادت المواقف هي: **الحرية**؟!

الحرية: ولذلك يمكنني القول: إن أساس الحرية هو الضمير الذي لولاه لما كان هناك شعور بالواجب، ولا أي دلالة على قبلية ميتافيزياء قوانين الوجود، إنه

---

(1) Grounding for the Metaphysics of Morals, op.cit, P 38.

(2) Ibid, P 38.

(3) أنظر كتابنا، المنطق والابستيمولوجيا، مرجع سابق.

(4) أنظر كتابنا، الميتافيزياء والواقع، الدار البيضاء، عام 1998م.

الحاسة الداخلية المغروسة بنا من وجود كلي ميتافيزيائي - بل - مفارق، يتسم بالعقل الكلي المتجلي في كل أمر أخلاقي ملزم وقانون متسامٍ او امبيريقي، مما يؤكد قول "كانط" الذي سبق لنا إيراده: (لأن هناك مصدرين للمعرفة الإنسانية ينتجان من مصدر واحد غير معروف وهما تحديداً: الإحساس - المادي - والفهم - العقلي-!!)[1]، ويمكننا أن نضيف أن مصيرنا مرتبط بهما، فإذا كان الأول- الإحساس - سابق للفهم الفردي في حياة الإنسان، فإن الثاني العقل سابق لوجود الإنسان سبقا زمانيا ومنطقياً معاً، فهو لاحق لوجوده بعد موته ميتافيزيائياً فلسفياً، او مفارقا دينيا!!

بهذا يمكن البحث في المصير، وعلى هذا يمكن الاستناد في هذا البحث الميتافيزيائي الشاق؟!

فأنا حين أفكر في نفسي أنني مخلوق حر، صانع لأفعاله ضمن زحمة القوانين الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بي من كل جانب، أشعر بأن حريتي ملك لقراراتي العقلانية حول هذه القوانين بإسكاتها، او بوضعها في مواجهة بعضها بعضا، فإذا خانني قانون الجاذبية وكسر عظماً من عظامي، أضع أمامه القوانين الطبية في تجبير العظام، وإذا خانتني قوانين العدالة في مجتمع ما أهاجر الى سواه، وإذا أراد عدو إذلالي وقتل ضميري أجاهده الى حد الموت، فأنا حرية غير مطلقة لكنها مستندة الى مطلقات، فلست ملكاً للطبيعة وقوانينها وحدها، أنا ملك للمفارق وقوانين الميتافيزياء أيضاً فبي كلا الجانبين الفيزيقي الطبيعي الذي اختبره تجريبياً امبيريقياً، والجانب المفارق الذي يشعرني بكياني الحر المطلق ميتافيزيائياً، وبهما وبتعارضهما أبرز ككائن حر.

هكذا تستدعي حريتي جواهر وجودي القائمة على المفارقات، كشعوري وإحساساتي الداخلية بأنني أقوى من الزوال، لأنني أنتمي الى قدرة مفارق هو الله تعالى، منه يأتي حفظي بروح مؤيدة منه تعالى بكل أفعالي التي يفرضها علي

---

(1) Philosophical Writings. op.cit. P 37.

ضميري، وكل حاسة داخلية تشعرني بجوهري الروحي كوجود بذاته – نومن ان شئت حسب "كانط" –، لا تخضعه إلا القوانين التي يلزمه بها واجبه المطلق الذي صنع جوهره – الله تعالى – وبهذا يمكن الشعور بقوة فائقة هي: الإرادة الخيرة!!

وهي إرادة القوة الحقيقية المستندة على المطلق - الله – لا إرادة القوة "النتشوية" نسبة الى "نيتشه" – التي يحركها عماء السيطرة لمتعة السيطرة بلا هدف سوى لذة القوة والغلبة، فكل هدف ميتافيزيائي هو حقاً أفضل لأنه أدوم من كل هدف فيزيقي، وبمثالنا السابق "إرادة الخير" ميتافيزيائية نحو مفارق، وإرادة السيطرة محدودة بالطغاة!!

الأولى متعالية "Transcendental" جميلة، والثانية محدودة بشخص الطاغية فقبيحة، فإلى أي منهما يجب أن يتجه المصير؟! كذلك أستغرب قول "نيتشه" (إننا بمدى إيماننا بالأخـــلاق نحكم على الوجود – بالإعدام)[1] فيما يناقض قوله (إن التشاؤم صيغة أساسية من العدمية)[2]؟ فكيف لا يتشاءم من يرتبط بالنهاية المادية فقط في كل قول او فعل يفعله، دون أن يأمل بعود أزلي باطل ويستدعي الأخلاق أيضاً.

لذلك يمكننا القول: إن عدم او إعدام المتعاليات والمطلقات هو أساس كل عدمية متشائمة، فأنت لا تستطيع مهما حصلت على القوة والمتعة الفيزيقية أن تضمن بهما أي مصير؟!

والميتافيزياء مدخلك العقلي الى المتعاليات، كما مدخلنا النقلي لها القرآن الكريم – نحن المسلمين – فإذا كنت فيلسوفاً لن تتعارض مع شرعنا الحنيف، وهذا هو جوهر "تقسيم المنطق والبرهان"[3] لابن رشد في كتابه الهام: " كتاب فصل

---

(1) The Will to Power, op. cit. P 11.

(2) Ibid, P 15.

(3) ابن رشد، كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، دار المشرق، بيروت عام 1986م، ص 52.

المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال"[1]، وخوفه من التصريح بهذا لغير أهله لقوله: (وهذه التأويلات ليس ينبغي أن يصرح بها لأهل الجدل فضلاً عن الجمهور)[2]؟

هذا الخوف من الجهل بدل أن يخاف الجهل من المعرفة اعتبره "برنارد لويس"؛ من أهم أسباب تخلّف الأمّة الإسلامية يقول: (إن المعرفة – صارت في العالم الإسلامي – شيئاً يجب الحصول عليه وخزنه، – حتى يباع لاحقاً – وشراؤه إذا اقتضى الأمر بدل نموها بالتداول او تطورها)[3]، كأمر عممته "التقية" من الجهلة الذين صاروا يسرحون ويمرحون بإسم الشرع، حتى ضمن المجتمعات السنية!! فما بالك عند من تسموا بالباطنية وهم يجهلون معنى النومن "Noumenon"؟!

لذلك يتجه مصيرنا نحو الانزواء عن الحضارة الإنسانية ما لم نقلع عن عادات التكفير، التي استحكمت بمجتمعاتنا استحكام الجهل بالفلسفة فيها، ولا أعني بالمصير هنا المصير المفارق الأخير للإنسان المسلم، عبر سلم الميتافيزياء، بل مصيره في هذه الدار بين الأمم التي تتداعى عليه كما تداعى الأكلة على قصعتها!!!

أما المصير الميتافيزيائي فلا يمكن أن يفهم عموماً – ولا أقصد عند العامة – إلا بقبس إجمالي يعكسه من موضوعاته، وهو ما نركز عليه في هذا الكتاب، شرط أن نميز بين الصورة الفنية والقوة التي تميزها؟! كتمييزنا بين المعنى الميتافيزيائي و"الاسمية Nominal " التي تتلعب بالفهم!؟

وإلا كيف تفهم الحرية بدون فلسفة تبحث بالمصير؟!

التعبير عن المصير: يتجلى كل تعبير بحاسة داخلية تنقله الى الحواس الخارجية، والفكر بحد ذاته حاسة داخلية "Inner Sense" تعكس وتحاكي الفعل عبر

---

(1) المرجع السابق، العنوان.

(2) المرجع السابق، ص 52.

(3) Bernard Lewis, What Went Wrong ?, Vridenfeld and Nicolson, London 2002, P 39.

الحواس الخارجية بفصلها بين النظر والعمل أي بين الأحكام والسلوك، أي تحاكي العالم الخارجي، وبقدر تطابق الحواس الداخلية مع الخارجية مع الموضوعات التي نريد معرفتها، بقدر ما نقترب من الصواب، فنرجح أمراً على آخر او نسمي فعلنا صائباً – بشكل ترجيحي "Plausible" كما سبق وأوضحنا –، فادعاء الحقيقة "الترجيحية" ملك لحاسة الفكر، وظهور الخطأ يعود الى مدى توافق من عدم توافق فكرنا مع ما اختاره الفكر الكلي ليكون واقعة – وقائع "Facts" – في الطبيعة.

لذلك قال "وتغنستين": (يجد الفكر التعابير عبر تلقيه لها من الحواس)[1]، وهذا موقف تجريبي طبعاً، لا يدخل فيما شرحناه بل يستنتج منه، وهو كترجيحي صحيح بدليل قوله: (إن ما يمكن التفكير به هو ممكن أيضاً)[2].

فصلة الفكر بالحواس وصلة الحواس بالوقائع الطبيعية وما وراءها "Facts"، أمر أصبح واضحاً ومتميزاً في كل الفلسفات الكونية، فالعبارة يمكنها أن تشترك مع الواقعة التي تنقلها الحواس إذا كانت مشتركة بشكلها – ببنيتها – معها في الوصف، تماماً كما تشترك اللوحة الزيتية مع ما تمثله على يد الفنان.

واختلاف اللوحة، ولنقل لوحة وردة عن الوردة التي رسمها الفنان، مهما حاول التطابق مع ما يرسم هو في الأمور التالية:

1- انتفاء عنصر الخطر من جمال الوردة الطبيعية التي قد تكون بها موادّ تحسسية قاتلة، ككل جمال به سمة الخطر.

2- جمال اللوحة تعبيري يثبت الزمن حسب اللحظة التي رأى الفنان – الذاتية له – إنها مناسبة لرسم الوردة.

3- معنى وقيمة اللوحة إنسانية لا طبيعية، لأن الوردة هي مشروع بذرة في الطبيعة، وجمالها لجذب الحشرات للتلقيح، فإذا جذبت فناناً أضفى عليها إنسانية لا

---

(1) Tractatus, op. cit, P13.

(2) Ibid, P 12.

تهم نوع الورد بحال من الأحوال، وهي طبعاً ستتحول الى مبلغ من المال[1].

وهذا يعني أن معنى التعبير سواء بالفن او باللغة – وهما في أصلهما واحد – هو في كيفية استخدامه – التعبير –، لذلك يكثر التعبير بالإيماء عند الأميين او من يصعب عليه إيضاح فكره للآخرين، فالإيماء على الشيء او محاكاة رسمه بالأيدي أسرع وسيلة للتفاهم، وبه تظهر حدود التعبير: (يمكننا تسمية الأشياء لكن الإشارة إليها هي التي تبرزها)[2]، فأن تسمى الشيء غير أن تعطيه كل ما يمكن من خصائصه فلسفياً، لذلك تطالب الفلسفة بالأبستم "Epistèm" الإغريقية التي تعني النظر للشيء من كل جوانبه بتمعن، لاستقرائه لا لوصفه[3] فقط من أجل وضعه في إطاره المعرفي.

كل هذا يقودنا الى أن الفن وخاصة في تقنية نقل الصورة المرئية أسرع وسائل التعبير الحديثة، دون أن يعني هذا أنه لم يكن أداة تعبير في تاريخه القديم، أفسدته القداسة التي لحقت بإتقاناته، فكلمة "هيروغليفي" كانت تعني عند الفراعنة الصور المقدسة (ويملك المعهد الفرنسي للآثار الشرقية.......... "6000" حرف – صورة – هيروغليفي)[4].

والهدف منها إعادة الأصوات التي نطق بها الأموات فهي: (ازدواجية في الإدراك السمعي لوعي بصري، وحتى الإيحاء مسبقاً الى ما هو أعد من الكلمة.... من أجل.... تحديد سمعي ورمزي في آن واحد للعالم: الكون)[5] وهكذا كانت القدرة الكامنة بالكلمات المكتوبة على استعادة الأصوات تشكل (القاعدة لكل علم مقدس)[6].

---

(1) Ibid, P 15.

(2) ولنا أيضا كتاب لغة إيماءات الجسد، تحت الطبع في لبنان.

(3) المنطق والابستيمولوجيا، مرجع سابق، ص 10.

(4) سيرج سو نيرون، الكهان في مصر القديمة، الأهالي، دمشق 1994 م، ص 165.

(5) المرجع السابق، ص 169.

(6) المرجع السابق.

فأساس كل كلمة مكتوبة إذاً صورة للدلالة على شيء، تنطق أي يعاد نطقها كما لفظها الأجداد، تشبه تقنية نقل الصور المرئية بالوظيفة نفسها التي تنقل بها الأصوات، ومن لا يعرف هذه الخلفية يظنها مجرد صور وثنية لا قيمة لها، لذلك تأخر حل لغز الفرعونية – الهيروغليفية – الى زمن حملة "نابليون" على مصر، وفك ألغازها من حجر "رشيد" الموجود حالياً في المتحف البريطاني منذ عام "1801م"[1].

فنقل الصوت تم بالكتابة مع ظهور (الكتابة في مصر حوالى 3000 ق.م وقد عثر على آخر نص هيروغليفي يعود الى 24 /آب/ عام 394 م)[2]، بينما نقل الصورة والصوت عبر الفضاء كانا من نتاج سبعينات القرن الماضي[*]، بالأقمار الصناعية التي تنقل صور الحدث فور وقوعه، فمن الغباء الحضاري عدم توضيح هذا الأمر في افتراقه عن عامية عبادة الصور التي رفضها الإسلام – الوثنية الكريهة – لأنها سوء استخدام وفهم لمعنى التواصل.

هكذا يتجه التعبير عن المصير بالعبارة والصورة، نحو مزيد من التواصل الذي تحكمه عقلية مضادة لقوقعة المعرفة بإخفائها "الباطني" الشرقي، والخوف "الظاهري" من تكفير من يقولها، فعقلية تبادل المعلومات هي التعبير الفلسفي عن الرغبة بالتكافل في معراج المصير الواحد لهذه الأرض وما وراءها والمفارق لها.

هذه الإثباتات وكل الإثباتات الذاتية في التعبير عن المصير، تحتاج إضافة للعبارة وسائل تعبير أخرى بديلة عن البراهين الرياضية الرمزية الحاسوبية في هذا المجال، فقد ثبت لنا في هذا البحث أن المتعاليات على التجربة، كخلود الروح – بل وجود الروح – والله والخلود، ذات حضور نومن "Noumenon" لا يمكن تحويله الى براهين علمية، بل ذوقية ذاتية!!

---

(1) Alan Moorehead, The Blue Nile, Penguin Books, N.Y. 1983, P 141.

(2) الكهان في مصر القديمة، مرجع سابق، ص 164.

(*) حصل هذا النقل في ثلاثينات القرن الماضي لأول مرة مع الأولمبياد النازي، لكنه لم يعمم قبل التسعينات في بقاع الأرض، عبر الأقمار الصناعية، حيث بدأت تعمل محطات تلفزيونية لأول مرة في تاريخ البشرية.

وفي الذوقية وفي الذاتية صفة من الفن والأخلاق لتعاليهما أيضاً على التجريب، وضرورتهما الواقعية بالتعبير – الفن – وبالسلوك – الأخلاق –، فالقاسم المشترك بين الذوق – الشعور الذاتي وقناعاته المثبتة لا الى حد البرهان – والفن والأخلاق هو الإثباتات المتعالية والسامية أيضاً، وهو الذي يسمى بالتعالى السامي "Transcendental Idealism" الذي به تتحكم الذات بعالم الظواهر، فتعيه وعياً ذاتياً يعكس نفسه بخياراتها الحرة فيه.

والسؤال الذي يواجه مثل هذه الحرية هو:

كيف يمكن للذاتية بناء عالمها الموضوعي؟؟؟

هذا هو السؤال الذي حاول أن يجيب عنه "نيتشه" بإرادة القوة التي تفرض الذات على كل موضوعات الوجود، وعلى الذوات التي تظن أنها موضوع ضمن هذه الموضوعات، وحاول "جيمس" أيضاً الإجابة عنه بإرادة الاعتقاد التي هي بالنتيجة أهم فرع عقلاني من إرادة القوة، فأنت إذا اعتقدت بأمر حقاً، دفعت بكل قواك لتحقيقه؟! أي أعدت بناء كل العالم الموضوعي أمامك بناء عليه.

فالذات وكما في كل الشخصيات التي غيرت العالم من "فيثاغورس" الى "أفلاطون" الى "واط" و"أديسون" الى كل القادة والمصلحين، تثبت أنها بفرادة فرديتها هي التي تصنع منطق التاريخ، لذلك تعد العلوم الإنسانية أن المبدأ الأساسي للمعرفة هو؛ في مدى تمثل الذات التي تبحث عن الحقيقة للمعرفة، وإفرازها بعد ذلك بصيغة فردية فريدة، يتبعها كل معجب بصدق توجهاتها فتصبح موضوعية عامة.

وكمثال على ذلك يمكنك أخذ كل حوارات "أفلاطون" لترى مدى إعجابه بسقراط، فهل الذات السقراطية الى هذه الدرجة من العظمة التي فرضت على "أفلاطون" أن يتقمصها طوال حياته؟!

وأين العكس فيما اقتنعت به أثينا فحاكمته، ومما كتبه عنه "أرسطوفان" "Aristophanes" واصفاً إياه: (بالشاحب البائس حافي القدمين؛ ذلك هو

سقراط)[1] وهو يسأل أسئلة تافهة في مسرحية الغمامة – السحاب – "Clouds"[2]، التي وضعه فيها قبل أن ينال "سقراط" هالة القداسة، التي أضفاها عليه الزمن بعد أفلاطون والمشائية فالباطنية عندنا، الى وقت – زمن – "نيتشه" الذي عامل "سقراط" أيضاً بمعزل عن هذه الهالة.

ولا يفعل هذا إلا قلة ممن قدروا على تفعيل ذواتهم من أحرار الفكر، بمعزل عن التعصب للشهرة "Self Actualisation"[3] والتعصب لشهرة العظماء، ولولا ذلك لما أكـد علماء الفيزياء المعاصرة خطأ "اينشتين" في معالجة انبعاج الكون إذ: (كانت المعلومات الفلكية في أول القرن العشرين أقل بكثير مما هي عليه الآن.... وقد بدا الكون في ضوء هذه المعلومات ثابتاً ودائماً وغير قابل للتغير، على أن نظرية "أنشتين" كان فيها ما يدل على أن الكون يتطور، فأزعجه هذا التضارب.... فأدخل على معادلته الثابت الكوني.... ولولا أن "أنشتين" لم يعدل في نظريته الأصلية هذا التعديل الأخرق، لربما أمكنه أن يكتشف هو بنفسه أن الكون يتمدد)[4] نظرياً قبل أن يكتشفه "هابل" عبر تغير لون ضوء النجوم علمياً – امبيريقياً–.

فإذا كان تفعيل الذات "Self Actualisation" قد دفع "بكلوز" الى هذا النقض القاسي "لأنشتين"، مبيناً خطأه الفيزيائي المدمر لنظريته، فهو الدليل على أن الذات بفرادة فرديتها هي التي تصنع منطق التاريخ، بكل مجالاته السياسية والعلمية والفلسفية وحتى الأخلاقية، ففرادة ذات "نيتشه" غيرت الكثير من الأخلاق، كما غيرت اتجاهات الفلسفة التي سميت بالوجودية المعاصرة وحررتها من سلطة الشهرة المشائية، تماماً كما حررت ذوات الفيزيائيين المعاصرين في الفيزياء، من أخطاء المشاهير أمثال "نيوتن" و"أنشتين"!!

---

(1) The Complete Plays of Aristophanes. Bentam Books. London 1988, P 105.

(2) Ibid. P 101.

(3) انظر كتابنا، علم النفس، مرجع سابق، ص 67.

(4) النهاية، مرجع سابق، ص 230.

قال "نيتشه": (إذا كنت تخجل من سلوكك اللاخلاقي، فهذه خطوة في سلم الوصول الى الخجل من سلوكك الأخلاقي)[1]؟! لماذا؟! (لأن الإنسان يعاقب أشد ما يعاقب على فضائله)[2].

فلا توجد لحظة في تاريخ الإنسانية أهم من تلك التي طرح فيها التساؤل عن القيم – الأخلاقية – لأول مرة، لأنها هي التي تحدد اتجاهات الفكر الإنساني، وحين التقط "نيتشه" هذا الاستقراء دوت ذاته بشكل عنيف في تاريخ الفلسفة، حيث فَعَلّتْ هذا التاريخ أيضاً إضافة الى تفعيلها له لذاته، فصار "سقراط" سبب سقوط "التراجيدية" الإغريقية التي تعبر عن لا معقولية الوجود، بإضفاء "سقراط" لمعقوليته الذاتية على الوجود (فقد نهض "سقراط" ضد "دوينيسيوس Dionysus " وكذلك كان مقدراً عليه أيضاً أن يمزق إرباً بالمحكمة الأثينية)[3]، وهكذا (حولت التراجيدا سقراط – نفسه – الى تراجيديا)[4]، دلالة على واقعة "Fact" النتيجة الصحيحة لكل ذات بمأساة لا معقولة، تحمي كل تفعيلها لذاتها ولا تبقي منه سوى فاعليتها الفكرية، التي تساهم حتى عبر نقدها او نقضها بمزيد من فعاليات البشرية في صراعها مع هذا الوجود، الذي يلفنا بكل ثقل وكثافات غموضه، والحرية ليست أقل من تفعيل الذات عبر كل هذه الكثافات الغامضة، لنجعلها ضمن سياق خطنا الفكري الغائي فينضبط الكون بما سماه الأقدمون بالنظام "نوس" ضد الفوضى الكونية "كاوس".

وقد سمى أفلاطون الفكر الذكي في أرقى تجلياته التي تنظم الوجود الفردي: "نوس Noesis"، بمعنى المعرفة الرياضية البرهانية، والمعرفة الإثباتية الحكمية الحرة الفردية المنظمة، عند من يفهمون "مُثُلَ" الأشياء، وهي كلمة قريبة من انسجام الطبيعة بمصر "نيلوس" التي تعني نهر النيل الفريد الحر المتدفق، وهي

---

(1) Nietzsche, Beyond Good and Evil, Penguin Books, N.Y. 1990, P 105.

(2) Ibid, P 100.

(3) Nietzsche, the Birth of Tragedy, Penguin Books, NY. 1993, P 64.

(4) Ibid, P 75.

عكس كلمة "كاوس Chaos" التي تعني اللانظام قبل وجود الفردية الإنسانية الحرة المنظمة للأشياء في أساس الوجود قبل الإنساني وقبل العقل الضابط للأشياء "Logos"، فحرية الإنسان عبر فرادته تجلت برابط القوانين ببعضها "لوغوس"، الذي بوجوده تنتفي الفوضى "كاوس"، وهذه الفرادات القليلة الممثلة للوغوس بكل إنسان – سميت الكلمة الخلاقة دينيا بعبارة: "كن" – وهي التي صنعت ما نحن عليه من تراكمات أفعالها بمن سبقنا، فيما نسميه اليوم بالتقدم الحضاري.

الفردية والاشتراكية: هكذا تصبح تعبيرات كل ذات فردية حرة "مدماكاً" في صرح الحضارة الإنسانية عبر حدوسها وعقلها وأحكامها على الوجود، وبذلك تتحكم الذات بنظام الأشياء وتغيره حسب هواها، فتشكل قاعدة الوعي الفردي الحر، هذا الوعي الذي حير كل الفلاسفة، والذي كما أشرنا مع "كانط" مجهول المصدر، قال "أنشتين" (حين نفكر نستخدم مفاهيم لا يمكننا أن نجد لها صلة بأي أمر عادي او حسي، إذا نظرنا الى الأمر من زاوية منطقية بحتة)[1] وقد حيره مصدر الوعي الإنساني الحر، لذلك قال (وبلمحة لهذا العالم القائم الرائع ببنيته، مع الرغبة التي يكرسها الإنسان لمعرفة جزء بسيط منه، ومن العقل الذي يتجلى في الطبيعة – أنا مكتفٍ بذلك–)[2].

فالذات العاقلة الحرة هي أساس كل هوية فردية تترك مادة بيانات "Data" بها معلومات للآخرين، وبعض التغيير في الواقع، وبذلك تصبح الذات هي القاعدة الأساسية للوعي عبر تراكماته الحضارية، التي إذا لم يطلع عليها الإنسان – لم يطلع عليها عبر الثقافة والمعرفة والعلم والفلسفة – وقع بالتخلف وقلة الوعي الى حد انعدامه عند كل معزول عن الحضارة.

فالتقية والإخفاء بهذا المعنى هي عزل الذوات عن الحضارة، وهي دليل واضح على التخلف، لذلك يمكنني أن أعلن: أن الوعي هو ثمرة الذات الحرة الممارسة للمعرفة، وبفرديتها تضيف إليها!!

---

(1) Albert Einstein, Ideas and Opinions, Bonanza Books, N.Y., P 22.

(2) Ibid, P 11.

لذلك نظر الكثير من الفلاسفة الى العكس من المنظار الطبقي او الشيوعي الذي يلغي الذات لحساب الجماعة والمجتمع، الى أهمية هذه الذات حتى في تكوين فكر هؤلاء اللاغين، وقد لاحظ ذلك "أنشتين" نفسه حين قال: (أن التلاحم الاجتماعي – ضد الفردية – عند الجنس البشري وجد أقوى تعابيره لا بالصدفة حيث ظهر عند اليهود بمطلبهم الاشتراكي الذي يعدون هم أول دعاته)[1].

بينما قامت الحركات الرومانطيقية "Romantic" في جوهرها على تحرير الذات الإنسانية من الأخلاق الاشتراكية هذه، الناتجة عما سماه "أنشتين" بالتلاحم الاجتماعي الاشتراكي عند اليهود – مثال الكيبوتزات[*] في إسرائيل اليوم –، واسم هذا التلاحم عند ابن خلدون: "العصبية" العشائرية، وهي بأقوى أحوالها اليوم عند بدو المدن: "اليهود" هؤلاء.

لكن الفشل الذي لاقته الحركات الرومانطيقية منذ "فخته Fichte" في الغرب، بسبب جنوح هذه الحركات نحو الفردية القومية حيث صار ما يسمى اليوم بالديمقراطية يعني الارستقراطية، وطبيعي أن تؤدي الى التفرد بالسلطة – لا الفردية التي هي أساس كل إبداع –، مما أفرز الفاشية والنازية.

واليوم وبمعزل عن الانحرافات السياسية للأفكار الفلسفية الكبرى كمفهوم الحرية الفردية كأساس لكل وعي"Consciousness"، تفرض الفردية المبدعة ذاتها اليوم على العالم عبر تطور وسائل الاتصال، فالوسائط هذه أكبر دليل على عولمة الفكر، وعلى النقيض من العولمة التجارية التي تستغل هذه العولمة الفكرية من أجل استغلال الشعوب، كأعراض جانبية خطرة لمعنى القصد من تقارب الذوات، فتحور رؤية العالم كذوات مبدعة الى ذوات مستهلكة، تلك هي ديمقراطية المؤسسات، في مواجهة حرية ديمقراطية الأفراد كجزء لا يمكن فصله عن الوعي الإنساني.

---

(1) Ibid, P 187.

(*) سماها الاتحاد السوفياتي عنده بالكولخورات.

وهذا هو آخر ما وصلت إليه البشرية في طريقها نحو المصير، باتجاه أحسن ما يمكن أن يقال عنه انه "برغماتي ميكيافليي" منغمس بظن النفعية القصيرة النظر.

لكن هذا لا يعني أن التوجه الحضاري الحالي هذا، هو الذي سيسير الحضارة الإنسانية الى حتفها، فهو الكلمة الأخيرة في فلسفة الحضارة وعلاقة الأمم بعضها ببعض، إذ أن الجوانب الايجابية في الفعل الحضاري الحالي على عماء "ميكيافليتها" يتجلى بزيادة قوة الاتصال بين الشعوب والأمم، بزيادة قوة الوسائط التقنية من "انترنت" وشبكات هواتف محمولة وأقمار اتصالات وكمبيوترات مربوطة بعناكب التواصل.

وهذا بحد ذاته يسمح بمرور الأفكار غير الاقتصادية، سياسية ودينية واجتماعية وفلسفية وفنية.... الخ وبذلك تستطيع القوى الفكرية المقموعة بالعولمة البرغمانية الرخيصة المرور لآذان تقبل سماعها، وهذه فرصة ذهبية لنشر الدعوة الإسلامية والتخلي عن تقوقعات "التقية" والإخفاء، في مواجهة كل ما هو ضد هذه الدعوة من "فوبيا" الإسلام التي انتشرت في الغرب، نتيجة احتكاكه مع الأصولية العنيف، وخاصة بعد 9/11 نيويورك.

فالإسلام اليوم لم يعد بحاجة الى دك حصون الطغيان عسكرياً دوماً، لأنه يستطيع شأنه شأن كل الأفكار الهامة الوصول والتواصل مع الناس وحتى الخصوم بالكلمة الطيبة – كملة السواء – عبر وسائل الاتصال المتاحة، وكل تقصير الدول الإسلامية او عدم رغبتها بأي صنف من أصناف الجهاد، بامتناعها عن الدعوة من خلال الوسائط، إن لم نقل شراء مؤسساتها في الشرق والغرب(*) كل هذا لا يمنع الجهود الفردية من القيام بفرض الكفاية هذا عبر قوتها العالمية المتناهية، بأفضل أشكال التعبير عن قلق المصير الفردي على الضلال الإنساني العام في المفاهيم المتعالية، المؤثرة على كل واقع كمفهوم الأخلاق والله المتعالي غير المشخص،

(*) رغم قدراتهم المادية التي لا يفيد منها الدخل القومي.

ومفاهيم القوة والإرادة وكل ما يتعلق بالسلوك الإنساني المنضبط بالضمير الفردي، لا بالقسر الاجتماعي والعسكري!؟

هذه الفردية الإسلامية التي خاضت حرب مواجهة مع الاشتراكية الشيوعية سواء في أفغانستان" ضد الاتحاد السوفيتي، او "كيبوتزات" شمال إسرائيل مع حزب الله، والتي تواجه اليوم كل العالم الذي ينعتها بالإرهاب، والخروج عن القانون، الذي يراد به ترسيخ سيطرة الحكومات المعينة، تشكل اليوم كل قصص الخروج عن القوانين، بأدبيات تشبه كل أدبيات الخروج عن القانون التي سميتها بأدب الاستشهاد الذي يتجاوز أدب الخروج على القانون في الغرب[1]، حيث قلت:

(سنشهد من الآن فصاعداً أدباً ذا صفة عالمية هذه المرة، هو: أدب الاستشهاد – التراجيدي –، ولحسن الحظ لا يمكن أن يشارك في مثل هذا الأدب أي طبلة او مطبل من مطبلينا تحت اسم الفن او المهرجانات المؤيدة للقضية، – لأنهم لا يجرؤون على ذلك خوفاً من أسيادهم حتى لا ينعتوا و "يعنونوا" بالإرهاب – والتي يسبقها – يسبق هذه المهرجانات المهرجة – قطع طرقات يقف في وسطها حملة الأعلام، والصناديق التي تدعو الى التبرع، والله أعلم لمن؟!

في الوقت الذي لو كان الهدف حقاً جمع المال، لكفى رصد ربع ما رصد لمؤازرة إخراج الروس من أفغانستان، او العراق من الكويت، فالمال متوفر دون توفر السماح باستخدامه من الغرب)[2].

وبعبارة موجزة: إذا كان الصراع بين الفردية والاشتراكية قد حسم بالحرب الباردة في الغرب، وعلى أيدي المجاهدين الأفغان في الشرق، فإن الصراع بين الفردية ومؤسسات العولمة سيأخذ شكل استخدام أدواتها ذاتها، فكلما زاد التواصل زادت الصلة بين ضمائر الناس، لا جيوبهم فقط، وهذه المرة لا داعي لاستصراخ ضمائر الحكام المعينين للقيام بواجبهم ضد من عينهم، بل سيقوم بذلك كل من عاش

---

[1] انظر مجلة الكشكول اللبنانية، العدد الخامس عشر / ايار/ مايو/ 2002 م ، ص 37.

[2] المرجع السابق، ص 38.

القيم الدينية الإسلامية فرضاً ذاتياً بشكل فردي، توفره كل أدوات وتقانات التواصل الحديثة، وثمار هذا الأمر ستبدأ حين يبدأ الغرب بالكتابة القصصية عن أدب الاستشهاد، تماماً كما يكتب اليوم – سواء مع او ضد أدب الخروج عن القانون، كما في قصص الغرب الأمريكي "Cowboy" او في قصص "المافيا" وباقي قصص الخروج عن القانون عندهم.

قال "فرويد" حول تقدم الحضارة: (من الممكن أن نؤكد أن لدى المجتمع قدرة على تطوير "أنا عليا Super – Ego "، تحت تأثيرها يستمر المجتمع.... وله صفة شبيهة بالأنا العليا عند الفرد)[1]، وهذا التعالي يفرض على الغرائز من قبل التمدين (وليس من السهل .... حرمان الغرائز من تحققاتها، ولا القيام بذلك دون أخطار)[2]، وفيما نحن بصدده يمكننا القول: أن حرمان المجتمع من قيمة التضحية بنعتها بالجنون إذا كانت انتحاراً من أجل الخلاص، وبالإرهاب إذا كانت من أجل القضية والدين، هو كبح لغريزة نجد صداها عند نسبة عالية من الناس.

وحين راعى الإسلام هذه النسبة من الناس الذين يتمتعون بدوافع – غريزية – للموت، شكل أساس كتائب الجهاد الحربي، وكل مجتمع فيه هذه النسبة التي تمارس او تعجب بالتضحية، ستنقض على سياسييها وعصبياتهم – كما في العراق اليوم – او تجاهد سواهم، والخيار إزاء هذه "الواقعة" يجب أن يكون واضحاً عند كل سياسي، قبل أن ينعت الاستشهادي بالجنون او بالإرهاب، يقول "فوكو Michel Foucault": (ان الحقيقة تظهر الى النور، في وعبر الجنون.... وبعبارة أخرى أن الجنون كعقاب خاطئ وكحل خاطئ أيضاً، لكن بفضله تصبح المشكلة واضحة، يمكن العمل على حلها حقاً– بعد ذلك –)[3]!

وحلول ما يسمى بالإرهاب لا تتم إلا بعد توضيح أسبابه النفسية الغرائزية – بالقوة – عند كل إنسان من جهة، ونسبه الاجتماعية إحصائياً في كل مجتمع

---

(1) Sigmund Freud, Civilization and Its Discontents, W.W. Norton and Company, N.Y.,1989, P 106.

(2) Ibid, P 52.

(3) Michel Foucault, Madness and Civilization, Vintage Books, N.Y., 1973, P 33.

"Statistics"، ومن جهة أخرى، بعرض دواعيه بتفاصيل أدب الخروج عن القانون كأدب خروج على سيطرة العولمة والطغيان السياسي، الذي بدأ بالاشتراكيات الدولية، واليوم يرثه خصومها البرغماتيون، بعد أن تخلى عنها من أوجدها – الاشتراكية – وهم: اليهود وفلاسفتهم، وان ظلت "الكيبوتزات"، عماد إسرائيل الى اليوم؟

فلسفات قبل الشيوعية الاشتراكية: لا توجد فلسفة بعد "كانط" والى اليوم لم تعتمد على فكر هذا العملاق الضخم، ففيلسوف القرن الثامن عشر "1724-1804" الذي لم يغادر "بكو نجسبرج" طوال حياته التي قضاها عازباً، والمهتم بأحداث زمانه السياسية متعاطفاً مع الثورتين الأمريكية والفرنسية معاً، كان ولا يزال بمثابة "أرسطو" العصور الحديثة.

قال عنه "جاسبر": (لو مات في سن الخمسين لما كان لدينا فلسفة "كانطية")[1]، وقال أنه الشخص الذي ميز التشابه بين المعرفة التحليلية في الميتافيزياء والتركيبية في الرياضيات، حيث في الرياضيات تظهر المفاهيم من خلال الإيضاح عبر الرموز، بينما في الميتافيزياء عبر الكلمات، لذلك تشبه الرياضيات رموز الأحلام مع فارق أنك بالحلم أنت الذي يصنع رموزه، بينما تمكنك رموز الميتافيزياء اللغوية من فهم العالم الآخر باستعمال ما لديك من هذا العالم، لذلك (لم ينطلق "كانط" من مشكلة الوجود بل من مشكلة الوعي)[2]، ولهذا اكتشف العلماء فلسفة العلوم من فلسفته الأبستيمولوجية، (كما أننا بدونه – بدون الوعي – لا يوجد لدينا أي قاعدة للنقد الفلسفي)[3]؟؟

لكن رؤية هذا الفكر الضخم من جوانب متعددة – الذاتيات كما سبق واشرنا – جعلت كل من يأتي بعده عالة على أفكاره، وعلى أحسن الأحوال غير قادر على الإحاطة إلا ببعضها؟!

---

(1) Karl Jaspers. Kant. Harvest/ HBJ Books. U.S.A 1962. P 7.

(2) Ibid. P 28.

(3) Ibid. P 154.

شوبنهور:

شوبنهور (1788 م – 1860) المتشائم لم يستطع أن يرى في مفهوم "النومن Noumenon" عند "كانط" سوى إرادة الحياة اللاهادفة، تماماً كما رأتها "البوذية" وعالجتها "بالنرفانا Nirvana"، التي تبدأ بتخفيف التوتر وتنتهي بالسكون الذي لا اشتهاء فيه – شبه الموت –، وهي من الناحية النفسية لمعالجة تراكمات العصاب حسب مبدأ ثبات هذه التراكمات، فالعصاب "Neurosis" يبدأ بتحطيم الرغبة، وبالتالي كلما فشل الإنسان في تحقيق رغباته انهارت معنويات إرادته، فإذا تكرر الفشل ظهر العصاب، وهنا يأتي دور العلاج بتوجيه "الحالة" نحو ضرورة الحد من الرغبات وضرورة واقعية الإرادة، وهذا لا يعني واقعية "النرفانا"، بل يعني أن لفت النظر إليها يخفف عبر تطرفها – بإرادة إلغاء الإرادة – من جموح عصابات الإرادة غير المحققة عند "الحالة"، لذلك تلائم فكرة "النرفانا" بعض التشاؤميات العصابية، وهو ما حصل مع "شوبنهور"، فمع "كورس" مسرحية "أوديب" نلاحظ ترتيل" "طوبى لمن لم يولد، ثم طوبى لمن يسرع في الرحيل"[1]، وهذا هو شعار "شوبنهور" الذي تبناه "نيتشه" بعد ذلك، لكنه خرج بآراء معاكسة لمسير الإرادة نحو "النرفانا"، فهو يوافق "شوبنهور" بأنه "طوبى لمن لم يولد"؛ بقوله: (ليس لدينا أي قوة تمنع أنفسنا من الولادة؛ لكن بإمكاننا تصحيح هذا الخطأ)[2]!!

كما أنه مثل "شوبنهور" (مسكون بشعور أكثر سواداً من وقب المانخوليا السوداء)[3]، كذلك قدم لنا عن "شوبنهور" (كثيراً من رواد أخباره شواهد وإشارات الى أعراض الجنون عند شوبنهور.... فقد كان.... يحذر الناس ويعتقد أنهم جميعاً أعداء له.... مصاب أولاً بهذيان الاضطهاد وثانياً بجنون العظمة)[4].

لكن الفرق بين "شوبنهور" و"نيتشه"، أن "نيتشه" استسلم للجنون نتيجة خلل عضوي – السفلس –، بينما قاوم "شوبنهور" خلله النفسي بأن أعطاه بعداً فلسفياً،

---

(1) عبد الرحمن بدوي، شوبنهور، دار النهضة العربية، القاهرة 1965م ص "يا".

(2) Nietzsche, Twilight of the Idols, Penguin Books, N.Y., 1995, P 100.

(3) Ibid, P 161.

(4) شوبنهور، مرجع سابق، ص 40.

واهبا إياه (سمة التجريد.... يصبها في قالب من التأملات الهادئة المركزة، وينسق بين هذا الخليط المضطرب من الشهوات والانفعالات.... في صورة منظمة رائعة لتكون مذهبا يرفع نقاب "المايا" – أي نقاب الوهم حسب "النرفانا" – عن سر الوجود)[1]!!.

ولأجل أن يفعل هذا أخذ بنصيحة أستاذه "شولتسه" بتوجيه فكره نحو "أفلاطون" و "كانط" للصلة البارزة بينهما وبينه، لأن الإرادة عنده والصور في "مُثُلْ أفلاطون" والشيء بذاته "النومن" عند "كانط" كلها تعني شيئاً واحداً، إذ لا تتحقق الإرادة بالرغبات إلا بناء على مثال يسعى الساعي وراء إرادته الى تحقيقه، فإذا وصل إليه شعر باقترابه من " نومن" وجوده؟!

وإلا لماذا يسعى الرجال الى السلطة ؟؟ والنساء للتسلط على الرجال؟! ولماذا نعجب بمن حقق إرادته سواء في قهر الطبيعة من العلماء، او في قهر الرجال من الفاتحين؟!

إن (المُثُلْ "هي أول مظهر موضوعي للإرادة.... بوصفها هي – النومن أي – الشيء بذاته)[2]، فمثل أفلاطون هي الشيء بذاته عند "كانط"، وكل منهما لا يرى في العالم الظاهري إلا وهم – مايا –، والذاتية غير قابلة للتجاوز إلا بفصل الإرادة عن المعرفة، الم يقل "ديكارت": (ان بداخلي مثال – فكرة – عن شيء أكثر كمالا مني.... في جوهره أكثر كمالاً مني.... مما يستتبع وجود هذا الشيء)[3]، وهو الذي اقر أن (مجال الإرادة أوسع من مجال العقل)[4]. وهي الأساس لكل الأخطاء التي يقع فيها الإنسان، والقليل من الصواب الذي يصيبه، لذلك قال ديكارت: (إذن ما هو مصدر أخطائي؟ – وأجاب – لأن مجال الإرادة – عندي – أوسع من الفكر)[5]، فعلى الرغم من أن الإنسان لا يستطيع أن يثبت فكره على

---

(1) المرجع السابق، ص 41.
(2) المرجع السابق، ص 65.
(3) Meditations. op. cit. P 7.
(4) Ibid. P 40.
(5) Ibid. P 40.

موضوع معرفي واحد، كما نبه الى ذلك "ديكارت" إلا أن الإرادة هي الملحاحة حول كل فكرة ثابتة، ومن خلال هذا التثبيت يتمسك الإنسان بأفكاره المسبقة ودوغمائياته التي نشأ عليها، خوفاً على إرادته من التزعزع.

لأنها لو تزعزعت لتغيرت شخصيته بالكامل، لذلك يمكنني القول: "قل لي ماذا تريد لأقول لك من أنت"؟! فكل رغبات الإنسان هي في خدمة إرادته، وكذلك الفكر وحتى الضمير، فهي الأقوى في ثالوث النفس ثم الضمير، ويمكننا أن نضيف بأنها هي أساس الشخصية وركيزة النفس الأساسية، لذلك ظنها كل من رصدها وبحثها على أنها "تومن" كل الوجود المنحل بأقوى عينة منه في الذات الفردية، البارزة بكل "الكوزموس Cosmos "[*].

- (هل تريد أن تعرف ما هو هذا العالم بالنسبة لي: هو وحش طاقة دون بداية ولا نهاية.... قوى لا تزيد ولا تنقص ولا تستهلك ذاتها بل تتحول.... مغلف باللاشيئية – اللامنظور –..... مسرحية قوى تزيد من هنا لتنقص من هناك.... بتحول أزلي نحو الأبد تارة بالرجعي على مساراتها نفسها بعود أزلي.... متطلعة الى مزيد من الاختلاط والتعقيد بين أقسى البرودة وأقسى السخونة وأقسى الزوبعات العارمة بينهما[**].... فيها كل التناقض الذي ينحل الى البسائط ثانية.... هذا العالم إرادة قوة ولا شيء غير ذلك، وأنت بذاتك تعبير عن هذه الإرادة أيضاً، ولا شيء فيك غير ذلك)[1].

وأضاف "نيتشه" إن هذا العالم عالم (ما وراء الخير والشر دون هدف، إلا إذا كان الفرح بالدوران هدفاً بحد ذاته.... فإذا أردت أن تسمي هذا العالم؛ إنه عالم "إرادة القوة" ولا شيء سواها)[2]، ولأن الكون دائري الحركة – دوار – ولأن

---

[*] الكون كله يدرك كنظام إرادي محكوم بقوانين أي بضرورات عقلانية، هي ارفع بكثير من العقل الإنساني، رأى فيها الكثير من المفكرين إضفاء او عدم إضفاء كل فرد لمعنى وهدف حياته، لعدم وجود أي معنى للحياة خارج ما يقرره كل فرد لحياته بإرادته.

[**] "سوبر نوفا" حسب علم الفلك اليوم!!

[1] Nietzsche. The Will to Power. Vintage Books. N.Y 1968. P 55.

[2] Ibid.

الدائرة أكمل الحركات بلا بداية ولا نهاية فالكون برأي "نيتشه" (يعيد ذاته عوداً ذاتيا)[1]، وهذا هو هدف كل إرادة في كل رغبة بالعود على بدء، فأن نعود بعد الموت بأي صيغة كانت – عوداً أزليا أم بعثاً لحساب، أم أي عود متصور او غير متصور – هو هدف الإرادة من المصير ككائن (يجب أن ينشأ منه ما يتجاوزه)[2] والذي يسعى الى مثل هذا المصير المتعالي على الذات (لا يتمسك بالبقاء وبالذين يتوارون.... يذهبون الى الجهة الأخرى)[3]، كجزء او عينة من مصير الكون الدوري سواء كان دائريا أم بيضويا كما تظهر خريطة "المايكروويف" لكشاف خلفية الكون كله، عبر ثابت هابل "Ho" الذي يعطينا المعدل الحالي لتمدد الكون في وحدات من الكيلومتر لكل ثانية "ميجا فرسخ"[4]، وسواء أحاط بهذه البيضوية المعيارية اللامقاس او المادة المظلمة، او كانا يتخللانه (ويعرف الفلكيون منذ عقود من السنين أن الكثير من مادة الكون موجودة في شكل مادة مظلمة، على أن ما لا يعرفونه هو مقدارها)[5] اللانهائي او اللامقاس المستحيل قياسه سواء؟!

هذه الإرادة في أوسع صيغها الكونية، تدفع الى الاعتقاد باستحالة أن يتخطى الإنسان عالم الظواهر الذي به كل تصوراتنا الفينومينولوجية البادية "As Representation"، وهي التي تبقينا خارج "نومن" الأشياء مع شعورنا بوجود النومن في ذات الوقت في صلب طبيعة الشيئية وكل حي أيضا "Inner nature"، لذلك نحن لسنا مجرد مخلوقات عاقلة فقط، بل نحن نجد أنفسنا وبدخيلة روحنا نومن شيء إرادي بذاته، لا يمكن اختراقه من عالم الظواهر كالحصن الذي لا يمكن إسقاطه بالهجوم عليه من الخارج، لأن جوهر كل واحد منا جزء من الجوهر النومني الكوني "Cosmos" الذي هو الإرادة.

---

[1] Ibid. P 549.

[2] نيتشه، هكذا تكلم "زارادشت"، المكتبة الثقافية، بيروت عام؟، ص 226.

[3] المرجع السابق، ص 229.

[4] كارولين كولنز بيترسون، رؤية هابل، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، عام 1998، ص 263.

[5] شوبنهور، مرجع سابق، ص 268.

ولأننا لا نعرف من هذه الإرادة إلا مظاهرها "Phenomenon" نحدس فقط بخلودها كأنها من طبيعة طبيعية خالدة يقول "شوبنهور": (إننا إذا غصنا في تأمل الطبيعة بدرجة من العمق نشعر بأننا نحن الحامل الذي يقوم عليه العالم وكل وجود، لأن الوجود يتمثل بوصفه من لوازمنا، وهكذا نجذب – نحن – الطبيعة الينا)[1]، ولهذا نندفع بشكل أعمى نحو الحياة حيث هذه الذاتية تصبح متموضعة بكل شيء فيصير حب الحياة بداهة موضوعية لا يرفضها أحد، ليدافع عنها السياسي قبل انتخابه، والطبيب حين يدعي أنه يضحي براحته لإنقاذ حياة الآخرين، ويزخرفها الفنان كالطاهي وكالمعماري او الباحث في الجماليات بكل متع الالتصاق بها، حتى ولو كانت "Eros" تبدأ بالرغبة بالتوحد مع الأشياء الجذابة – والجنس صيغة من صيغها – كحب الاقتناء، وتنتهي كما في "المأدبة" لأفلاطون بالانجذاب لكل ما هو غير مادي – فلسفي – يشعر بالانسجام، حيث يقود الجمال الجسدي الى تصور الكمال والرغبة بالتوحد معه، رغبة إرادة يسميها علم البيولوجيا بالانتخاب او الارتقاء الطبيعي عند الأنواع "Natural Selection"، وبهذه الآلية القائمة على "ايروس الإرادة" تحول الانسان من "هومو هابيلوس Homo Habilis" الى "هومو سابيان Homo Sapiens" إن لم نقل قبل ذلك بخمسة عشر مليون سنة حيث كان "كينيا بيتيكوس Kenyapithecus"؟!

لذلك إذا قلنا الإرادة نقول السوبرمان عند "نيتشه"، وهي عند "شوبنهور" منذ كتابه: "العالم كإرادة وتصور The World as will and Idea"[2] عام "1886"، واضعاً الإرادة خارج اطر الزمان والمكان، خالدة تسبب خلود الروح، وكل الفكر والمعرفة بخدمتها العمياء، ولذلك يجب توجيهها نحو الخلاص منها بالفن او "بالنرفانا"؟! لأنها لا تسبب للإنسانية إلا المزيد من الشقاء، أدركهما "بوذا" فأعجب به "شوبنهور".

الرومانطيقية: بينما السوبرمان عند "نيتشه" هو هدف كل إرادة، فإذا ابتدع "شوبنهور" "بوذا فيلسوفاً" وهو ليس كذلك، ابتدع "نيتشه" "زارادشت" فيلسوفاً أيضاً

---

[1] شوبنهور، مرجع سابق، ص 147.

[2] Schopenhauer, The world as will and representation, N.Y., 2010.

ووضع على لسانه ما عجز "شوبنهور" وضعه على لسان "بوذا"، أقصد غاية كل إرادة؛ القوة في إرادة القوة والغلبة للطبيعة وللآخرين، فبدلاً من أن يرى في الإرادة تحققات شهوات – رغائب – لا تنتهي (فكل إشباع لشهوة يولد شهوة جديدة)[1] فالحياة عمل لا يغطي نفقاته لأننا (نشعر بالرغبة كما نشعر بالجوع والعطش)[2] بل هما جزء من إرادتنا في الحياة التي لا تنتهي مطالبها، أقول: بدلاً من كل هذا رأى "نيتشه" هدف تجلي نومن الحياة بالإرادة اتجاهاً نحو متع الغلبة، التي سيكررها العود الأزلي لكل ساع نحو "السوبرمان" كنقيض لمهانة وذل الخانع البوذي الذي سيكرر العود الأزلي خنوعه الى الأبد، فكل ما ترسمه صفحة الحياة – حياتك – ستعود لمواجهته مراراً وتكراراً، مع دورة الكون اللانهائية الى ابد الآبدين؟!

لذلك صرخ "نيتشه" في نهاية كتابه "إرادة القوة" قائلاً: (لا للجنس البشري لأن الهدف هو الانسان المتفوق "Overman")[3]، فلا قيمة للمتعة او للألم إذا كان هناك هدف كهذا، تصبح أنت هو إذا كنت تسعى إليه في كل عود أزلي، فتلاقي متعة لا تفوقها متعة، إنها متعة السعي نحو هذه الحقيقة، متعة كل تفلسف؟!

وهذا ليس عرقية برأيه لذلك قال: (إن الأبقار الأكاديمية اتهمتني بالداروينية)[4]، لأنه ينكر التقدم التطوري اللامحدود، معتبراً هذه الداروينية موضة عصرية مزيفة تمتد الى كل مجال، كالقول بتطور الزينة وتطور الأخلاق وتطور حتى الدين.... الخ الى درجة القول بتطور الطبخ والعهر والسرقات؟!

بينما التطور مفهوم بيولوجي بحت لا يصح نقله الى خارج إطاره البيولوجي – الجيولوجي – البحت، ويتم عبر ملايين السنين في الجينوم البشري والحياتي فقط.

كذلك السعادة التي يرثيها "شوبنهور" ويعكس الفن هذا الحزن عليها مع أمثال "واغنر" (لقد أصبح واغنر وارثاً لهيغل.... يلعبان لعبة "الغميمة" خلف مئات

---

[1] المرجع السابق، ص 273.

[2] المرجع السابق، ص 275.

[3] op. cit. P 519.

[4] Kaufmann, Nietzsche, Princeton University Press, NJ 1974 P 313.

الرموز .... وتلك هي ذات الطريقة التي يستعملها "هيغل" للإغواء)[1] ذلك أن (النجاح مع الجماهير لا يدل على أي أصولية)[2] لأن ("واغنر" الذي كان شاباً أيام "هيغل" و"شلنج" كان يظن أنه قد غرر بروح الأمة حين اعتقد أنه قد امتلك بيديه الشيء الوحيد الذي يأخذه الجرمان على محمل الجد)[3]، يقصد الفن المعبر عن الفلسفة؟!

هكذا تحركت "الرومانطيقية" الألمانية "Romantic" عبر "شوبنهور" و"هيغل"، وعَبّرَ عنها الفن – مثال واغنر –، واضعة جوهر الوجود والتواجد بالإرادة بناء على نموذج "كانط" المشير الى الشيء بذاته – النومن –، والذي لم يدعِ "كانط" إمكان معرفته، وادعت تلك الرومانطيقيات ذلك، من منطلق النظر الى الخلف الذي تتسم به كل الحركات "الرومانطيقية"، لاختيار لحظة تاريخية – من تاريخ الأمة او الإنسانية – والادعاء بأن بها تحققت كمالات الوجود البشري الفكرية او الحياتية.

والرومانطيقية "Romantic" الألمانية السابقة، كلها كانت تدور على الكمال الفكري الإنساني بين تأويلاتها لبوذا وزارادشت، ولم تتطرق لأي كمال حياتي بشري كالرومانطيقيات الدينية التي تدين بهذه الأديان او بأي دين سماوي آخر.

وهذا هو الفرق بين الرومانطيقيات الفلسفية والدينية، حتى ولو استخدمت الفلسفة ديناً من الأديان حجة لها، فاللحظة التاريخية عند الفيلسوف – الماضية او الحاضرة – رومانطيقياً"؛ كاللحظة التاريخية القادمة – التقدمية – لحظة فكرية بحتة، لا علاقة لها بأي حدث تاريخي، وإن كان التاريخ هو الذي يثيرها، لذلك يمكننا أن نميز بين "الرومانطيقية": التاريخية، والدينية، والفلسفية؛ كل على حدة، للحظة تاريخية واحدة تنطلق منها تفسيرات مختلفة، ويوضح هذا الأمر تفسير "رسل" لرومانطيقية كل من "بايرون" الشاعر و "نيتشه"!!

---

(1) Nietzsche, The Case of Wagner, vintage , Books, N.Y., 1967, P 178.

(2) Ibid, P. 179.

(3) Ibid, P 177.

فنيتشه وُلد تحت اسم "فردريك" تيمنا بإمبراطور ألمانيا كدلالة على قول "رسل": (ان الحركة الرومانطيقية رغم كونها تنسب في أصولها الى "روسو" هي ألمانية قبل كل شيء)[1]، فهو – أي "نيتشه" – ولد من أسرة رومانطيقية في تاريخيتها المعاصرة، أما "بايرون" الشاعر الذي كان يمثل بأفعاله كل شر صليبي (أراد التحريض على الموت في ساحات القتال ضد المسلمين مثل كل الصليبيين – بعد أن يرتكبوا كل الموبقات –)[2]، لذلك قال "رسل":

(أن نظريات "بايرون" الأخلاقية تتناقض مع ممارساته، فالرجل العظيم بالنسبة الى "نيتشه" هو المتأله، و"لبايرون" الشيطان في حربه مع ذاته واضعاً بدل الرجل الحكيم في "زارادشت" الصليبي الذي في تعامله مع أتباعه:

أ- يدوخهم بقيادته.

ب- ويرجف قلوبهم المنحطة)[3].

ولهذا ذهب الى تقديس "نابليون" الذي (كان تأثير – الرومانطيقية – هو الذي شكل خيال القرن التاسع عشر عميقا)[4]، ولذلك كتب "تولستوي" قصته الشهيرة: "الحرب والسلام".

وحين هزم "نابليون" في "واترلو" لعن "بايرون" تلك اللحظة "اللارومانطيقية" وأبدى كل أسف على ذلك[5].

هكذا يخلط الأدباء الرومانطيقيون بين اللحظة التاريخية واللحظة الفكرية من التاريخ التي يريدون استعادتها، لذلك بدا "فردريك" مهماً لوالدي "نيتشه" تأثراً شأنه

---

(1) Bertrand Russell, History of Western Philosophy, Routledge, London 1996, P 654.

(2) Ibid, P 718.

(3) Ibid, P 719.

(4) Ibid, P 719.

وقد قال"غوته" لإكرمان حول موضوع "نابليون": نعم يا صاحبي توجد أيضاً نتائج الأعمال، وقد ذكرنا – يقصد نابليون – بأن الرجل اللامنظم عظيم ومدهش بالنسبة للمعاصرين!! انظر أيضاً:

The Birth of Tragedy, op cit, P 86.

(5) Ibid, P 720.

شأن كل الناس، أما بالنسبة لرومانطيقيته هو فالمهم "زارادشت" لا "فردريك"، لأن لحظته التاريخية فكرية لا حَدَثية، خاصة وأن "زارادشت" حامل أفكار وليس نبي ديانة تافهة بائدة بالنسبة لنيتشه، تماماً كبوذا عند "شوبنهور"!!

ولكي تأخذ هذه الحركة الرومانطيقية بعدها العملي المعاصر لا الناظر الى الفكر من بعيد او من خلال التاريخ، كان لا بد من "هيغل"، تماماً "كالأشعري" في الرومانطيقية الدينية الإسلامية، الذي حاول أن يخلص هذا الدين من الرومانطيقية الحَدَثية فيه، بين السنة والشيعة.

ولإيضاح هذا الأمر لا بد من التمييز بين – والانتباه من الخلط بين – العاطفة الغريزية عند كل إنسان ذات الأصل التعلمي النفسي، بالإعجاب من خلال الاقتداء بالماضي السرمدي للآباء والجدود وتضخيمه، من خلال القصص المروية التي تحدد للإنسان هويته الاجتماعية، عبر تمسك جماعته بشخصية تاريخية وتقديمها، مع ذكر الآباء والمربين فوائد هذا التقديس، بل حتى المعجزات التي صادفتهم بسبب تمسكهم بهذا المقدس او بأفعاله – سنته – وبين عقلانية فهم الأسس الفكرية التي بني عليها تقدمهم الحضاري في لحظة تاريخية سابقة، أي بين العاطفة الناتجة عن الإعجاب بسبب الاقتداء والتعلم والتعليم الاجتماعي، وبين عقلانية الأسس الفكرية التي يسعى المعاصرون الى استعادتها.

وهذا هو الفرق بين التعصب لشخصية دينية سابقة، أي الوقوع بأدلجتها، وبكل دوغما ناتجة عن مثل هذه الايدولوجيا، وبين العمل بالقيم الفكرية التي طرحتها تلك الشخصية – الرسول مثلاً –، وهذا هو الفرق بين "الأشعري"[*] في تراثنا الإسلامي، وبين أتباع السنة بعده.

إذ بعد أن تخلت الخلافة العباسية عن دوغما الاعتزال حوالي عام "850م"، قبل ولادة الأشعري بحوالي عشرين سنة، ظلت هذه الخلافة على مناهضتها للعقائد

---

[*] أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ولد في البصرة عام "873 م" وتوفي في بغداد عام "935 م".

الشيعية خوفاً من انتقال الملك الى العلويين من آل البيت، لكن التشيع الذي كان عقيدة النخبة حتى ضمن البلاط العباسي من جهة، وعند كل من كان يشعر بالاستياء من ظلم "المعتزلة"، الذي بلغ في ذلك الوقت – قرابة – ما بلغته محاكم التفتيش بعد ذلك، في عصور الظلام الأوروبية من جهة، صار لا بد من بروز فكر إسلامي لا ينتمي لا الى المعتزلة ولا الى الشيعة.

تلك هي خلفية بروز رومانطيقية عقلانية تسعى الى استعادة الأسس الفكرية للإسلام – كما بدأ –، بعيداً عن الاقتداء الدوغمائي الاجتماعي، والأسطورية الشيعية التي لا يبررها العقل عن آل البيت.

تلك كانت أساس المحاولة الأشعرية بعد أن انفصل الأشعري عن المعتزلة حوالي عام "912 م"، وظل يعبر عن رومانطيقية عقلانية بين تطرفين "شيعي ومعتزلي"، وهذا الاتجاه الذي كان ولا يزال أساس الفكر السني في "إرجاء"(*) أمر الفتنة لله تعالى، والوقوف على مسافة واحدة من الأحداث التاريخية، سواء بين الأمويين وآل البيت – علي "كرم" و "معاوية" – او بين العباسيين والعلويين، هو في أساسه مبني على قواعد عقلانية – من تأثير الاعتزال بالأشعري –، أي هو حسب تعبيرنا اليوم هو محاولة تخليص الفكر الديني الإسلامي من الأحداث التاريخية – الحَدَثية –، أي من العاطفة التربوية للنشىء عبر السردية، في محافظتها على الهوية الفرقية العصبية العشائرية، او حتى الحزبية!!

وحين أخذت هذه المحاولة بعد ذلك شكل فرقة "سنية" رغم شيوعها الكبير في العالم الإسلامي، عبر اجتهادات المذاهب الأربعة صارت طرفاً في الخصام مع الشيعة بكل طرقها، ومع الملاحدة أحفاد الاعتزال اليوم إذا صح التعبير – ولا يصح– ؟!

فإذا أدرك القارئ معي هذا الحراك الفكري الاجتماعي للرومانطيقية العقلانية الإسلامية – الدينية –، أدرك أن الفكر الإسلامي فكر رومانطيقي بكل

(*) الإرجاء جزء أساسي من أسس الفكر السني!!

معنى الكلمة، تَدَخَّلَ الأدب به كما تدخلت العقلانية الفلسفية – الاعتزال مثلاً – ليقع ضحية التأويلات التاريخية العاطفية التي تهدف الى الفرقية والعشائرية السردية، الى حد التقديس الدوغمائي الإيديولوجي العصبي، شأن باقي الفرق الإسلامية – والمذاهب أيضاً – حين يتبناها العوام؟!

وهو ما حصل تماماً للفلسفة ذات الجذور الرومانطيقية الألمانية، التي حاولت تفسير او استخدام الكانطية، من "شوبنهور" حتى "ماركس" مروراً "بنيتشه" و"هيغل"، وكل "الجوقات الفلسفية التي ادعت معرفة – اكتشاف – النومن الكانطي، الذي يستحيل على كل ظاهرياتية أو ظاهر "Penomenology or Phenomenon"(*) كشفه او تجاوز حدود الظواهر نحوه.

وبمقارنة هذا الاتجاه السينفوني – من السينفونية الموسيقية – جوقات "هيغل" خاصة – مع سيرورة الفكر الإسلامي، ادعت الباطنية دعاوى مشابهة في الإسلام، وهذا ما قصدته بأن "الإسلام ليس أيديولوجيا"(**)، شرط فهمه كما بدأ لا من خلال فرقه، ولا بالدوغما الإيديولوجية كابن غير شرعي للفلسفة والدين معاً.

لتستنتج من هذا أن الرومانطيقية هي أساس كل أيديولوجيا، إن هي فشلت في فهم كيفية استعادة لحظتها التاريخية بأبعادها الفكرية، ودخل وتداخل فيها الأدب بمبالغاته وأسطورياته التاريخية، لذلك يجب أن نميز بين الرومانطيقية – بمعنى الشغف التربوي باستعادة لحظة تاريخية لتشكيل هوية اعتقادية – التاريخية الدينية، والتاريخية الرومانطيقية القومية – المثال الألماني من "نيتشه حتى هيغل" المستعيدة للحظات تاريخية ماضية، و"ماركس" في استدعاء لحظة تاريخية تنبؤية قادمة بناء على استقراءات اجتماعية ناقصة –، وبينهما وبين الرومانطيقية الدينية التي يقف

(*) مصطلح الفينومينولوجي قبل "هوسرل" مصطلح لوصف الوعي والخبرة بصورة مطلقة مجردة بمعزل من أي مضمون قصدي لها، عندي أو عندك، استخدمه "هيغل" ليعني تطور الوعي الذاتي التاريخي بدأ من الإحساسات البدائية، وصولاً الى السياقات الإنسانية القادرة على إخضاع المعرفة للإنسان، وهو عنوان أهم كتبه الذي سنتطرق له.

(**) لي كتاب بهذا العنوان: دار الفكر، دمشق 2009.

على القطب السالب أمامها الرومانطيقي الشيوعي او الاشتراكي، في بحثه عن لحظة تاريخية أمامه يسعى – لتوهم – الوصول إليها، لذلك قيل عن الفكر الاشتراكي انه يساري لأنه يبحث عن لحظة مستقبلية يريد أن يؤسس عليها تصوراته، وكل هذه الاستدعاءات – "الرومانطيقية" اليمينية واليسارية، ركيزتها التصور والاستدعاء الغربي من المحتم عليه السير في دروب محاطة بالأوهام، وأقله عدم دقة توقع "يثوبياه" بأعمق مطباتها، سواء سمى الرومانطيقي نفسه تقدمياً مادياً او يسارياً او حالماً.... كلها سواء، هو في الواقع مثالي إن نجا من "الطوباوية" على أحسن تقدير؟!

لذلك تجد هذه السمات المتشابهة بين الدين والايدولوجيا، إذا وقع أتباعهما بالدوغمائية؟!

ولأجل تخليص المسلمين من الدوغمائية وضعت كتاب: "الإسلام ليس أيديولوجيا"، ولذلك أيضاً سُمِيَت الاشتراكية: ديناً بلا اله!!

أما ما نحن بصدده فهو الرومانطيقية الفلسفية الغربية التي قادت كل الفلسفة في القرن العشرين الى المطبات الاشتراكية والشيوعية والبنيوية والوجودية، مما كاد أن يطمس على المسارات الفلسفية الحقيقية بعد "كانط" ويدمرها ويدمر كل تفلسف معها، لولا "التحولية الأبستيمولوجية" في نهاية القرن العشرين "Epistemological Plausibility" من الناحية النظرية، والمراقبة الصارمة وحتى – المتدخلة – في ضرورة ترك الإيديولوجيات اليسارية واليمينية الدينية تضرب بعضها – كما في "أفغانستان" أيام الاحتلال السوفياتي –، أو حتى لتضرب ذاتها في التأجيج "البرغماتي" للمذهبيات الدينية والفرق، بناء على المنهج الفلسفي البرغماتي المدعي فهم "الكانطية" كما يجب أن تفهم، والممتد نحو كل العالم بالعولمة اليوم.

سورين كيركغارد وفردريك نيتشه:

ما ذكرناه كان معركة حول النتائج التي قاد إليها الفكر الرومانطيقي بكل مختلف اتجاهاته، ولكن هذا لا يعني أن المعركة الفكرية حول هذه

الرومانطيقيات لم تقم قبل نهايـــة القرن العشرين ففي القرن التاسع عشر هاجم "سورين كيركغارد، 1813- 1855م" "Soren Kierkegaard" أسس الرومنطيقية العقلانية – المثالية – و"هيغل" أستاذه الذي يمثلها، بعداء (ذو الطابع الديني للهوية التي أقامها "هيغل" بين ما هو واقعي وما هو عقلي ليجعله من الناحية التاريخية ناقداً.... للرومانسية)[1]، وأساس هذا الهجوم كان قائماً على السؤال الأساسي الذي تجاوزه "هيغل" في فلسفة "كانط" وأفلاطون قبله وهو أن: "الواقع الحقيقي للأشياء يقع في مجال لا يمكن للفكر البشري الوصول إليه" فهل كل ما هو عقلاني – ممكن عقلاً – واقعي "Fact"[*]؟!

ونحن هنا لا نتحدث عن اللامعقولية في صلب الوجود التي ضخمها "سارتر" سواء برسالته للدكتوراه "الوجود واللاشيئية" في مطلع القرن الماضي "Being and Nothingness"، والتي ترجمت الى العربية بالوجود والعدم وهذه الترجمة قتلت معناها لأننا كما أكد "فيثاغورس": "لو قد جئنا من العدم فنحن لا يمكن أن نلد ولا أن نموت، بل نحن من اللاشيئية التي هي الوجود والى التواجد أي الشيئية، فاللاشيئية ثانية بالموت" واللاشيئية هي "الشيء بذاته" الذي (يشكل الحقيقة الإنسانية في الرغبة بأن نكون فيه)[2] أي "بالنومن" حسب "سارتر".

أو بكتابه الذي طبعته ابنته بالتبني "Arlette" بعد موته بعنوان "الحقيقة والوجود Truth and Existence"[3]، والذي تجلى بالكثير من مسرحياته وقصصه في التضخيم من اللامعقولية الذاتية للفرد، وللتواجد الذي هو فيه أين ما كان؟!

فهل الشيء بذاته مثل "النومن" المحتجب بالروح مثلاً عصي عن الإدراك أم هو مجرد "غير معقول" غير مفهوم؟! أم مستحيل الفهم أم لا موجود؟!

وبالنسبة لسارتر يميل الى الجواب الأخير وعليه يبني إلحاده، أما "كيركغارد" فبالنسبة إليه: "غير مفهوم"، على العكس من "هيغل" الذي يظن إمكان

---

[1] الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 270.

[*] تحدثنا عن هذه الإشكالية بين العقلانية والتجريبية.

[2] Jean-Paul Sartre, Being and Nothingness, Pocket Books, N.Y., 1966, P 723.

[3] Jean-Paul Sartre, Truth and Existence, University of Chicago Press, 1992.

كشفه[*]، وطبعا "كانط" الذي استحدث مفهوم "النومن" استحدثه للدلالة على استحالة فهم أي "شيء بذاته"، كرد مسبق على من تبعه من الفلاسفة، وخاصة من تفه المعقولية الإنسانية بربطها بالمجتمع وصراع الطبقات بعد ذلك مثل "ماركس" والاشتراكية.

وقد عبر "كيركغارد" عن كون كل نومن غير مفهوم رغم أن الدين حاول إيضاحه، بمفهوم الله والأمر الإلهي، يقول حول محاولة إبراهيم ﷺ التضحية بابنه: (استطيع أن افهم استعدادي لأن أضحي بنفسي، ولكن أن أضحي بآخر من اجلي؟!)[1]، هذا ما أثار في "كيركغارد" الخوف والرعدة من الإشارات الإيمانية للأمر الإلهي بذاته، عبر كل ما يأمر به الله من فروض، كأن "تنطح الأرض بصلاتنا له وهو اكبر من كل عظمة يطلبها متسلط"؟! وسوى ذلك من فروض دينية تتناقض مع ما فطرنا عليه جل جلاله، فمن الخطأ منطقياً والضلال أخلاقياً أن نعتقد أن الله الذي وضع فينا هذه الغرائز – الرغبات – هو الذي يطلب منا محاربتها؟! او بتعبير معاصر كأنه يطلب من عقلنا المبرمج محاربة مسبقات البرمجة فيه، لذلك ذهب "كيركغارد" الى القول:

(لكي ترى مدى وحشة الأمر الإيماني، انظر كيف – بعضه– إمكان جعل الجريمة في سبيل الله عملاً مقدساً يرضي الله.... مما لا يمكن لأي فكر فهم هذا الأمر ، لأن الإيمان يحل بكل معنى الكلمة عندما يذهب الفكر)[2].

لكن "كيركغارد" مؤمن، فهل يعني انه يغصب نفسه على الإيمان، كما ظن بعض شارحيه؟!

---

[*] وبهذه الروح التي تحدث الفكر العلمي الغربي ذهب علماء الكوانتيوم في الفيزياء الى أن لديهم أسانيد قوية اليوم تشير الى أن للكون بداية ميكروفيزيائية، كإشكالية رآها "كانط" – سابقاً – أن لا حل لها في مُتمانعاتهُ الأربعة، وهم حين بحثوا في المنطق الذي يحكم الذرة ادعوا أنهم على أبواب "النومن" يتحركون؟!

(1) Kierkegaard, Fear and Trembling, Penguin Books, N.Y., 1985., P 137.

(2) Ibid, P 82.

طبعاً لا!!

لأن جوابه هو في: أن كل "شيء بذاته" غير مفهوم ولا يستحيل قبوله – رغم عدم فهمه – بالإيمان!!

لأن الإيمان هو الخط الفاصل بين الفلسفة بمنطقها، والدين بفروضه، ولهذا:

فالشيء بذاته أي "النومن" حسب "كيركغارد" غير مفهوم لأنه من طبيعة متعالية على كل تجربة "Transcendental" شأن كل المتعاليات، فنحن لا نستطيع فهم الروح وهي فينا، ولكن هذا لا يعني أن الروح ليست أداة فهمنا لكل أمر، فلولاها لما كان لنا أي عقل ولا رغبات ولا مشاعر ولا ضمير أي لولاها لما كان لنا أي نفس، كذلك لا نستطيع أن نفهم الأمر الإلهي إلا "بالخوف والرعدة" لأننا لا نفهم الله، الذي لولاه – تعالى – لما كان هناك معلوم في التواجد، وصعب الفهم في الوجود من شيئية ولا شيئية فيه، لذلك علينا أن نبحث في مغالق العقل الإنساني وهي عنده (أن الجنس البشري مغلف بطابع قوي من الأبخرة العفنة للفكر والمشاعر والرغبات – المزاج Moods –)[1].

فالإيمان موقف ضد كل سلبية تقدمها مغالق الفكر الإنساني، بما يسمى بالديالكتيك الحواري (الإيمان لم يقدم في يوم من الأيام من رجل يبحث بالآنية او هو آني او ديالكتيكي)[2]، ويقصد "كيركفارد" بالآنية كل ما هو عكس "فلسفة المصير"، وبالديالكتيكية الذي عبر عنه "هيغل" بقوله:

(أن لاشيئيتنا، كلا شيئية، تحتفظ بآنيتها وبإحساسها الذاتي، لكنها في كونها آنية كالكون، والوجود على كل حال – تواجد – هو كوني في كونه آنياً يحوي نفيه من داخله)[3].

وبالالتقاء مع هذا النقد للديالكتيك قال "نيتشه": (لا يمكن فهم المسيحية من التربة التي نمت فيها.... وهي – الغريزة اليهودية.... التي تدين الإنسانية... لأنه

(1) Soren Kierkegaard, Papers and Journals, Penguin Books, N.Y., 1996, P 355.

(2) Ibid, P 458.

(3) Hegel, Phenomenology of Spirit, Oxford University Press, N.Y., 1977, P 68.

– عندما واجه اليهود السؤال حول وجودهم من عدمه، اختاروا.... الوجود فجعلوا من أنفسهم نفيا لكل شروط الطبيعة)[1]، وبذلك أصبحوا ديالكتيكيين كما هو شأن "ماركس"، ولماذا؟! لأن (على واحدنا أن يفرض ما يراه صحيحاً، وإلا لن يفيد من رأيه ولهذا السبب كان اليهود ديالكتكيين.... وماذا؟! سقراط كان ديالكتيكياً أيضا؟)[2].

فالنهج الفلسفي حسب "كيركغارد" و"نيتشه" أيضاً لا يمكن بناؤه على الديالكتيك ولا النقاشات الحزبية، لأن البناء الفلسفي لا يمكنه أن يقوم على الباطل القائم على أكثر أنواع الكذب شيوعاً؛ ألا وهو كذب الإنسان على ذاته كي يكذب على الآخرين بعد ذلك، قال "نيتشه" (من ضرورات الحزبية أن يكون الإنسان كاذبا)[3]، كذلك الكذب من ضرورات اللاهوت أيضاً (فالقس والبابا لا يخطئان في كل جملة يقولانها، أنهما يكذبان)[4]، هؤلاء هم الديالكتيكيون العاجزون عن تقديم الإيمان إلا من خلال "الدوغما"، لذلك قال "كيركغارد" (الإيمان لم يقدم من خلال رجل ديالكتيكي)[5] وقال:

(لا شيء لا شيء لا شيء، ولا حتى الليبرالي اليائس او الجلاد الديني القوي، لا شيء أكثر خطراً على المسيحية من القس الرسمي والأستاذ!)[6].

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾. [الرحمن 41-42]. "سيماهم في وجوههم"، لكن لا تعرف هذه الإيماءات الوجهية إلا بالذاتية التي أغفلها الفلاسفة – وخاصة "هيغل" – عبر كل احتقار لكل لا موضوعي؟! او عدم بحثه قبل ركني الوجودية الأساسيين "نيتشه" و"كيركغارد"، وقد عبر "كيركغارد" عن هذه الذاتية في كشف "مورفولوجية" شكل

(1) The Anti- Christ, op. cit. P 146.
(2) Ibid, P 42.
(3) Ibid, P 182.
(4) Ibid, P 162.
(5) Papers and Journal, op. cit. P 458.
(6) Ibid, P 575.

الشر الإنساني بقوله: (لقد تدبر الشيطان بمساعدة الكنيسة لكي يصبح إنساناً)[1]، وهو الذي خرج بفلسفة أن الحقيقة ذاتية أولاً وقبل كل شيء، لكل مؤسسة تريد أن تستحوذها سواء كانت الكنيسة او الدولة – حسب هيغل – لا بد لها من أن تؤنسن الشيطان في ذاتها، فكل حقيقة تصبح فارغة إذا تبعت سواها من السلطات!!

الحقيقة تُتَبَعْ ولا تَتّبَعْ!!

ولكي تعرف هذا عليك أن تؤمن به، أي أن تؤمن أن الحقيقة هدف كل ذاتك، آن ذاك تصبح مؤمناً بالله، لأن الله هو الحق!!

لذلك نجد في وجودية "كيركغارد" الإيمان المسيحي رغم كل تهكمه ورفضه لموضوعية المؤسسة الكنسية، وعند "نيتشه" الإيمان الغيبي – شبه الديني– بالعود الأزلي، مما يعني أن لا معرفة دون إيمان، ولا إيمان دون ذاتية، وما عبارة الإيمان البرهاني الموضوعي بأي دين او عقيدة سوى سفسطة وقهر!!

هكذا تبدأ فلسفة "كيركغارد" مثل فلسفة "نيتشه" بالفردية وتنتهي بها، كل حسب إيمانه، وهذا هو جوهر الفلسفة لتي بنيت بعد ذلك تحت مسمى: الوجودية[*]، فكل نظام فكري يتجرد من الذاتية والفردية، نظام يتجاهل أهم أركان التفلسف، أعني البحث في الوجود بفرادته وفردياته، ورغم أن جوهر كل فردية قائم على كونها وقتية بزمن محدد يحدد تواجدها، إلا أنها تتطلع الى الوجود من هذا التواجد، أي تتطلع نحو الأبدية.

وهذا التطلع تجده بكل حس جمالي، إذا رافقه إيمان بالحقيقة يوصلك الى الإيمان بالحق صرت متديناً، حتى ولو ناهضت كل المؤسسات الدينية، لأن نموذجك "Paradigm" هو: بتجاوز الإنسان نحو تفوق الخلود بالكمال "Overman"

---

(1) Ibid, P 472.

(*) وركنها الأساسي في صواعق مؤلفات "نيتشه"، التي جمعها عبد الرحمن بدوي في كتابه تحت عنوان: "نيتشه"، وكالة المطبوعات، الكويت عام 1975، ص 278–281. كذلك انظر: بيار مسنار، كيركغارد، منشورات عويدات، بيروت 1983.

حسب ""نيتشه"، لذلك نعشق جمال الطبيعة والمرأة وكل ما نشعر أنه يقودنا نحو مزيد من الكمال.

وبهذا نجد أنفسنا عبر الإحساس الجمالي "Aesthetic"، والأخلاقي – بغض النظر عن تضارب الأخلاقيات بين "نيتشه" و"كيركغارد"–، نلمح مصيرنا ومصير الانسانية خارج هذا الزمان والمكان؟!

ويكفي من هذا قبسات الحقيقة حتى تلك التي لم نتيقن منها، فعدم تيقننا من ذلك بحد ذاته يرينا قبساتها، لأن إدراك أي حقيقة هو تقارب مع الحق يؤدي الى الإيمان به!!

فالذاتية والإيمان عند "كيركغارد" شيء واحد، مما يدفعنا الى الحكم على أن إلحاد أمثال "نيتشه" من الذاتيين – او الوجوديين أن شئت – هو عدم إيمانهم بالمؤسسات الدينية التي تدعي موضوعية الإيمان، مثال: البراهين الأنطولوجية والكوزمولوجية والغائية على وجود الله التي تنتقص من الخالق تعالى بجعله ضمن ما خلق، خاضعا للوجود الذي هو من صنعه تعالى؟! كذلك لاموضوعية الوعي في التاريخ وحتى المنطق والفينومينولوجية أي استبدال الله بالدولة عند "هيغل"، أي لا موضوعية بأي معطى اعتقادي حتى في الإيمان الديني، وبهذا وبكل هذا تظهر عظمة الفردية الذاتية التي لا غنى عنها في أي بحث حقيقي بالحقيقة!!

نحن كائنات فردية لا تتكرر ضمن نوعنا، الذي لا يسعى إلا لتكرار هذه الفرادات، إدراكنا فردي ومعرفتنا ذاتية لا تتطابق بين اثنين، وجميعنا فردي وجنتنا فردية ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم/95].

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام/ 94].

ومسؤوليتنا فردية وأوزارنا فردية، وتواجدنا "بممحاة" القدر فردي؟!

تلك حقيقة لا ريب فيها!!

حقيقة تُتّبَعْ ولا تَتَبَعْ بوقائعها "Facts" الواضحة والمتميزة.

فالإيمان بها يجعلك مؤمناً.

وعلى العكس من هذا وقف "هيغل" والهيغيلية من بعده ليتحفونا بكل موضوعية في كل أوجه الحياة، الى درجة أنهم عملوا على لاهوت تاريخي مهد الطريق لدين "وضعي"، يدعي الموضوعية - شأنه شأن "أوغست كونت" عبر سني جنونه قبل موته - ولدين بدون اله مهد الطريق للماركسية، التي نقلت أيضاً الألوهة الى خطرفات ما سمته: مادية؟! سواء تاريخية او فيزيقية وعلمانية وفنية وحتى دينية؟! فكانت فلسفة أمر يقود الى سواه إذا "شقلبته" رأساً على عقب، وللحق انها لم تنبع من ذاتية فقط بل من ذات تعملقت على سواها، أعني ذات "ماركس" على ذات "هيغل".

هيغل الداعي الى الموضوعية في كل "اوركسترا" فلسفته الذاتية؟!

الباب السادس

تحويرات فلسفية

التحويرات التراثية:

الإنسان حيوان جريء على الخالق جبان تجاه ما سواه، أما لشكه بوجود الخالق أو لأنه تعالى يؤجل عقابه، أو لأنه تعالى رحمن رحيم، لذلك يتجرأ الكل على الله تعالى بطرق وأساليب مختلفة، فيها أقصى الكذب على الله (فالقديس "بولوص" لم يسمِ المسيح ﷺ إلهاً، وكان يسميه معظم الأحيان بالإنسان... فقط كتقليد للمشركين "Pagans" – اعتبر إلهاً – لكنه كان في بادئ الأمر يعتبر رجلاً يوحى إليه من قبل الله... لكن "فوستوس سو سينوس Faustus Socinus " هو الذي زرع هذه الفكرة – فكرة التأليه – ونشرها في أوروبا)[1]، و"فولتير" الذي قال هذا، قال أيضاً: (ان هذا الاسباني – المور – شبه المحروق الذي خرج من لهب النار وهو يصرخ يا أيها الوحوش....إن الذي تقتلونه بأقسى صور التعذيب هو من ناقشكم ووقف ضدكم في أمر استحالة أن ثلاثة أشخاص – ذوات – يمكنها أن

(1) Voltaire. Philosophical Dictionary, Penguin Books, N.Y., 1972. P 179.

وذلك بعد المسيح بحوالي ثلاثمائة سنة وأكثر.

تشكل جوهراً واحداً؟!)[1]، فمسألة تأليه المسيح ﷺ لم تبق في نطاق الخطأ الثيولوجي حين كانت الكنيسة قوية، بل تعدته الى محاكم التفتيش بكل وحشية سلوكها، ضد باقي البشر سواء في العالم الجديد استراليا وأمريكا[*]، او في العالم القديم ضد الإسلام والأديان الأخرى، وحتى ضد "البروتستانت" في بلاد الكاثوليك، وضد الكاثوليك في بلاد "البروتستانت؟! (فرهبان الفرير "Friars" ذهبوا من مدينة الى أخرى بمهمة حرق كل مسلم في مدن وضواحي البرتغال)[2]، أي ضد كل من يقول: لا يوجد اله غير الله المتعالي عن البشرية.

فإذا كانت الحقيقة كما أكد "فرانسيس بيكون" لا تظهر إلا (من إرادة حرة في الفكر والسلوك)[3] فإن العقائد اللاعقلانية التي تفرض على الناس كجزء من الإيديولوجيا، فالدوغما هي عدوة الفكر، أي عدوة الإنسانية، لأنها لا تحفظ الإيديولوجيا بالمنطق بل بقوة السلطة والسلاح!!

السلاح الذي كان ولا يزال يشكل الإشكالية بين كافة بني البشر، وخاصة بين المسلمين والمسيحيين، قال "بيكون" (هناك سيفان بيد المسيحية؛ الروحي والأرضي، وكلاهما له وظيفته ومكانه في الحفاظ على الدين، لكننا لا نأخذ بالسيف الثالث، الذي هو سيف محمد وأمثاله بنشر الدين بالحرب.... إلا في حال الهرطقة والفضائح او كلاهما في كل ما يمارس ضد الدولة)[4]، فبأي شيء يفترق هذا عن سيف الإسلام؟! لكن السلاح مهما كان تبرير استخدامه بين المسلمين والمسحيين، ناتج عن ذاك الغضب المسيحي من التوحيد الإسلامي، والعكس من التثليث الذي لا يقبله المسلمون، ليس وسيلة تفاهم بأي حال من الأحوال.

فلو ذهب الفريقان الى ما هو ابعد من عناد العدائية الفارغ، وبنفس عميق لوجدا أن الحقائق "Facts" هي التي يجب أن تحكم علاقاتهم مع بعضهم، وأهمها:

---

(1) Ibid, P 180.

(*) ضد الابوريجنال "Aboriginal" في استراليا والهنود الحمر والزنوج في أمريكا كلها.

(2) Ibid, P 254.

(3) Francis Bacon, the Essays, Penguin Books, N.Y., 1985, P 61.

(4) Ibid, P 70.

١- الحقيقة التاريخية: التي يمكن للقارئ أن يجدها بأي موسوعة منذ أول موسوعة "لديدرو"، الى آخر موسوعة على أي "انترنت" وهي؛ أن هؤلاء هم مؤرخو "روما" – المفترض" أنهم معاصرون للسيد المسيح ﷺ في الفترة التي عاش فيها، وهم لم يذكروه:

1- Apollonius Perius.

2- Arrian Phaedrus.

3- Columella Phlegon.

4- Dio Chryostom Pliny.

5- Epictêtus Pompon Mêla.

6- Florus Lucius Quintilian.

7- Curtius.

8- Josephus Seneca.

9- Italicus.

10- Juvénal Statius.

11- Lucian Tacitus.

12- Maximus.

13- Martial Foccus

14- Pausanias.

15- Appian Petronius.

16- Aulus Gellius Philo.

17- Damis Pliny-the Elder.

18- Dion Pruseus Plutarch.

19- Favorinus Ptolemy.

20- Maximus.

21- Hermogones Quintius.

22- Justus of Tiberius Silius.

23- Lucanus Suetonius.

24- Lysias Theon of Smyran.

25- Paterculus Valerius[1].

وأن أحداً من هؤلاء المؤرخين او سواهم ممن عاصر السيد المسيح ﷺ لم يذكره، سوى "بولص" الرسول – الذي لم يكن مؤرخا – والأناجيل المتداولة الى اليوم ككتب دينية لا كتبٍ تاريخية؟!

كذلك لم يذكر أحد سوى "الأناجيل" أن الله كان يمشي على الأرض في تلك الفترة قبل حوالي "2011" سنة من اليوم؟! كأمر أكدته كل الموسوعات العلمية – كما سبق وأشرنا –، وربما كان سبب عدم ذكر المؤرخين الرومان المعاصرين للسيد المسيح ﷺ كون (كلمة مسيح "Christ", "Messiah" كانت لقباً للملوك، والأنبياء وللرهبان أصحاب السيادة في اللغة العبرانية)[1] وهم كثر، خاصة وأنه كان (يعني – أي اسم المسيح – في زمن الحواريين مجرد عكس ابن زبول – الشيطان – الذي يعني الرجل الصالح.... ضد الرجل الطالح)[2]، وهنا نقترب من حقيقة لغوية وهي:

2- أن الحقيقة اللغوية في النعوت التاريخية مثل اسم "احمد" الذي يعني صاحب الأمور التي يحمد عليها الإنسان، هي بالإغريقية التي ترجم إليها الإنجيل تلفظ بالبارقليط "Paraclete"، والتي يختلط لفظها بكلمة "Parakalon" التي تعني الداعي او المعزي، والتي من الممكن وضع هذه محل تلك، فلا يعود لمحمد صلى الله عليه وسلم اسم في الإنجيل؟! تماماً كما أن السيد المسيح ﷺ لا اسم له في

---

(1) Http: //jadestone. Org /Cr/ Files /mo historicale vide nceo Fjesus. HtmL.

(2) Voltaire. op. cit., P 302.

(3) Ibid. P 305.

التاريخ، لأن اسمه لقب، يمكن أن يحمله أي عبراني ذو منصب رفيع، كالمعزي او الداعي كصفة لأي شخص غير محدد، بعيدة عن صفة المحامد - احمد - التي تحمل بالعربية أيضا - والآرامية قريبة منها وهي لغة السيد المسيح ﷺ - معنى اسم "محمد" وحتى لو أخذنا بتحريفية الداعي او المعزي يبقى السؤال من النبي غير محمد صلى الله عليه وسلم بعد عيسى ﷺ ؟!

فمن هاتين الحقيقتين "Facts" اللغوية والتاريخية نصل الى الحقيقة المنطقية وهي:

أن المسيح مسيحان[1]: **واحد** جاء ولم يذكر - قبل القرآن الكريم كحقيقة تاريخية - لأن اسمه لقب او لأن التاريخ الروماني لم يذكره واليهود ساعدت على طمسه، والمسيحية اللاحقة ساعدت بأسطوريته - لا كحقيقة بشرية -، فلا زال لدى اليهود عذرهم بانتظاره، الذي لا يتم إلا إذا أعيد بناء "الهيكل" على أنقاض المسجد الأقصى!؟

وآخر أتى ولم يذكره التاريخ الروماني لأن اليهود حاولوا طمسه مستغلين كون اسمه لقبا، لكنه ذكر من شخص لا يمكن الشك بوجوده التاريخي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد قاهر الجبابرة - الرومان - والمتألهين - الذين جعلوا المسيح ﷺ إلها، او ارتفعوا فوقه بأن نعتوه بالكاذب وهم اليهود؟!

هذا التمانع بمعناه المنطقي الذي يعني **قضيتان** لا يمكن الخروج منهما بأي طباق يعني: استحالة الحل، وبحال استحالة أي حل يُحكِمُ منطق الواقع بالقوة، أي بالسلاح والحقد والكراهية.

لكن لم يبق سوى ملاحظة على المسيحيين استيعابها قبل ذلك وهي: أن الإسلام بنصه التاريخي الذي هو القرآن الكريم ذكر المسيح ﷺ كنبي صاحب رسالة للناس كافة هي: التسليم لله تعالى وحده لا شريك له، وحامل مثل هذه

---

[1] انظر كتابنا مع المرحوم كمال الحاج بعنوان: المسيحان والعصبية في الإسلام والصهيونية، مطابع الكريم الحديثة، جونية 1973 م.

الرسالة بالتسليم الله يسمى مسلماً، وحتى ولو لم تعجبهم هذه الكلمة فعليهم أن يعرفوا هذه الحقيقة الأخيرة وهي:

أن ضامن وجود دينهم – تاريخياً – الإسلام ، وليس نصه الديني كنصوص الأديان التي هي دينية لا تاريخية، ولكن حدثه التاريخي الذي جاء للحوار مع واقع معطى يفترض تاريخيته، ذكرها أم لم يذكرها المؤرخون.

هذه هي منة الإسلام التاريخية على المسيحية، بدلالة منته عليهم عبر اعترافه بهم كدين سماوي، وعدم إزالتهم من أماكن تواجده، كما فعلت الباباويات في أوروبا بمحاكم التفتيش سابقاً وباضطهاد المسلمين ومحاولة امحائهم من "البوسنة" قريبا!! وأخيراً وليس أخراً نعتهم بالإرهاب، كدين سيف لا يعرف العقل ولا احترام الحياة ولا الشفقة، دين" سراسرة" مجرمين "Saracen".

ولكن للخروج من نفق التعصب هذا صرخ "كيركغارد" قائلاً: (لقد جاء عيسى عليه السلام الى هذا العالم ليكون نموذجاً يحتذى.... وبعد قليل... عبد الناس هذا المثل – النموذج –، وأخيراً أرادت البروتستانتية الاقتداء بهذا النموذج، لكن هذا النموذج نموذج إدانة.

إن الإبداع الإلهي – في هذا الأمر – هو أمر واحد وهو أن نوع العبادة الوحيدة التي طالب الله بها هي الاقتداء – السنة – لكن الشيء الذي يريده الإنسان هو أن يعبد النموذج.)[1]

فإذا كان الإيمان برأي" فولتير" (هو أنك حين تعتقد بما هو واضح الدلالة "Evident" كالواضح بالنسبة لي هو وجود موجد ضروري فائق خالد عاقل، فهذا ليس إيماناً إنه دلالة عقلية.... بينما الإيمان هو ليس ما يبدو أنه حقيقي، بل ما لا يبدو حقيقيا أي زائفا لكل فهمنا.... مثل أن الجسد يمكن أن يكون في ألف مكان، وان الوجود واللاوجود شيء واحد تماماً.... فإذا دفعت عشرين "ربية" فإن الله

(1) Papers and Journals, op. cit, P 585.

سيعطيك أعطية – منحة – الإيمان بكل ما لا تؤمن به)[1]، لكن الإيمان برأي "كيركغارد" هو فعل الضمير، فهو (ليس مقولة عقلية بل مقولة أخلاقية، تجسد العلاقة الشخصية بين الله والإنسان)[2]، وطبعاً لا تجسد هذه العلاقة إلا بكل عمل أخلاقي، أي بكل عمل يتجاوز حتى حدود الواجب الأخلاقي، وكما عبر عنه "نيتشه" بقوله (أن كل ما يعمل به – يخرج – من الحب هو دائماً يأخذ مكانه– فيما وراء – الخير والشر)[3]، أي أن الإيمان هو كل ما يتجاوز الواجب في أي سلوك أخلاقي، وأجر المتجاوز للواجـــب على الله – وحسب التعبير العامي: الأجر على الله –!!

فأن لا تطلب حتى الأجر من الله يعني أن إيمانك به أقوى من كل خير وشر، او واجب او منفعة او ثواب او عقاب، إنه القيام بأمر الحب بأسمى معانيه لله، وبهذا وحده يفهم الإيمان بالله، محبة؟ تقول رابعة العدوية:

حبيب غـــاب عن بصـــري وشخصي

ولكـــن عـــن فـــؤادي لا يغيـــب[4]

هذا هو الإيمان بالغيب من خلال الفؤاد أي الضمير وكلاهما مشعور به لكنه غير منظور، وفي عالم اللامنظور "Indiscernibles" كأساس لكل منظور فيزيائي او بيولوجي عضوي وحتى نفسي سيكولوجي؛ يوجد عالم الميكرو "Micro" الذي لا تنطبق عليه قوانين المنظور في عالم الماكرو "Macro"، ولكن العالم الدقيق "ميكرو Micro" هذا هو الذي يتحكم بعالمنا المنظور، تحكم الإلكترون بالانفجار الذري، و"الدنا D.N.A" بحياتنا ومدتها وموتنا، او بشبابنا وهرمنا، تحكم الإرادة التي نشعر بها بعقلنا وعواطفنا، وبعبارة أخرى نحن أسرى اللامنظور وقوانينه، لذلك حين

---

(1) Voltaire Dictionary, op. cit, PP 208-209.

(2) Papers and Journals, op. cit, P 641.

(3) Beyond Good and Evil, op. cit, P 103.

(4) انظر كتابنا، الحب والفاجعة، مرجع سابق، ص 301.

نتحدث عن الإيمان فنحن نتحدث عن مقولة أخلاقية كما قال "كيركغارد"؛ يمكن للجسد في تصوراتها أن يكون بألف مكان، والوجود واللاوجود فيها قد يكونان شيئاً واحداً، أي يمكن لكل قواعد المنطق التي ذكرها "فولتير" أن تخرق في هذا العالم، تماماً كما تَخرق قوانين "الماكرو – بيولوجي" او "الماكروفيزياء" كل الطب بعد الجينوم وقوانينه، وكل هندسة "إقليدس" او السطوح المستوية وفيزياء المرئي.

وقائع العلم الحديث "Facts" في صلة "الماكرو بالميكرو" تقبل بكل لا منطقية الطبيعة في قوانين "الميكرو"، فلماذا لا تقبل صلة الإيمان بالضمير؟!

هذا الماورائي الذي يقوم – يحمل – كل ذواتنا، والذي يشعرك بسلطة الله حين تعمل – إذا قدرت – أي عمل أخلاقي فيما وراء الخير والثواب، من اجل من تعمل له بذاته، بما يسمى بالأخلاق للأخلاق، تماماً مثل مقولة "الفن للفن":

(الهي كل ما قدرته من خير لي في الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك، لأني لا أسعى إلا إليك)[1] كما قالت رابعة؟!

الإيمان هو فعل ضميري ما وراء الخير والشر مثل "الدنا" و"الإلكترون" كما وراء البيولوجيا والفيزياء وكل العالم المنظور[2]!! لذلك لا يمكن للإيمان أن يقبل بمحدودية أي فعل أخلاقي، او بمحدودية الخالق في زمان ومكان، فيمكننا ذلك من القول: أن الوثنية كالتثليث لا يمكنها أن تعرف الإيمان، وكل ما عرفته كان إيديولوجياً على أحسن الأحوال، و"دوغما" على أسوأها، وبين هذه التحويرات لا يوجد المسيح ﷺ في التاريخ، ويوجد في القرآن، ولا يمكن لله أن يصبح او يتجسد بسلالة شبيهات "الإنسان الكامل – Homo Sapiens" ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف/5]، لأن تلك اكبر إهانة للذات الإلهية المطلقة

(1) المرجع السابق، ص 40.

(2) انظر "رولان اومنيس"، فلسفة الكوانتيوم، عالم المعرفة، الكويت ابريل 2008 م، شرط أن تدرك انك لست بغنى عن قوانين "الماكرو" لأنك أنت فيها، فلا تخرق قوانين المنطق فيما تكتب او تعبر عنه، وإلا فأنت صوفي لن يفهمك احد سوى ذاتك، ومن هنا جاء مفهوم الجذب والمجذوب.

الحقة، يدعونها ويجهرون بها تحت ستار المحبة والضمير والأخلاق؟! وهم لا يعرفون شيئا – كما لا نعرف عن اللامنظور الإلهي، الذي هو ارفع وأكثر غموضاً بقوانينه من المجهريات التي تحتم وتفرض علينا قوانينها اللامنطقية، فعلى أي أساس يقوم الادعاء بمعرفة سر التجسد الإلهي، وعن أي سر "Indiscernibles" لا يمكن معرفته يتحدثون؟!

خذ إيمان إبراهيم ﷺ تجد أنه يؤمن إيماناً (من غير الممكن إيضاحه لأحد، حين وضع نفسه بتناقض كونه فرداً في علاقة مطلقة مع المطلق)[1] وتجدها أيضاً في بحثه عن هذه العلاقة عبر ظواهر المتغيرات، ناشداً كل ثبات غير مرئي في متغيراتها ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام/78] فعلى خطا "إبراهيم ﷺ" وسنته يجد الإنسان الباحث عن الإيمان باحثاً عن الثوابت إزاء المتغيرات خارج ذاته، وفيها بالضمير الذي يصلنا بالمطلقات فور قيامنا بأي عمل أخلاقي!! وشجاعة القيام بمثل هذا تحتاج الى شجاعة قلب وشجاعة عقل:

إن الشجاعـــة فـــي القلـــوب كثيـــرة

ورأيـــت شجعـــان العقـــول قليـــلا

ليسمحا له بالوقوف ضـــد كل ما يراه خطـــأ في تراثه مثل؛ شجاعة "ابراهيم ﷺ" – سنته – بكسر اصنام قومه، الى شجاعة "سقراط" بالمجاهرة بعشق الحقيقة، الى "فولتير" "فكيركغارد" و"نيتشه" وقبلهم وبعدهم كثير، ألم يقل "نيتشه":

(لقد نهبت المسيحية منا حصاد ثقافة العالم القديم، وذهبت مؤخراً لنهبنا من حصاد ثقافة الإسلام، تلك الثقافة الرائعة للمغاربة – مور – في عالمهم الاسبـــاني)[2] ، كل هذا لفرض التثليث "Trinity" على التوحيـــد الإسلامـــي، يقول

---

(1) Fear and Trembling, op. cit, P 90.

(2) The Anti-Christ, op. cit, P 195.

فولتير" بهذا الشأن: (.... لا شيء أكثر مخالفة للعقل الصارم مما يتعلمه المسيحيون حول التثليث في جوهر الهي واحد..... وان هذه النظرية غير القابلة للفهم لا يمكن أن تجدها بأي نص مقدس؟)[1].

جورج هيغل:

نشر هيغل، جورج فلهم فردريك "1770- 1830" عندما كان حياً أربعة كتب من تأليفه فقط وهي:

1- Phenomenology of Spirit[2].

2- Science of Logic[3].

3- وموسوعة العلوم الفلسفية المترجم للعربية[4].

4- وفلسفة القانون - مترجم- [5].

أما باقي كتبه فقد نشرت بعد موته مثل:

Introduction to the Lectures on the History of Philosophy[6].

وهي من مجموعات محاضراته، التي نشرت تباعاً "حول فلسفة الفن والدين والمسودات والمقالات التي كتبها في بداية حياته، تحت عناوين مختلفة، بها نقده للكنيسة وللمسيح ﷺ كأمور تتنافى مع العقل، هو لا يرى في كل خطه الفكري سوى المعقولية في الوجود، متجهاً بالفلسفة لتحل محل الدين، وليحل محلهما العلم بدءاً من كتابه "فينوميتولوجيا الروح" المذكور آنفاً، منتظراً من المستقبل تطورية سريعة - بالنسبة للتطور بمفهومه البيولوجي -، تقود الى إلغاء كل مستويات المعرفة، كي لا يبقى سوى المنطق والعلم رديفه الإمبريقي، وهذه هي الطوباوية -

---

(1) Philosophical Dictionary, op. cit. P 40.

(2) Phenomenology of Spirit, op. cit.

(3) Science of Logic, Humanities Press Inc, NJ 1996.

(4) موسوعة العلوم الفلسفية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1985م.

(5) الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق.

(6) Translated by T.M Knox, Chasendon Press, Oxford 1985.

الإنتظارية – للمعقولية التي سنجد صداها الذي يصم الآذان بالدوغما الماركسية المراهنة على "السين وسوف" بعد ذلك، فماذا كان ينتظر هؤلاء من المستقبل(*)؟!

الجواب: الموضوعية العقلانية للمعقولية حسب تصورات القرن التاسع عشر العلمية، على وهم ظن الوصول الى الحكمة من جهة والى فردوسها الأرضي، بدل استمرار السير في طريقها اللانهائي.

إن ذهنية الإلغاء لمستويات المعرفة الأخرى بناء عليها في كل عصر، هي المطب الذي يفتح باب "الإيديولوجيا" في كل تفلسف، وبالنسبة "لهيغل" ظن أن هذا الإلغاء للدين وللفلسفة عدا المنطق، سيقود الإنسانية الى مزيد من موضوعية المعقولية التي ستسيطر على الطبيعة والإنسان في المستقبل، وهذا الظن كان محكوما طبعا بمعرفته العصرية الأوروبية، منذ أن بدأ "كانط" تعريف عصر "التنوير" بعصر "الاحتكام الى العقل وحده في كل مجالات الحياة"، فكانت هذه العقلانيات المسرفة بتضخيم دور المنطق والعلم – حسب حدوده المعروفة في القرن التاسع عشر – من هيغلية وماركسية، ولم يخفف من غلوائها سوى غلواء فلسفات اللامعقول الوجودية بدءاً من "نيتشه" و"كيركفارد" وانتهاء "بسارتر" و"جاسبر"، فالبنيوية الأقرب الى الألسنيات اللغوية من الفلسفة بعد ذلك، طبعاً قبل بروز "التحولية الإبستيمولوجية" وفلسفة الترجيح المعاصرة بما بعد الحداثة اليوم.

وما نُسَخِّر كل هذا باتجاه بحوث المصير، التي تشد كافة الناس في كل مستويات المعرفة من دين وفن وعلم الى مجال التفلسف الذي نسعى إليه!!

لكن لكي تصبح كل "رومانطيقية" "هيغل" واضحة لا بد من محاولة شرح ما كان يعنيه هيغل بعبارة الروح "Spirit"؛ فهو أولاً وقبل كل شيء يرجعها الى أصلها الديني؛ يقول: (أن الروح في كيفية تشكلها والتي هي وثيقة الصلة بصورة أقرب الى الفلسفة هي موضوع الدين وفي مجاله بصورة عامة، وهذا المجال الذي

(*) في تلك المقاربات السخيفة بين التطور البيولوجي عبر ملايين السنين، والتطور الذي سموه اجتماعيا بعشرات السنين؟!

يتضمن الدين بما هو دين ينتقل الى الأسطورة، والسرانية، وجزئياً الى الشعر أيضاً)[1] فهي تجسيد لكل ما هو مطلق بصورة تامة لكن (بينما يحاول الدين الحصول على تمام هذا المفهوم والتوافق معه عبر الطائفية، كمثال: على تأجيج المشاعر، تريد الفلسفة الوصول التوافقي – مع الروح – هذا بالفكر)[2].

وعبر فكر "هيغل" هذا تصبح الروح في تبدياتها بالفرد البشري وبالمجتمع – روح الجماعة –، وبالمؤسسات الاجتماعية ثم روح مؤسسات الفن – والعلمية – روح مؤسسات العلوم –، بديلاً عن روح الله التي تجسدت بالمسيح – حسب المسيحية –، فإذا كان لها تجسدها فهو في الدولة؟!

هكذا أدخل "هيغل" في الفلسفة مصطلحات دينية ولّدَتْ في "الماركسية" ديناً بلا اله، وفي الفكر القومي دكتاتوريات فاشية الدولة، وبررت لهما؟! فانحرفت الفلسفة عن مساراتها الفكرية الحرة نحو "الإيديولوجيات"، التي عانت منها أوروبا – وخاصة في الحربين الأولى والثانية – وما بينهما من الويلات؟! ناهيك عن معاناة العالم الثالث الذي حذا حذو الفكر الأوروبي حذو النعل بالنعل على ظن انه طريقه نحو التقدم.

قال "هيغل": (إن مضمون الفلسفة والدين واحد، والاختلاف فقط في مجال معالجة كل منهما)[3].

فهل هذا صحيح؟!

أسارع بالجواب حول استحالة ذلك، لاستحالة أن يكون الدين الحق إيديولوجيا،، فالإسلام مثلاً؛ ليس مجرد عقيدة قابلة للتبديل، إنه طريقة حياة ينخرط فيها كل أهل "الذمة" – الذين هم بذمة المسلمين من الكتابيين–، شاؤوا ذلك أم أبوا عبر ما يمكننا أن نسميه في علم الاجتماع؛ بالقسر الثقافي، إذ أن كل من يتكلم اللغة

---

(1) Introduction to the Lectures on the History of Philosophy op. cit. P 123.

(2) Ibid. P 124.

(3) Ibid. P 127.

العربية يحكي عبر ثقافته قرآناً، وهذه الشمولية الإسلامية "Encompassing" التطبيقية – الواقعية – ليست كياناً عاقلاً حتى تسمى روحاً، إنها مجرد ظاهرة اجتماعية، تتكرر في كل ثقافات الأمم الموغلة بالقدم عبر المناخ الفكري الاجتماعي السائد فيها، يقول "جاسبر" (ان معرفة سلطة الكلية او الشمولية الثقافية "Encompassing" في كل تواجد واقعي – تجريبي – يجمع بيننا.... يجعلنا نعرف ما.... يضمنا كجماعات مع بعضنا بعضاً)[1].

إن الاختلاف بين الدين والفلسفة كالاختلاف بين الفلسفة والعلم، او الدين والعلم، او المنظور واللامنظور – بالعين او بالعقل او بالمشاعر –، او الفلسفة والفن، ولا يمكن استخدام منهج هذا في إيضاح ذاك، فمجال الفلسفة هو في المنطق والميتافيزياء، ومجال الدين في المفارقات "Paradox" .

وشتان بين الميتافيزياء "Metaphysics" أي البحث في حوامل الوجود المنطقية، وبين البحوث في المفارقات "Paradox" أي بالمجردات في الوجود والتي ليست ما وراء الفيزياء، أي العالم الواقعي – حوامله – بل ما يفارق الوجود والعدم فيها؟! وهي مجال الثيولوجيا، بينما مجال الفلسفة الكوزمولوجيا ككل!!

مجالات مختلفة لأن هناك مضامين مختلفة، فمن مجال الفلسفة العقل، ومجال الفن هو الذوق، ومجال العلم هو التطبيق الإمبيريقي، ومجال الدين هو المفارق، وما اختلاف هذه المجالات إلا لاختلاف أساليب علاج كل منها بسبب اختلاف مضامينها، خاصة وأن الفرق كبير بين الماوراء أي الميتافيزياء، وبين الخلف – خلف الوجود – المفارق!!

فإذا أصر "الهيغليون" على وحدة مضامين المعرفة، يصبح شرف المثل القائل: "كله عند العرب صابون" بحوزتهم؟! أي كله عند الألمان صابون – ورغوة –؟!

---

(1) Karl Jaspers, Reason and Existenz. Farrar, Straus and Giroux, N.Y. 1978, P 54.

لكن وراء هذا الخلط بين المضامين المعرفية هدف، يتجلى برغبة "هيغل" بتشخيص الألوهة بالروح الحالة بكل قانون، من الروح المسيحية التي نشأ على اعتبارها تجسيداً لله في المسيح ﷺ؟! عبر الخطأ الثيولوجي المتعمد بجعل "لوغوس" هرقليطس إلهاً بالمسيح ﷺ؟!

وسبب ذلك كما نبه "جاسبر" هو سوء فهم معنى "التنوير"، الذي لا يعني أبداً استبدال الدين بالأساطير الفلسفية التحريفية، لمعنى الرابط الاجتماعي والقسر الاجتماعي بالروح كما عند "هيغل"، ولا التلاعب بالمصطلحات بجعل "اللوغوس" إلهاً، يقول "جاسبر": (ان تعاليم التنوير موجهة ضد العماء في تقبل الآراء كحقائق بدون نقاش)[1].... فهو أي التنوير ضد الخرافة والتعصب كنعتين يمكن أن يصاب بهما العلم، وتصاب بهما الفلسفة بقدر الدين؟!

وخرافة الروح عند "هيغل" هي سبب عبادة الدولة عند الألمان من جهة، وإفراز "الدوغما" الإيديولوجية الماركسية من جهة أخرى!؟

ولعل سبب شهرة "هيغل" في ألمانيا، والتي تجاوزت "فخته" في اختلاف "رومانطيقية" كل منهما، فبينما كان "فخته" يدعو الى رومانطيقية قومية لحظتها التاريخية خلفها، دعا "هيغل" لرومانطيقية لحظتها التاريخية قادمة، وهنا سبب الجدة في طروحاته، التي زودت الأدب الألماني بتفاؤلية مستقبلية، عكسها مثلاً صديقه الشاعر "Holderlin" – هولدرلين" مفتتحاً باباً جديداً في الأدب والشعر.

كذلك رأت فيه الدولة "البروسية" فيلسوف بلاط، ليبرر ضرورة خضوع الشعب لها – لأنها تمثل روح الأمة – وربما بعد ذلك وبشيوع فكره وفكر "فخته" ستخضع كل ألمانيا للبروسيين، وهذا ما حصل!!

فالروح الحالة بالدولة والمتجهة نحو التطور في المستقبل نحو مزيد من العقلانية – العلمانية–، صارت بديلاً عن "الروح القدس" المسيحية عند معاصري "هيغل"، فيلسوف هذه الرؤية شبه الدينية الحديثة بلا إله.

---

(1) Karl Jaspers, Way To Wisdom, Yale University Press, London 1979, P 87.

ولكي يشرح "هيغل" الكيفية التي ستحصل فيها هذه الرؤية المستقبلية قرر آليتها بالديالكتيك؟!

يقول: (ما هو فعلا واقعي السياق يتجاوز لحظته، وكل هذه الحرية تتضمن كل ما هو ايجابي بها كحقيقة، وهذه الحقيقة بها أيضاً سلبها الذي يمكننا أن نسميه الخطأ)[1]، وفي تعريفه للفعل ورد الفعل في "منطقه" يقول: (السببية تفرض بشكل مسبق وجود فعل فالسبب مشروط – بالفعل – الذي هو نفيه بعلاقته الذاتية.... والهوية التي تتجاوزها السببية تؤكد ذاتها.... كنفي)[2]، وبعبارة أخرى: أننا إذا أدركنا النفي الذي يواجه أطروحة معطاة "Proposition"، نستطيع أن نصل الى تركيب بينهما – طباق– "Synthetic"، هو بحد ذاته أطروحة جديدة، بحاجة الى نفي "Negation" جديد، يغربل الخطأ الذي تتضمنه أي فكرة مطروحة، فكل "ما يتجاوز سببه يؤكد ذاته كنفي جديد، حسب ديالكتيك "هيغل" من أجل "تنقيح الحقيقة من السلب الذي يتضمنها، أي الخطأ".

وهذه الحركية بين أي موضوع مطروح "Proposition"، ونفيه أي نقده، سواء من صاحبه او من الآخرين "Negation"، يؤدي الى تنقيحه، أي تشكيل طباق جديد للموضوع المطروح "Synthetic"، هو بحد ذاته بحاجة الى مزيد من الغربلة – أي النقد – النفي –، لنخرج بطباق جديد، وهكذا تخصب الحقيقة التي ظنها "هيغل" بذلك تتطور بهذه الديالكتيكية، التي اعتبرها المفتاح لحل كل الغاز المعارف والعلوم والتي توصلنا الى "روح" الحقيقة المطلقة بالتطور؟!

هذه الروح (التي تتجاوز لتعرف ذاتها بصيغة، هي نور نقي يعبر عن طبيعته بأشكال مختلفة)[3]، وطريق الوصول الى هذه الألوهة يتم عبر (الوجود الآني الذي يقف كعكس "Antithesis" لوعيه – في كل الأمور – وهو بحد ذاته

---

(1) Phenomenology of Spirit. op. cit, P 27.

(2) Science of Logic. op. cit, P 566.

(3) Phenomenology of Spirit. op. cit, P 420.

كقوة نفي "Negation" تنحل به كل التمايزات)[1]، وبهذا يصل الوعي الى روح الوعي الكلية أي يحل محل الالوهة، عبر مسعى الديالكتيك شبه اللانهائي؟؟

وأقول شبه اللانهائي لأن "هيغل" يعتقد بإمكانه تحققه في لحظة تاريخية قادمة – وإن كانت بعيدة – لصعوبة تجاوز التناقضات في كل معرفة ممكنة، لتصل الى ما نظنه غير ممكن؟!

وهو جعل المنطق أداة كشفٍ للحقيقة، بعد أن كان منذ "أرسطو" آلة معرفة او معيارا او ميزان معرفة "أورغانون Organon"، للنظر بالقضايا والقياسات سليمها من مغالطها – إذا وافق الناظر على المقدمات التي تنطلق منها – سواء بالرموز – بترميزها – لكي تعالج القضايا فيه وكأنها بنى رياضية مجردة – كما عند فريج "Frege" و"رسل" –، أي بجعل الرموز المنطقية تتحرك بمعادلات "الجبر"، لذلك سمي المنطق الحديث بالمنطق الرياضي، وهذا لا يعني أنه أداة كشف الحقيقة، بل يعني أنه معيار ما هو مكتشف منها، إنه حسب تعبير "كانط" (لا يتضمن قواعد ما يجب أن نفكر به، بل يصنع الأسس التي نشيد بناء عليها ما نفكر به عادة – قواعد الفكر –)[2]، فهو بهذا المعنى مثل قواعد اللغة التي تضبط صحة اللفظ، يضبط صحة المعنى، دون أن يكون اللفظ او المعنى ذا قيمة أم لا، مدلاً على الحقيقة أم لا!!

أما "هيغل" فادعى إمكان كشف الحقيقة بالديالكتيك المحكم بالصورية التي تحدثنا عنه، مع فارق أن الديالكتيك قد يؤدي الى الجدل بقدر ما يؤدي للحوار، وهيغل يتحدث عن ديالكتيكية الحوار دون ضابط يحددها ويبعدها عن الجدل، الذي وقع به أتباعه؛ أمثال: "فيورباخ وماركس".

فماركس يثني على "فيورباخ" تارة بقوله: (أن مساحة فيورباخ العظيمة في:

1- إقامة البرهان على أن الفلسفة ليست أكثر من الدين.... هي شكل آخر..... وبالتالي يجب رفضها – أي رفض الفلسفة –؟!

---

(1) Ibid.

(2) Lectures on Logic, op. P 7.

2- المادية.

3- الوضعي هو ايجابي.... فنفي النفي ليس سوى تناقض الفلسفة مع ذاتها باعتبار أنها تؤكد اللاهوت)[1]، وتارة أخرى يقول (مفهوم فيورباخ عن العالم المحسوس.... محض تأمل حدسي.... لا يأخذ في الاعتبار إلا ما هو تحت اليد.... لا يدرك البشر في علاقاتهم الاجتماعية الواقعية.... ويسلك سلوكاً مثالياً)[2]، فهل "فيورباخ" مثالي أم ذو مساهمة عظيمة؟!

مثل هذا التناقض ليس نقائض ديالكتيكية، أنه جدل[*] لا علاقة له بأي حوار، ليصبح جزءا من الطبيعة الماركسية بعد ذلك، التي ترفضها كل فلسفة تحليلية - بنيوية - جادة!!

وكل هذا بدأ من الصفة التي أعطاها "هيغل" لروح الوجود على أنه قوة نفي للوعي - حين تواجده -، أخذاً "كلمة "Dialektike" ديالكتيكة" الإغريقية ليعطيها تفسيرا خاصا من خلال شذرات "هرقليطس" حولها مثل:

(ان ذلك الذي هو في تعارض لهو الشيء المتماسك، ومن الأشياء التي تختلف يظهر أجمل التناغم)[3]، فمن صراع القوس والوتر يتولد النغم، او السهم القاتل، فالضد ليس بمعزل عن ضده، وهذا أمر مسلمٌ به تراثياً في تراثنا: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح/6].- و - ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة/28]، ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران/27].

---

[1] كارل ماركس، مختارات من المؤلفات الكبرى 1842-1846، دار دمشق للطباعة والنشر، ص 65-66.

[2] المرجع السابق، ص 135 وما بعدها.

[*] جدل في اللغة العربية تعني تداخل الضفائر في الشَعر والشِعر، بينما الحوار بحث لا جدل فيه عن الحقيقة، فمن حاور أي أجاب، والحواري ناصر الأنبياء وخاصتهم والحواريات الصافيات، انظر محيط المحيط، ابن منظور، مكتبة الحياة، لبنان،عام 1977 م، ص 203.

[3] شذرات هرقليطس، دار الثقافة، القاهرة 1980، ص 113.

إضافة الى أن سقراط" استعمل الحوار الديالكتيكي لأجل استخراج الحقيقة من أكثر الناس جهلاً بها، عبر إظهار التناقضات التي توجه المحاور نحو استنتاج الحقائق، لكن الذي سببه هذا المنهج رغم نتائجه الباهرة لم يترك لسقراط صديقاً من الناس الذين لا يهتمون بالحقيقة، وخاصة الأدباء السفاسطة وكهنة الدين، يقول "أرستوفان" "Aristophanes" المعاصر لسقراط بشكل صريح في مسرحيته "السحاب" التي جعل "سقراط" فيها يتدلى من "قفة" تلفظها غيمة: (الآن تعال معي عزيزي "فيديبيدوس Pheidippides" لندمر اللعين "شياريفون Chaerephon" و"سقراط" أيضاً اللذين دمرانا معاً)[1]، ولمثل هذه الأقوال استجابت "أثينا" لصعوبة التمييز بين الحوار والجدل، وتداخلهما معظم الأوقات!!

أما بالنسبة "لأرسطو" فقد صار الديالكتيك يعني أي استقصاء منطقي يستند على أي صيغة محتملة، و"كانط" يعتبر الاستدلال "Inference" الذي يخرج من هذه الاحتمالات وهماً، إن لم يكن سفسطة تسيء استخدام المنطق، لأن الاحتمال اللامنطقي قد يخرج منَ الديالكتيك، لا في حال الجدل فقط، بل أيضاً حين الحوار بين الجماعات التي تتبنى أيديولوجية واحدة، وبالعامية: "تُطَيّب لبعضها، وتزاود"، وهو ما حصل بصورة فاضحة بعد ذلك في حوارات اليساريين مع بعضهم، خاصة الحزبية منها.

يقول "كانط" (يمكن تقسيم النطق الى: 1- تحليلي وديالكتيكي

2- عام، طبيعي وصوري)[2].

وهو حين يتحدث عن التحليلي يعتبر أنه (فعل العقل الذي نمارسه حين نفكر.... لذلك يسمى بمنطق الحقيقة)[3] بينما المنطق الديالكتيكي مدان عند الإغريق فـ (الديالكتيشان[*] - ممارس الديالكتيك - يعرف عندهم بالأديب الذي يقود الناس

---

(1) The Complete Plays of Aristophanes, op. cit, P 140.

(2) Immanuel Kant, Logic, Dover pub. inc, N.Y., 1988, PP 18-19.

(3) Ibid, P 18.

(*) Dialectician.

حيث يشاؤون.... وقد وضع بمكانة في المنطق تحت اسم فن - الخداع والتضليل - للخلاف.... فليس هناك ما هو - أسوأ - أقل جدارة بالفيلسوف من ممارسة هذا الفن.... الذي يجب - نقضه - بكل مقدمة منطقية)[1].

وعلى الرغم من كل هذا اعتبر "هيغل" الديالكتيك بأنه السياق الضروري لتقدم الفكر والعالم، منذ "هرقليطس" الى يومه ذاك؟! مدخلاً هذا الأسلوب بالفهم عبر الحوار الذي حدده كما ذكرنا: "بالأطروحة والعكس والطباق فالأطروحة" من آخر طباق وهكذا - في فلسفة الطبيعة أيضاً والتاريخ البشري والطبيعي البيولوجي؟!

وهذا ليس بالأمر السيء إذا أخذ في سياق تحليلي، وأعني بالسياق "التحليلي الديالكتيكي" إذا صحت التسمية لإبعاد الديالكتيك عن الجدل وعن سلبية المحاور - كما فيما سماه أفلاطون فن التوليد السقراطي - والتي ضخمها "أرستوفان" في مسرحيته التي انتقد فيها "سقراط" بشكل كوميدي، برز من سلبية محاورية حتى في أسئلته التي لا تمت للفلسفة بصلة، وطبعاً هذا غير صحيح، لكنه شأن كل "كاريكاتور" لا يضحك إلا بالمبالغة بأمر بادٍ خطأ منطلقه!! فسلبية المحاور مشكلان: سلطوي يدفع بالمحاور الى تجنب إزعاج أستاذه، او صاحب السلطة السياسية الذي يحاوره، ودوغمائي يلعب فيه المحاور دور المُفْحَمْ من أجوبة محاوره، ويمكن للقارئ رؤيته بكل الحوارات السياسية التلفزيونية بين مذيع من محطة ذات اتجاه أيديولوجي معين، ومن يستضيفه ليتفّه بأقواله خصم هذه الإيديولوجية، عبر أسئلة وتعليقات يدعي فيها المذيع تبني وجهة نظر من يريد تحطيمه - او تحطيمهم - بهذه الطريقة الحوارية.

ففن التوليد "السقراطي" بهذا المعنى يسيء للديالكتيك كما أساءت الدوغمائية الماركسية للشيوعية، لذلك لا بديل عن "التحليل الديالكتيكي" بمعنى أن يقوم الإنسان بمحاورة نفسه بنفسه، ولا بأس هنا باستخدام "الأطروحة والعكس والطباق

---

(1) Ibid, P 19.

فالأطروحة الطباقية.... الخ" لأن هذا التوليد الذاتي سيعمل على تحليل المضامين التي يطرحها الإنسان على نفسه على ضوء المعرفة الإنسانية التي لديه، والمهم فيه:

1- الوصول الى المفاهيم، ثم تخليصها من كل الأفكار المسبقة التي تبدو شبيهة بها بتحليلها وتحليل بناها الأساسية.

2- جعل ولادة الأفكار فن التوليد السقراطي نتيجة مخاض ذاتي لا حاجة الى أي قابلة تعينه، به يتحقق الاصطفاء الطبيعي بكل معنى الكلمة، بموت ما نظنه مفهوماً وهو مجرد فكرة عابرة، وحسب منطق الطبيعة مهما بدا قاسياً ليس كل ما يولد جديراً بالحياة!؟

وكمثال تطبيقي على هذا أحب أن أعيد القارئ الى الاستخدام القرآني للمتناقضات الذي سبق لنا ذكره، ليرى كيف صاغها الذكر الحكيم بتناغم يوصلك بآخر آية - سابقة - الى مفهوم الموت كعود الى مرحلة ما قبل الولادة ليس إلا، كواقعة Fact لا جدل ولا تحليل بعدها لمعنى الموت!!

لكن لانبهار "هيغل" باكتشافه للمنطق الديالكتيكي، لم يذهب بهذا المنطق الى عمق المفاهيم التحليلية الحاملة له "ماوراءه"، أي لم يعالجه "امبيريقياً" ولا "ميتافيزيائيا"، لذلك نتج عن كلامه هذا هراء المادية الديالكتيكية بدل معقولية "التحليل الديالكتيكي"، الذي كان "هيغل" وحتى "ماركس" من بعده يقومان به في كل كتاباتهما، فلا "هولدرلين" ولا "أنكلز" كان لهما ذاك التأثير الذي يدعيه الهيغليون والماركسيون من بعدهم، بمذهب أي منهما!! وكلاهما استخدم المنطق العام الشائع في معارف عصره "Common Sense" وسماه ديالكتيكياً، لكونه استخدمه استخداماً ذاتياً بكل معنى الكلمة؟!

لذلك عندما ادعى "شوبنهور" أن "هيغل وشلنج وفخته" سفسطائيون ثلاثة - أي - (ثرثارون ودجالون معتبراً نفسه الوريث الشرعي "لكانط" بينما - هم -

مغتصبين)[1]، كان لا بد يشعر بالسفسطة في فصل الديالكتيك عن التحليل وان هو لم يقل ذلك ولا هم شعروا به!!

والحق أننا نعيش في عالم من النقائض والتناقضات، دخلناه من باب اللاشيئية وسنخرج منه من الباب ذاته، انه عالم مفهوم بعقلنا غير معقول لا بالسببية ولا بالإطلاق اللانهائي، فلماذا نربطه بالديالكتيك فقط وفي صلب كل ديالكتيكية مفاهيم التحليل؟!

تماماً كما بصلب كل مفهوم تصل إليه بالتحليل لا معقوليته بتناقضاته، فإذا كانت الفلسفة – كما قال "هيدغر" – في بحثها عن أي مفهوم تحتاج الى أن تستدعي كل المفاهيم الفلسفية من أجل إيضاحه، فلا غرابة لماذا اهتم "هيغل" بمفهوم الوجود ضمن سياق إنكاره للموجد – "مؤيس الأيسات عن ليس" – كإنكاره لكل ما لا يظهر فيه ديالكتيك، كبدعة استدعت كل الفلسفات الوجودية كفرع من الشجرة الهيغلية تقّابل بها دعاتها بالماركسية وتأثروا بها؟!

لذلك يقال أن أفكار "هيغل" بعد أن قلبها "ماركس" رأساً على عقب لم يكتب لها النجاة إلا بالتواجد والزمن "لهيدغر"[2] والوجود واللاشيئية – العدم كما هو شائع – "لسارتر"[3]، والفكر الذي اعتبره "جاسبر" طباق الوجود[4]؟!

"فهيدغر" يوافق "هيغل" بأن (جوهر التاريخ هو تاريخ الروح التي تجري في الزمن)[5]، والروح عند "هيغل": "نور نقي يعبر عن طبيعته بأشكال مختلفة" – كما سبق وأشرنا الى تعريفها عنده – بقي ضرورة (تعريف هيغل لجوهر الزمن الذي هو من أملاك الروح التي تنزل فيه.... فالزمن عند "أرسطو" هو المكان والحركة المرصودة فيه.... لكن هيغل وضع الزمان والمكان معاً – فالمكان هو الزمان إذا

---

(1) الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 196.

(2) Martin Heidegger, Being and Time, Blackwell, Oxford Uk 1996.

(3) Being and Nothingness, op. cit.

(4) Reason and Existenz, op. cit.

(5) Being and Time, op. cit. P 480.

تم التفكير فيهما ديالكتيكياً.... وما المكان إلا نفي ذاته - بالزمان.... لذلك وجوده خارج ذاته.... فلا يمكن التقاطه كوجود إلا بالفكر.... إنه نفي النفي.... وبالنسبة لهيغل هذا النفي للنفي بدقته هو الزمن.... الذي يمركز ذاته من أجل ذاته في كل نقطة بلا مكان.... فالوجود هو كما يفكر به.... المكان في الزمن)[1]، وبغض النظر عن هذه الجولة التي تعيدنا الى رأي أرسطو - دون ديالكتيك معقد - تبرز مدى تأثر "هيدغر" بهيغل الذي لم نر في كتاباته أي حل مبتكر لإشكالية صلة وجودنا- تواجدنا - تحت سلطة الزمن، سواء كان هو المكان، أم هو: الحركة داخل كل مكان وفي بنية كل جسم فيزيقي.

وكل هذا جاء من الافتراض الذي تضمنته المقدمة "Premise" القائلة: "إن جوهر كل شيء هي روحه التي تجري عبر الزمن"، دون أي تحديد لتوسيع معنى الروح لتضم كل شيء في الوجود؟! وهذه نتيجة لا علاقة لها بالديالكتيك إنها مجرد قياس "Syllogism" نتج عن افتراض متضمن بالمقدمة "Premise" لا يتمتع بأي حقيقة واقعة "Fact" ؟!

لذلك لن تستطيع أن تفهم أي شيء عن الزمن، ما لم تنطلق من حقيقة استقرائية - تامة او ناقصة - مبنية على واقعة "Fact" كما فعل "هوكنغ"، الذي يرى بناء على واقعة توسع الكون أن هناك لحظة للتجسد الأخير - او للأول - للكون في صدى موجات الانفجار الأول "Big Bang" ، التي تركبها مجراتنا كلها بسرعة الضوء - وأننا نركب في هذه المجرة - درب التبانة - ما يشبه سهماً منطلقاً بنا نحو التحطم الأخير "Big Crunch" هو الزمن، بحركته وتحريكه لكل شيء، فلا مادة بدون حركة، أي لا مادة بدون زمن عبر كل تحولاتها لكن ماذا سيحصل حين ذاك ومتى يتوقف الكون عن التوسع ويبدأ بالضمور بعد التحطم الأخير؟!.... هل سنشهد الزمن الراجع؟[2].

---

(1) Ibid. PP 480-482.

(2) Stephen Hawking. A Brief History of Time. Bantam Books. N.Y. 1997. PP 166-167.

لا مادة بدون حركة ولا حركة بدون سهم زمن متقدم الى الأمام او الى الخلف سواء، فلا زمن بلا مادة، والروح عند "هيغل" شأنها شأن الروح في المسيحية واديان التجسد – سواء ببوذا أو المسيح ﷺ – "تعبر عن طبيعتها بأشكال مختلفة كما في المجتمع – روح المجتمع – وبالسياسة – روح السياسة – وبالتاريخ – روح التاريخ –.... الخ" فهي لا مادية بعد كل شيء!!؟

إنها على أحسن الأحوال مجرد تجريد فكري ليس له أي دلالة محددة إلا بالمجاز اللغوي، والإيمان الديني، فعبارة "هيدغر": أن "جوهر التاريخ هو تاريخ الروح التي تجري في الزمن" عبارة نومينالية "Nominalism" لا يمكنها أن تدلنا على أي حقيقة، لذلك عاد بعد أن دار الى تعريف "أرسطو" للزمن بأنه هو المادة أي المكان!!

بينما يسير بنا تعريف "هوكنغ" للزمن شوطاً أبعد بكونه حركة المادة بسبب التوسع الكوني منذ "15 بليون سنة" منذ الانفجار الأول مما يقود الى استحالة أن يكون العالم قديماً[*] (فالفكرة العتيقة القائلة بأن الكون لا يتبدل أساساً لأنه وجد منذ الأزل وسيظل الى الأبد استبدلت بمفهوم ديناميكية توسع الكون.... فللكون بداية وله نهاية محتملة)[1]، وكل محدث مخلوق!!؟

أما "سارتر" الأمين أيضاً على أفكار "هيغل" فيريد أن يَصِفَ أثر الزمن، على الإنسان، من خلال مفاهيم النفي الهيغلية، لا لتأكيد معقولية الوجود كما عند "هيغل": بل لاستعمال معنى أسلوبه نفسه في دحضها، يقول: (أن ما يكرره "هيغل" هو أن: هناك معنى للوجود بحاجة الى التوضيح)[2] لكن حسب رأيه من الضروري (تأكيد – هيغل – على البرهان على أن النفي هو أساس بنية الوجود في العقل)[3]،

(*) إلا إذا كان هناك عود وتكرار من التحطم الى الانفجار الأول والعكس، ويصعب البرهان على ذلك.

(1) Ibid. P 38.

(2) Being and Nothingness. op. cit. P 50.

(3) Ibid. P 52.

ويعبر عن ذلك – أي عن النفي باللاشيئية (فاللاشيئية هي التي تزودنا بأرضية صلبة للنفي)[1]، أخذها "سارتر" من عبارة (تصريح "هيغل" بأن الجوهر هو ما سبق وجوده – ثم زال –)[2]، فجوهر الطغيان هو (هو ما سماه "هيغل" العلاقة بين السيد والعبد)[3] حيث تتحول الى جوهر آخر قائم على اعتماد كلٍ منهما على الآخر – بعد المقاومة –، وآن ذاك ترسخ العلاقة، وكأن الطغيان قد عاد الى الذات بدل الآخر!!

وهذا يعني برأي "سارتر" أن ("هيغل" قد لاحظ أن الوجود الذي هو ما هو يجب أن يصبح وجود نفي لذاته)[4]، لذلك أعلن "سارتر" (أن كل تقريرية غير وجودية كي تكون ذاتية، هي مثال على النفي)[5]، وهذا هو الذي انطلق منه "سارتر" في وجوديته – أي على هذه الأسس الهيغيلية – ليقرر أن كل آنية هي ماضٍ بحد ذاتها وبمجرد إدراكها تصبح مستقبلاً، فالإنسان نفي دائم للعالم ولذاته لذلك أعلن (أن الماضي مجرد شبح معزول)[6]، أما الحاضر فهو (معطى مفارق للوجود.... هو ليس إلا لاشيئية)[7]، أما المستقبل فهو في كل لحظة وعي حاضرة يقول: (إنني وبمجرد أن أتثبت من جوهر ما لشيء ما، تثبتي من أن هذه طاولة او محبرة، أجد نفسي هناك في المستقبل)[8].

ينتج من هذا أن كل ما نسميه معرفة هو حضور للشيء بذاته الذي هو لاشيئية تدرك معطاها المفارق للوجود أي الحاضر، فأن تعرف عن أي شيء ثوابته وراء متغيراته، أي أن تستقرئه، يعني أن تنخرط في لاشيئيته (المعرفة

(1) Ibid, P 53.
(2) Ibid, P 72.
(3) Ibid, P 109.
(4) Ibid, P 124.
(5) Ibid, P 256.
(6) Ibid, P 281.
(7) Ibid, P 285.
(8) Ibid, P 292.

يمتصها الوجود.... فكل شيء يحصل كما لو أن الشيء بذاته من خلال نفيه لذاته يرسخ ذاته بالوعي)[1]، أي لا إدراك واعٍ برأي "سارتر" بمعزل عن سياق هذه الصيرورة النافية، بكل لحظة للوجود.

والسؤال الهام هنا هو: هل تنفي الصيرورة التواجد ضمن الوجود أم تنفي كل الوجود؟!

إذ لو كانت تنفي كل الوجود لما كنت أكتب الآن، ولما كنت تقرأ ما كتبته؟!

الصيرورة تنفي التواجد – تواجدي وتواجدك – فإذا استعملنا مصطلحات "هيغل" نقول هي بنفيها للتواجد تمنع اكتظاظ المادة في الوجود[*]، على مقياس كوني وبيولوجي أيضا، فهي من فعل الوجود وليس الوجود من فعلها، ان الصيرورة آلية من آليات الوجود لضبط التواجد، فهي نفي للفردية في سبيل ترسيخ النوع، في الجماد والكائنات وحتى بكل المجرات عبر التوسع الكوني، إنها جزء من كل به إضافة لحركتها المنافية قوة جاذبة من العدم الى التواجد، لكل ما حولنا من أشياء.

فقبل القفز الى الغائية من الوجود يجب فهم حركة الصيرورة فيه، لا جعله كله صيرورة عمياء، عبر توجيه البحث عن النقائض – تحليلياً– من خلال هذه التشاؤمية او تلك، وتسمية هذا ديالكتيكاً؟!

وعكس هذا عبر التفاؤلية المسرفة بمعقوليتها اللامعقولة بالماركسية، التي لعبت نفس لعبة الإسكلائية مع "ابن رشد" في العصور الوسطى، التي سآتي إليها وقت طرحها في هذا البحث – الكتاب –.

---

(1) Ibid, P 295.

(*) تعيد التواجد الى حالته قبل أن يتواجد بتفكيك المادة، واماته الحي!! أي بإعادتهما الى الوجود اللامادي، يسميه الملاحدة عدماً ونسميه بالوجود الحق الذي لا سلطة لأي صيرورة عليه، ثم ألا يستأهل الخلاص من تنكيل الصيرورة الفرح بالعودة الى ما قبل الولادة، تلك التي تعني الموت والحياة فالموت هو: الوجود الحق، وهو حق لأنه لا يخضع لباطل أي تغير كائناً ما كان مضمونه، علماً بأن لا فراغ في الكون فلا عدم، لأننا لو قلنا عدماً لجعلناه صيغة أخرى من الوجود، وحسب مصطلحات "هيغل": العدم بحاجة الى طباق!! هو الوجود؟!

لكن إذا استغلق فهم الصيرورة او فهمت على أنها أداة اللاشيئية، لا بد من فلسفة الإغواء الوجودية "Seductive" عند "نيتشه"، أي حسب تعبير "سارتر" تبرز (الرغبة الأساسية التي عند الإنسان ليصبح إلهاً)[1]؟!!

وأول علاماتها عند الفيلسوف بالتقريرية؛ التي ترجع كل شيء إلى أمر واحد يدعي الفيلسوف اكتشافه، وعلى هذا الأساس ظهرت التفسيرات الأحادية للوجود من "استقصات" "أمبيدوقل" إلى "إرادة القوة" عند "نيتشه" ومن أولَهُ من الفاشيين والنازيين، وظهرت ديالكتيكية صراع الاضداد بالطبقات الاجتماعية عند الماركسيين.

يقول: "جاسبر" (لقد ترجم "هيغل" كل شيء الى روح صافية.... واليوم يطرح الأمر بشكل أكثر دقة- يعني أمر التفسير الأحادي بالله – حيث أن التفلسف.... في عدم قدرته على الوصول الى معنى الإيمان.... يؤكد بطريقته البحث عن الألوهة)[2].

وطريقته الخاصة هي في التأكيد على أن فكر "هيغل" كما هو أي فكر إنسان آخر هو: الطباق الذي ينتج عن أطروحتي المعقولية واللامعقولية في الوجود، (فخبرة الوجود عبر فعل التفكير تستحضر الوجود)[3] وهكذا يصبح المنطق (الذي هو مجرد أداة تحمل معها خطر توقف الاتصال بين الناس، إذا ربطت الحقيقة بالاتصال والتواصل فقط)[4].

فمن أجل الإحاطة بالتواصلية الشاملة لكل فكر لأن المعرفة الإنسانية محدودة تتوسع قدر الإمكان، حيث توجد الحقيقة ما وراء تلك المحدودية بالشمول المحيط بكل شي "Encompassing"، الذي هو ما وراء آفاقنا وتأملاتنا الاستقصائية.

---

(1) Ibid, P 724.

(2) Reason and Existenz, op. cit. P 138.

(3) Ibid, P 143.

(4) Ibid, P 134.

وهذا أمر موجود بكل إنسان بالفكر، لكن الذي يؤطر نفسه بتفسير أحادي للوجود، كما فعل "هيغل" ومن تبعه او شقلبه – ماركس مثلاً له – لا يكون مجرد "دوغمائي" أعمى، بل يخسر صلب وجوده، وهذا هو معنى الوجود الحقيقي عند "جاسبر"، لا بأي نفي او نفي نفي.

نحن كائن شامل يشمل في ذاته كل الوجود "Encompassing"، لكن شموليتنا ليست عاقلة بحد ذاتها، لأن معيقاتها؛ الدوغما والتفسيرات الآحادية، لكن بها وعينا للوجود التجريبي – التواجد – والوعي بذاته أيضاً، وبها روح كل منا، فإذا فَعَّلَ الإنسان طاقاته – حسب طاقاته – حسب تعبير علم النفس – "self-actualization" حصل على الجانب الشمولي مما يريد من طاقاته أن تُفَعَّلْ، وأكد مكانه في المجتمع بوجود سيكولوجي محدد، على أن يدرك أن به شمولية "Encompassing" أكثر بكثير مما حدد نفسه به، مهما كان ناجحاً.

وهذه الشمولية ليست الوجود بذاته – النومن ان شئت –، بل هي (البروز الأصلي لشمولية الوجود بذاته)[1]، تماماً كالفكر الذي هو أشمل من التفكير، فكل التقريريات فيه – في التفكير – تخيلية، لأننا كائنات مسخرة لاكتشاف الحقيقة لا لإنتاجها (فالباطل هو في كل تأكيد لحقيقة – مكتشفة – واحدة على أنها صالحة لكل الناس)[2]، وهذا ما وقع به "هيغل" في مفهوم "الروح" و"الديالكتيك"، الذي أولته الهيغليات كل حسب قوة "شمولية" كل فيلسوف من فلاسفتها المحدودة بتفعيل ذاته!!

وكما لاحظ القارئ ذلك بالاختلافات الشديدة بين من عرفناهم مثل "سارتر" و"هيدغر"، تماماً كما اختلف "هيغل" على تأويل "النومن" الكانطي مع "شوبنهور" وهذا الأخير الذي خالفه "نيتشه" على ذات مفهوم الإرادة؟!

والقارئ لكل هذه الأفكار التي قدمتها له، يستطيع أن يستوعبها جميعاً كدلالة على هذه الشمولية المعرفية فيه "Encompassing"، وهو حين يختار او يعدل من

(1) Ibid, P 59.

(2) Ibid, P 102.

هذه الأفكار يدل على أن به ما هو زيادة عنها، فالشيء لا يفهم إلا بمثيله، لذلك ذهب "جاسبر" بالهيغلية الى شوط الفلسفة الكلية الأبعد من أي تقريرية آحادية مؤكداً أن الإنسان – القارئ هنا – فيلسوف بالفطرة شرط (أن يقف على أرض الواقع الحقيقية، عبر ملاحظته بالعلم عبر المنطق والمنهجية المعرفية "Methodology"، وهو من خلال محدودية هذا التواجد الأرضي الذي هو فيه يكتشف عالم الأفكار)[1] دون أن يصبح عبداً لأي منها!!

والإنسان الذي يرفض العبودية غريزياً كي لا يحد أحد من اختياراته، يرفض عبودية الفكر لأنه إذا وقع فيها عبد غير الله – الإيديولوجيا – فلا يعود يشعر بوجوده إلا من خلال ما يعبد (فهناك صلة بين نفي الحرية ونفي ورفض الإقرار بالله)[2] نجدها في كل المذاهب التوتاليتارية.

لذلك قرر "جاسبر" وجوديته على أساس الحرية، من منطلق أن الله والحرية مفهومان متلازمان[3]، من خلالهما يسمي المؤمنون: الموت إنعتاقاً!!

هكذا كتبت العبودية النجاة لأفكار "هيغل" وأعادها "جاسبر" الى حيز الإيمان، لكن ضخامة تلك "السينفونية" أدخلت على الكورس أنغاماً شاذة، تماماً كما أدخلت ضخامة "الأرسطوطالية الرشدية" نغم الاسكلائية الشاذ، بقلب كل فكرة فيها لصالح اللاهوت المسيحي الكاثوليكي، على يد "توماس الأكويني" الذي قامت فلسفته على التلاعب بأفكار "ابن رشد" و"ابن سينا" وشقلبتها؟!

البهلوانيات الفلسفية: تعتبر الكاثوليكية كتاب: "ثوماثيولوجيا لسانت "توماس الأكويني" (كطباق صرحٍ – ركن – للفكر المسيحي – كتب – "1265-1272م"، ويسمي "الأكويني" "ابن رشد" فيه: بالشارح للفكر الأرسطوطالي)[4] مما سمح له برفض أفكاره عن "أرسطو"، بدعوى أنه يراها من خلال شرح مغاير له؟!

---

(1) Way to Wisdom, op. cit, P 130.
(2) Ibid, P 45.
(3) Ibid.
(4) Anton c. Pegis, Saint Thomas Aquinas, Random House. N.Y., 1944, P XLIX.

فلماذا الاعتماد على "ابن رشد" وعدم العودة الى "أرسطو" مباشرة، خاصة وأن أمثال "وليام موربيك William Moerbek " قد ترجموا "أرسطو" من الإغريقية الى اللاتينية[1]، فالترجمات متوفرة أيام "الأكويني"؟!

الجواب لا بد من أن يكون جدلياً ديالكتيكياً ضد الرشيدية التي عمل "الأكويني" على محاربتها، بعد أن استحكمت بالأكاديمية الفرنسية "بالسوربون"، وخاصة بشخص البروفسور Siger de Barabant" – سيغر أوف بارابانت" الذي قتلته محاكم التفتيش التي كان يخدمها "الأكويني" أكاديمياً.

هدف "الأكويني" إذا ترسيخ العقيدة الإيديولوجية المسيحية لا شرح الفكر "الأرسطوطالي"، ولا البحث عن المصير فكرياً، بل مجرد تبرير "دوغما" المصير التي تبنتها الكنيسة بتقريب الفلسفة منها، كي تصبح كل وظيفتها دعامة لذيل السلطان المسيحي، بجعل الحقيقة الفلسفية بجانبه الخلفي ليبرر لأصحاب العقل ثأرية محاكم التفتيش المغاظة من النقد الإسلامي اللاذع للامعقولية أسس التثليث والتجسد القائمة عليها، والذي بدأ يطرح أكاديمياً مع بداية تأسيس الجامعات في أوروبا، وخاصة "السوربون" في "باريس"!! لذلك كان يذهب مع "ابن رشد" في تنزيه الله (الله مقياس كل جوهر كما يبين – ابن رشد – الشارح)[2] ثم يقول (لا يمكن أن يكون لله أي تعريف عدا عن فعله كدليل عليه)[3]، والتجسد من أفعاله برأي "الأكويني"؟!

هذا الضرب من الجدل يكرره "الأكويني" لتبرير "الدوغما" الكاثوليكية خاصة والمسيحية عامة، في كل كتاباته وخاصة "الثوماثيولوجيا"، حتى شرور التواجد – وَجدَ لها الاكويني "جدلية" مع الخير، لذلك (لا يمنع ملاك الرحمة ملاك الشر من إنزال الأذية – بالناس –)[4] وإلا بدت كما قال "الاكويني" بلسانه (الأمور الفردية

(1) Ibid, PXVIII.

(2) Ibid, P 31.

(3) Ibid, P 32.

(4) Ibid, P 1016.

وحتى شؤون الناس غير خاضعة لحكم الله كما لو أن الله قد هجر الأرض)[1]؟!

لكن "المُثُل" مشعور بها فصانعها – مسببها – موجدها هو الله، (إلا أن "ابن سينا" وضع هذا الرأي جانباً، ليؤكد أن كل الأمور الحسية موجودة بشكل لامادي في عقل منفصل.... سماه العقل الفعال.... فهو لا يعتقد أن للروح معرفة داخلية.... فهل من ضرورة للجسد بالنسبة للروح العاقلة – بناء على هذا –؟)[2]، ما دمنا لسنا بحاجة للحواس لفهم الحقيقة؟!

هذا هو ما عنيته بأسلوب شقلبة الأفكار واجتزائها، عند الديالكتيكيين، فهم بصورة عامة يقضون كل حياتهم بنقد أفكار فكر بها آخرون، فلا يقدمون للمعرفة أي فكرة ايجابية، فلولا من سماه الأكويني "بالشارح" و"ابن سينا" هل لدى الأكويني فلسفة أرسطوطالية خاصة؟! وأين هذه الفلسفة بمعزل عن ضوابط الدوغما الكنسية التي ألزم نفسه بها؟!

ونفس هذا السؤال يمكن توجيهه الى "ماركس"، إذ لولا "هيغل" كيف كان للماركسية أن تفخر بالجدل وتسميه ديالكتيكاً كفخر الأكويني بالتثليث وجعل كل من "افلاطون وأرسطو وابن رشد وابن سينا" يفحمون به خصومهم، عبر شقلبة أفكارهم، تماماً كما قال ماركس: (إن طريقتي في الديالكتيك لا تختلف عن الطريقة الهيغلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها)[3]، كما قال: (الديالكتيك عند هيغل يسير على رأسه)[4]، ويرى "غيلسون" أن مجرد قول الأكويني: (ما دام ابن رشد يقول إن أرسطو معه؛ فما يمنعني من أن أقول أنه معي؟)[5]، أي أن طريقته لا تختلف عن طريقة "ابن رشد" من حيث الأساس، بل هي ضدها، تماماً كما شقلب ماركس هيغل بعد ذلك؟!

---

(1) Ibid, P 956.

(2) Ibid, P 802.

(3) رأس المال، مكتبة المعارف، بيروت 1950، ص 22.

(4) المرجع السابق، ص 23.

(5) Etienne Gilson, Element of Christian Philosophy, Doubleday and co. Inc, N.Y., 1960, P 216.

لكن كيف يكون "أرسطو" القائل بالمحرك الذي لا يتحرك مثل من يقول بإله متجسد ببشر؟!، وأيهما أقرب للفهم؛ مطلق المحرك لكل شيء الذي ليس كمثله شيئ أم "خالق على صورة بشر"؟!

ثم كيف تكون الروح جوهراً عاقلاً – أفلاطون –، وجوهراً على شكل حيواني تزول بزواله، – أرسطو – حيث فسر "ابن رشد" ذلك: بأن العقل المنفعل في الإنسان هو جزء من العقل الفعال الحال فيه، وهو خالد!! لكن خلوده لا يضمن خلود كل فرد فينا – كما قرأ "غيلسون" "ابن رشد"[1] ؟!

وأخيرا كيف يكون المشخص مجرداً، والعكس؟! إلا كما حل "ماركس" بشقلبته لهيغل ذلك بجعل الروح الديالكتيكية الحالة بكل شيء – كبديل عن الله كما يدعي هيغل – المادية الديالكتيكية إله الماركسية الأوحد؟!

قال" سيغر أوف بارابانت Siger of Barbant " عن "ألبيرت الكبير" و"توماس الأكويني" إنهما لاهوتيان (بارزان في حقل الفلسفة)[2]، أي أنهما لاهوتيان أولاً قبل أن يكونا فيلسوفين، واللاهوت يعني بدراسة فقه وهدف الإيمان، بمعنى أن هناك غاية وهدفا للحياة، بينما يريد الفلاسفة التحقق من هذه الغاية – إن وجدت – والهدف، بمعزل عن إرادتنا ورغبتنا بهما، لذلك يمكن للثيولوجيا أن تدخل على خط الفلسفة، لكن الحقيقة التي تبحث عنها غير تلك التي هي هدف التفلسف، و"ابن رشد" الذي ميّز بين هاتين الحقيقتين رأى عدم تعارضهما مع ركيزة الإيمان الإسلامي، القائم على تجريد الآلوهة في كتابه الهام "فصل المقال"[3] الذي سبقت لنا الإشارة إليه، وهذا لا يعني عدم تعارض الحقيقتين بإيمان غير برهاني آخر، تُشَخَّص فيه الآلوهة كما في المسيحية، حيث لا تنطلق الحقيقة الخطابية التقريرية

---

(1) Ibid. P 214. وهذا خطأ قراءة من "غيلسون" لأن "ابن رشد" كما سبق واشرنا بكتابه "تفسير ما بعد الطبيعة" قال بجزء كائن وجزء فاسد في العقل، أما ما هو في ذاته فليس بفاسد ولا يضيع بالعقل الهيولاني حين اتصاله فيه بعد الموت – دون ضرورة وجود الصور –.

(2) Ibid. P 281.

(3) "فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال"، مرجع سابق، ص 52.

من أي منطلق برهاني، بينما في تجريد الله تعالى من كل مشخص يقف مفهوم التوحيد الأقرب الى صحة الإثباتات الفلسفية حول المحرك الذي لا يتحرك.

علماً بأن ما قصده "ابن رشد" من الحقيقة البرهانية هو الحقيقة الإثباتية، لاستحالة البرهان سوى بالرياضيات، وإمكان الإثبات في المجردات، أما سوى ذلك، أي سوى ذلك بالتنازع على "أرسطو" كما أظهر "غيلسون" رغبة "الأكويني"، فشبيه تنازع "ماركس" مع "هيغل" مفهوم الروح والديالكتيك، ليس أكثر من بهلوانية فلسفية، نراها عند كل إيديولوجي دوغمائي؟!

على أن لا نقع بسذاجة عدم التمييز بين الاعتماد على فكر هذا الفيلسوف او ذاك، وبين تبني فكر فيلسوف ما في كل ما قاله ومن ثم عكسه، كناظم الشعر – النظام – الذي يريد أن يكون شاعراً بعكس كل ما قاله "الخيام" او "المتنبي" مثلاً وتسمية عمله منطقاً، وإعطائه صفة الحوار وهو جدل ديالكتيكي يشبه "الزجل" على كأس عرق، بلعبته المضحكة في تضخيم أقوال الخصم بعكسها، والعامي – البلوريتاري ان شئت – الذي يطربه مثل هذا الجدل الهجائي التافه، يسر كثيراً إن أنت لم تستهجن فعله هذا، وبدل تحذيره من أذية الجدل هذه أن تسميه له فلسفة؟!

وتحت هذه المفاهيم شاعت الفلسفة الماركسية في القرن العشرين، شيوع محاكم التفتيش التي كانت تعتبر أقوال الأكويني منزهة، مستخدمة نفس أساليب التفتيش فيما سمي:"KGB" أي مخابرات الحزب القائد الحاكم.

فالقداسة "Saint" التي أضفيت على الأكويني – لقب القديس "Canonized" منذ "1323م" – هي التي تمنع نقده من قبل أي مفكر غربي، يقول "رسل": (لا يمكن لأي كاثوليكي أن يترك إيمانه حتى ولو اقتنع بأن أطروحات القديس الأكويني خاطئة.... من منطق لم يعد مقبولاً)[1] لأنه سلطوي مثل سلطوية "ماركس" في الاتحاد السوفياتي – المنهار السابق – حيث لم يكن أحد يجرؤ على نقد الماركسية، او حتى الحديث عن أي فلسفة، او حتى فلسفة بديلة.

---

(1) History of Western Philosophy, op. cit, P 453.

ولعل القاسم المشترك بين هاتين السلطويتين هو الإيديولوجيا الدوغمائية، والتي تجسدت بالماركسية بما يشبه الدين لكن بلا إله، يقول لينين: (الدولة الحقيقية ليست بحاجة الى الدين لتحقيق كمالها السياسي، وهي تستطيع أن تستغني – عن الدين – لأنها تحقق في ذاتها أساس الدين بطريقة دنيوية)[1] أي أن الدين الجديد "الماركسي" هو الذي يسمح بتحقيق ذات الدولة على أسس دينية جديدة، سِمَتها الأساسية – الإيديولوجية – إنها دين بلا إله؟!

وبين هذا وذاك يجب أن يقف الدين الذي لا يحتاج الى إيديولوجيا لكي يدلنا على بعض حقائق الوجود، وعلى رأسها رفض الطغيان الدوغمائي الذي ينتج عن كل إيديولوجيا – دينية كانت أم ملحدة –.

إنه الإسلام!! والذي لا توضحه أكثر مما توضحه الفلسفة المشرقية فلسفة "ابن سينا" ورديفتها الفلسفة المغربية فلسفة "ابن رشد"، وكل فلسفات المصير التي لا تتلعب بأسسه الدينية الثابتة[*] تلعب الفلسفات المسيحية بالأسس الدينية النصرانية، كما فعل "أوغسطين" قبل "الأكويني" على ظن أنهما يحسنان الى الدين المسيحي بما ظناه تلعباً إيجابيا، وتلعب "ماركس" السلبي في بهلوانياته على "هيغل" الذي أبدل الروح القدس بروح الأمة – الدولة –، فظن ماركس ببهلونياته على هيغل أنه قضى على المسيحية.

يقول "رسل": (إن النموذج اليهودي في التاريخ هو بالتقدم بالدعوة للمضطهدين وسيئي الحظ – من شعب إسرائيل –، والقديس "أوغسطين" هو الذي نقل هذا النموذج للمسيحية، وماركس نقله للاشتراكية، فلفهم "ماركس" نفسياً علينا وضع هذه المتقابلات بين – اليهودية والماركسية –:

---

[1] ف. لينين، حول الإيديولوجية والثقافة الاشتراكية، موسكو عام 1964، جـ 10 – 11، ص 76، حيث قال: "ليس هناك رسميون في ثياب الكهنة بل إقطاعيون"، وانظر أيضاً "ماركس"، مختارات من المؤلفات الكبرى، مرجع سابق، ص 80.

[*] ولا تقع بالبهلوانيات الأفلوطينية حتى في فلسفة هذين العلمين؟!

ياهــو – إله إسرائيــل = المادية الديالكتيكية.

المسيح المنتظر = ماركس.

النخبة = البلوريتاريا.

الكنيس = الحزب الشيوعي – اللجان المركزية.

المجيء الثاني – العود = الثورة.

الجحيم = الرأسمالية.

العصر الألفـــي السعيد = الأممية الشيوعية)[1] "Millennium" .

فنقل النماذج عبر هذه البهلوانيات الفكرية ليس بدعة "الأكويني"، بل تقليد – "يهودي – مسيحي" – منذ "أوغسطين"، إن لم يكن منذ علاقة اليهود مع "الكنعانيين" و"الآراميين"[*]، فأوغسطين الذي وضع اللاهوت الكنسي على قاعدتين بهما خلاص كل مسيحي:

الأولى؛ تتعلق بمدى تعلق الفرد بالكنيسة، فلا ينجو دون "عمادها".

والثانية؛ جبرية القدر الإلهي الذي يسمح للإنسان أن يتبع الكنيسة و"يعمد" فينجو، لأن النجاة مقدرة من الله لا من أعمال الناس، وهي مرتبطة – تشخيصياً – بالانتماء الى الكنيسة قبل يوم الحساب، ومن لا ينتمي لن ينجو، والبرهان على ذلك قداسة "أوغسطين"؟!

لا برهان ولا إثبات ولا منطق سوى التقريرية الدوغمائية، وبهلوانية "أوغسطين" على "ماركوس أوريلوس" الإمبراطور الرواقي (فجزء كبير من "مدينة الله" لأوغسطين – القديس – مأخوذ من هذا الإمبراطور – الرواقي – الملحد)[2]، وأكثر من ذلك أن (براءة الرسل – المسيحيين – في الميتافيزياء.... دفعهم الى

---

(1) Ibid, P 361.

(*) لغة الإنجيل الأساسية.

(2) Ibid, P 272.

التأثر بالأفلاطونية وأفلاطون....)[1]، فإذا أضفنا الأفلاطونية الى رواقية "ماركوس أوريلوس" نلمح أسس الثيولوجيا المسيحية على يدي "أوغسطين"، تماماً كما نلمح التوحيد الإسلامي ببعض أقوال "الأكويني" حول الله، يقول "الأكويني" رداً على السؤال عما إذا كان (جوهر الله هو ذات ذاته.... ففي الله يوجد جوهر واحد وثلاثة أشخاص.... لذلك الجوهر ليس مثل الذات)[2]؟!

والجواب على هذا السؤال المحرج المتأثر بالفكر الإسلامي هو: "من هو الذي تعبده المسيحية؟!

جوهر وذاتيات ثلاثية

إذاً نحن أمام أربعة آلهة، جوهر وثلاث ذاتيات؟!

لقد وحد الجوهر وأشرك بالذات إذا؟! او عبد أربعة آلهة فلم يعد موحداً؟!

وغني عن البيان موقف الإسلام من أن ذات الله هي جوهره: إسمها النومانالي "Nominal" كإسمية معروف، ومعناهما مجهول، والإفتاء بهما بادعاء معرفة الجزء للكل تبجح بشري على الخالق[*].

فالإنسان إذا عرف "ماهية" الله "Quiddity" صار الله ضمن قدرته، ولم نعد نحن ضمن قدرته تعالى؟!

فلا يكفي نقل "الأكويني" عن "ابن رشد" توحيد جوهر الله، كي لا يرسف بالشرك به تعالى إذا؟!

أما بهلوانية "أوغسطين" مع "ماركوس أوريلوس"، أي مع ما أخذ من نصوص الرواقية "Stoicism" وأضافه على المسيحية؛ فيمكننا رؤيته بوضوح "بتأملات أوريلوس" التي كتبها لنفسه "Meditations or to Himself"[3]، ولعل خلفية

---

(1) Ibid. P 290.

(2) Basic Writings of Saint Thomas Aquinas, op. cit. Vol 1, P 363.

(*) كإسمية معرفة، ومعناها مجهول، فادعاء معرفتها كذب وبدعة.

(3) Marcus Aurelius. Meditations, Penguin Books, N.Y 1964.

هذه "التأملات" قائمة على أفكار احد مؤسسي الرواقية وهو "Epictetius ابكتيتيوس" المولود من "135 ق.م قبل الميلاد الى 55 قبله" في آسيا الصغرى – تركيا اليوم – كعبد لم يحصل على حريته قبل شيخوخته، و"مطارحاته" للحصول على السيطرة على الذات هي التي أثرت بالإمبراطور "الرواقي" أيضاً "أوريلوس المولود 121 ق.م – الى – 80 ق.م"، والذي كان شانه شأن كل الرواقيين واحدي الوجود – ليس وحدة الوجود Pantheistic– والفرق أن "الرومان" كانوا يظنون أن الله هو في مختلف التعابير الإنسانية عن الألوهة، لذلك كانوا يقبلون بكل الأديان في إمبراطوريتهم، ولا يضطهدون أي دين فيها، وما اضطهاد المسيحية بعد ذلك، بدءا من "نيرون" سوى نتيجة رغبتهم بالتحرش بالأديان الأخرى وتكفيرها!!

فالدنيا عند "الرواقي" تبدو من صنع صانع لكنها مثل أي مخلوق هو الصدفة وهي كذلك، فلولا اجتماع كل سلالة أجدادك وجداتك وجماعهم الجنسي في لحظة دون سواها؟! لما كنت أنت(*)؟!

فإذا سألت عن الصدفة فالصدفة هي أنت، كذلك الأرض بالنسبة الى الكون صدفة ضمن سياق صدف ساقها الخالق لتبدو وكأنها مسبقة التصميم، لكنها في الواقع صدفة مثلك أنت، فلا تضل عن الله تعالى بهذا؟!

يقول "سنيكا" – فيلسوف ومدرس "نيرون" –: (عندما ينحل الكون ويتحول كل الآلهة الى إله واحد يسكن في ذاته، وتستغرقه أفكاره الخاصة، تلك هي بطريقة او أخرى هو مصير – طريق – الرجل العاقل)(1). وقال أيضاً: (هناك فرق كبير بين السببية والخلق)(2)، وبالنسبة "لأوريلوس" المسألة (تبدو نتيجة تصميم مصمم، لكنها

(*) ناهيك عن ملايين الصبغيات في ملايين في كل "سبيرم Sperm " تواجه مئات الألوف من البويضات عند أجدادك وجداتك، "بمتوالية حسابية" ما أنت سوى احتمال واحد منها؟! شيء يشبه موقع الأرض بالنسبة للمجرات وللأكوان ولاحتمالات الحياة فيها، وبتجمع كل هذه الشروط الكونية والبيئية والتطورية والجنسية والاحتمالية في بؤرة واحدة من بلايين الاحتمالات كنت أنت؟!

لذلك إذا سألت عن الصدفة؟! فالصدفة هي أنت؟! وفي ديننا الله صانع الصدف خالقها.

(1) *Lucius A. Seneca, Letters from a Stoic, Penguin Books, N.Y 2004, P 52.*

(2) Ibid, P 121.

في الواقع ليست كذلك، فلا يوجد من يصمم هذا الواقع وكل شيء ناتج عن حلقية الصدف)[1] ولذلك استعمل عبارة أن (كل الكون بالنسبة للفيلسوف هو مدينة الله)[2]، كعبارة صارت عنوان كتاب "أوغسطين" بدل "روما" التي اعتبرها مدينة الإنسان بتعارض مع مدينة الله – الجنة –، قالباً أفكار "أوريلوس" حرفياً ضد صاحبها.

لذلك (قال "سليسيوس Celsus" إن المسيحية التي جاءت من اليهود الذين هم برابرة، وفقط الإغريق قادرون على تقطير العقلاني من تعاليم البرابرة)[3]، وبالنسبة "لأوريلوس" الإمبراطور الروماني وريث الحضارة اليونانية "بالرواقية"، العقل؛ هو أهم ما في الوجود لكي تكون جديراً بمدينة الله الكونية، يقول: (لاشيء يوسع العقل الإنساني أكثر من هذه القدرة على الفحص المنهجي الدقيق لكل خبرات الإنسان الواحد بنفسه.... حتى يكون جديراً بالكونية وأهميتها بالنسبة للإنسان كعضو في تلك المدينة الفائقة)[4].

أما بالنسبة لمدينة الله التي شقلبها "أوغسطين" فإن (هناك بعض الأشياء التي يمكن للعقل اكتشافها ولكن.... علينا أن لا نحاول فهم الزمان والمكان قبل صنع العالم.... فالعالم صنع قبل أقل من ستة آلاف سنة – بعد الخلق.... وخطيئة "آدم" هي التي جلبت الموت للبشر.... والاعتماد على الإرادة هو أساس الخجل من الشهوة.... التي هي عقاب خطيئة آدم)[5]؟!

فمن أين عرف "أوغسطين" هذه المعلومات؟! الجواب من رسالة وحي الرسل التوراتيين، بينما يقول الصاحب الأصلي لمدينة الله – أوريلوس" – (ان معظم ما يقال ويحصل ليس ضرورياً)[6] ولكن الضروري هو الفهم العقلي بأن

---

(1) Meditation, op. cit, P 13.

(2) History of Western Philosophy, op. cit, P 328.

(3) Meditation, op. cit, P 59.

(4) Ibid.

(5) History of Western Philosophy, op. cit, PP 356-357.

(6) Meditations, op. cit, P 68.

نعرف (أن لا شيء قبل أوانه ولا بعده، فكل ما قدمته الطبيعة لي من ثمار من عظمتها هي لعظمتها وتعود إليها مدينة الله، فعلينا أن لا نألم ونذرف دموع الشاعر "سيسيروبس Cecrops " – على مغادرة مدينة "أثينا" حين كان يموت – بعد أن بناها – كما تقول الأسطورة –)[1]. وقال: (كل شيء يحمل طابع ثمار العقل؛ الإنسان والله وكل الكون يحملون هذا الطابع كل حسب منطقه.... والعقل أيضاً يحني بثماره على العالم كله، لأن له يعود حصاد كل الأشياء الجيدة التي تحمل طابعه)[2].

والعقل يقول لك (إن عليك أن تنظر الى نفسك من خلال القليل الذي بقي لك في الدنيا كمواطن في مدينة الكون، تعيش .... ضمن قوانينها الطبيعية)[3] ما دام (لا شيء مفيد للكل يمكنه أن يكون ضاراً للجزء)[4]، فكل تغير هو شكلي لأن (كل ما يحصل اليوم في الحياة يجب أن تنظر إليه على أنه تكرار لما حصل في الماضي)[5] فلا تغضب من الحياة ولا تحزن عليها (فالغضب مثله مثل الحزن كلاهما استسلام للهزيمة)[6]. لذلك قررت "الرواقية" ضرورة (دراسة جوهر الألم والسعادة والموت والمجد.... لكي يرى الإنسان أن كل هذا لا يصيبه من أي شيء خارجي بل من ذاته وأفكاره)[7].

وجدير بالذكر أن هذه العقلانية التي دمرتها البهلوانيات "الأوغسطينية" ظلت في أوروبا عند ورثة الحضارة "الروماغريقية"، وقد شعر بها "الأكويني" وخاف من امتداد الإسلام الى أوروبا عبر بوابة الأندلس من خلالها، فاستعمل نفس أسلوب "أوغسطين" الذي شقلب به الأفكار – الفلسفية – الرواقية مع "ابن رشد"، لكن هذه العقلانية التي تجسدت في كل الفلسفة الغربية – حتى في الوجودية التي انقلبت

(1) Ibid. P 141.
(2) Ibid. P 157.
(3) Ibid. P 152.
(4) Ibid. P 159.
(5) Ibid. P 174.
(6) Ibid.
(7) Ibid. P 181.

عليها – وفي مناهج كل مفكري الغرب الى اليوم، كَبَت مع أدلجتها الهيغلية بمفهومي: الروح والديالكتيك اللذين ناقشناهما، فاستغل ذلك بهلوان فلسفي آخر ظل يرسف بقيود استعارته التوراتية في صناعته لدين بلا إله هذه المرة، على حساب شقلبة "هيغل" فلعب لعبة الأكويني وأوغسطين قبله، لحساب الشيطان هذه المرة.

إنه ماركس؟!

الباب السابع

فلسفات ومناخات فكرية

فلسفة الماركسية

لم تستطع الفلسفات الغربية قاطبة فهم صلة الصراع بين العقل والذوق، إلا في إطار الفن من جهة والعلم والفلسفة من جهة أخرى، أما الدين فهو عندهم جزء من "الأنثروبولوجيا" لا أكثر بل أقل، بمعنى أنه تعبير عن غيبية قد تكون صالحة على أحسن الأحوال إذا هي سببت نفعاً اجتماعياً - كما عند "البرغماتية" وخاصة "وليم جيمس"-، فصلَةُ الدين بالذوق لم تؤخذ في الغرب بعين الاعتبار، وظل الفكر الغربي يتجه نحو الفن في كل مرة تظهر معاني الذوق أمامه، لأن التصوف صار حالة شذوذ نفسي أنثروبولوجي شرقي على أحسن الأحوال، أصيبت به "المستية" الكنسية فضبطته وحمته من الذي نسميه بالشطح - التأله -، وكل من يخرج عن هذه "المستية"(*) يقوم بهرطقة فردية لا تؤثر لا من قريب ولا من بعيد بالمؤسسات الكنسية هناك.

(*) انظر كتابنا، الصوفية رؤية للعالم، دار الفكر، دمشق 2008 م، ص 157-172.

وإذا استعملنا عبارة "هيغل" فإن الروح الأوروبية والغربية الأمريكية بصورة عامة لم تقبل بالذوق نداً للعقل منذ عصر النهضة، وحولت كل بحث فيه الى الفن.

بينما يلعب الذوق في واقع الأمر بكل ذات إنسانية دوراً لا علاقة للجمال فيه، إلا من حيث الروعة – الجمال المحفوف بالهيبة – دوراً بارزاً في كل دين.

والذوق في كونه نتاج حواسنا الداخلية هو ظاهرة نفسية بحتة، موجودة بدرجات متفاوتة في كل إنسان تفاوت رهافة مضمرات ضميره، وهي إن برزت بحدتها العاطفية برز الذوق معها بصيغة دينية.

علماً بأن العواطف هي أساس كل حماس ديني، فكلنا يعرف أناساً "علمانيين" لا يتقيدون بشعائر دينهم، ولا بالكثير من التقريريات فيه، لكنهم يثورون ويرفضون أي تعرض لدينهم من أي جهة كانت.

وهذا ليس صراعاً بين الدين والعاطفة، بل في أساسه صراع بين العقل والذوق، لذلك لا يمكننا أن نحسم الأمر مع الدين بمجرد إظهار خطأ الوقائع التي بنى عليها تقريرياً "Facts"، ألم ننقل فيما سبق من "رسل" قوله: إنه "لا يمكن لأي كاثوليكي أن يترك إيمانه حتى ولو اقتنع بأن أطروحات "Facts" القديس الأكويني خاطئة ".

ونحن نحاول أن نبحث لماذا ذلك؟! وهو ما لم يبحثه "رسل" لأنه برأيه لا منطقي؟! فعيب الفلاسفة أنهم لا يقبلون إلا بما هو منطقي عقلي، ويغضبون من رجال الدين استخدام طروحات وقياسات المنطق في كل ما هو غير منطقي في الأساس– وعلى هذا تقوم التجريبية الفلسفية وتحارب الدين والميتافيزياء أيضاً–، وهذا العيب كعيب رجال الدين الذين لا يملكون رداً إلا باتهام الفلسفة بالإلحاد والهرطقة، وهم يتلقون ضرباتها الموجعة، دون إبراز أنهم يتحركون في مستوى ذوقي يجب إيضاحه، لمن لا ينكره – منطقياً – عند غيره وإن كان عنده ضعيفاً.

لهذا لا يترك الناس إيمانهم، وتحديداً لأنه في مجال ذوقهم الذي إذا تركوه خسروا حاسة داخلية لا تعوض!!

وأكثر من ذلك أقروا بخطأ توجهاتهم العاطفية إن فعلوا، تماماً كالعاشق الذي يقر بغباء ما يفعله مع عشيقته، وهو لا يستطيع إلا أن يقر بسخف سهر لياليه وقلق نهاره، لكنه ذوقياً لا يمكنه أن يفعل سوى ذلك، لأن من ذاق عرف؟! "Dreod"

أي أن من له ضمير أدرك معنى الذوق لديه، فالدين مضمر بكل ضمير يذوقه من يمارسه ويعتنقه، وهو بذلك يقترب من كل إيديولوجيا تخاطب ضمير الناس، لذلك شعرت "الماركسية" حين خاطبت ضمير الغالبية – بلشفيك – من الناس بظلم الرأسمالية، وشدت ضميرهم إليها، لأنها سحبت الناس من الدين نحو المادية الديالكتيكية لتصير لهم "ديناً".

قوتهم بتحريك ذوقهم نحو العدالة الكامنة بكل ضمير، وضمن هذا الدين الجديد بعدم تخطيه حدود المصير بالبحث بما بعد الموت، إذ ما قيمة الضمير إذا كان بلا ثواب إلا في المادة والأرض.

وبعبارة أخرى: إن ضعف الماركسية هو في ضعف كل "إيديولوجيا" لا تبحث إلا في التواجد، بمعزل عن الوجود ككل، وصلة الإنسان فيه إنها بهذا المعنى أوهن من "الرواقية" التي رأينا "أوريلوس" يتحدث فيها عن عقيدة "كونية" كما سبق، مصير الكل فيها هو مصير أي فرد، بعود أزلي يحدد فيه دورية المصير، فكل ما تفعله الآن يجب أن يتوافق مع كل كمال يطلبه الضمير، لأنك ستعود وتلقاه في دورة الكون، التي سماها "نيتشه" بالسنة الكبرى؟! وهي (كالساعة الرملية تنقلب كلما فرغ أعلاها ليعود أدناها الى الانصباب مجدداً.... سأعود لا لحياة جديدة ولا لحياة أفضل.... سأعود لهذه الحياة بعينها)[1]، واعتبر "هوكنغ" احتمال حدوثها (بعد التحطم – الكبير – سيعود الكون الى الانكماش بدل التوسع، آن ذاك سيحصل ما يشبه عودة الزمن الى الوراء)[2].

---

[1] هكذا تكلم زارادشت، مرجع سابق، ص 252، وانظر أيضاً كتابنا، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابقن ص 272.

[2] المرجع السابق، ص 271.

هذا هو دين العقل الجاف الذي تبنته الفلسفة من "الرواقية" الى "نيتشه" الى فلسفة العلوم مع "هوكنغ" المعاصر، إنه التفسير المنطقي للمصير الكلي والفردي يكون لا يحكم المنطق سوى عقل الإنسان فيه؟!

هذا العقل الذي ضمنت الحضارة الغربية دوره على حساب المشاعر والرغبات، واتهمت منذ الإغريق الخارج عنه بالعاطفية والرعونة، لذلك ظل يهاجم ويقلق المسيحية التي استجابت للمعركة معه على أرضه، مع "أوغسطين" و"الأكويني" وكل ما يسمى: "بالثيولوجيا"، فكان طبيعيا أن تنال ضربة قاضية مع "هيغل"، بعد أن أنهكها العقل في كل عصر التنوير، والسبب أن في أرض العقل الذي قبلت المسيحية المعركة فيها: "أيديولوجيات" تشبه أيديولوجيتها، لكنها بمتانة منطقية أكبر وأقوى.

ومن هنا سدد "ماركس" لكماته للمسيحية ببيانه الشيوعي، يقـول: (إن شرائعكم ليست إلا إرادة طبقتكم وقد نصّبت قانونا)[1] لذلك لا بد من (هدم العائلة – لأنها – ترتكز على رأس المال والربح الفردي.... ثم البغاء العلني.... ولشد ما يضحكنا ذعر بورجوازيتنا – المبالغ في أخلاقيته من إشاعة النساء الرسمية .... ولا يكتفي البورجوازيين بأن تكون تحت تصرفهم نساء البلوريتاريين وبناتهم – هذا عدا البغاء الرسمي – بل يجدون لذة في إغواء بعضهم لنساء بعض.... الشيوعيون إذاً يريدون إحلال إشاعة صريحة و.... إلغاء الوطن.... ليس للعمال وطن.... والشيوعية تلغي الحقائق الأبدية، تلغي الدين والأخلاق عوضاً عن إرسائها على قاعدة جديدة)[2]؟!

هكذا أبدلت الشيوعية منذ أول بيان لها ذهنية التحريم "القرن وسطية" المسيحية حيث كل ما لا يخرج من الكنسية هرطقة يجب أن تتعامل معها "محاكم التفتيش" بكل قسوة وعنف، بذهنية الإلغاء التي لاقت رواجاً في مجتمعات التظلم

---

[1] كارل ماركس– و– فردريك انغلز، بيان الحزب الشيوعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1972، ص 125.

[2] المرجع السابق، ص 126–129.

الاقتصادي الغربية، في (هذا النفي لا مكان اتصال الضمائر بين الجماعات البشرية، لا بصيغة العصبية كما عندنا فقط، بل بكل صيغه الأخرى، كالعرقية والإثنية، والدينية في الأديان التي ترفض دخول أحد فيها، كاليهودية وباقي الفرق السرية العقائدية)[1]، لذلك انتشرت الشيوعية عند كل هؤلاء بكل صيغها المعدلة بالاشتراكيات؟!

فاليهودية التي استقى منها "ماركس" فكره الشيوعي هي التي أوجدت ذهنية الإلغاء في صلب الميكانيزمات العصبية العشائرية، باحتكار الالوهة "بيهوة" وبنوة الله بشعب الله المختار، والشيوعية "بالكيبوتزات" التي صار اسمها "كولخوزات" في الاتحاد السوفياتي السابق، يقول "ماركس" (فنحن نقر بأن ثمة في اليهودية عنصراً عاما مناهضاً للمجتمع)[2]، ويقول بعد إقراره هذا عن أبناء قومه (واليهودي يملك في ذاته امتياز كونه يهوديا)[3] فلا يمكن إلغاء هذا الامتياز إلا بإلغاء الدين في الدولة من أجل أن يتنازل اليهودي ويصبح مواطناً كغيره فيها، آن ذاك يمكن له أن (يحضر يوم السبت جلسات المجلس النيابي)[4]، ولكي يتحف الدولة بهذا الشرف الماركسي (ينبغي إلغاء جميع الامتيازات الدينية)[5]؟!

إن "هيغل" الذي فتح باب تبديل الآلوهة بالروح المطلقة الديالكتيكية، هو الذي فتح الباب للهيغلية السلبية مع "ماركس" بتهديد من لا يأخذ بشيوعيته بالمسألة اليهودية؟! معتبراً أنه لأن (المسيحية هي الفكر السامي لليهودية، واليهودية هي التطبيق العادي – العملي – للمسيحية)[6] فمن قدرة اليهودي يتشكل حقه في تهديد الدول التي يعيش فيها!! ما لم يُلغَ كل دين؟!

---

[1] انظر كتابنا، ذهنية الإلغاء، بحسون، بيروت 1998 م، ص 88.

[2] كارل ماركس، المسالة اليهودية، ألفريد كوست، باريس 1952، ص 55.

[3] المرجع السابق، ص 6.

[4] المرجع السابق، ص 11.

[5] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[6] المرجع السابق، ص 62.

ولعله بسبب هذه النفحة الثيولوجية عند "هيغل" والهيغلية – السلبية والايجابية بعده –، دفع كل هؤلاء بالفلسفة نحو الإيديولوجية لتبدو وكأنها "دوغما" دينية؟!

إذ من عليه أن يطبق هذه الإلغاءات في ذهنية الإلغاء الماركسية كلها؟! الجواب: سيكون بقوة الروح – الهيغلية – الدينية بإحلالها محل الدين "بالسكيولارية Secular" – العلمانية – الاجتماعية.

لذلك غطست الماركسية بكل التعابير الدينية الإسرائيلية منذ أن اتجهت نحو السلطة مع "لينين"، يقول:

(لم نعد نؤمن بالعجائب!! فما النبوءات العجائبية سوى ضرب من الحكايات، – ويستطرد – نذكر بنبوءة علمية ثبتت صحتها)[1]، فهو هنا لا يتحدث عن "استقراء" كما يجب أن يدعي العلماني –، بل يتحدث عن نبوءة بمعناها الإسرائيلي القديم يقول: (رأى فردريك انجلز، منذ أكثر من ثلاثين سنة أن الحرب العالمية القادمة – هي خيار – بروسيا.... الى حد أن التيجان ستتدحرج بالعشرات فوق التراب ولا تجد من يلمها.... فتوفر الظروف الضرورية لانتصار الطبقة العاملة النهائي)[2].

فأي نبوءة هذه التي لا تدوم إلا بدوام الفرصة الشيوعية باقتناص الاضطرابات السياسية في الدول، وهي تحديداً من نهاية الحرب العالمية الأولى حوالي 1918 الى 1989 يوم سقطت الشيوعيات الأوروبية والروسية والآسيوية واحدة تلو الأخرى؟!

سبعين سنة من "السين وسوف" وكل الاحتيالات الإيديولوجية، والدوغمائية و"البروباغندا Propaganda " للمتنبئ بدين بلا إله – "إنكلز" –، والانتصار النهائي للطبقة العاملة، التي أعياها بثلاثين مليون قتيل وعلى قدرهم منفي من "روسيا" وحدها، بمساعدة السفاح البروليتاري "ستالين"، قبل أن تبيد الحرب الثانية عشرين

---

[1] لينين، – ماركس انكلز – الماركسية، دار التقدم، موسكو زوبوفسكي بولفار 21، ص 499.
[2] المرجع السابق، ص 500.

مليونا آخرين منهم، ليتحول "الستار الحديدي" حول الاتحاد السوفياتي الى أكبر سجن للحرية عرفه التاريخ(*)؟!

تلك هي ثمرة التحريفية اللاهوتية الهيغيلية التي وجدت من يشقلبها بشيوعية الفكر اليهودي؛ القديس "ماركس" ثم القديس "انكلز" متنبئ "لينين" الأكبر؟!

ولعل الصحيح بهذه التوراتية الجديدة هو أن الشيوعية لا تزدهر إلا في مناخ الاضطرابات السياسية، حين يكفر الناس بكل باطلهم الذي يسقط على رؤوسهم، فهي منهج كفر وتكفير؟! سِمَتهُ الغضب لا الفكر وتشويش المشاعر لا ضبطها، وهذا ما يعنيه كل دكتاتور يساري حين يهتز أمام المكروفونات مفتخرا بأنه ثوري؟!

لذلك ضخمت الوجودية من اللامعقولية الإنسانية في التواجد، حين برزت كل تلك اللامعقوليات من تحت قفاطين دعاة الماركسية، وهم يلوحون لنا بالمستقبل الذي سماه "رسل" كما سبق ورأينا: "بياهو" المسيح المنتظر للمجيء الثاني للألفية "ميلانيوم Millennium" السعيدة، لكل غوغائي ثوري؟! يسرق حاضر قوت أمته مقابل ما يقدمه لها من وعود مستقبلية بأوداج متهدجة، وسوط يسوق به الجماهير داخل سجنه الدكتاتوري المملوء بالشعارات وأقبية التعذيب؟!

وقد اتبع "ماركس" منذ كتاباته الأولى أسلوب نقد الهيغلية، وهو رجل ثقف نفسه بنفسه بعد أن درس الحقوق في جامعة "Bonn بون" ثم تابع فصولاً في التاريخ والفلسفة في "برلين"، وبدأ بالعمل بجرائد متطرفة منذ "1841م"، ثم ذهب الى "باريس" حيث قابل "أنكلز Engels " ليعيش عالة عليه بقية حياته في "لندن"!!

وكتابه "رأس المال" الذي ضمنه نظريته في صلة الاقتصاد بالمجتمع الإنساني، والذي كتبه في "لندن" لا يعبر أبداً عن أي فلسفة انكليزية فبه يدعي أنه (في البلد الأكثر تطورا في الصناعة – يقصد تقدماً فيها – يبين للبلاد التي تتبعه

(*) أستغفر محاكم التفتيش التي هي قبله!!

على الصعيد الصناعي صورة مستقبلها.... ففي ألمانيا حيث نشأ الإنتاج الرأسمالي نرى أن الحالة أسوأ بكثير منها في انكلترا؟!)[1]، ومنه يظهر كيف أنه يستعمل عبارة التطور في غير معناها البيولوجي، وأحكام القيمة والتقييم للآخرين، التي غدت سنة عند كل من سموا أنفسهم بالتقدميين وسواهم رجعياً، مقسمين الناس الى جيدين وسيئين سلفاً، بأحكام مسبقة قيمية لا قيمة حقيقية لها، بشكل يشبه النعوت التي يستعملها الأطفال في عصابات الأحياء.

ورأس المال في نسخته الألمانية والفرنسية ثلاثة أجزاء، صارت بالعربية خمسة وذلك بسبب الإسهاب اللغوي العربي، وان كانت أمينة بعض الأحيان لمعاني النص الأصلية، التي بها أصلاً الكثير من التناقضات التي يحب الماركسيون تسميتها: ديالكتيكياً، وهي مجرد دليل سفسطة وعدم استقرار فكري، يقول في القسم الأول من الجزء الثالث ما يتناقض بشكل جلي مع مقدمة كتابه، في حكم القيمة على "ألمانيا" بأنها البلد الأكثر تطوراً في الصناعة (وانكلترا وهي بلاد الإنتاج الرأسمالي المتطور وهي البلاد الصناعية من الدرجة الأولى وقبل أي شيء آخر، كانت معرضة للموت بسبب نزيف من السكان....)[2].

وقد جئت بهذا المثال من كتابات "ماركس" لأدل على مدى التورط العاطفي عنده، وعند كل من يستعمل أحكام القيمة التي تسيطر على انفعالات نصه الآنية.

ان التناقض في "رأس المال" ككتاب لم يتمه "ماركس" ويعتبره "أنكلز" صاحب التأثير القوي في الحركة الاشتراكية، الى درجة أنه (يسمي كتاب "رأس المال" في القارة الأوروبية: الكتاب المقدس للطبقة العاملة)[3]، وهذا التناقض حتى في حياة هؤلاء يشعر القارئ فيه من خلال أقلامهم بأنفسهم، يقول "ماركس": (لن يكون أمام الأفراد إذ يكونون غير مالكين لمنازل او أقوات سوى الموت او التحول

---

[1] كارل ماركس، رأس المال، مكتبة المعارف، بيروت 1950، ج 1، ص 6.

[2] المرجع السابق، ج 3، ص 1032.

[3] المرجع السابق، ج 1، ص 32، في مقدمة "أنكلز" للكتاب حيث تلاحظ التعابير المستعارة من الدين، منذ أولى الكتابات الاشتراكية الشيوعية.

الى عبيد لدى أولئك الذين يكونون قد قاموا بإعالتهم)[1]، فأين الدعوة الى إلغاء الملكية هنا؟! التي بسببها يصير الناس عبيد من يعيلهم، وهل كان "ماركس" نفسه عبدا لأنكلز؟!

وإننا لنجد هذا اللاتمييز أيضا بانسحابه على كل النظرية الماركسية بالخلط بين المؤسسات الاجتماعية والطبقات الاجتماعية، معتبراً كل مؤسسة تعبيراً عن الطبقة التي يسميها بحكم عام: بورجوازية؟!

وإنك في أي صفحة تفتح بها كتابات الاشتراكين تجد النهج الماركسي ذاته في تكرار معزوفة البرجوازية وسفالاتها ورأس المال وخبثه، والاشتراكية وحسناتها، مثل:

(الإنتاج الرأسمالي هو الإنتاج البضاعي، والعلاقة بين الرأسمالي والأجير....علاقة دائمة في الإنتاج.... ولهذه العلاقة.... في قسمة التصور البرجوازي....؟)[2]

هكذا تتردد هذه المصطلحات في حوالى "1940 صفحة" باللغة العربية المترجمة عن الإفرنسية لرأس المال، من منطلق "أن التكرار يسير القطار - الحمار -" كما في المثل الشعبي، وعلى هذا الأساس سالت الكتابات الاشتراكية بين القراء في القرن العشرين، فشتت من شتت وأعجب من أعجب، ومل من مل من السين وسوف فيها، وخضع من خضع، وغرر من غرر به؟!

أما من نقدها ولم تطاله محاكم تفتيشها "KGB " فمتهم بعدم فهم منطق الديالكتيك، الذي يفتخر الماركسيون بالتناقض فيه، لأول مرة في تاريخ الفكر والمنطق الإنساني، في اعتبار التناقض والتخريب وعدم الاستقرار على رأي واحد، والحمق وإشاعة الحقد بين الطبقات والناس كثورية وغضب يؤدي الى التقدم؟!

---

[1] المرجع السابق، الكتاب الثاني، ص 1773.

[2] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

فلكي تكون ماركسياً عليك إلغاء كل ما قدمته الحضارة الإنسانية من أخلاق ومنطق وفلسفة، وأكثر من ذلك عليك إخضاع العلم للديالكتيك والدين لعبادة "ماركس" وحوارييه بالطلائع التقدمية؟!

وعلى رأس هؤلاء كان "لينين" وتابعه "ستالين"؟!

فـ "لينين" لا يخفي توجه الماركسية الإيديولوجي نحو الدكتاتورية التي يمثلها هو، ولا يخشى أي نقد على قوله بالدكتاتورية العمالية يقول: (لقد اكتسبت الماركسية دلالتها العالمية التاريخية كايديولوجية البروليتاريا الثورية)[1]، وهذه الثورية تعني عند "ماركس" روح الصراع الطبقي الدائمة بمعناها الهيغلي لكلمة روح، بمعنى الاستمرار بضرب البنى الثقافية والسياسية والفنية لأي رأي غير ماركسي، وتدميرها وإلغائها في (جمهورية العمال والفلاحين السوفياتية، سواء في حقل التربية السياسية او الفن بصورة خاصة – الذي – يجب أن يكون مفعما بروح الصراع الطبقي الذي تخوضه البلوريتاريا من أجل تحقيق أهداف دكتاتوريتها البلوريتارية بنجاح)[2]؟!

ولأجل هذا نظرياً يجب إلغاء الفلسفة بالاقتصار على الماركسية منها فقط فـ (انتم لا تستطيعون أن تلغوا الفلسفة ما لم تحققوها)[3].

هذه هي: إيديولوجيا ودكتاتورية الإلغاء، التي تشكل عقيدة دين بلا إله قائم على ذهنية الإلغاء الإيديولوجية الدكتاتورية، اسمه الشيوعية السوفياتية والممتدة لكل – حزب – ذيل لها، دمر المجتمعات في العالم الثالث، وكاد أن يذهب بكل الكرة الأرضية نحو حرب ذرية تبدأ من "كوبا"، بأزمة صواريخ الروس فيها مع "كندي" و"كاسترو"؟!

والأسوأ من كل هذا هو أنه لو حصل هذا "الهولوكوست Holocaust" العالمي، لمات شيوعيو العالم الثالث مع شعوبه دون أن يعرفوا شيئا عن تأثير

---

[1] ف. لينين، الإيديولوجية والثقافة الاشتراكية، موسكو، 1964م، ص 52.

[2] المرجع السابق، ص 51–52.

[3] مختارات من المؤلفات الكبرى، مرجع سابق، ص 38.

الفلسفة على العالم وعليهم، وهم يرددون العبارات الثورية كما لقنتها لهم أحزابهم "بلا فلسفة ليظلوا كما هم أسرى سجن مغالق فكرهم"(*) الى أبد الكون!؟

ولحسن او لسوء حظ البشرية لم تتطور الحرب الباردة الى إبادة الكرة الأرضية وتدميرها، لكن اللعبة القيمية" الخطرة التي تركتها الاشتراكية في رؤوس الناس – وخاصة في العالم الثالث – في تغيير القيم المتعارف عليها هي الأخطر على الأحياء؛ فالصحة وطلب المال للمحافظة عليها وعلى الحياة، وغرائزنا كحيوان له مكان – حيز – في بقعة محددة "Territory" محرمة، وحتى الحيوان يحدد مكانه ببوله الذي إذا اشتمه دخيل حاد عن حيزه، او حصل قتال شرس للمحافظة على هذا الحيز، كل هذا حطت الشيوعية من قيمته وألغته في المكان– الحيز – الذي نزلت فيه، سواء بروسيا او سواها من الأمم التي أخضعتها بإسم الأممية الثورية العالمية الاشتراكية.

فأصبح الناس يخجلون من النجاح والرخاء وإقبال الرفاهية عليهم "Prosperity"، خوفاً من أن ينعتوا بالبرجوازية، وخاصة في مجتمعات التظلم الاقتصادي في العالم الثالث، فالمواطن النزيه يكره أن يسمى عدو الشعب لأنه يركب سيارة على أقل تقدير، وعلى أشده أن يعامل معاملة "بول بوت" صاحب "الخمير الحمر" في شرق آسيا الشيوعية، حيث قتل كل من يلبس نظارات لأنه مثقف بثقافة ليست ماركسية؟!

ألم يقل "نيتشه" إن (الذين يقودون الناس يؤثرون بفضائل وقيم المحكومين)[1] فالذي يعلمك كيف تلعن يعلمك كيف تخضع، وعلى هذا الأساس يتغير الناس بتغير قيمهم، ليصحوا في يوم بعد "1989م" وقد زال الاتحاد السوفياتي بعد أن تفشت فيهم فضيلة الفقر، وبأعدائهم فضائل الصحة والرخاء وإقبال الحياة المرفهة، فيدوسهم بكل مناسبة كما تفعل إسرائيل، التي عافت الشيوعية لأن مصلحتها مع أمريكا –

(*) ارجع الى عنوان هذا الكتاب وتأمل؟!

(1) Thus Spoke Zarathustra, op. cit, P 189.

رغم أنها اخترعتها – أقول: كما تفعل إسرائيل مع العربان اليساريين المهرولين السابقين حولها؟!

هكذا خضع من استعبدتهم الإيديولوجيات الماركسية الاشتراكية لأخلاق العبيد – التي تحدث عنها "هيغل" – مضافاً إليها أهمية الحقد والحسد اللامحدودين، مع غل الاستياء "Resentment" – الذي تتسم به أخلاق كل العاهرات، وخاصة في مراكز الدعارة – من كل صاحب نعمة، وشرف يمنعه من الرشوة وأكل السحت، او أن يتظاهر بالفضائل الاشتراكية في كل خطاب جماهيري لا تفهم الناس هدفه؟!

هكذا تركت الاشتراكية عقدة النقص من كل كمال، وقبلت قيم العامة بأن جعلت الفقر والطائفية يجران كل فضائل النخبة نحو الجماهير؟! ثم فسحت المجال لمن كشف لعبتها من الوصوليين لممارسة "التقية" مع هذه الايديولوجيا، فأشاعوا سلطة "بيروقراطية" تتحكم بكل صغيرة وكبيرة، لتطغى وتثرى وترتشي بدون محاسب!!

هكذا تنشقنا رياح الفلسفة "الهيغلية" التي ظنت أن للتاريخ صلة بمصير الإنسان يحركه كما تحرك الروح الإنسان، ويعكس ذلك التطور، فقاد "ماركس" هذه الأفكار اللاهوتية الأصل نحو ما سماه: بالمادية "الديالكتيكية" واضعاً تلك الروح بصيغة تطورية خارج إطارها البيولوجي، بإسميات "نومينالية" لا واقع لها تدعمها نبوءة مثل النبوءات اليهودية، التي اعتاد الناس تصديقها دينياً في الغرب، فجربوها حوالي سبعين سنة الى أن طفح بهم الكيل؟! مدعماً أفكاره بقلب أفكار وفلسفات الآخرين، ومن ضمنها مفهوم الاغتراب "Alienation" بوضعه على مشاعر الاستياء الاقتصادي والحسد، غير مهتم بأي عدالة تصحيح لأي استياء، بل جل توجهه هو نحو نقل الاستياء والاغتراب الى الآخرين، تماماً كما سعت الصهيونية الى نقل استيائها واغترابها الى العرب والفلسطينيين، بدل أن تعمل معهم كباقي الجاليات المهجرة الى البلاد العربية مع الحرب الأولى؛ من "شركس" و"أرمن" و"أرناؤوط البلقان"، على تلافي الظلم الذي حاق بهم بالمواطنة الصالحة، فعاشوا معنا بكل عز وكرامة ندعم قضاياهم دون أي صراع معنا.

بينما الماركسي كاليهودي التائه يريد أن ينقل اغترابه واستياءه الى الآخرين، ولا يسعى أبدا الى محاربة جذور الاستياء والاغتراب، لأنه يظن أنه ببساطة فوق كل البشر، كما يظن الإيديولوجي الماركسي أن من حقه فرض دكتاتورية العمال والجهلة على كل المجتمع بقوة السلاح؟!

أما "هيغل" الذي ادعى "ماركس" انه وضعه على قدميه - قلبه - فالاغتراب عنده مرتبط بما يمكن أن نسميه بالأساطير، التي إذا أخذت على هناتها دينياً تجعل الإنسان بعيداً عن الواقع، فالفتشية "Fetishism" هي في ربط ما يسمى بالعامية "بالأثر - الأثر" الذي يتركه شخص مقدس، - بربطه - بقوة سحرية، او بدلالة كانت تدل عليه وجعلها معبوداً مثل الطوطم والصليب، أقول: هذه "الفتشية" تجعل الإنسان بعيدا عن كل واقعه، لا فقط بعيد عن أصل - الأثر - الذي يقدسه، مما يجعله برأي "هيغل" في حالة اغتراب عن واقعه، يقول: (ان الأساطير ليست من اختراع الكهنة.... بل هي نتاج فكر غير نقي.... يستعمل الخيال بدل الواقع)[1]، ولذلك لصدق القائلين بها يظنها الناس حقيقية، فتبعدهم بدورها عن الواقع، فيقع الناس بالاغتراب والاكتئاب - الشعور الشقي -، وعلى هذا الأساس قرر "هيغل" أن الروح الدينية تدفع الذات الى الاغتراب الذاتي، وتجعل صاحبها تعيساً متعلقاً بالأوهام الفتشية؟!

فمعالجة المطلقات التي هي شأن الدين بقدر ما هي شأن الفلسفة تحتاج الى العقلانية والمنطق برأي "هيغل"، فان هي لم تفعل وقعت بالفتشية أي الطوطمة التي هي صورة من صورها، ويتجلى هذا بالدين المسيحي بالأيقونات ورفات القديسين والصلبان، لذلك قال: (ان مضمون الدين والفلسفة واحد وهو ذات الشيء، والفرق هو فقط كيفية المعالجة)[2] والمعالجة العقلية برأيه هي التي تبعد عن المتدين الدين، وتقربه من الفلسفة، أي تبعده عن الشعور الشقي نتيجة اغترابه عن الواقع، وتقربه من المنطق.

---

(1) Hegel's Introduction to the Lectures on the History of Philosophy. Oxford Press. N.Y. 1985, P 125.

(2) Ibid, P 127.

فهل المنطق الذي جره "ماركس" الى دكتاتورية الشغيلة والعمال والمنتفعين بالبيروقراطية، وجره الاشتراكيون في بلادنا نحو الطائفية، لأن هذه الفئات من طوائف من الأقليات الناقمة اقتصادياً وإيديولوجياً؟!

أقول هل هذا المنطق يبعد عن الاغتراب؟!

أم أن المنطق الذي جره "سارتر" على العكس من "هيغل" و"ماركس" نحو اللامعقولية والغثيان، هو الشفاء من الاغتراب في غمرة الشعور الشقي بالعبثية والعدمية، في صلب كل وجود إنساني؟!

الحل الهيغلي للاغتراب إذا هو العقلانية والمنطق، والحل "الماركسي"بنقله للآخرين، كما عند اليهود منذ أول نشوئهم الى احتلالهم للأرض العربية.

والحل الوجودي السارتري "بالانغماس" فيه – في الاغتراب الى حد الثمالة لأن لا حل له؟!

فيكف يخلص الإنسان من اغتراباته الناتجة عن "الفتشية" الموروثة في عقائده والتي تريد أن تضمن له المصير؟! لكن ماذا لو كان الدين بلا "فتشية" كما في "الإسلام كما بدأ"؟!

لعلك لتجد الدوغمائية الهيغلية في تقريرها للعقلانية بصورة مطلقة معلناً، أن: (الروح "Spirit" والعقل شيء واحد، فنحن نتصور العقل مجرداً، لكن العقل العارف والفعال هو الروح)[1]؟ وبهذا يعيدنا "هيغل" الى الديالكتيك الأفلاطوني، الذي نقده "أرسطو" – كما سبق وذكرنا – بين العقل والروح، حيث قال: (من الأفضل أن لا نقول إن الروح تتعلم وتفكر، بل إن الإنسان هو الذي يفعل ذلك بسبب الروح)[2]، فهي المحرك الذي لا يتحرك للفكر والجسد، وتظهر من خلال تلك القدرة في أعضائنا الداخلية – الباطنية بمعناها الطبي – في تحويل المواد

---

(1) Ibid, P 130.

(2) De Anima op. cit, P 147.

الغذائية الى دم، والدم الى فكر وسلوك وطاقة، وهي موجودة بأبسط المتعضيات والحيوانات التي يسيرها فكر مسبق البرمجة بعضويتها، لخدمة الحياة فيها.

فإذا كان العالم المنظور ذو أبعاد ثلاثة.

والعالم المعروف بالفكر – علمياً – ذو أربعة.

فالروح يمكنها أن تُعرف بالفكر "الذي هو ليس هي" بالبعد الخامس، في كل هذا الكون لا في أرضنا منه فقط!!؟

فمن أبعد المجرات تصلنا "نيازك" تحمل ما يشبه الغبار، لكنه كوني بكل حبة مجهرية منه، قلب من السيليكات "Silicate" وحولها جليد منحل فيه جزئيات عضوية "Organic molecules"، وتسمى حبة الغبار الكونية هذه: "Interstellar Grains"، ومجموع العناصر التي تكونها هي: الهدروجين والكربون والنتروجين والأوكسجين والسلفر، وهي منتشرة في كل مجرتنا[1]!!

فهي: ما يمكننا أن نسميها بالبعد الكوني الخامس، تحملها إلينا ما سماها العلماء: "عربة الله" أي النيازك، التي (تتلقى الأرض منها مئة ألف طن من المواد سنوياً – بالنيازك–)[2].

لذلك لم يخطئ "ابن سينا" حين وصف الحياة بالبرق – كالنيزك البارق – شكلاً، ومضمونها بالنسبة للكون مجرد ومضة بين ومضات هذا البعد الخامس، الذي نسميه: بالروح عبر زمنها القصير بالحياة، التي تلمع بكل عمل عقلي وجنسي بنشوة، هي سر خديعة استمرارها[*]، إذ لولا متعة الفكر والمعرفة لما كانت هذه الحياة تستأهل أن تعاش، ولولا الجنس لما وقع الإنسان بفخ الفكر والوجود، ثمنهما متعة أرضية لا تضاهى، وثواب أخروي عظيم، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [الملك/10].

---

(1) Jim Brooks. Origins of Life. A Lion Books. Australia 1985. P 142.

(2) Ibid. P 121.

(*) قبل احتمال وصولها للعرفان بعد الموت، سواء بالخلود كما قرر الدين، او باللاشيئية بالوجودية الملحدة.

أما "ابن سينا" فقد وصف سر نشوة ما نسميه البعد الخامس، بقصيدته الورقاء حيث قال:

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهي التي سفرت ولم تتبرقع
حتى إذا قرب المسير الى الحمى	ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت	ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وتعود عالمة بكل خفية	في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها	حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنه برق تألق للحمى	ثم انطوى فكأنه لم يلمع[1]

الروح إذاً بعدٌ كوني خامس، وليست "جشطلت" وجود في هذا التواجد او ذاك، أحسَنَ من سمى هذه "الجشطلتات" بالبنى، بدل الروح عند "هيغل"، وعلى هذا الأساس انطلقت الفلسفات البنيوية التي عادت لتستغرقها الالسنيات.

الروح بعد كوني وجودي لا برهان رياضي عليه، وبرهانه الفيزيائي دلالاته فقط، انها بُعدٌ ميتافيزيائي بكل معنى الكلمة، بنيتها عضوية فقط، فمن الشطط الهيغلي تعريف كل البنى فيها وبها، كما من الشطط الماركسي نقل مفاهيم التطور من البيولوجيا الى المجتمع؟! مطبٌ تقع فيه كل الواحديات الفلسفية؟! فالروح بعد كوني خامس مغترب بين هذه المجرات، منشؤه من اللامنظور الذي يشبه الكتلة الكونية الأكبر في الكون، اعني الجانب المظلم الطاغي على كل الكون، تدفعها الانفجارات "بالنوفا" و"السوبرنوفا" والثقوب السوداء، التي نسميها نوراً وهي انفجارات ذرية، تدفعها للطواف بين المجرات بالبذور الجزيئية العضوية داخل كل حبة غبار كونية "Organic molecules in Interstellar Grains"، لتلمع حين تلاقي

---

[1] ابن أبي أصبعية، عيون الأنباء، دار الثقافة، بيروت 1979، ص 15-16.

شبيهاتها داخل أي وسط يسهل للعضوية الحياة – الذي منه كل شيء حي – أي الماء، بومضات الالتحام – سمه جنساً ان شئت – فالتفتح بالوعي الذي يبدأ بالفكر البسيط في المتعضيات، ثم يلمع ويبرق حسب أصوله في متعة مشابهة لا قيمة للحياة بدونها في عقل كل إنسان راق، وبين مثل هاتين المتعتين الناتجتين عن برق الحياة، عاش أصحاب الرسالات العظام كإبراهيم ﷺ و"يحيى" و"زكريا" عليهم السلام وسيدنا محمد ﷺ، وأدرك ذلك فلاسفة الإسلام وعكسوه في سيرة حياتهم، التي ظنها كاتب سيرة حياة "ابن سينا" في "عيون الأنباء" مثلا على نوع من (التخليط في أمر المجامعة.... فكان ينتكس ويبرأ كل وقت)[1]، غير شاعر بعظمة "بُعدِ الحياة الخامس" بين الفكر وما تعارفوا على تسميته جنساً، وهو بلغة منطق الحياة: تألق برقها بالوعي وبتلاقي المتشابهات في أصل بذرة الحياة الكونية.

بينما كل شاذ تافه مخصي أو لوطي يخطئ توجيه ذلك نحو الفكر والوعي، فيتهم آباء نبينا صلى الله عليه وسلم من إبراهيم الى محمد صلى الله عليه وسلم بالغلمة، فبئس ما به يفترون على رجولة العقل فيه وأنوثة زوجاته صلى الله عليه وسلم.

ذلك أن ربط الدين بالنساك هو الفتشية التي سمحت لأمثال "هيغل" باستيلاد "ماركس"، وتسمح للمرضى ترويض الروح حتى لا تبرق بالمعرفة، تلك هي الروح العفنة التي تلد الاغتراب وكل شعور شقي، بدل التألق وإبداعات الحياة، فما يعتبره هؤلاء من محرمات الدين كما يفهمونه، هو أساس كل حقيقة دينية وكل حياة، أعني الجنس!!

فإذا كان (الإسلام يحتقر المسيحية فهو محق بذلك ألف مرة لأن الإسلام يفترض الإنسان قبل كل شيء)[2]، فأخطر أنواع التطفل على الإنسانية باسم الدين؛ اعتبار الراهب المهزول بالصوامع قدوة بشرية، وكل تألق في الحياة ضد إرادة الله.

---

[1] المرجع السابق، ص 13.

[2] Twilight of the Idols/the Anti-Christ, op. cit. P 195.

هؤلاء هم الذين يكررون هجومهم على نبي الإسلام واضعين أنفسهم كنقيض ككل سبب إبداع، لذلك انتفض صاحب القول السابق "نيتشه" على أتباع "شوبنهور" الذين يدخلون البوذية في الفن الألماني، فكان هجومه الصاعق على صديقه "واغنر Wagner" (فلا شيء يؤلم المشاعر أكثر من روح عظيمة تحرم نفسها من أجنحتها وتبحث عن الفضيلة بأمر وضيع.... تلك هي قصة "واغنر" موضوعة في موسيقاه)[1]، لكن لماذا؟!

يجيب "نيتشه": (لأنه يتملق لكل عدمية "بوذية"..... ويمتدح كل شيء مسيحي، وكل تعبير ديني.... يؤدي الى إفقار الحياة بما يتعارض ولا يلائم الماوراء والمتعاليات – وكل هذا – وجد فضائله في ما قدمه "واغنر" من فن)[2]، ويجد فضائله الزائفة عند كل من يهاجم الجنس عند محمد صل الله عليه وسلم وعند المسلمين بمناسبة وغير مناسبة يفتعلونهما، ليظهر فيهما التحالف القبيح بين اليسار الاشتراكي واليمين الغربي الخاضعين للصهيونية، التي وببراعة الدهاء اليهودي تستثني أنبياء بني إسرائيل مما تنعتنا به؟!

هكذا يصبح سبب وجودنا عاراً، وبرق الحياة شناراً، ونبي الإسلام مغتلماً؟! ومن باب إخصاء الفكر والجسد هذا يلتقي اليمين مع اليسار، وتلتقي الماركسية الاشتراكية مع البرغماتية الامبريالية ضد الإسلام، والأسوأ تطبيل الاشتراكيين المدعين القومية العربية في كورس هذه المعزوفات!!

هكذا صار "ماركس" بعد سقوط دولة الشيوعية بضربات المناخ البرغماتي الغربي، حليفا للامبريالية عشية تداعي الاشتراكيات، فقط لأنه ضد الدين والإسلام خاصة، بقدر ما يقف التقليد السلافي الروسي تقليدياً ضد الإسلام، من شرق أوروبا الى "القفقاس" الى "الأوزبكس"؟!

الذين أراد "لينين" أن يقهرهم عبر "التعايش السلمي" البطيء مع إلحاده الشيوعي كتب "لينين" (يقول: إن الجمهوريات "القفقاسية" أقطار فلاحية.... ومن

---

(1) Nietzsche, The Case of Wagner, Vintage Books, N.Y., 1967, P 162.

(2) Ibid, P 183.

هنا يلزم مزيد من الحذر لبناء الاشتراكية، يلزم موقف أكثر اعتدالاً ومرونة)[1] مع دينهم، وحين عين "ستالين" بلجنة الاعداد لمسألة العلاقات بين روسيا والجمهوريات[2]، حوّل الجمهوريات المستقلة الى مجرد حكم ذاتي – معارضاً "لينين" الذي كان على شفير الموت (مصراً على أن استقلال الجمهوريات لا يعدو أن يكون استقلالاً شكلياً)[3]، ومن يومها لم تعد الحكومة السوفياتية الى سياسة "التعايش السلمي" الشيوعية، إلا بعد أن تهدد كيانها كله، حين (ضرب الإمبرياليون الأميركيون الحصار حول "كوبا" – وأوشك – النزاع الكاريبي أن يتطور الى حرب نووية واسعة.... لقطع الطريق على الصدام الخطر، وبذلك أمكن تفادي الكارثة النووية)[4].

ويدلنا هذا على أن المراوغة الشيوعية بالبطش حين القدرة، وبشعار "التعايش السلمي" من أجل التسلل، مثل ما تسلل اليهودي "كيسنجر" عبر مشروع "الخطوة خطوة" نحو تحييد مصر عن الصراع مع إسرائيل، ومن تبعها من العربان، فكر باطني يهودي يدل على مدى جبانة إيديولوجيا "الكولخوزات" و"الكيبوتزات"، المؤممة والسارقة للأرض والإنسان.

ومهما لَمّعَتْ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي سيرة حياة "لينين"، ليظل تفكيك نصها "Deconstruct" يبين الحقائق التي فيه ضد ما قصد منها واضعها، مثلاً: أراد أن يظهر مؤلف سيرة "لينين" مدى أهمية قيمة ما تعارف عليه الشيوعيون بعبارة: "مناضل"، فبين كيف تكون هذه العبارة تعني أيضاً لصاً، وخارجاً عن القانون يقول: عن حكاية مراجعة والدة "لينين" عن مكان سجنه: (في إحدى مراجعاتها الى إدارة البوليس خاطبها المدير ساخراً: بوسعك أن تفخري بمن أنجبت.... أحدهم شنق وآخر ينشد الحبل أيضاً)[5]، فمن يمثل هذا الرجل الذي لم

---

[1] عن معهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، مكتبة النهضة، بيروت– بغداد، عام 1971م، ص 869 من سيرة حياة "لينين".

[2] المرجع السابق، ص 873.

[3] المرجع السابق، ص 876.

[4] المرجع السابق، ص 964.

[5] المرجع السابق، ص 964.

يستطع كتاب سيرته إلا ذكر ذلك إضافة الى ما كتبته الصحيفة التجارية قبيل الثورة (لنفترض ولو للحظة أن البلاشفة سينتصرون فمن سيحكمنا؟ لا شك الطباخون او ربما الوقادون، أو سياس الخيل، او ربما تهرع الحاضنات الى مجلس الدولة.... من سيكون هناك؟! من هم رجال الدولة هؤلاء.... السمكرية بالسلك الدبلوماسي... أمن الممكن أن يحدث هذا؟! وسيتلقى البلاشفة على سؤال مجنون كهذا رداً حاسماً من التاريخ)[1]، وهذا ما حصل حين بدأ القتلة والمجرمون يتطاحنون على السلطة بعد موت "لينين"، فقتل "الرفاق" بعضهم وقالوا: هكذا الثورات تأكل أبناءها، وحتى في حياة "لينين" شَهَّرَ "ستالين" بسيده الذي (كان من عاداته أن يقول؛ إنه لا يعتبر نفسه مختصاً بالشؤون العسكرية، وقد استغل "ستالين" ذلك ليزعم بأن "لينين" كان لا يعرف في الواقع سوى القليل عن فن الحرب.... انه قلل من دور لينين في بناء الجيش الأحمر)[2].

وحين مات "ستالين" شهر به "خروشوف" الذي شهرت به اللجنة المركزية بعد إقصائه؟!

عقارب لسعت شعوبها بالجهل وإشاعة الأمية، وتغيير القيم بذهنية الإلغاء ولا زالت تفعل، وهي حين لا ترى من تلسعه تلسع بعضها بعضاً، وتسمي مجموعة هذه الخيانات: نضالاً؟!

وهؤلاء المناضلون مهيضو الجناح اليوم بعد سقوط دولهم الكبرى، يتذللون للإمبريالية التي ادعوا محاربتها كل هذه السنين، بتعايش سلمي جديد شعاره قضية تبنوها لتكون مشتركة مع أعداء أمسهم، وهي الحرب على الإسلام؟!

هكذا تنحل الفلسفات حين تبسط بالعملية بأيدي العوام الى حقد وكفر وعدوان، فهل الرد على ذلك في حجب العوام او إلجامهم عن علم الكلام؟! كما فعلت الفلسفة العربية فزادت من عاميتهم ليبقوا سجناء مغالق فكرهم، يرددون

---

(1) المرجع السابق، ص 644.

(2) المرجع السابق، ص 698.

عبارة: "بلا فلسفة" إزاء كل معضلة مصيرية يواجهونها، فكتبوا على أنفسهم بذاك كل صنوف التخلف، في الفكر والفن والعلم، والطائفية – العصبية – في الدين!!

تخلفاً رفضه الروس من محاربة الشيوعية للفلسفة مثل محاربتها للدين، فأسقطوا الاتحاد السوفياتي، بينما نحن ما علينا سوى إسقاط عبارة: "بلا فلسفة"؛ من تراثنا المنقول بالتقاليد – لا بالحكمة الإسلامية – فمشكلتنا كمشكلة "روسيا" اليوم مشكلة ثقافية؟! يحلو للبعض أن يعقدها أكثر من ذلك، لكنها ببساطتها تشكل صلب السهل الممتنع، "الروس" فيه أكثر حظاً منا بذخيرتهم العلمية والفنية، ولا يعيقها ما يعيق ذخيرتنا الدينية – المتقوقعة – من فرقيات عصبية تكاد تجمع كلها على عبارة: بلا فلسفة؟!

فهل نحن جاهزون لمواجهة هذا التحدي الثقافي الجديد – القديم –؟! أسارع الى الجواب: "بلا"، للمعيقات التي ذكرتها، ولكن هذا لا يمنع من المحاولة؟!

فهيغل الذي اعتبر أن التقدم التاريخي للأمم مرتبط بتقدم وعيها، انتصر برأيه هذا على "ماركس"، الذي ربط التقدم بالتقدم المادي الذي يعني: التقنية.

عند الأول المشكلة ثقافية.

بينما عند الثاني إنتاجية، "البلوريتاريا"(*) تتكفل بها.

وهل يعيدنا هذا الى مشكلة النظر والعمل والدور المنطقي بينهما؟! لنسأل:

ما قيمة اكبر دماغ صناعي – كمبيوتر – إذا كنت لا تعرف ما تريد أن يقدمه لك، من مراجع او إحصاءات او بيانات كي تطلبها منه مثلاً.

"فماركس" شأنه شأن "فرويد" وكل الخط الفكري اليهودي منذ "سبينوزا" أراد أن يظهر أن الوعي كالضمير تعبيران عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي المعطى، ومنهما تنهل كل الميول الإنسانية التي تبرر الاتجاهات والتوجهات الفلسفية والعلمية، التي تقف وراء كل المؤسسات الاجتماعية، فهل فرض التوجهات

(*) البلوريتاريا هي: البروليتاريا وقد تكاثرت حتى عمت كل المجتمعات الإشتراكية.

الاشتراكية – على فرض صحة هذا الافتراض – كفيل بإزالة الشعور الشقي الناتج عن الاغتراب بين الفرد والمجتمع؟! او إزالة العبودية للبيروقراطية التي أخذت مكان السيد البرجوازي؟! او إزالة حاجة الناس الدائمة للتبادل السلعي بالمال سواء كان قسائم – كوبونات – تصدرها الدولة، او أوراقاً نقدية على بنك مركزي داخل او خارج الدول الاشتراكية، وهو ما يسمونه بالعملة الصعبة التي صعبوا الحصول عليها بأنفسهم على شعوبهم، فكانت وراء الفساد المستشري بكل من كان وبقي من الدول الاشتراكية!!

فنظرية العمل وفضل القيمة الاشتراكية التي كان الهدف من وضعها القضاء على الاغتراب والشعور الشقي لدى عامة الناس، ظهر حين تطبيقها أنها سبب كل اغتراب إلا لفئة على حساب الآخرين شعورها – وعيها – غير شقي بسبب شقاء وعي الباقين.

والأسماء التي أعطيت لهذه الفئة كالثورية والطليعية والحزب القائد لباقي الشعب، انطبقت على الأقليات التي انضوت تحتها، وبذلك ظل اليهود سلطة مسيطرة ضمن هذه الأقليات في الدول الأوروبية الشرقية، وهم على تحالف مع كل العصبيات الشعوبية – الإسرائيليات الإسلامية – في عالمنا العربي فصار من سرق أرض من سماهم إقطاعيين لا يجد للفلسطينيين اسماً ينعتهم به سوى إرهابيين يستأهلون سرقة أراضيهم أيضاً، وبهذه صار الشتات الفلسطيني يضم شتات الملاك من الطوائف الأكثرية، الأول سرقهم اليهود والآخرون سرقتهم الشعوبية المتحالفة مع اليهود منذ فجر الإسلام ضد هذا الدين بما عرف بالإسرائيليات فيه.

الشرق الأوسط كله صار فلسطينياً بفضل الاشتراكية فيه، تلك هي منحة الشيوعية لنا التي ابتدأت بسنفونية "هيغل"؛ باللعب على أوتار مفاهيم الروح الدينية – المسيحية –، والأهبل هو العربي الذي يشرب هذا الفخ ويظن انه: "بلا فلسفة" يستطيع أن يعيش بعالم يحكمه الفكر، وان هو واجه أي مفهوم فلسفي طاغٍ على حضارته، يظن أنه بإمكانه الاختيار منه كما يشاء وكيف يشاء، وبما يتلاءم مع ما ظنوه حاجاتنا؟؟

واليوم إذ يظل هذا الهبل الذي يأسر مغالق فكرنا ضد الفلسفة، بما يتجسد بالدول التي يقاطعها او يكاد يقاطعها الغرب منا خوفاً من الاتجاهات الإسلامية فيها، بالتحول نحو شرق آسيا ودول أخرى غير الغرب بالبعثات الثقافية والاقتصادية، يظنون أنهم بذلك يستطيعون النفاذ من البرغمانية والتجريبيات الغربية، وهم غارقون الى ذقونهم بما تفرضه العولمة عليهم "Globalization" بمنطقها النفعي اليوتيليتاري "Utilitarian" البرغماتي "Pragmatic" .

المناخات بدل الأحزاب والثورات: فبعد الإسلام كما بدأ فسحت مغالقنا الفكرية ضد التفلسف تشكيل مناخات فكرية فرقية طائفية تقوقعت بالعصبيات العشائرية، ولا زالت تدور بمحاور فلسفاتها القرن وسطية على أحسن الأحوال؟! وفي الغرب حتى القرن التاسع عشر أي مع "هيغل"، ظل الفكر الإنساني على ظن أن كل ما هو مفهوم معقول، ففي كتابه "موسوعة العلوم الفلسفية" يؤكد "هيغل" أن "المعقول واقعي والواقعي معقول"[1]، وهيغل يحاول أن يصحح الموقف الفلسفي للفلسفة التجريبية بقوله: (المعرفة التجريبية.... نتبين قصورها من زاويتين: فهناك من ناحية دائرة موضوعات أخرى لا تشملها وهي: الحرية، والروح، والله – ومن ناحية أخرى – أسيء فهم عبارة "أرسطو": "لا شيء في العقل لم يكن موجوداً من قبل في الحس او التجربة.... عن سوء فهم – عباراته –: "لا شيء في الحواس دون أن يمر بالعقل")[2].

هكذا حدد "هيغل" المعركة مع الفلسفات التجريبية – التي سنتناولها –، لكنه لا هو ولا التجريبيين بحثوا في ما بحثت به "الوجودية" بعد ذلك، أعني: تلك الصلة بين المفهوم والمعقول؟!

فالمنطق مثلاً يخدعنا عندما يبرهن القياس فيه على كون أمر ما قابلاً للفهم، فيجب علينا أن نقبل به ونجعله معقولاً؟ ومن خلال مثل هذه المغالطة المنطقية

---

(1) هيغل، موسوعة العلوم الفلسفية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة عام 1985م ص 55.
(2) المرجع السابق، ص 59–60.

اندفع الفكر الباطني الإسلامي مثلاً من محاولة البرهان على وجود الله عقلياً نحو العودة الى الشرك به، عبر ما يشبه القياس التالي: كل ما هو متواجد في الوجود يخضع الى مجموعة هائلة من القوانين؟! والمحرك الذي لا يتحرك هو الذي يفيض على العقل الكلي ليصنع القوانين أي يخلقها، لأنه لا يستطيع الحركة بناء على تعريفه؟

إذاً "∴" ما سماه "هرقليطس" باللوغوس "Logos" هو الخالق؟! فوضعنا إزاء إله آخر أضيف للإسلام من الفلسفة الإغريقية، فإذا دعمناه بالحلول المسيحي يصبح المسيح ﷺ هو "اللوغوس"، وإذا دعمناه بالحلول التقمصي الهندي – البوذي وسواه – يمكننا أن نختار أي حاكم، لندعي حلول العقل الكلي فيه فهو الله(*).

هذا كلام مفهوم لكنه غير معقول، وقعت به كل الباطنيات الإسلامية، وقوع "هيغل" بمفهوم الروح الذي عممه على كل الظواهر الطبيعية والحياتية؟!

فالمجالات التي لا يمكن للتجريبية ولوجها كالروح والله والحرية، يجب أن لا تعني أن كل مفهوم معقول، ففي تواجدنا جوانب لا معقولة يجب أخذها بعين الاعتبار – دون مبالغات الوجودية السارترية –، فأن نفهم معنى الروح كما فعل "هيغل" لا يعني أنها في كل شيء كما ذهب بمبالغاته؟!

كما أن تقصي الوقائع يجب أن لا يسد الباب كما فعلت التجريبية مع "رسل" بوجه الميتافيزياء، خاصة وأنها أهم مجالاتها تقصي المعقولية في المصير عبر كل المعرفة الإنسانية المتاحة، لا عبر الفهم وحده؛ فأنت تستطيع أن تفهم كل وجهات النظر المتضاربة عبر قياساتها، والاستدلالات الناتجة عن مقدماتها، لكن ما مدى معقولية هذه المقدمات بحد ذاتها؟!

والتجريبية؛ بعبارة بسيطة تركت تحديد المعقولية لما تختاره الطبيعة من قياسات، ورفضت اختيار الإنسان، فانطلقت من الوقائع الواقعية "Facts"، وهذا

(*) وعلى هذا بني الطغيان الشرقي بعدم الرغبة في ترك الشرك.

ليس بخاطيء، لكنه وكما قال "هيغل" لا يغطي مفاهيم الحرية والله وسواها من الميتافيزيائيات، التي لا يمكن أن تطالها الوقائع الواقعية التجريبية نفسها، وهي أساس كل مصير بشري وكوني؟! ولا يهم الطبيعة أن تجهزنا بأي أداة تجريبية – حسية زائدة – لكشفها؟!

هذا هو الإطار العام الذي حاولته الفلسفات الغربية من، نفعية "Utilitarianism" وتجريبية "Empiricism" ومردودية – تعرف بالذرائعية "Pragmatism"، عدا عن الوجودية التي المحنا لها "Existentialism"، بينما عالمنا العصبي العشائري مستسلم لما قدم له التراث من مفاهيم دون مناقشة مدى معقوليتها؟!

ألأنه تراث يريد الإبقاء على سجن مغالق الفكر مطبقاً على أبنائه؟! أم لأن "بلا فلسفة" تعني له قمة الحكمة؟! أم لأن الاستسلام للنقل الذي ادعى المعقولية في السابق "تابوه" لا يجوز مسه؟!

"فتشية" ما بعدها "فتشية" في الإسلام كما انتهى، بها تحافظ العشائر والعصبيات الطائفية على إيديولوجيات أكل عليها الزمن وشرب ثم لفظ؟! تلك العصبيات الخارجة عن الإسلام كما بدأ عبر التورط بالفلسفات الفيضية والخيالات الصوفية، لتقع بالفلسفة شاءت أم أبت وهي ترفض التفلسف، وتدعي الحكمة الباطنية الواقفة وقوف تاريخنا على مشكلة السلطة والخلافة، منذ حوالي ألف وأربعمائة عام؟!

"بلا فلسفة" تعني بلا حياة لأمة فرض عليها النظر العقلي منذ "اقرأ"؟! واليوم تفرض عليها تيارات الفلسفات الأخرى، لا لتختار بينها؟! بل لتخضع لها بالتناوب، وقد أفاقت من كابوس الاشتراكيات وهي لا زالت تتعثر بذيولها، والعولمة فاغرة فاها؟!

هذا هو الذي يجعل الحوار بين المذاهب الإسلامية حديث مجاملات ليس إلا، والفقه كسيحاً أماتته المفاهيم اللامعقولة للفلسفات البالية، من فيضية وهرمسية واشراقية صوفية بكل إشكالها.

فلِكي نجر العقل الإسلامي من الماضي الى الحاضر لا يكفي ترداد أن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان، دون أن ندرس الفكر الفلسفي الذي يشكل الزمان الذي نعيش فيه لنشكل فلسفتنا الخاصة فيه، آن ذاك نساهم بتقديم الإسلام الى حضارة القرن والواحد والعشرين لا كإيديولوجيا فرقية، او دفاع عن الذات يسميه الغرب إرهاباً، بل كدعوة بها كل حاجات من يبحث عن مصيره.

ذلك أن الدرس الواضح في المواجهة بين الغرب والاشتراكية، والتي أدت الى تفتيت الشيوعية دون ضربة رصاصة واحدة، كانت في المناخ البرغماتي والنفعي الذي انسل إلى الستار الحديدي وضرب تعنت الحزبية الدوغمائية فيه بعقر دارها – وسأشرح معنى المناخ هذا لاحقاً –، بينما كانت المواجهة بين الإسلام والشيوعية كما هي بينه وبين النفعية البرغماتية - بالعولمة – اليوم، في "أفغانستان" و"إيران" مواجهة حربية ليس لديها فلسفة تطرحها على الغرب قبل الطرح الديني، فيظنها الناس هناك ضرباً من الإيديولوجيا السنية او الشيعية التي تتطفل على الحضارة، تطفلاً يشبه التطفل الشيوعي من "ماوية وتروتسكية وستالينية ولينينية" و"بيرسترويكا" سابقة فاشلة؟!

بينما الإسلام كما بدأ مناخ فكري راقٍ، أضرت به كل المفاهيم القديمة والقرنوسطية" اللامعقولة، ومن يتمسك بها اليوم من المسلمين، سواء كان سنياً صوفياً او شيعياً مغالياً، او تكفيرياً من كلا الفريقين، يستحق لقب "الدوغمائي"، الذي لن يسمح له العالم بتجاوز حدوده فإن فعل نال كل ألقاب الإرهاب عن جدارة؟!

بينما الإسلام كما بدأ كمناخ فكري راقٍ لا يعيق ولم يعق تقدمه منذ ما بعد الفتوحات، سوى تحوله الى حزبيات فرقية ضيقة، يمكن أن يدمرها واحدة تلو الأخرى أي مناخ فلسفي اليوم، ثبتت قدرته على تدمير الاشتراكية في عقر دارها!!

وتحديداً سيحصل هذا بين المعقولية والمفهوم، فلنبدأ بدراسة سر هذا الإشكال الفلسفي الذي انتفض على الماركسية أول ما انتفض منها بالوجودية؟!

المناخ الفكري الوجودي: أقض مضاجع ما "ادعته" الهيغيلية من أن كلَّ مفهومٍ معقولٌ وبالتالي واقعيٌ، إذ من الصعب علينا أن نميز بين الواقعة "Fact" وبين فهمنا لها، ذلك أن الوقائع هي التي تشكل العناصر الأساسية البسيطة التي لا تحتاج الى برهان او إثبات، لأنها معطاة هكذا مثل: كون الذهب أصفر لا أخضر، لكن المشكلة في العناصر الأساسية التي تشكل او تحمل الظواهر على الوجود، فهل هي ما نجده بالسببية او بالقوانين التي تحكم التواجد والتي نعممها على كل الوجود، أم بالقوة التي تحدث عنها "شوبنهور" و"نيتشه" ومارسها السياسيون من "نابليون" الى "بسمارك" في ألمانيا، الى "لينين" في روسيا في القرن التاسع عشر؟!

ما هي الوقائع "Facts" التي تتشكل داخليةُ الوجود عليها، ميتافيزيائياً قبل البحث بعناصره المجهرية الفيزيقية؟!

ثم الى أي مدى خدعتنا تقريريات الآباء حول ما كنا نظنه وقائع وثبت بطلانها؟! فاللغة كما قررت الفلسفة التحليلية التجريبية مع "برتراند رسل 1872-1970" تضللنا، خاصة في تقرير الوقائع، إذ لا يمكن رؤية أمر ثم التعبير عنه بعقلين مختلفين بصورة واحدة، وحتى لو كان عند أحدهما أهم الأفكار (فمستحيل على الفرد أن يؤدي انجازاً مهماً، إذا لم يستطع الهيمنة على مؤسسة ضخمة)[1]، كما فعل "لينين" مثلا، وهذا لا يعني أن منطلقاته كانت صحيحة، إذ على أي أساس يدعي أن "الماركسية" قابلة للتطبيق، إن لم تكن هي الواقعية من ضمن كل الفلسفات السابقة واللاحقة لها، ليعلن أنها الكلمة الأخيرة في التفلسف، ويطالب بإلغاء الفلسفة بالماركسية، والدين بالإيديولوجيا الشيوعية؟!

ثم كما فعل "ستالين" حين أضاف لكل هذا الهراء ظنه الذي نجح بإشعال الروح الوطنية عند الروس ضد الغزو الألماني له نهاية الحرب العالمية الثانية، تلك الروح التي تضاربت مع الشيوعية إبان النصر وبعده، يقول "رسل": (أن الوطنية.... كاعتقاد عاطفي.... ظهر في انكلترا زمن "شكسبير"، وفي ألمانيا زمن

---

[1] برتراند رسل، السلطة والفرد، الهيئة المصرية للكتاب، عام 1994 م، ص 54.

"فخته".... وبقوتها سيطرت على السياسة والحرب والجماهير.... لكن الحقيقة التي يجب تقبلها بأن الوطنية فكرة جيدة للشعوب المقهورة – تحمل معها – أنه: بمجرد شعور هذه الشعوب بحريتها، تصبح القومية التي كانت بطولية بالسابق روحاً شريرة – تحجز شعبها –)[1].

كل هذا يدلنا على أن فهم أي أمر واعتباره واقعة "Fact"، لا يعني أنه كذلك، ما لم تثبت معقوليته تجريبياً، كما تؤكد المدرسة التجريبية المعاصرة منذ "رسل" وما قبله من التجريبيين.

فهل كيفية إثبات المعقولية لأي مفهوم – بناء على التجريبية – يعني ما اقترحته الفلسفة الايجابية "Positivism" في "فرنسا" وهي لا تخرج عن كونها فلسفة تجريبية باسم فرنسي: "Positive" نتيجة حب الإفرنسيين للتميز ليس إلا، أقول هل كيفية إثبات المعقولية يتم عندما نستمر بتحليل أي أمر – للبحث عن وقائعه "Facts"– حتى نصل الى العناصر الرئيسية التي تشكله في نهاية الأمر؟! حيث سنصل الى الوقائع البسيطة التي تشكله، كما ادعى "أوغست كونت" يقول: (إن كل مفكر موثوق به يوافق "بيكون Bacon " بأنه لا حقيقة حقيقية دون قاعدة من الوقائع القابلة للرصد "Facts")[2] لذلك يؤكد أن (كل معرفتنا بحاجة الى أن تؤسس على الملاحظة لننتقل أحياناً منها الى الوقائع "Facts"، نحو مبادئها البسيطة ولترجعنا ثانية الى الوقائع)[3]. وقال: إنه من الثابت أنه بعد دراسة الطبيعة التي تم النظر إليها بصورة عامة كخادم لأهدافٍ ذات أسس عقلية خلال فعلنا وتفاعلنا معها، على الفكر بعد ذلك أن يستمر في البحث عقلياً فيها)[4].

أما بالنسبة الى العلوم عامة فنجده يقول: (إن معرفة الحقيقة العلمية في سياقها التاريخي، ومعرفتها من خلال فعاليتها التاريخية، أمران يحددان حقلي

---

(1) Russell, In Praise of Idleness, Unwin Paperbacks, London 1984, P135.

(2) Auguste Comte, Introduction to Positive Philosophy, Hackett pub. company inc. Cambridge U.S.A 1988, P 4.

(3) Ibid, P 23.

(4) Ibid, P 40.

دراسة مختلفين)[1]، وبالنسبة للعلوم الإنسانية يقول: (فمن أجل الدراسة المحددة للظواهر الاجتماعية، يجب أن ننطلق من القوانين ذات الصلة بالحياة الفردية للأفراد)[2] في كل مجالاتها التي تتطلب (معرفة عامة بالفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا وعلوم الفضاء)[3]؟!.

وهذا يعني إننا إذا وصلنا بالتأمل التجريبي – إذا صح التعبير – الى الوقائع البسيطة لكل هذه المعارف "Facts"، سيطرنا على الطبيعة وبالتالي أمكننا بعد ذلك الخوض بالميتافيزياء!! أي أصبح كل مفهوم معقولاً؟! عندها يمكننا أن نتحدث عن المفارقات أيضا.

فهل هذا يعني أن كل المناهج التي تقود الى ذلك صحيحة فيما تؤكده مخطئة فيما تتنكر له، أم أن هذا المنهج الامبيريقي مغرق في التفاؤل بقدرة العقل الإنساني على جعل ما نفهمه عن الحياة معقولاً، وهو ما يسمح لنا بمعرفة مصيرنا فيها؟!

على هذا أجاب "برغسون" بالحدوس التي بها: (استمرار لدفعة واحدة توزعت بين اتجاهات مختلفة للتطور، وعلى ذلك لا بد أن يبقى شيء من الكل موجوداً في جميع الأجزاء)[4]، وبهذا حافظت الطبيعة على معقولية ضمن احتمالات فكرية متعددة و(عناصر كثيرة معقدة)[5]، تغير من ذاتها فور أبسط تغير في وسطها الذي تعيش فيه، فيدل هذا التغيير على احتمالات فكر لا نهائية لأصل معقولي واحد؟!

فالمعرفة العلمية نسبية بهذا المعنى، وكل ما نظنه وقائع ونستخرجه كوقائع "Facts" منها نسبي أيضاً، لكننا إذا اتبعنا أسس مذهبه – مذهب برغسون الصوفي – (سندرك الوجود بذاته وفي أعماقه بفضل ذلك التقدم المتزايد في العلم

---

(1) Ibid. P 48.

(2) Ibid. P 56.

(3) Ibid. P 62.

(4) هنري برغسون، التطور الخالق، دار طلاس، دمشق 1998 م، ص 36.

(5) المرجع السابق، ص 39.

والفلسفة)[1]، طالما كانت التساؤلات الفلسفية برأي "برغسون" امتداداً للعلم، على أن يدل (على مجموعة الحقائق المشاهدة والمبرهن عليها، لا على التفكير المدرسي.... الذي أنشأه "غاليليه".... حول فلسفة "أرسطو")[2]، بل امتداد العلم من خلال التساؤل عن المصير، او كما وضعه "برغسون" بقوله: (قلما اهتم الفلاسفة بفكرة العلوم بالرغم من أن هذه الفكرة هي في أغلب الأحيان لولب خفي ومحرك غير مرئي للتفكير الفلسفي.... وأنا أكاد لا ابدأ بالتفلسف حتى أسأل نفسي لم وجدت، فإذا قلت إن هناك تضامناً يربطني بسائر أجزاء العالم - ربما كما أوضح "كانط" - لم أعمل إلا على تأجيل حل المشكلة.... وإذا علقت وجود العالم على وجود مفارق يخلقه، فإن فكري لا يرتاح لهذا المبدأ إلا عدة لحظات.... إذ كيف ولماذا وجد هذا المبدأ، ولماذا رجحت القول بوجوده على العدم)[3]؟!

أما إذا علقت وجود العالم على وجودي شخصياً، فعلي أن أبحث عن واقعة "Facts" هو هل هذا الفهم - فهمي - للعالم، او فهم "برغسون" او سواه ممن استعرضناهم معقولاً؟!

مثل هذا السؤال هو في صلب المسألة الفلسفية الوجودية، بكل مداراتها حول مدى معقولية هذا التواجد - تواجدي وتواجدك - في هذا الوجود؟! وضمن هذا السؤال الذي تبجحت الهيغلية والماركسية بمعقولية الوجود حسب هوى كتابها، وضع "سارتر" - أطروحته -: "الوجود واللاشيئية"[4] - الذي ترجم الى العربية بالوجود والعدم -، ووضع "هيدغر" كتاب: "الوجود والتواجد"[5]، لمن أراد أن يميز بين السؤالين:

الأول: تعليق وجودي بالكونية او بالمفارق؟

---

(1) المرجع السابق، ص 84.

(2) هنري برغسون، التطور المبدع، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1981 م، ص 332.

(3) المرجع السابق، ص 248.

(4) Being and Nothingness, op. cit.

(5) Martin Heidegger, Existence and Being, Regnery / Gateway, Inc. Indiana 1979.

الثاني: تعليق وجود كل هذا بوجودي؟

مؤكداً فيه (فشلنا الدائم في كل مرة نحاول فيها تحويل اللاشيئية الى موضوع - بحث)[1] مما يثبت القول الإغريقي القديم: "لا تقولوا العدم فتجعلوه موجوداً" أي بمجرد قوله، فكل ما يمكننا قوله عن العدم إذاً أنه نفي تام سوف يواجهنا بالموت، لكن بمجرد أن أرجعناه الى حالة مفهومة غير معقولة هي الموت، أعلنا أننا سوف نواجهه، فهو ليس عدماً ما دام هناك من يواجِه ومن يواجَه؟!

فإذا قلنا إنه كان بنا قبل ولادتنا، أرجعنا أنفسنا الى وجود سابق زمنياً ومنطقياً لتواجدنا، (وهكذا يتخفى العدم بفعل الوجود)[2] اللغوي الذي ندل به عليه؟!

زد على ذلك ما قررته "الفينومينولوجيا Phenomenology" عبر أستاذ "هيدغر" "هوسرل Edmund Husserl" بأن: وجودنا ينحل في أي موضوع نتأمله فنشعر به دون أن نشعر بذواتنا، لذلك من الصعب البرهنة على وجود خارجي يقابله وجود داخلي، والأمر أمر تواجد للاثنين في وحدة واحدة، إذا نظرت تأملت ذاتك - استبطنتها - غاب العالم من حولك، وإذا تأملت أي موضوع حولك غابت ذاتك، غياب ذاتي فيما أكتبه الآن وذاتك فيما تقرأ؟!

فهل كل شيء ظاهرة "Phenomen" ونحن مجرد جزء من كل شيء حين نرقب الأشياء فيها؟! وأين الفكر بمعزل عن الأشياء، ونحن ندعي أننا به - كما قال "ديكارت"- نعرف ونؤكد وجودنا، او تواجدنا على الأقل؟!

أين المعقولية في كل هذا؟!

إن وجودنا ينحل في الأشياء حين نتأملها، وببعضنا حين التأمل التعاطفي، فهل هذا هو التواجد؟! وإذا غبنا عن كل تأمل - بالموت -، فهل ندخل في نمط وجودي آخر، لاستحالة العدم كما قرر "هيدغر"؟!

---

(1) Ibid, P 330.

(2) Ibid, P 334.

هذا يعني أننا غير منفصلين عن الوجود، رغم انفصالنا عن التواجد في كل تأمل موضوعي او غير موضوعي او تعاطف، أي أن الفكر يفصلنا عن التواجد، لكن بمعجزة وعينا لهذا الأمر تجعل منا كياناً وجودياً، لا كياناً متواجداً فقط، ومعرضاً للغياب عن تأملاته بكل لحظة بالموت!! لذلك قرر "هيدغر" في نهاية كتابه: الوجود والتواجد: (أن اللاشيئية التي ننحل بها حين ندرك الآخر خارجنا "Whatis" هي الحجاب الذي يلف التواجد)[1] عن الوجود، فإذا أردنا تحليل الوجود او التواجد علينا أن نحلل أنفسنا كما قرر "هيدغر"، فالمشكلة الأساسية في المعرفة هي في كشف حقيقة الوجود والتواجد، ولماذا توجد الأشياء والناس وتختفي؟!

و"هيدغر" في كتابه "التواجد والزمن" أراد أن يبحث بمدى وعينا لوجودنا من خلال انغماسنا بالموجودات، فالتواجد هو الزمن، وما الإنسان إلا صيغة زمنية، (فكل الدراسات الانطولوجية افترضت التواجد.... لا كمفهوم او كشيء نسعى له)[2] وما عبر عنه "هيدغر" بعبارة: "داسن Da-sein" تعني التواجد في الوجود ولا نشعر به إلا من خلال الترقب "Dread" وهو ليس خوفاً بل ترقباً لآتٍ بالزمن، أو من خلال الزمن الذي هو التواجد بآن واحد، وهما يفرضان علينا خياراتنا بغرضٍ فرضٍ واحد، لذلك نواجه المجهول دوماً بهذا الفرض الذي نسميه حرية، دون أي ثقة بالنتائج.

ولا بأي معنى معقول لحياتنا القابلة لهذا الفهم او سواه سواء، لكن الذي سيواجهه كل إنسان هو غياب معقولية هذا الوجود بعقلنا، او معناه وكل معقولية او معنى للحياة – حياتنا – نحن نعطيه إياها، من خلال خياراتنا التي لا ضامن لها بأن توصلنا الى ما نصبو إليه من مصير، فإذا لم نستطع إلى الآن أن نثبت "إمبيريقياً" وجود كائنات أخرى مثلنا في هذا الكون الذي يعطينا كل الدلالات على أننا وحيدون فيه، كذلك كل إنسان بغلاف الزمن الموجود فيه – تواجده – وحيد

---

(1) Ibid, P 360.

(2) Being and Time, op. cit. P 27.

رغم كل هذه الملايين المحيطة به، ان هو لم يتأمل أحدها؟! او شيئاً من الأشياء حوله لينحل فيه؟!

ينتج مما قاله "هيدغر" أن: الزمن هو الوجود ونحن نقضيهما معاً من خلال انحلالات لا نهائية بما حولنا ومن حولنا "داسن Da-sein"، إذا فهمناه ندرك معنى الترقب "Dread"، الذي هو نتيجة حريتنا في الاختيار وقلقنا من نتائج ما نختاره، لان خياراتنا هي التي تحدد مفترقات الطرق القادمة التي تفرض علينا اجباراتها، دون أي ضامن لأي هدف او غاية، وبذلك يجد الإنسان نفسه متروكاً بزمن هو وجوده الذي لم يختره، وأمامه مفترقات طرق متشعبة تحددها خياراته اللاقصدية لها، فمن التواجد الذي يجب تحليله نجد أنفسنا، كي نفهم الوجود بكل لامعقوليته ككائن يتعرف على ما حوله لا على نفسه، فأنا موجود وما حولي يتحول الى ظواهر تربطني بما قد لا أريد.

ولعل كل هذا هو ما حصل مع "هيدغر" نفسه بعد أن دمر انتماؤه للنازية سمعته الفلسفية الأكاديمية، ولذلك علينا أن لا نقرأ أي فلسفة بمعزل عن سيرة حياة الفيلسوف، فبها قوتها وبها ضعفها؟!

يقول "رسل": (عندما أعدمت حكومة القيصر آخا "لينين"، لم يتحول "لينين" بسبب ذلك الى "الكلبية" – أي ترك الدنيا –، وطالما أن الحقد ألهم – ألهب – كل نشاطاته بحياته كلها، التي انتهت أخيراً بنجاحه، لكن بدول غربية أخرى متماسكة، نادراً ما يوجد مثل هذا السبب للحقد!!)[1]، لكن يمكن للقارئ أن يجده بالتمييز الغربي والعرقية او التصحيفات التي تعرض لها "هيدغر" بسبب خياراته النازية، التي ألهمت وجوديته بعد زوالها وأثناء سلطتها!!

وهذا يعني أنه إذا كان الإنسان هو المسؤول عن وجوده، فهو أيضاً مسؤول عن فلسفته؛ التي يمكن أن يستغرق بها الآخرين، فتتدخل بصلب تواجدهم، دون أن

---

(1) In Praise of Idleness, op. cit, P 138.

يعرفوا خلفياتها الفكرية والحياتية – التي صنعتها –، فالموضوعية في عدم مثل هذا الاستغراق ذي الطابع الإيديولوجي الذي أسميه: "دوغمائياً".

فعلى الإنسان حسب الفلسفة الوجودية "الهيدغرية" أن يحدد قدر الإمكان استغراقات تأملاته، والأمور التي يريد أن يتأملها لينفق زمانه أي تواجده بها، لا أن يكون ضحية توجيهات الآخرين نحو تواجدهم الذي به حددوا وجودهم، أعني مصيرهم.

كخطأ وقع به "هيدغر" عند تبنيه للنازية، وأعلنه بفلسفته بعد ذلك بصيغة عمومية، صارت ركيزة من ركائز الوجودية.

لا بد إذاً من الإقرار بأن الموضوعية ذاتية في أساسها، وبينهما توالد لا ثنائية، حتى "هتلر" إدعى أن لديه مفهوماً للفلسفة ذا طباع معقولي إذ بدل أن يحارب العصبية والعقائدية اليهودية التي تفرض سيطرتها على الغرب المؤسساتي لا العشائري، ذهب يستعير نفس ميكانيزمات العصبية ليطبقها على إطار قومي جرماني يقول: (كيف يرجى من الأحزاب البرجوازية وأحزاب اليسار أن تقاوم الذين يوجهونها.... فالماركسية التي تسعى الى فرض سيطرة اليهود العالمية بدأت عملها بالنقد – و – .... قد يعترض معترض بقوله: ان التعصب والأنانية عالقان باليهود، وأنه ليس جديراً بنا أن نحذو حذوهم، وأن نستعمل نفس سلاحهم، ولكن مع أن الاعتراض صحيح؟ يجب علينا أن نحارب العقيدة القائمة على التعصب والأنانية بنفس الطرق والأسلحة التي تستعملها؟)[1]؟.

وخطر مثل هذا الكلام على صاحبه هو بالتعمق قليلاً بمصير هذا الجهل المرتبط بالقوة والسيطرة، فمن يتأملها وينحل بها قناعةً، يهجرها فور فشل صاحبها في تحقيقها مهما أضفى صاحبها عليها من ذاته، ما يسمى "بالكاريزماتية" الذاتية، التي تجذب الناس بعد تأملها الى تقمصها نفسياً، أي إرجاع أنفسهم له لأنه يتمتع بقدرة جاذبية مع سلطة "Prestige" .

---

[1] أدلوف هتلر، كفاحي، شركة علاء الدين، بيروت، ص 156-157.

وهذا يعني انه بمجرد فشل صاحب هذه الأقوال او ضياع سلطته لا تبقى أقواله محترمة من أتباعه، وهذا ما حصل مع "هتلر"، حيث انقلبت ألمانيا على كل ما كانت توافقه عليه، فور سقوطه عسكرياً وهزيمته، لكن فلسفة "هيدغر" بقيت رغم سقوط مركزه الاجتماعي بسقوط النازية، لأنها خلافاً لما ادعاه "هتلر" هي فلسفة لا مجرد رأي بهلواني – ارجع الي ما قلناه عن البهلوانيات الفلسفية – بقلب الجرائم العصبية العشائرية اليهودية لتصبح جرائم قومية نازية.

بينما أهمية الوجودية مع "هيدغر" في لفتها النظر الى الذاتية وخطر الإستغراقات التأملية بالذاتيات الطاغية، إضافة الى صلة الفهم الذاتي بالمعقولية والموضوعية، ناهيك عن صلة الزمن بالتواجد بلمحة واحدة تبدو في كل تأمل، أياً ما كان موضوعه فالتأمل الإستغراقي بأي شيء او آخر يشترط أن يكون منسجماً مع الوقائع "Facts"، وبمثل هذا التأمل ينحل الزمن الى تواجد لا بد من نجاحه، وهذا ما أيده "رسل" رغم هزئه بالوجودية، يقول: (ان الاعتقاد المنسجم مع الوقائع "facts" مرشح للنجاح)[1]، ولهذا نجحت الفلسفات الكبرى في التاريخ كالرواقية، التي أذكر القارئ بأهم كتبها الذي سبق لنا استعراض بعضٍ منه وهو "Marcus Aurelius, Meditations" أي التأملات؟!

فالذي يميز الفلسفة التي ترسخ، من البهلوانيات الفلسفية، هو: رسوخ الوقائع "Facts" التي كشفتها في بنية الفكر الإنساني، وتداول هذه الوقائع زمناً طويلاً بعد من قال بها من الفلاسفة، ودخولها في بنية اللغة والتقاليد الإنسانية، فمن منا يقول اليوم بأن جرائم اليهود في فلسطين تختلف عن جرائم "هتلر" بالأقليات في ألمانيا والبلاد التي كانت تحت سيطرته، فإدانتهم بطريقتهم حسب ما قررت النازية ليس فيها فلسفة ولا ما يحزنون بينما نجد أنفسنا نستعمل مصطلحات أفلاطون بالمثالية والمثل الى اليوم، وأرسطو بالمنطق والأخلاق والميتافيزياء، ولا نستعمل مصطلحات "الهولوكوست" إلا للدلالة على أن الجريمة يهودية كانت ام نازية، ففي

---

(1) Bertrand Russell. Power. Routledge. London 2004. 121.

بنية اللغة والتقاليد تدخل المصطلحات الفلسفية لكل فلسفة جيدة، فقد غيرت مصطلحات "فرويد" في علم النفس مثلاً الكثير من كيفية التعابير عن: كل لا سواء وسواء نفسي بأي حديث، كذلك دخلت مفاهيم النسبية ببنية كل اللغات، وهذا دلالة لا ريب فيها أن الفلسفة تحدد صورة العصر الذي هي فيه إذا كانت حقيقية، وتؤثر فيما يليه من عصور وحضارات، ناهيك عن أن تأملك بمعناه "الهدغري" للفلاسفة الكبار من خلال أعمالهم (يدفعنا الى أن نعيد التماس مع فكرهم)[1] فنراهم أمامنا أو حتى يصير وجودنا رهن أرَقِ معضلاتهم المصيرية.

يقول "جاسبر" (وثمة سمة تميز العقل الفلسفي العظيم وهي أن هذا العقل لا يطلب مريدين)[2] لأنه موجه لبنية وجود كل متأمل فيه، للإنسانية كلها.

هكذا تفرض مصطلحات "هيدغر" على كل قلم يطلع عليها حيزاً في بيانه، فهو واضع فلسفة بالمعنى الصحيح، بكشفه لوقائع ميتافيزيائية "facts" لا يستطيع العقل الإنساني تجنبها من بعده، تماماً كالوقائع الفيزيائية التي نوهنا الى كشف "فرويد" و"انشتين" لها في علم النفس والفيزياء[*].

الفلسفة الحقيقية هي هذا، وقد أطلق عليها "جاسبر" صفة العظمة التي ينفي عنها أي صفة لا إنسانية يقول: (فلم يسمح العظماء أبداً، حتى يسوع ذاته، بالتأليه)[3] سواء جرى التأليه في حياته او بعده لأن (المؤله ينقل الى طراز وجود مغاير.... مموهاً)[4].

المهم عند الفيلسوف حق استعمال أفكاره ضمن كل تواجد فكري لآخر، كي تساعده على بناء رؤية أفضل لمصيره، والمهم ظهور الوقائع الميتافيزيائية الى

---

(1) كارل جاسبر، عظمة الفلسفة، منشورات عويدات، بيروت 1988 م، ص 39.

(2) المرجع السابق، ص 38.

(*) وإعادة النظر الدائمة في وقائعهما دلالة على ما اشرنا إليه سابقاً بأن الفكر الغربي سواء في فلسفة العلوم او في العلم بذاته فكر حركي، لا يركن للسكونية الإيديولوجية كما في الفكر الشرقي عامة، وهذا هو أساس التقدم الفلسفي والعلمي منذ الإغريق عندهم، بينما تجد تقديس الإيديولوجيات في ركود الفكر الشرقي، ومحاربته للفلسفة منذ كانت.

(3) المرجع السابق، ص 53.

(4) المرجع السابق، ص 53 أيضاً.

حيز الحقائق عند الفيلسوف، أهمية الحقائق الفيزيائية عند العالم، والجمالية عند الفنان، والإلهية عند المتدين.

فليس المهم رجل الدين إزاء الحقائق الإلهية التي يبرزها، ولا المهم شهرة الفنان حين يقدم جماليات تعطى للوجود معنى غائباً بدونها، وليس المهم أن يفيد العالم من التقنية او الفيلسوف من خلود اسميهما على كل شفة، بل المهم فتح آفاق الإنسان بالوقائع المكتشفة لإضاءة مسيره نحو المصير، لأن (العظام الحقيقيون وضعوا في جميع العصور.... علاقاتهم على مستوى.... الإنسانية المجردة)[1].

العظمة وفي مجال الفكر بالفلسفة الحقيقية التي لا تنشد أي تبجيل، فمن يطلب العظمة صغير بكل معانيها، والأسوأ من هذا من يضفي ألقاب القداسة على مخلوق مثله، فما بال من أساء لأفلاطون بكلمة الإلهي، ولأرسطو بعبارة صل الله عليه او عليه السلام في الباطنية الإسلامية.

فإذا كان هذا صعباً على الفهم لأن الطفولة الإنسانية بحاثة عن التقدير، فعظمة وجودية "هيدغر" مثلاً في إيضاح أنك تحقق تواجدك بما وبمن تتأمل، فعليك أن تقرأ العظيم لا أن تعبده، لأنك لو عبدته لضاع منك التواجد؟! وربما في كل الوجود؟! فأن ينخرط الناس بالتواجد من أجل الوجود يعني تأمل بعضهم أفكار بعضهم الآخر، ولا قيمة لأي تواصل خارج هذا، حتى مع الجنس الآخر فلا غرام بدون تعشق يتداخل فيه فكران قبل تداخل جسديهما، وبتداخلهما يتحقق تواجدهما في الوجود واستمرارهما بالإنجاب – بين الجنسين – بالبنين، وبين الرجال بالأفكار التي تسنجب ما وصفه الرسول صل الله عليه وسلم بما هو أحب عند الله من حُمْرِ النَّعَم[2].

فالعقل الفلسفي.... يقف موقف من يفحص كل شيء، مستنداً الى الفكر، لذلك حين تتصل الفلسفة (مع العلم هي أكثر من العلم)[3]، وفي تاريخها نجد أن

---

[1] المرجع السابق، ص 54.

[2] انظر كتابنا، بين الإرادة والإنجاب، دار مجلة الثقافة، دمشق 1992 م، ولماذا أهديته الى الشهيد فادي رحمه الله.

[3] عظمة الفلسفة، مرجع سابق، ص 64.

(أكثر من فيلسوف يستند الى الأساطير وهو يكافح الأسطوري – ونجد أن.... الشاعر ما أن يقدم أفكاراً حتى يغدو فيلسوفاً)[1]، وقلة من الشعراء تسير بهذا الدرب، لأن المشاعر تغلب فكرهم!! وإليك مثالاً من أفضلهم بالشعر العربي:

قال المتنبي:

ولـو أن الحيـاة تبقـى لحـي   لعـددنـا أضلّنـا الشجعـانـا

وقال: "طه حسين" (ان حياة المتنبي.... سلسلة متصلة من بذل هذه الكبرياء، للسادة والقادة والأمراء، ثم البكاء عليها بعد بذلها)[2].

أما "المعري" فيلسوف الشعراء العرب كما يحلو للبعض قول هذا، فهو في حياته أسوأ من "المتنبي"، في بذله لقيم دينه ثم نكران ذلك والتبري منه، على ظن أن هذه هي الحكمة، يقول:

وبـدل ظـاهر الإسـلام رهـطٌ   أرادوا الطعـن فيه وشذبـوه
ويذكـر أن فـي الأيـام يومـاً   يقـوم من التـراب مغيبـوه
وهل من وقتهم أبغـى وأطغـى   علـى أي المـذاهـب قلبـوه
رجوا أن لا تُجيـبَ لهم دُعـاةٌ   وكـم سـأل الفقيـر فخيبـوه
إذا أصحـاب ديـن أحكمـوه   أذلـوا مـا سـواه وعيبـوه
حسبتـم يـا بنـي حـواء شيئاً   فجـاءكم الـذي لـم تحسبوه[3].

وقال:

أما الحجاز فما يرجى المقام به   لأنه بالحرار(*) الخمسِ محتجـز
والشام فيه وقودُ الحرب مشتعلٌ   يُشبّهُ القومُ شُدتْ منهم الحجز(**)

---

[1] المرجع السابق، ص 63.
[2] طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف بمصر، ط 9، ص 127.
[3] أبو العلاء المعري، لزوم ما لا يلزم، دار صادر، ج2، ص 601-605.
(*) ارض بركانية.
(**) الزنانير التي تشد للقتال. كناية عن أن الذي يوقد الحرب مع كل صاحب نطاق بالشام.

وبالعـــراق وميضٌ يَستَهِلُ دماً وراعـــدٌ بلقـــاء الشر يرتجـــز[1]

وقال:

ضلت يهود، وإنمـــا توراتهـــا كـــذب من العلـــماء والأحبـــارِ

وإذا غلبت منـــاضلاً عن دينه ألقـــى مقالـــدَهُ الـــى الأخبـــار

لذلك:

ومن العجـــائب أنني عانٍ بها أرجـــو المنيـــةَ أن تفـــك إساري

وأخيرا يختم كل فلسفته الشعرية بعد أن أطلق فيها كل محتجزات مشاعره، ليغلب عليه رشد الإسلام يقول:

أعاذلَتي إرتجزت على المنايا أومـــلُ أن يُشجعنـــي ارتجـــازي

وليس على الحقائق كل قولي ولكـــن فيـــه أصنـــاف المجازِ[2]

وهكذا ما يسمى بفلسفة الشعر مهما كان الشعر غنياً بالفكر: لا يقوم على الحقائق، بل على التلاعب بالمجازات – أصناف المجاز – هدفه الإبهار والطرب والإعجاب بتراقص الكلمات، والشاعر الجيد كابي العلاء يفضح كل هذا قبل أن يفضحه سواه، وبذلك له فضل جانب من الحكمة، وهو: الصدق فقط في مشاعره وفضح أساليبه، وهذا لا يوصله – او سواه من الشعراء – الى حب الحكمة والسير بدربها الشاق، لأنه في جانب الهيام بمشاعره فقط، وهي جزء من كلٍ اسمه الفلسفة، وليست كل التفلسف.

إن الفلسفة كما يقول "جاسبر" (فاعلية عقلية تنفصل عن الأسطورة، عن الشكل المصور، عن الرسالة، عن الموسيقى، عن الإيقاع، وتريد أن تستند الى

---

[1] المرجع السابق، ج1، ص 622.

[2] المرجع السابق، ص 630.

الفكر)[1] فقط، لأن الفكر ينجب كل المعارف ولا توجد معرفة إنسانية إلا وفيها فكر، غير أن الفلسفة كلها فكر، حتى تُمَيِزُ فيه بين الفهم والمعقولية؟!

فأن تنشد الفكر لا يعني انك تسعى الى المعقولية في الوجود، بل يعني أنك تريد أن تعرف مدى معقوليته، او على الأقل مدى معقولية هذا التواجد عبر تحري الوقائع الميتافيزيائية فيهما، وحين يساعد العلم الفلسفة بالوقائع الفيزيقية تُمَنّهِجُ الفلسفة "الأبستيمولوجية" منطقه أي منطق العلم، لتنطلق نحو ما يمكن أن يساعدها منه في الميتافيزياء.

ومن كل هذا الاتجاه بالفلسفة التي لم تقتنع بالسذاجات اليقينية لما سمي بالمادية – ديالكتيكية كانت أم تحليلية –، تلك السذاجات التي أدت الى يقينية إيديولوجية غاشمة، راحت تودي بحياة من يعارضها بالماركسية المتسلطة على الدول الاشتراكية!! او بالتفتيشية الدينية، أقول: من كل هذا الاتجاه الذي أثبت حدود معقولية الفهم ومداه، برزت الفلسفة الوجودية بين ثلاث تجاذبات: "هيدغر" من جهة و"جاسبر" من أخرى و"سارتر" من ثالثة، – خلافاً لما تعارف عليه مؤرخو الفلسفة بتقسيم الوجودية الى: "إلحادية ومؤمنة" – وكل هؤلاء يدين الى "نيتشه" في صراعه مع المألوفات بالفهم والقيم، والمعقول منها على أنه مشكوك بمعقوليته!!

على أن لا ننسى "البنيوية" التي رافقت هذه المعركة مع الماركسية ومن صلبها، إضافة الى "التحولية الأبستيمولوجية" مع "كارل بوبر"، في تقريره الهام حول الترجيحية الأبستيمولوجية – المعرفية "Epistemological Plausibility"، التي أكد فيها أن المعرفة اليقينية حول نتائج الوقائع "Facts"، هي في نهاية مطافها معرفة ترجيحية ليس إلا، لوجود أعراض جانبية بهـا قد تكون أخطر من كل الحلول التي يقدمها اليقين المعـرفي، فكتب كتابه في نقد الماركسية: بؤس "الإيديولوجيا"[2].

---

[1] عظمة الفلسفة، مرجع سابق، ص 64.

[2] كارل بوبر، بؤس الإيديولوجيا، دار الساقي، بيروت 1992 م.

هكذا برزت مصائب الفكر الإيديولوجي الماركسي عياناً واضحاً للفلسفات التي تابعته، إضافة الى رفض "البرغماتية" الأمريكية له، وضربه في عقر داره بالعولمة المتآزرة مع "النفعية" الانكليزية "Utilitarianism".

ولسارتر الفضل في كونه من أوائل من شن هذه المعركة الفكرية عبر الطابع الوجودي الذي تفرد به انفصاله عن الماركسية، مدعياً أن الوجودية ليست مجرد تفكير في الوجود ضمن الفلسفة، بل هي: "مذهب إنساني"[1]، فلم يخرج بهذا عن تقليعة القرن العشرين في صناعة المذاهب والتنافس بينها؟!

ويرى المرحوم "كمال الحاج" في مقدمته لهذا الكتاب – السابق ذكره أي "الوجودية مذهب إنساني" –، أن الوجودية هي ارتداد على الفكر الجوهري القديم الذي تغيب فيه الفردية ليحل محلها التجريد العام، حيث الكرم لا هذا الكريم او ذاك، والأنوثة لا هذه الأنثى او تلك[2]، والحق لا حَقي" او حقك، ومثال الطاولة لا هذه الطاولة التي اكتب عليها او تلك التي أمامي فوقها فناجين القهوة.

وبذلك لا يعود من قيمة إلا للعموميات التي انطلقت منها الكثير من الفلسفات سواء تجريبية كانت أم عقلية مثالية، وبالأخص تلك التي ألغت النظر بالفردية، ولم تقم لها أي وزنٍ كالماركسية!!

فأنا أنتمي الى ماهيات ذات جواهر مختلفة "Quiddity" كوني أنتمي الى الرجولة كذكر، والى الإسلام كدين، والى العربية كلغة والى العصر الذي أعيش فيه والبلد الذي أنا منه.... التي تحدد ظاهر هويتي، لكن نومن هذه الهوية – روحها ان شئت – فريدة، وفرادتها تسبق وجودها سبقاً منطقياً لا زمنياً فقط، لأن نومن جوهر ذاتي – هويتي – لم يسبق له أن كان ولن يكون مثله مثيل بعد موتي، بكل التعابير النظرية والعملية والعلمية، وهو ما يقابل "الكويدتي quidditiy" في الفلسفة بعبارة: "Hacceity"[*] المأخوذة من عبارة "الخاصية" العربية الأصل، وهذه

---

[1] جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1983 م.

[2] المرجع السابق، ص 9.

[*] الماهية "Quiddity" والخاصية "Hacceity" مصطلحان سنيويان – نسبة الى ابن سينا – أول من لاحظ اشكاليتهما الفلسفية، وقد ترجمت الماهية الى اللاتينية بعبارة: "كويدتي"، بينمـــا اســـتحالت

الخاصية في كل الأنواع هي التي تحدد فرديتها بمعنى فرادة خاصيتها إذا جاز القول تجاوزاً، وهذه الخاصية – الفردية – واقعة "Facts" لا يمكن تجاوزها، وان كانت الماهية واقعة "Facts" لا يمكن تجاوزها أيضاً، لذلك قال "نيتشه" مؤسس الوجودية: (الوجود لا يمكن اعتباره ذاتياً ولا هو موضوعي – ماهوي – إنه خليط من أحداث متداخلة.... فالحركة والسكون ليسا فيه بشكل مستقل)[1] أي عن المتحرك والساكن رغم تجريدنا لماهيتهما كي نعرفهما، بعبارة "أنا أفكر إذاً أنا موجود" – الديكارتية – التي تعني بهذا المقام: أن لدي حاسة داخلية كما لدى كل الناس – مثالياً – هي الفكر المتأثر بحواسي الخارجية التي تلمس الموجودات – تجريبياً –، والتي تنقلها مشاعري فأريد أن أكون جزءاً من "كينونيتها"، فأدعي أنني موجود لأن عندي هذه الرغبة بالتوحد مع الأشياء، التي كان الإغريق يسمونها "ايروس" "Eros" ، فأين وجودي الحقيقي؟!

هل هو بماهيتي أن بفرادتي – خاصيتي – أم بتواصل حواسي مع العالم الخارجي الذي تنجذب إليه رغباتي "الإيروسية"، فأظن أنني خاصية فردية موجودة؟!

هل الفردية كالماهية وهمان، لواقعة بمعزل عنهما هي: الوجود، أم هما بحد ذاتهما ما نسميه وجوداً وهو تواجد آني؟!

أليس هذا ما قصده "هيدغر" بأن الزمن هو الوجود فقط ولا شيء سواه، أي الحركة لا الفكر هي التي تدل على الوجود، وبتوقفها يتوقف كل شيء؟![2] فعند السادي الألم – المشاعر – يدل على الوجود، وعند الاقتصادي الشره وجمع المال يدل على الوجود، وعند الفنان المشاعر الجميلة تدل على الوجود، وفقط عند المفكر الفكر يدل على الوجود، بينما الوجود لا يهتم بكل خاصيات – فرديات – كل هؤلاء، لأنه الزمن عبر الحركة.

ترجمة الخاصية لتداخلها مع الفردية فابقوا على لفظها الأصلي العربي، واستعمل أنا "الفرديـــة" بهذه المعاني تجاوزا؟!

(1) The Will to Power, op. cit, P 298.

(2) Being and Time, op. cit.

ولأن الزمن هو الوجود نشعر دوماً بالقلق والترقب من كل ما قد يأتينا منه، وهذا الترقب عند "هيدغر" من تواجدنا بالزمن "Da-Sein" نشعر به "Dread" كترقب دائم، ضخمه "سارتر" بالغثيان "La Nausée" .

ينتج من هذا:

- أن التواجد فردي بالخاصية لا بالماهيات العمومية(*).

- ويلف كل فردية – خاصية فرد – الزمن أي الوجود، فبه تتحرك هذه الفردية بمعزل عن أي مؤثر آخر، فهي حرة بهذا الإطار الوجودي حرية مطلقة.

- الخاصية – الفردية – إذا قبل كل ماهية عمومية تأتي لتوضح لها – لتخدمها – بعمومياتها كي تفهم لا كي توجد، فالفردية قبل كل ما هو موجود – قبلية منطقية – يؤكدها التواجد الزمني.

- الفردية قابلة لأن تفهم العموميات والماهيات، غير قابلة للدخول بأكثر من الظواهر – كما أكد "هوسرل" – أي غير قادرة على فهم الأشياء بذاتها "النومن" – فالفردية ظاهرياتية تؤول الوجود كما تريد لأنها عاجزة عن معقلته، وهذا معنى أن الوجود قابل للفهم لكنه غير معقول!!

- فالوجود مفهوم بمعنى مدرك لكنه غير معقول، مما يعني استحالة اليقين!!

- ولأن فلسفات الماهية لا تهتم إلا بالعموميات للحالات النفسية فيها، لذلك لا نجد – في الفلسفات الجوهرية – الماهوية الباحثة في الماهيات – جانباً عاطفياً، خلافاً للوجودية حيث للمشاعر الدور الأكبر في كل ذات فردية – فيها العقل والرغبات–.

لذلك قال "سارتر" عن فلسفته إنها فلسفة إنسانية وقام بتأسيس علم النفس الوجودي كفرع من فلسفته، وبناء عليها!؟ وذلك بالتركيز على العلاج النفسي القائم على توعية "الحالة Client " بمعاني الإيمان الرديء، ولفت نظرها إلى المشاعر الداخلية "Inner Emotions" والقيم التي تتنصل من المسؤولية.

(*) فالوجود قبل الماهية حسب "سارتر"؟!

ففي عام "1947" صدر لسارتر كتاب يضم مجموعة مقالات وحوارات تحت عنوان "الوجودية مذهب إنساني Existentialisme is a Humanisme " – الذي أشرنا إليه سابقاً –، أوضح فيه "سارتر" اتجاه فلسفته واتجاهه في علم النفس هذا.

يقول حول أساس مذهبه إنه يقوم على أساس أن مجمل الطرق والتعليمات التي تحدد إنتاج أي منتج – جوهره – تسبق صنعه، فجوهر هذا الكتاب الذي أكتبه الآن سابق لوجوده ككتاب، ففكرة أن (الجوهر يسبق الوجود نجدها تقريباً عند جميع الفلاسفة)[1]، فما معنى أن الوجود يسبق الجوهر – الفكرة المجردة عنه –؟!

يجيب "سارتر" يعني أن لا مصور للإنسان – لا أحد صوره – أي لا صانع لجوهر الإنسان، فهو سابق في وجوده لكل فكرة تخرج منه، بما فيها فكرة إله صنعه.

فإنكار وجود الصانع يستتبع أن الإنسان يعيش بذاته ولذاته[2]، "In it-self" فهو مسؤول عن ذاته لأن أحداً لم يصنعه ليكون مسؤولاً عنه، لأنه حين يختار ما يجب أن يكون عليه، كأنه يريد من الكل أن يفعل فعله (فإذا اخترت نفسي فإنما أختار الإنسان)[3].

وهذا يعني أن الإنسان متروك فعليه أن يتحمل خياراته، وهذه أفكار محزنة لا يمكن الخلاص منها إلا بالإيمان بالخالق[*] لكن مفهوم الخالق عند سارتر: "مطلق"، أي (أن نعتقد بوجود كائن موجود قبل أن يُعرف من ضمن أي فكرة مجردة او وهم)[4]، والبحث في المطلقات ارتداد الى الفكر الجوهري الذي يلغي أساس الفردية في كل الكون، أي الخاصية التي يمكن تصور الله بها، وهذا ما

---

[1] الوجودية مذهب إنساني، مرجع سابق، ص 43.

[2] المرجع السابق، ص 45.

[3] المرجع السابق، ص 48.

[*] نجد هذا الاضطراب نفسه في مفهوم حدوث القران الذي قالت به "المعتزلة" لكي تؤكد حرية الإنسان في ما فرضته حتى على خالقها من قول؟!

[4] المرجع السابق، ص 44.

يسميه "سارتر" بالإيمان السيئ – الرديء – "Bad Faith"، ويبرز في كل مرة ننكر فيها مسؤوليتنا عن عملنا، ونرجع الأمر الى الله؟!

ومن هذا الإلحاد المبني على استحالة وجود الله انطلق "سارتر" في قياساته الأدبية والفلسفية، ضد كل الفكر الغربي المسيحي المبني على وجود الله من البراهين – الإثباتات – التي قال بها ذلك الفكر، كالإثبات الأنطولوجي والكوزمولوجي والسببي.... الخ .

وهو محق باستحالة وجود من خلق الوجود، لأن الله كخالق لا يمكنه أن ينضوي ضمن ما خلق – وهو أمر ناقشته سابقاً – فالله حسب المفهوم الإسلامي خالق الوجود واللاوجود – والعدم ان شئت –، هو تعالى خالق كل شيء فهو ليس في خلقه، فهو غير موجود؟ لكن هذا لا يعني إلا أنه فوق الوجود والعدم وحاملهما على البروز او اللاشيئية، والمتحكم بهما.

فالإيمان الردئ إذاً بظن وجود الله كأي موجود آخر، لكنه مطلق وقابل للتجسد كما يظن الغرب، ومن هنا تبرز صحة وخطأ قاعدة الوجودية السارترية بإنكار وجود الله، لأن الله ما وراء الوجود والعدم – اللاشيئية – وهو أي سارتر المدعي الفلسفة الخبير بمعنى الماورائيات، وقد أنتج من خطأه الوجودية "السارترية" هذه في جملة قياسات، قامت على باطل إنكار الخالق بسبب وجوده تعالى، نذكر منها:

– قاعدة فكرة الخالق عنده مسيحية تجسدية تحتاج الى فحص مفهوم هذا التواجد المتجسد بالمسيح الذي يدعونه على انه الله على الأرض، ومن هنا يمكنني القول بصحة النقد الوجودي للإيمان الرديء هذا، لكن هذا لا يعني أبداً مفهوم الله المتعالي الإسلامي، بحمله تعالى للوجود والعدم وخلقه لهما دون انضوائه تعالى بأي منهما، فالله ليس كائناً أولاً وأخيراً كي يسبق الوجود عنده الجوهر إلا بالمسيحية (الله ليس موجوداً.... قبل أن يعرف ضمن أي فكرة مجردة او وهم)[1]

---

[1] المرجع السابق، ص 44.

كما ادعى "سارتر" متأثراً بمفهوم المسيحية عن تواجد الله غير المعقول في التجسد، وهذا طبعاً إيمان رديء بكل المعايير.

وبناء على هذه الواقعة التي تنطبق على المسيحية في أيديولوجيتها الدوغمائية، انطلقت كل قياسات "سارتر" واستنتاجاته فيما اعتبره أنسنة فلسفية.

فإذا كان لا يوجد مرجعية للإنسان، فلا يبقى أمامه سوى أن تكون ذاته وحدها مرجعه، وتوغُّلُ "سارتر" بالذاتية هذه قرّبه من علم النفس من جهة؛ ومن جهة أخرى وضع أسس فلسفته عليها في ثلاثينيات القرن الماضي، التي عاد الى تجنبها بعد نهاية الحرب الثانية، ليتبنى فردانية اجتماعية، خاصة بعد أن كتب نقده للفكر الديالكتيكي[1]، وهذا لا يعني تخليه عن الفكرة الوجودية الأساسية منذ "نيتشه" – و – كيركغارد" في (كون الوجود قابلاً للفهم ولكن هذا لا يعني أبداً أنه معقول)[2]، لأن (مجرد الدخول بلا شيئيته – بالموت – ننفصل عنه الى الأبد)[3].

وأساس الإيمان السيئ – الردئ – هو الظن بعودة ما الى هذا التواجد، ولعل الإسلام لم يقل هذا أبداً لا بالتقمص ولا بالتناسخ ولا بإيديولوجيات الحياة في السماء، بل باللامنظور الذي نقل وصفه عن الرسول صل الله عليه وسلم ابن عباس بقوله: (ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء)[4] وذكر ابن حنبل في مسنده (أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب أحد)[5].

فاللاشيئية حين تخرج من هذا التواجد لا تعني الخروج من صيغ أخرى للوجود، تماماً كما لا يعني الخروج من الجاذبية الأرضية دخولك في عوامل جذب او طرد أخرى، فالكون الذي نعبر عنه بالوجود اكبر من تصوراتنا ومعارفنا عن الارض الهامشية فيه، التي نعيش فيها ووقائعها "Facts" التي نظنها وقائع كل

---

(1) Truth and Existence, op. cit. P XXXI.

(2) Ibid, P 16.

(3) Ibid, P 29.

(4) مسند الإمام احمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ج 6، ص 106.

(5) المرجع السابق.

تواجد آخر، ولولا هذه النظرة الى الكون لاكتفى العلم بقوانين "نيوتن" على أنها تنطبق على كل الكون، ولما حصل أي تفريق بين نسق وآخر "Symmetry" من العالم المنظور والعالم المجهري والعالم تحت المجهري، مثل: "Quarks" الذي منه تتشكل بنية كل ألكترون وبروتون مجهري، والكوارك هذا أصغر كثيراً من أي موجة ضوء، لذلك لا شكل له ولا لون، وكل بروتون وألكترون مصنوع من ثلاثة كوارك(1)، فهل يوجد خلف هذا النسق أنساق أخرى تشكل المادة(*)؟ وهل هذا يوصلنا الى الأوتار الموجية لنظريات الكوانتيوم "Quantum"، القائلة بأن كل الجزئيات هي في الواقع موجات؟ (ونحن نعلم أن الجزئيات التي كنا نظنها أساس المادة قبل عشرين سنة، مصنوعة من جزئيات أصغر)(2) وكأننا – بمعزل عن أي تنظير – نتحرك من نسق الى آخر الى ما لا نهاية؟!

الصحيح عند "سارتر" أن لا مرجعية إلا الى أنفسنا – كمجموع كما عدلها بعد الحرب – والخطأ هي نتيجته الى وصل إليها من هذا والتي بناها على واقعة مشاهدة في عالم "الماكرو Macro " المرئي، أن الدخول بالموت يفصلنا عن الوجود الى الأبد، وكان حرياً به أن لا يكون وثوقياً جداً من اللامرئي الذي سنجابهه بالموت، على الأقل "كلاوثوقية" الفيزياء الحديثة في نسقية المادة "Symmetry" من العالم تحت المجهري، خلف "الكوارك" الذي يشكل بنية كل ألكترون وبروتون على اختلاف شحنتيهما؟!

والفلسفة العربية القديمة حين تحدثت عن اللطائف وراء حوامل كل الكثائف المادية، وبغض النظر عن "الإستقص" الخامس الذي يشكلها، تشبه حديثنا عن اللامنظور كأساس لكل منظور، وللأنساق اللامرئية في بنية المادة التي قبل العلم بها، والفلسفة الوجودية السارترية لا زالت تعاند؟!

ألم يكن شرط "هيدغر" بالتأمل الإستغراقي المنسجم مع الوقائع هو أساس شعورنا بالوجود عبر التواجد.

---

(1) A Brief History of Time, op. cit, P 71.

(*) التي تدعي الفلسفات المادية معرفة ما تبني عليها بدوغما آراء خرقاء؟!

(2) Ibid, P 72.

ليؤكد "جاسبر" أن اتصال الفلسفة بالعلم يجعلها أكثر من العلم، فلماذا بقيت وجودية "سارتر" مع الملاحظة السطحية للفيزياء "الماكرو Macro" الرائجة في عصره بوقائعها "Facts" ، التي ثبت خطؤها بعد عشرات من السنين علمياً.

هل قِصَرُ عمر الفيلسوف هو السبب؟! أم قِصر نَفَسِهِ الفلسفي؟! وقِصر النَفَسِ هذا هو الذي يحرك تلك الرغبة الجامحة عند المفكر للوصول الى قياساته، بين ما لديه من وقائع وما يريد أن تصل إليه براهينه(*)!!

أم أن "سارتر" أراد بفلسفته أن يظهر ما أكدته الوجودية قبله، من أن معرفتنا عن العالم بمعزل عن ذاتنا تلغي هذه الذات، فالذات - الأنا - لا وجود لها ولا للعالم الخارجي إلا بكل قصدية تأملية دونها لا شعور بأي وجود، والظواهر من جهة أخرى هي التي تحدد منطق هذه الأنا، لا علم المنطق كما ظن "هيغل"، لأنها هي التي تلتقط - يتمركز عليها وحولها - كل فعل ذهني بشري، يجب على علم النفس تحريه، لأن منه يظهر معنى الأشياء - من هذا الفعل الذهني البشري - فالإنسان هو الذي يضفي المعقولية على مفاهيم الوجود، والوعي منذ "هوسرل" هو في هذا الأمر الذي يفسر "كوجيتو" "ديكارت" الذي تحرك من "**الأنا**" الفكرية الى "**النحن**" الذاتية عند "سارتر"، وعليها يمكن بناء العالم ومتعاليات التجربة فيه وكل تجريبية ممكنة أيضاً.

وللوصول الى هذا الأمر لا بد من أمرين:

- أن ندرك معنى حريتنا المطلقة.

- وأن نتجاوز "الترقب" وحتى "الغثيان" الناتجين عن هذه الحرية، في مواجهة كل مستجد تستحدثه خياراتنا في كل المجالات، وهذا ناتج عما سماه "كيركغارد" بالخوف والحسد والغل الاجتماعي "Envy and Resentment" من كل خيار يأخذه الفرد في مواجهة المجتمع، وخاصة في عصر الثورات[1].

(*) والمضحك بهذا المعنى هو هجوم الملاحدة على الفقه لاعتماده على "القياس"، وهم أكثر الناس استخداماً له.

(1) Soren Kierkegaard, A-Literary Review. Penguin Books. N.Y 2001. P 21.

بينما "سارتر" ينظر الى حصيلة كل هذا في كتابه: "الغثيان"[1]، فمنذ أن اعتبر "كانط" المشاعر كحاسة داخلية متساوية في فعاليتها مع فعالية العقل، أصبح البحث بها في علم النفس ركيزة من ركائز هذا العلم، وكذلك من ركائز الفلسفة الوجودية التي تعتبر المشاعر – هي – الأساس في إلغاء او تعميق المسافة بين الذات والآخر – جماداً كان أم إنساناً –، فأنت إذا أعجبت بشيء – ولكل شيء جاذبيته الخاصة – تأملته فيغيب العالم عنك كما أوضح "هيدغر"، أي أن وجودنا ينحل في الأشياء حين تأملها، ويكفي شعور العشاق برهاناً على ذلك.

لكن ألا توجد بالمقابل أشياء وحتى أناس لا نريد أن ننظر إليهم، حتى لا يؤثروا في تواجدنا وربما وجودنا ككل أيضاً، أي لا نريد أن ندخلهم حيزنا الذاتي؟!

هؤلاء سبب شعورنا المقرف من تواجدنا معهم – بالغثيان –، وبهم تظهر لا معقولية هذا الوجود[*]، وفي الأدب العربي الكثير ممن ذكر ذلك، يقول "ابن الوردي":

مـــات أهـــل الجود لـــم يبقَ سوى

مقـــرفٍ او من علـــى الأصل اتكـــل

وقال الطغرائي "وأبو إسماعيل الأصفهاني" في "لامية العجم":

أعدى عدوك أدنى من وثقـــت به

فحـــاذر الناس واصحبهم على دخلِ

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت

مسافـــةُ الخُلْـــفِ بين القـــول والفعلِ

---

[1] جان بول سارتر، الغثيان، منشورات دار الآداب، بيروت 1964 م.

[*] ومن هذا استنتج "سارتر" أن عند الإنسان رغبة بتجنب الحقيقة، كالرغبة بمواجهتها، لذلك يرفض الناس التفلسف، كما يحبون الحقيقة فيه بآن واحد، و"بلا فلسفة" شعار من يرفضون ويحبون بآن، إن لم يكونوا جهلة أميين!!

وقال الوزير أبو الفتح السبتي:

من عاشر الناس لاقـى منهم نصبـاً

لأن سوسهـم بغـي وعـدوان

وقال أبو فراس الحمداني:

وأصعـب خطـةٍ وأجـل أمـرٍ

مجالسـة اللئـام علـى الكـرام[1]

وقال المتنبي:

ومن نكدِ الدنيا على الحـر أن يرى

عـدواً لـه مـا مـن صداقتـه بُـدُ[2]

وعكسها: بحال الشاعر مع "Eros ايروس" الرغبة بالتوحد مع سلطة وجاه سيف الدولة، قال:

ظلمٌ لذا اليومِ وصـفٌ قبـل رؤيتـه

لا يصدقُ الوصفُ حتى يصدق النظرُ[3]

وفي قول يدل على رغبة مشابهة عند "أبي فراس الحمداني"، بها أيضاً ما يمكن أن يسميه البعض وفاءً، وهو في واقعه افتخار وانضواء واستحواذ يقول:

وربـاني ففقـت بـه البـرايـا

وأنشأنـي فسدت بـه الأنـامـا[4]

---

[1] ديوان أبي فراس الحمداني، دار الشرق العربي، بيروت 1992 م، ص 199.

[2] اعتبرها "طه حسين" من أجمل شعر المتنبي وأن هذه النظرة ستنبث – تدخل – فيما سيقول من الشعر الى أن يموت، انظر" طه حسين، مع المتنبي، مرجع سابق، ص 147.

[3] المرجع السابق، ص 226.

[4] ديوان أبي فراس الحمداني، مرجع سابق، ص 4.

وتكاد تكون معظم قصائد المديح في الشعر العربي وسواه وفي النثر أيضاً، مرتبطة بهذه الرغبة في إدخال الممدوح في حيز المادح الذاتي، فيحل المادح – او هكذا يرغب – محل التاريخ في ذات ممدوحه، فلا يبقى لهذه الذات مرجعية أهم منه، وهذا ما نلمسه في الخطب التي اختارها الشريف الرضي (من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)[1] حسب التعريف بالخطب للشيخ "محمد عبده"، فهل تعني هذه الخطب سوى أنها كتبت على نهج البلاغة المحمدية صلى الله عليه وسلم، وهي طبعاً لا تعني حسب تسمية "الرضي" طبعاً البلاغة القرآنية، إذ أن الالتباس يأتي من كل مبالغة يمكن أن تضاف الى تلك الخطب من الرواة، فتحت باب الغلاة للتأليه؟! (وقد كنت وما أهدد بالحرب، ولا أرهب بالضرب، وأنا على ما قد وعدني ربي من النصر)[2]؟! إذ كيف وبأي وسيلة وعده ربه بالنصر؟! والنبوة قد رفعت؟!

ومن أقواله رضي الله عنه: (فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع قدمي، ولم تكن له كسابقتي.... وأما ما سألت من دفع قتلة عثمان إليك، فإني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا الى غيرك)[3]، وقوله (وفي أيدينا فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز ونعشنا بها الذليل)[4].... وقال رضي الله عنه (هلك في رجلان محبٌ غالٍ ومبغض قالٍ)[5]، كذلك حال الرغبة بالاستحواذ والتوحد مع من نحب من جهة، والرغبة بإبعاد من لا نريد إدخالهم في حيزنا من جهة أخرى، قرفاً من فعالهم، ورغبة في محوهم من ذاكرة تاريخنا، لذلك تتقزز النفس من المشوه شكلاً وفعالاً.

فالآخر؛ حياً كان أم جماداً تنطبق عليه صفتان: إما الاستحواذ عليه او الغثيان منه، وبكلا الحالتين نلحظ فعلاً يشعرنا بتواجدنا عبر كل عمل قصدي نقوم

---

[1] علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، دار المعرفة، بيروت عام، ج 1، ص 4.
[2] المرجع السابق، ج 2، ص 88.
[3] المرجع السابق، ج 3، ص 10.
[4] المرجع السابق، ج 3، ص 17.
[5] المرجع السابق، ج 4، ص 28.

به تجاهها، وأثناء هذا الشعور يظهر قلق الاختيار، خاصة إذا كان اختياري سيؤثر بالآخرين وبي أيضاً، ومن هنا تظهر كآبة "الغثيان" عند مفارق الطرق التي تحتم على الإنسان خياراته وأسهلها تجنب الحقيقة لكي لا تحرج أحداً.

و"سارتر" حين كتب كتاب "الغثيان" ونشره قبل الحرب بقليل، أظهر فيه السياق الذي يمكن لفكر الإنسان أن يتحطم، إذا أثقله تواجده بوجود لا يرغب بالتوحد معه او باستحواذه، وهذا التحطيم يظهر بالمضطهد الذي يتبنى آراء مضطهديه.

وقد جاء الكتاب على شكل مذكرات شخص اسمه "روكنتان" يقول: (حين أقول "أنا" يبدو لي ذلك أجوف، كينونة – تواجده – تحس أنها كائنة.... إن "أنطوان روكنتان" غير كائن في نظر أحد)[1]، ليخلص الى أن (الوعي كائن كالشجرة كنبتة العشب، انه ينعس ويضجر، كينونات صغيرة فارة.... تحت السماء الرمادية)[2].

فمعنى الكينونة هو وعي الإنسان (معنى وجوده.... أنه زائد على اللزوم، وأنه يتحلل ويذوب ويتناثر.... إنه وعي – يعي أنه وعيٌ ينسى نفسه)[3].

وبإدخال هذه المفاهيم الجديدة الى الأدب؛ طرح "سارتر" مشكلة معقولية ما يفهمه بوضوح – أمثال "روكنتان" – ولا يتحملونه، كفهم الشعراء العرب السابقين لما يحصل معهم من موت أهل الجود عند "ابن الوردي"، وانعدام الثقة عند "الطغرائي" وكثرة بغي الناس عند "السبتي"، ومجالسة اللئام عند "أبي فراس والمتنبي"، وأخيرا الثقة التي ظنها الإمام علي رضي الله عنه ستأتيه بالنصر، والتي انتهت بتغيير دين محمد من كل محب له غالٍ فيه.

فما كان يفهمه هؤلاء بوضوح كان غير مفهوم عند القطب المعاكس من العامة، الذين تسيرهم "ايروس Eros" الرغبة المضادة لغثيان الخاصة، من لا

---

[1] جان بول سارتر، الغثيان، مرجع سابق، ص 238.

[2] المرجع السابق، ص 239.

[3] المرجع السابق.

معقولية كل هذا، وقد شعر بكل هذا الشعراء فلعبوا على حباله المختلفة بين القرف – الغثيان – من اهتزاز القيم، والرغبة بالتوحد مع أصحاب البريق.

يقول "سارتر" على لسان بطل قصته – مذكراته اللاشخصية – "الغثيان": (كنت أظن أن الحقد او الحب او الموت يهبط علينا كألسنة النار يوم الجمعة المقدسة.... وأي خطأ كان هذا الظن.... ليس ثمة إلاي أنا من يحقد ومن يحب.... شيء متشابه الى حد يجعل المرء يتساءل كيف خطر للناس أن يخترعوا أسماء ويقيموا تمييزات بين بعضهم)[1].

ونحن إذا أردنا أن نترجم هذا بعبارة تراثية بليغة قلنا: "أنت المقرف الذي اشتكى منك ابن الوردي، وعديم الوفاء عند الطغرائي والباغي على من تسوسهم عند السبتي، واللئيم الذي يجالس نفسه عند الحمداني وعدو نفسك عند المتنبي، والمؤله الذي حذر منك الإمام!!

وبعد خمسة وعشرين سنة من كتابه المدوي – الغثيان هذا – كتب "سارتر" سيرته الذاتية ليطبق على تفاصيلها فكره الفلسفي حين انغماسه مع الآخرين، لا كمشاهد "قرف" كما "وركنتان" في غثيانه، بل كمهرج لأهله وللكبار عموماً كي يتعلم منهم، ويقبلونه دون عداء؟!

يقول: (كنت أشعر في أعماقي بأنني مذعور.... أنفق تلك الأيام والليالي الطويلة أغط بالحبر كل هذه الأوراق.... بدافع وحيد هو الأمل المجنون بأن أروق لجدي.... وقد تجاوزت الخمسين لأحقق رغبات شيخ مسن قد غاب وجهه)[2]، فهل هذا معقولٌ؟!

إن موقف "سارتر" مفهوم لأنه مكرر بما يسميه علم النفس "ظاهرة التجاوز"، حيث يريد الطفل والمراهق نظراً لزيادة طاقاته وقدراته النفسية والجسدية، أن يحقق لمن يحبهم ما يظن أنهم لم يستطيعوا تحقيقه، وحين يعلم أن العلم لا يجدي

---

(1) المرجع السابق، ص 212.

(2) جان بول سارتر، سيرتي الذاتية، منشورات دار الآداب، بيروت عام 1983، ص 121.

الفتى، أن ما قاموا به هو كل ما يمكن أن يقوم به آخر - وبحالة "سارتر" حصل ذلك بعد الخمسين - آن ذاك يصدم المرء بلا معقولية كل هذا الجهد، والأسوأ من كل هذا حين يكون جده بسن "الخطرفة" لا يعرف ما يجري حوله، وقد (انتهى اجتهاد فكري بأن أصبح توتراً.... فإذا بقيت يوماً من غير أن أكتب أحرقتني الندامة - الندبة -)[1]، وسبب هذا مفهوم لكنه غير معقول أيضاً؟!

فكلنا يعرف لا جدوى من أي جهد نقوم به زيادة عن حفظ الحياة، لكن طابع لا معقولية تواجدنا يجعلنا (جميعاً محكومون بالأشغال الشاقة فكلنا - عبيد - موشومون)[2]، عبيد القرف والتقزز من اهتزاز القيم، والرغبة بالتوحد مع أصحاب البريق، وبين جاذبية الميتافيزياء - المجردات - كالسلطة والنفوذ والقوة وحتى الفكر - كما حال سيرة سارتر-، وجاذبية الأشياء - المقتنيات - من جهة ومن جهة أخرى لا معقولية الجهد المبذول للحصول عليها يحمل الإنسان صليب معاناته.

وما فهم الوجود على هذا النحو سوى محاولة تخفيف من معاناتنا، شرط معرفة أن أساس واقعة التواجد هي في أن الإنسان (متروك لا يعتني به أحد لأنه لا يجد لا في نفسه ولا في خارجها شيئاً يتمسك به)[3]، وقد أكد "سارتر" هذه الفكرة في "غثيانه" بصورة خاصة، لكنه كشف جذورها في سيرته الذاتية التي أظهر فيها أساس توجهه الإلحادي الذي غرسته تربيته صغيراً فيه، فالطفل لا يشعر إلا بأنه محاط ومحمي من الكبار حوله، ولا يمكنه أن يشعر بالترك إلا بعد موتهم.

ولكثرة إحاطته بجده وجدته وأمه، فقد (رددوا لي أني كنت هبة من السماء)[4]، وكرد جميل او تفاعل مع هذه العناية، يظن الطفل انه سيخسر كل هذا إن هو خالف توجهات "Attitudes" أهله، فيدخل في روعه أن هذه التوجهات وقائع

---

[1] المرجع السابق، ص 121.

[2] المرجع السابق، ص 121.

[3] الوجودية مذهب إنساني، مرجع سابق، ص 54.

[4] سيرتي الذاتية، مرجع سابق، ص 123.

"Facts" ، كل من يتخلى عنها يتخلى عن أهله، وبالتالي تحصل الجفوة التي سوف تحرمه دفء حنانهم، وهذا الرادع اللاشعوري – إن صح القول – يدفع الطفل الى تبني ما يدين به أهله لأن "كل إنسان يولد على الفطرة وأهله ينصرانه أو يهودانه او يمجسانه" "بمثل هذا الإيحاء؟!

فتأثير الوالدين او أحدهما على الطفل كبير جداً على حدود حواسه الداخلية، التي تجبل بقناعتهما، يقول "فرويد": (الحماية والسعادة الموعود بها الإنسان مقابل امتثاله لبعض القوانين الأخلاقية.... التي قطعها الدين لم يجترئ على الشك بها أحد)[1] ويمكننا أن نضيف: إلا من يخرج عن الدين، ولذلك (تتفق تخمينات – "نيتشه" – وحدوسه اتفاقاً مع كشوف التحليل النفسي)[2] كما أكد "فرويد"، ويمكنني أن أضيف أن كل فكرة نتبناها بهذا المعنى هي عبر لعبة إيحائية بكل معنى الكلمة!!

فمن جهة كان "سارتر" يحاط بالحماية والسعادة في طفولته من والديه، ومن جهة أخرى قال: (كنت أوشك أن أكون طريداً للقدسية، وقد نَفَّرَنيّ جدي منها الى الأبد.... وكانت جدتي.... تسمي زوجها كافراً رغم.... أنها لم تكن تؤمن بشيء.... وكانت أمي تمتنع عن التدخل، وكان لها ربها الخاص، ولم تطلب منه أن يعزيها إلا في الخفاء.... وكنت أقرن روح النقد بروح الخضوع، والحق أن ذلك كله كان يزعجني)[3]، يزعجه لأنه لا يجد ملاذاً من الحماية(*) والسعادة الناتجة عنها إلا في حضن أسرته، لأن ما يمكننا اعتباره: تمجّسُه – الحاد بأهله – يربط وجوده بهم، فإذا زالوا – وهذا ما حصل لاحقاً – أصبح يشعر شعوراً مراً بأنه متروك لا سند له في الوجود، لأن سنده الذي كان متواجداً زال.

ومفهوم الترك هذا محوري في فلسفة "سارتر"، ومبني على الإلحاد، لأنه في حال الإيمان بالله لا يعود الإنسان متروكاً في التواجد – الكينونة التي هو فيها –

---

(1) سغموند فرويد، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، دار الطليعة، بيروت عام 1998 م، ص 200.

(2) سغموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، دار المعارف بمصر، عام 1967 م، ص 68.

(3) سيرتي الذاتية، مرجع سابق، ص 74.

(*) الإيحائية.

هكذا، يقول سارتر": (أما الوجودية الملحدة... تعتقد أن .... الإنسان يوجد قبل أي شيء يصادفه.... فلا توجد طبيعة إنسانية لأنه لا يوجد إله خالق يتصورها.... الإنسان موجود كما يتصور نفسه.... ذلك هو المبدأ الأساسي للوجودية)[1]، وينتج من هذا المبدأ أن الإنسان مسؤول عن كل خياراته.

الإنسان إذا متروك ومسؤول عن ذاته، فهو حتماً قلق يائس (وحتى إذا تستر واختبأ فإن الكآبة تظهر عليه، وأن هذه الكآبة هي التي دعاها "كيركيغارد" كآبة "إبراهيم")[2]، لعدم وثوقه من كون ما يسميه "سارتر" إيماناً فاسداً في أن ما يراه حقاً ملاك ، وبتعميم ذلك على كل موقف عمم "سارتر" ما أسماه "صمت الكينونة" على كل موقف، في كتابه "الغثيان" على (كل الوجود اللامبرر المر.... لقد كنت "روكنتان")[3]، وهذا هو الذي تسميه الوجودية الملحدة: لا معقولية الوجود، وهكذا تفهم الكينونة مفهوماً يمكن فهمه بأن "الإنسان يوجد قبل كل شيء"، أي أن الوجود يأتي بعد الإنسان فجوهر الإنسان وماهيته في وجوده، ولا يوجد شيء اسمه الإنسانية بلا إنسان.

وبتعميم ذلك على الطبيعة يمكن القول: قد يوجد الخشب قبل الإنسان زمنياً"، لكن منطقياً لا يوجد بقدر ما لا توجد طاولة بلا إنسان، ولا كتاب بلا ذهن يسبق كتابته، ولذلك أنكر "سارتر" وجود كائن يسبق وجوده جوهره، أي هو موجود قبل أن يعرف، أي لا توجد طبيعة إلهية، لإله لا يعرف؟!.

نعم لا توجد طبيعة إلهية في الكينونة لأن الله لا يمكن أن ينضوي ضمن ما خلق، أي لا يمكن أن ينضوي في التواجد الذي هو خالقه، ولا الوجود الكوزمولوجي أيضاً، وإلا صار وثناً.

ووثن "سارتر" مِن ظَنِ المسيحية إمكان تجسد الله بالمسيح، فسارتر – كما أشرنا سابقاً – ينفي بفلسفته وجود الله ، لكنه لم ينتبه أنه بذلك لا ينفي الله كخالق للوجود والتواجد – الكينونة – واللاشيئية أي العدم – ان شئت!!– والوجود ككل.

---

[1] الوجودية مذهب إنساني، مرجع سابق، ص 46.

[2] المرجع السابق، ص 49.

[3] سيرتي الذاتية، مرجع سابق، ص 189.

فمن خيبة الأمل ببقاء التواجد الى الأبد مع أسرته، وصل بتراجيديا فقدها – "سارتر" – الى حدود العصاب، الذي لم ينقذه منه سوى هوسه بالكتابة، فخلص من ذلك بنظرة تراجيدية ضمنت لا معقولية هذا التواجد – الكينونة – في الوجود، فبنى عليها نتائج طالت الأدب والفكر والفلسفة، كتقليعة لا زال صداها في الغرب يخفت تارة ويشتد تارة أخرى؟!

أساسها ظن الكنسية بأنها خدمت الله بإثبات وجوده، وخدمت العوام بجعل الله يحل بينهم يحمل أوزارهم، فهو حاميهم من لا معقولية الظروف التي تطحنهم بالحروب والمجاعات والأمراض، تاركة لمن لا يقبل "بفتشيتها" خياراً واحداً هو الإلحاد، الذي زرعه أمثال جد "سارتر" بأمثال "سارتر" فتبعوه، وسموا أنفسهم "وجوديون"، يتسكعون في القهاوي على أرصفة باريس، طالما أن الحياة لا تستأهل أي جهد فيها، وهو بالنتيجة لماذا ومن أجل ماذا ؟! أي ما معقوليته؟!

وهل طلب المعقولية ضروري الى هذا الحد؟ وقد بينا كيف فشل "هيغل" والتقليد العقلاني الفلسفي قبله في كل الغرب فيه، وكيف أدى الى بؤس "السوفيت" في الشيوعية، مثال بؤس كل الشعوب التي تعاني من الوثوقيات الاشتراكية والدوغمائية، دينية كانت ام علمانية "Secular" .

قال "أنشتين" (إن القوانين الطبيعية تكشف عن فكر فائق، بالمقارنة به كل المنهجيات الفكرية والتجريبية للجنس البشري التي عكسته هامشية وغير مهمة)[1]، والعلم الذي يظن معظم الناس أنه الأكثر والأقرب الى معقولية الوجود هو برأي "أنشتين" (ليس أكثر من تمحيص لكل ما نفكر به يومياً، تستحوذ عليه السببية التي تعني أن كل شيء ضروري ومحدد في الماضي كما في الحاضر والمستقبل)[2].

فينحصر فهم الإنسان بمدى انطباق مقولات المنطق على أي معطى أمامه، وهذا يعني حسب "وتغنستاين" (أنك لتفهم قضية ما يعني أن تعرف حالتها سواء

---

(1) Ideas and Opinions. op. cit. P 40.

(2) Ibid.

كانت صحيحة أم غير صحيحة)[1] معقولة أم غير معقولة ، فعلى (الفلسفة وحدها الإيضاح.... حول ما يمكن أن يقدمه العقل للعلم)[2].

فإذا اعتبرنا التطورية كنظرية قريبة من إيضاح ميكانيزمات – أي آليات – الخلْق، يمكننا القول: إن الدماغ الحديث – الإنساني – الذي تطور بسياق؛ تأمين البقاء والاستمرار للجنس – والفرد – البشري في صراعه مع الانتقاء الطبيعي، أقول: ان دماغنا الذي هو مهبط فكرنا غير مُصمّمٍ إلا من أجل المحافظة على البقاء، وبالتالي هو غير مجهز بأدوات استشعار خارج إطار هذا الغرض، وهذا يعني انه لا يتلقى من حواسه إلا اللمس "للضوء بالعين وللصوت بالأذن وللذوق باللسان والحس باليد"، فليس فيه أي حاسة إضافية أخرى تمكنه من اللامرئي أي اللامحسوس بحواسه؟؟ وهذا اللامرئي هو الذي يطلبه العلم، وتطلبه الفلسفة ببحوثها لأجل المصير، والدين بالمفارقات، لكن لا توجد أي حاسة لاستقباله، فابتدعت الفلسفة: "الميتافيزياء"، ووضع العلم "Science" نفسه تحت تصرف المنطق، الذي يصور الواقع "Facts" كما هو (أن الفكر الصحيح هو الذي يصور العالم – أي – يكون صورة مطابقة للواقع)[3]، ألا تعني كلمة: "Epistem" الإغريقية النظر الى الواقع بتمعن[4]، والإغريق هم الشعب الوحيد الذي حاول أن يحرف وظيفة الفكر من خدمة البقاء، الى البحث عن اللامعلوم من المصير.

ولم تخلص كل المعارف التي قدمتها الفلسفة الإغريقية من علم وفن ومنطق وحتى الدين، من آثار جانبية يمكننا تسميتها: "بالعوامل الحيادية التي تدخل في علاقة – كل – معطى.... مما يظهر – ويحول – أدق الاستقراءات الى آثار جانبية غير مرغوبة"[5]، لذلك اعتبر "بوبر" أن لا شيء يمكن أن يثبت صحة أي نظرية علمية بصورة تامة، طالما أن كل النظريات والتطبيقات العملية لها تحتاج دوماً الى تصحيح

---

(1) Tractatus, op, cit, P 25.

(2) Ibid, P 30.

(3) Ibid, P 12.

(4) المنطق والابستيمولوجيا، مرجع سابق، ص 10.

(5) المرجع السابق.

وتعديل، وهذا يعني أن المعرفة العلمية معرفة ترجيحية لا يقينية، لأن الحقيقة الفيزيقية توجد بمعزل عن قدرة العقل الإنساني على التطابق معها، فالترجيحية "Plausibility" توجد بكل دواء نتناوله، وبكل قانون نكتشفه، فحبة "أسبرين" مثلاً قد لا تؤذيك طوال حياتك، لتقتلك في يوم من الأيام وتفسيره عند الأطباء بالتحسس؟؟ كذلك لكل ضربة "مارش" في سيارتك عوامل خطر التلوث والحوادث الموت، ونحن نتغاضى عن كل هذا آملين بأفضل حتى يهلكنا الأسوأ فيه:

"إن مع العسر يسرا" والعكس صحيح أيضاً؟!

ما بعد الوجودية – الحداثة-: وقد يعتبر البعض أن الفلسفة الوجودية جزء من الحداثة وحتى ما بعد الحداثة، وهذا غير مهم لأن المهم هو: ليس ما أفكر فيه وأظنه حقيقة بل ما أعيش من خلاله، وكيف أتلاءم معه وأجعله يتلاءم معي – إرادة –، أي أن الفكر بدون إرادة تلاؤم تحقق رغبات الإنسان، مجرد تنظير لا يفيد منه إلا من يطبقه، وحتى جسدنا الذي هو تحت كامل إرادتنا كما نظن، هو في الواقع خاضع لبرامج جينية بمعزل عما نريد، فكيف يمكن للإنسان العيش ضمن البنى "Structure" الفيزيولوجية التي هو مرتبط بها عضوياً، وما تعكسه عليه من بنى نفسية، وما هو محاط به من بنى فيزيقية واجتماعية واقتصادية؟!

كيف يستطيع أن يفرض معقوليته هو – الإنسان – على هذه البنى التي بعد أن يعرف ويجهل الكثير من معقوليتها هي، خلال ومضة حياته القصيرة هذه التي قد تكون مهلكة له. في "الدوامة" صور "سارتر" هذا الأمر على أن لا مخرج منه، يقول: (رجال البترول جد أقوياء وراءهم بلد كبير أما بلادنا فصغيرة.... كانت يداي نظيفتين.... كنت أشعر بقوة نظافة يدي، ثم أتى ذاك اليوم.... لم أعد كما أنا.... بالعنف، ولكن ظننت إني لن الجأ إليه إلا ضد أعدائنا، ثم أدركت أني في دوامة وأنه كان علي في إنقاذ القضية، أن أضحي حتى بالأبرياء، لم يعد بوسعي أن أكسب حبك.... أصبحت وحيداً أشعر بنفسي بغيضاً)[1].

---

[1] جان بول سارتر، الدوامة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 143.

وتنتهي المسرحية حيث (السفير قبالة "فرانسوا" يتكلم بأدب.... أن حكومتنا لا تتمنى أكثر من إقامة علاقات ودية مع حكومتكم، على أني مكلف بإبلاغكم بأنه إذا أقدمتم على تأميم البترول وانتزاع ملكيته من رعايانا سنعتبر ذلك بمثابة حالة حرب.

فيقول فرانسوا: ليس لحكومتكم حق التدخل بشؤوننا الداخلية ويكرر السفير بأدب: تنتظر حكومتي إجابة دقيقة!!)[1] عندها يخضع "فرانسوا" (ويقول: لن نمد يدنا للبترول، فينحني السفير – بابتسامة ساخرة – ويقول: لا ننتظر من سيادتكم أكثر من ذلك!؟

يدخل الخادم: وفد عمال البترول بانتظارك يا صاحب السيادة؟!

أعطني كأس وسكي – وبوجه معتم –: أدخلهم)[2].

و"ألبير كامو" الذي يؤيد هذا أي لا يجد مخرجاً من مثل هذا الموقف إلا بالانتحار، يقول عن طاعون الأقوياء هذا: (ربما يأتي يوم يوقظ فيه الطاعون جرذانه، ويبعث بهم الى الناس من أجل شقائهم وتعليمهم، ليخطفهم الموت من بين أحضان مدينة سعيدة)[3].

فبعد كل شيء (تستطيع فئة من الرجال أن تقيم نظاماً فاشستياً، وغيرها تتخاذل فتتركها تفعل ذلك دون مقاومة، عند ذلك تصبح الحقيقة الفاشستية هي الحقيقة – المعقولية – الإنسانية)[4].

فقد واجه "كامو" كمستعمر وُلِدَ في "الجزائر" نفسه بهذا الموقف إبان الثورة الجزائرية، فهاجم تلك الثورة لا على أساس الحق الذي هي معه، بمطلبها العادل في تقرير المصير، بل على أساس أنه بحاجة الى البقاء قبل حاجته الى الحق، معتبراً أن "الدفاع عن أمه أفضل ويأتي بالمقام الأول قبل الدفاع عن العدالة"، وهذا

---

[1] المرجع السابق، ص 167.

[2] المرجع السابق، ص 167.

[3] ألبير كامو، الطاعون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1982م، ص 320.

[4] الوجودية مذهب إنساني، مرجع سابق، ص 64.

الموقف الذي يتعارض مع موقف "سارتر" صديقه وأستاذه، الذي يقول: (ففي مواجهة اضطهاد سافر يصوغ كل يوم أساطير يدعم بها نفسه، كانت الحياة الفكرية – تعني – الرفض)[1]، فافترقا لمثل هذا الموقف، ودافع "سارتر" عن الثورة الجزائرية وكذلك كل الثورات[2]!!

ولعل نقطة الخلاف بين الوجوديين أنفسهم وما بعد الوجودية معها، كانت في أن "العالم ليس ما أنا أفكر به، بل ما أعيشه"، فهل علي أن اتبع تصوري للعالم أم اتبع ما يفرضه علي تواجدي فيه، وأسكت عن كل أمر لا أقدر على تغييره، او لا أفهمه كالوجود ككل!!

حتى الماركسية في مطلبها لتغيير العالم فرضت الصمت على طرقها في هذا المطلب، وعممت ذلك على الاشتراكيات التي كانت تناصرها، فقال "سارتر": (احترس من المعاني التي لا يمكن الإفضاء بها، فهي منبع كل عنف.... فنحن نعيش في عصر المخاتلات.... فالنازية خدعة، ونزعة مشايعة "ديغول" خدعة أخرى، والنزعة الكاثوليكية السياسية خدعة ثالثة، وليس من شك أن الشيوعية خدعة رابعة.... وبما أن كل ضمير مخدوع!! بوصفه شريكاً في إثم الخدعة التي قيدته.... فواجب الكاتب أن يتخذ لنفسه موقفاً ضد جميع المظالم.... علينا أن نشهر بسياسة انكلترا في فلسطين.... وأن نشهر بما تفعله روسيا مع مواطنيها.... واجبنا – بوصفنا كتاباً – أن نقدم صورة العالم وأن نشهد عليه)[3].

و"كامو" كي يدافع عن أمه عليه أن يشارك بأساطير وخدع الفرنسيين القائمة على أن الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وعلى هذه المشاركة نال جائزة "نوبل"، بينما رفضها "سارتر"!!

تماما كما نالها "السادات" حين شارك قادة إسرائيل بأسطورة السلام القائم على سحق الفلسطينيين، ومن يساندهم من عرب ثم عجم!!

---

[1] جان بول سارتر، ما الأدب، نهضة مصر، القاهرة 1990، ص 191.

[2] انظر: بيان سارتر في الطغيان بكتابه: تاريخ طاغية، مطبعة الدار المصرية 1964.

[3] المرجع السابق، ص 229–231.

فهل المسألة مسألة بنى اجتماعية يفرضها الأمر الواقع، أم مسألة حق في الوجود يمكن أن يبنى على كل أنواع الباطل عبر "رجال بلا ظلال"[1]؟! هل نحن في تواجد بنيوي فقط لا مكان للحق فيه؟!، فإذا كان الأمر كذلك فعلى أي قيمة أخلاقية استند "سارتر" حين أعلن أن "علينا أن نشهر بسياسة انكلترا في فلسطين.... وأن نشهر بما تفعله روسيا مع مواطنيها"- كما سبق وأشرنا -، فهل حب الحقيقة وحده عند الكاتب يدفعه لأن يشهد ضد أمه كما طُلِبَ من "كامو"؟!

الواقع "الحال" في هذا التواجد الذي تؤيده اكبر المؤسسات التي تدعي العمل للإنسانية "نوبل"، يدفعها وأمثالها الى توزيع الشهادات الفخرية حتى على زوجات من يقبلون بالأمر الواقع، إضافة الى جوائز السلام لهم ولمن يرشحون؟!

المسألة ليست مسألة بحث نظري في الوجود ينكر الله ويتمسك بالأخلاق الدينية، تحت صيغ – خدع – فلسفية متباينة ومتناقضة؟!

ذلك أنه في صلب أي مطارحة فلسفية أو لغوية أدبية توجد بنى فكرية إنسانية متناقضة، تناقض فكر كل إنسان – كما بينت الهيغلية بمنطقها النقائضي – بشك فطري، يشكل الإنسان بهما – بهذه البنى – فكره على كل هناته، فما علينا سوى تفكيك "Deconstruct" أي نص يعبر عن فكر ما، حتى نرى ونلمس هذه المتناقضات التي لا ينجو منها أي نص حتى ولو كان مقدساً بلا أسس عقلية.

ولكي نفهم هذا المنهج بشكل أوضح علينا أن نضعه **كعكس** لمفاهيم القبالة "Cabbala" اليهودية القديمة، في سرانيه "ما وراء" الحرف العبري الذي كَتِبتَ فيها "التوراة"، والذي انتقل الى اللغة العربية بباطنية حساب "الجُمّل" السحرية اليهودية، فجعل الكلمة مقدسة، بينما البنيوية تعري عهرها المقدس هذا.

[1] هي مسرحية لسارتر عن المقاومة سماها أيضا: موتى بلا قبور، مطابع الناشر العربي، وله أيضا بهذا المعنى مسرحية: المومس الفاضلة، عن دار جاليمار مطبعة الجبلاوي بولاق.

وأصل "القبالة" التي تعني: التقاليد التي نزلت "بالتلمود"[*]، ثم بعد حوالي القرن الحادي عشر، أصبح هذا المصطلح يعني الأسرار التي أسر بها "موسى" الى الرابي "Rabbis" – رجال الدين – في "المشنا" "Mishnah" والتلمود، وتتضمن نظرات كونية "كوزمولوجية Cosmology" خاطئة مثل: (وكل ما يفسد إنما سبب فساده ما فيه من تضاد، والفلك لا تضاد فيه، فليس هو فاسد)[1] أو أن (النقطة الخارجة عن مركز العالم التي تدور حولها الشمس، تلك النقطة خارجة عن مقعر فلك القمر ضرورة)[2] أو بيولوجية خاطئة أيضاً مثل (ان الله جعل في المنيّ قوة تخططها هي: الملاك.... كلها من فعل العقل الفعال)[3] وحتى جعلوا للرغبة الجنسية ملاكاً يحركها (وهناك قيل في قصة "يهودا" و"تامار" – والدة الأنبياء – التي زنا بها والد زوجها أخو يوسف، حسب التوراة [سفر التكوين 38: 16 – الى – 25]، قال يوحنا: أراد يهودا أن يمر ولكن الله أمر المَلَك أن يكون موظفاً على الشهوة يعني قوة الانعاظ، فقد سمي هذه القوة أيضاً ملاكاً)[4]؟.

أما نظرات القبالة السحرية "Magic" فهي في تصورهم أن حساب "الجُمَّل" يقود الى معرفة "اسم الله الأعظم"؟! يقول: "ابن ميمون": (ولا يخطر ببالك هذيان كتاب الطلاسيم وما تسمعه منهم او تجده في كتبهم من أسماء.... الاسم ذو الاثنى عشر حرفاً ويفسدون بذلك اعتقادات)[5] وان من ينطقه من جماعة القبالة يسيطر على الكون بإرادة لا تقهر؟!

---

[*] يقول"سبينوزا" في كتابه، رسائل في اللاهوت والسياسة، دار الطليعة، بيروت 1997م، ص 299، (قالوا ذلك بدافع الغرور والخبث حتى نعتقد أنهم وحدهم الأمناء على أسرار الله، ولم أجد فيها إلا أعمالاً صبيانية، لقد قرأت بعض القباليين وعرفت تراهاتهم.) وقال: (إذا استبيح تفسير جميع نصوص الكتب المقدسة على طريقتهم، فلن يبقى لنا نص واحد لا يمكن الشك في معناه الحقيقي.... يقحمون في الكتب المقدسة ما يشاؤون) ص 322 – 323، وهكذا غيرت الباطنية بالاسرائليات دين محمد صل الله عليه وسلم، أي فعلوها مرتين، ففي اللزوميات "يقول: أرادوا الشر وانتظروا إماما يقوم بطي ما نشر النبي ج2 ص 641.

[1] موسى ابن ميمون القرطبي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 310.

[2] المرجع السابق، ص 346.

[3] المرجع السابق، ص 288.

[4] المرجع السابق، ص 289.

[5] المرجع السابق، ص 151-153.

وهذا ما يسمونه اليوم بتقاليد التصوف الايزوتيري "Esoteric"، الذي يلاقي إقبالاً عند بعض المسيحيين أيضاً(*).

وعلى العكس تماماً من كل هذا تقف التفكيكية البنيوية "Deconstruction"، بإخراج المجازات من النص المكتوب أولاً ثم ترتيب الأفكار فيه حسب فهم ثقافة وعصر كاتبه للوقائع "Facts" الطبيعية والتاريخية والميتافيزيائية، وسحبها فرادى من النص – تعريته –، لقراءة المقصود منه.

خذ ثنائية الروح والجسد مثلاً ترى كيف نظر إليها "ميرلوبونتي" "Maurice Merleau-Ponty"، تماماً كما يشبه علاقة الفرد بالبيئة التي هو فيها، نظرة "جشطلتية Gestalt" بها ما هو أكثر من مجرد حدين متلازمين، فالفرد ضمن بيئته كالروح ضمن الجسد، وهما معاً كيان واحد اسمه الهوية، وهذه واقعة "Facts" لا تتعلق فيما أفكر به، بل بما أنا فيه ومعه كشيء واحد[1].

هذه البنية تختلف عن أي نص يصفها، لذلك تعد كل ثنائية بين الجسد والروح مجرد مفهوم مجرد لا حقيقة له، مما يستتبع أن الذات دائماً في إطار عزلتها البنيوية هذه حيث الآخر دوماً موجود بها وهي به، في كيان منفصل لكنه واحد هو ما سماه عزلة الذات، التي لا تسمح أبداً بتواصل كامل بين الناس(**)، وكل ما نستطيعه من تواصل هو دراسة البنى الاجتماعية والنفسية والبيئية للآخر، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتلقى الواقع إلا من خلال هذا "الديالوغ" الحواري الناقص.

فكل الوجود متخفٍ في ثنائياته: "الذات والموضوع، الروح والجسد، المكان والزمان وكل تعارضات المقولات "وهو بحد ذاته بنية لا مرئية تبرز في كل البنى

(*) قال المعري، في اللزوميات، مرجع سابق، ج 2 ص 609: إذا كان ما يقولون في عيسى صحيحا، فأين كان أبوه؟ وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ورتبوه؟

(1) Frederick Copleston, A History of Philosophy, Image Books N.Y., 1994, vol. IX, P 401.

(**) وبها كل ازدواجية وتناقض داخل الفرد، تظهر أحيانا في كل ما اعتبره "فرويد" لا شعورا، أي تظهر بحواسنا الداخلية ما بين العقل والعاطفة والإرادة من تناقضات.

الطبيعية، لا كما يظن اصحاب وحدة الوجود "Pantheism" مثل "سبينوزا" أنه الله، الذي هو هذه الأشياء، او "ابن عربي" بأن الله هو الذي يسري في الأشياء سريان النسيم فيها، بل أن "ميرلو بونتي" يبدل الله بالوجود هنا، ويعرفه خارج إطار كل ثنائية، مدعيا أن الوجود هو هذه البنية الواحدة التي تضم كل الثنائيات البنيوية!! وما الإنسان سوى بنية ضمن هذا الوجود البنيوي الكلي الشامل، ولعل حياة "ميرلو بونتي" القصيرة "53 سنة"[*] لم تسمح بتوسعه في فلسفته البنيوية هذه، فظل فكره يعتبر مجرد هرطقة وجودية أبدلت الوجود بإله وحدة الوجود عبر علم نفس الجشطلت، منذ أول كتاب له بعنوان: "بنية السلوك The Structure of Behaviour"[1]، واعتبرته "الماركسية" كجزء من الحملة الوجودية ضدها ليس إلا!!

ويمكننا أن نصنفه ضمن "البهلوانيات" الفلسفية التي تحدثنا عنها في الباب السادس، لولا مساهمته التي كان على باقي الفكر البنيوي متابعتها، بدل أخذ البنيوية نحو متاهات الألسنيات اللغوية والتاريخية، والعبارات الطنانة التي أعلنت؛ "موت الإنسان" مع أمثال "ميشيل فوكو Michel Foucault" والتي أراد أن يضاهي بها طنطنات "نيتشه" بموت الإله؟! في إماتته للإنسان[2]؟!

إذ طالما أن الإنسان حسب "هيدغر" لا يشعر بتواجده في الوجود إلا أثناء انغماسه في تأمل ما يحيط به، سلباً عبر الترقب Dread – الذي هو عند "سارتر"؛ "La Nausée" أي "الغثيان" – او إيجاباً بالانغماس بتأمل الموضوعات المحيطة به، مما يجعل الإنسان لا شيئية يلفها كل ما هو خارج الذات، وخارج الزمن الشخصي للإنسان "Da-sein"، فالذات الإنسانية مجموعة انغماسات خارجها، فهي لاشيئية "ميتة أن شئت"، وغاية ما يمكن أن يشعر الإنسان بوجوده حسب "فوكو" هو ممارسة السيطرة والقوة على ما ينغمس فيه – الإنسان – حتى يشعر بتواجده – كينونته –،

---

[*] ولد في عام 1908 ومات عام 1961.

[1] Ibid.

[2] روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، دار الطليعة، بيروت عام 1985م.

وعلى الآخرين، فكل نص وكل مطارحة هي محاولة من صاحبها لممارسة القوة على الآخرين.

وهذا يعني أنني اكتب هذا الكتاب الآن لأسيطر عليك أيها القارئ، وشعوري بقهر فكرك يجعلني اشعر بكينونتي، وهنا تكمن متعة التأليف، وهذا ما لا أقصده حتماً[*] ومثل هذه الأفكار المسكونة بإرادة القوة عند "نيتشه"، مسكونة أيضاً بما عبر عنه "فرويد" بالأسرار!!

يقول "فرويد" (والمصيبة في هذه الأسرار أنها قد تكون غائبة، فيبالغ – العصابي – في الاحتفاظ بالسر ثم يتخبط في آثار القلق "Dread" والاضطراب)[1]، فإذا كان المصاب فيلسوفاً او عالماً فسيرى الأشياء كما قال "أنشتين" في مديحه "لرسل": (إنني أرى الأشياء الفيزيائية كمفاهيم – مفاهيم منفصلة–)[2]، وكذلك حال "فوكو" في شذوذه الجنسي – لواطته – التي هي حتماً تشعره بالعصاب، فلكي يحاول الشفاء (يجعل النزعات القابعة في القاع تطفو الى السطح)[3]، حسب نصيحة "فرويد" التي يعرفها "فوكو" جيداً، ويعرف أيضاً أن (غالبية العصابيين غير موفقين جنسياً)[4].

ونحن إذا أردنا تطبيق مبدأ التفكيك "Deconstruction" على بنيوية "فوكو" – كما فعلنا – وجدنا أن استخدامه لمبدأ القوة "النتشوي" لا يخرج عن كونه أداة تحليل نفسي ذاتية، على منهج "فرويد".

لكن الشيء الجدير بالاهتمام من كل هذه البنيويات هو: السياق البنيوي الذي فسر به "فوكو" كأنثروبولوجي "Anthropologist" مهتم بتاريخ المؤسسات الإنسانية، موت الإنسان الخاضع لتلك المؤسسات، فمن منا لم يخضع لإرادة القوة المتجسدة

---

[*] القصد الفلسفي منذ "سقراط" تعليمي – تبادل معرفة – وليس قهري، كالقصد من كل حكم – وحتى السياسي – وليس دكتاتورياً.

[1] سيغموند فرويد، سيكولوجية الشذوذ عند الجنسين، منشورات حمد، بيروت. ص 95-96.

[2] Ideas and Opinions, op. cit, P 24.

[3] سيكولوجية الشذوذ، مرجع سابق، ص 96.

[4] المرجع السابق، ص 259، وقد خرجت حياته السرية في حبه اللواطي للعلن في كتاباته عن الخطيئة والجنس، انظر كريس هوروكس، فوكو، الانتشار العربي، بيروت 2000م، ص 15، وفي ص 165 تأكد موته بالايدز.

بالمؤسسات الطبية، التي شأنها شأن كل ما يمكن أن "ينغمس" بها، سواء العاملون بها أم طالبو العون منها، إيجاباً – العاملون بها – وسلباً – طالبوا العون منها – بإفناء وجودهم بها وهي التي تدعي الشفاء؟!

يقول "فوكو" أنه منذ "هيبوقراط Hippocrates" الذي اجتزأ الطب إلى منهج هجر الملاحظة، فادخل الفلسفة فيه)[1] والى اليوم حيث أصبح (الطب الاكلنيكي مجرد فحص الأفراد. فلكي نفهم معنى وبنية الخبرة العيادية، يجب علينا أولاً أن نعيد كتابة المؤسسات التي نظمتها)[2]، إذ طالما أن الإنسان بفطرته قصّاص لا يفهم أكثر ما يفهم إلا بالسرد، وبهذه الفطرة "الانثروبولوجية" تتداخل الانغماسات التي تحدثت عنها وجودية "هيدغر" مع إرادة القوة والسيطرة، مع العقد النفسية في حواس الإنسان الداخلية، مع بنيته الجينية الوراثية، ومعرفته البيئية التي يحتاج جماعها كله، إضافة الى رغبة الخير عند البعض التي لا يمكن التنكر لها، الى السرد الاجتماعي والفلسفي والسرد العلمي الديني والفني أخيراً، بسياق أدبي، كي يفهم هذا الكائن – المشاكس – الشكاك ما الأمور بقصة تروى له؟!

وكيف يصح إجماع البرايا   وهـــم لا يجمعون على إله[3]

فقد لاحظ "فوكو" أن المشفى في الطب الحديث صار هو المدرسة، (حيث الحقيقة في التأمل "Gaze" – التحديق بعمق في الحالة – وحده)[4]، بكل معناه "الهيدغري" بمريضه، الذي سبق لنا شرحه، حين ينغمس الطبيب بمكونات المرض الذي يلاحظه مريضه أي أن المطلوب من الطبيب أن يشكل بوجوده وجود مريضه، (فلا إصلاح لكيفية تعليم الطب – قد كان ممكناً – قبل حل مشكلة ممارسة الطب)[5]، وبهذا المنهج تم (فصل الموت من كونه ضد الطبيعة ليصير متضمناً في

(1) Michel Foucault, The Birth of the Clinic, Vintage Books, N.Y., 1994, P 56-57.

(2) اللزوميات، مرجع سابق، ج2، ص 632.

(3) Ibid. P 69.

(4) Ibid. P 77.

(5) Ibid, P 198.

الجسد الحي)[1]، فالموت يذكر الإنسان دوماً بمحدوديته، وبهذا المعنى يصبح (الانغماس المحدق الطبي – إذا صح القول – ذو كثافة فلسفية كانت تتبع في السابق الرياضيات فقط)[2].

وهذا يعني أن الأطباء أمثال "فرويد" و"بيشا Bichat"[*] وسواهم أنهم كانوا: (فلاسفة بقدر ما كانوا أطباء.... فالفكر الطبي متداخل بصورة كاملة مع كل حالة بشرية)[3] وهذا يعني نوعاً (من تبادل الأدوار بين الذاتية والموضوعية)[4].

ويستنتج "فوكو" من كل هذا أن هناك (ضرورة لإدراج المحدودية في كل علاقة بين الإنسان والحقيقة.... وعلى أسس هذه العلاقة تتضمن الموضوعية التجريبية، التي ننسى فوائدها)[5].

وبإتباع هذا المنهج ذهب "فوكو" ضمن اركيولوجيته للعلوم الإنسانية "An Archaeology of Human Sciences"[6] منذ كتابه هذا الى أن "الأبستيمولوجيا" المعرفية الغربية حتى القرن السابع عشر، كانت نظاماً مرتباً على أسس (تختلف عن الأسس التي نفكر من خلالها اليوم.... رغم أن قواعد اللغة بصورة عامة لا تختلف وليست بعيدة عن قواعدنا اليوم)[7]، دلالة على عدم تأثر "الأبستيمولوجيا" باللغة كثيراً، وهذه دلالة هامة في فهم كيفية تقدم الفكر الإنساني، بمعزل عن فرض أي لوم على اللغة كعامل تقدم او تأخر بالنسبة لنا نحن في هذا الشرق، كما يظهر من الحاقدين على لغة القرآن من أقليات!

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(*) توجد باسمه اكبر مستشفى فرنسية بضواحي باريس.

(3) Ibid.

(4) Ibid, P 198.

(5) Ibid, P 199.

(6) Michel Foucault, The Order of Things, Vintage Books, N.Y. 1970.

(7) Ibid, P XXII.

ولعل أساس هذا الاختلاف في أسس التفكير بين ما قبل عصر النهضة وعصر النهضة من جهة، واليوم هو: أن الإنسان برز لنا اليوم كموضوع معرفة، ففلسفة الأركيولوجيا اليوم تركز على اختلاف طرق – مناهج التفكير – عبر العصور، فإذا تغيرت شروط البيئة يتغير مصير البشر ككل تماماً كتغير أسس وشروط "الأبستيمولوجيا" التي أدت الى تغير الإنسان المعاصر، ولعل حدة هذه التغيرات قد تؤدي سلباً او إيجاباً الى ظهور "وعي" مختلف عن وعينا، وهذا هو شرط وأساس في ما يجب أن نفكر به اليوم (فالتلاؤم – الحديث – الذي أثر بالمعرفة حول الأشياء وحول الهوية، بدأ منذ قرن ونصف مضى، يقترب اليوم من جعل الإنسان يتحول نحو تنوير جديد، بوعي يدخل في عقائد مأسورة بموضوعيتها الخاصة، مما يغير في أسس المعرفة الأساسية، لكن إذا تدخلت أحداث غير متوقعة.... سنضطر الى المراهنة على أسماء الإنسانية مثل وجهٍ رُسِمَ على رمال شاطئ بحر)[1].

فمصير الوعي الذي يتكامل في الحضارة الأوروبية اليوم، حسب "فوكو" لا يرتبط بمصير الإنسان[2]، لأن الطبيعة قادرة على إنتاج "وعي" مثله او أقل منه – شبيهات الإنسان – او يفوقه – سوبرمان – او "سوبر" وعي هو ليس بالضرورة مرتبطاً بالبشر، متأثراً "بميرلوبونتي" في فهمه وتعريفه للوجود كما سبق وأوضحناه.

وهذا ما عناه بموت الإنسان لا بموت الوعي، وعلائم هذا قد بدأت منذ القرن الثامن عشر في الغرب، حيث بدأ أصحاب الوعي الأفضل يعزلون من يعتبرونه أقل وعياً عن المجتمع "بالمارستانات"[3]، ناسياً حادثة مشابهة قد حصلت في الحضارة الإسلامية قبل خمسمئة سنة ونيف، حين بدأ عزل المجانين "بالمارستانات" وهذا يدعم استقراء "فوكو" بأن الوعي لا يريد أن يدنسه بشر غير جديرين به من خارجين عن القانون[4] أو مجانين.

---

(1) Ibid, P 387.

(2) Michel Foucault, Madness and Civilization, Vintage Books, N.Y., 1988.

(3) Michel Foucault, Discipline and Punish, Vintage Books, N.Y., 1979.

(4) Ibid, P 83.

وقد برز هذا واضحاً في كتابه "الجنون والحضارة، تاريخ الجنون في عصر العقل"[1].

ورغم أن هذا الكتاب لا يدخل في مجال العرقية، إلا أنه يعبر عن نية حضارية غربية ذات توجهات عرقية متماثلة، فالاصطفاء العرقي الذي سعت له الفاشية والنازية وجنوب أفريقيا قبل "ماندلا"، واستراليا مع "الأبوريجينال" في الجيل المسروق من أهله كخدم عند البيض، هي تتويج لارتباط كل خروج عن المألوف عند الغربي بالشذوذ (ففي القرون الوسطى وضع الهبل والجنون بهرمية الشر)[2] قبل أن تضعهم النظريات العرقية الحديثة بهرمية الضعف الجيني عند بعض الأعراق.

فكل من يختلف عن معيارية العرق الأبيض كان شريراً، واليوم هو ناقص "جينياً"، كرد قومي على شعب الله المختار – اليهودي – العشائري عندهم، إذ طالما اعتبر اليهودي دخيلاً على المجتمعات الغربية – بدو مدنٍ هناك – وهويته في شكله – مظهره – السامي المختلف عن المظهر الأبيض الأشقر الأوروبي، وهو الأقل بكل معاني الحضارة من البيض، لكنه الأكثر تبجحاً باصطفائه الإلهي؟!

ورد الغربي على هذا الادعاء باصطفاء عرقي أوضح، لذلك كل من يشبه هؤلاء الغرباء بالشكل وباللهجة اللغوية – الأنفية من الأنف – إما أهبل شرير كما في "أبستيمولوجيا" القرون الوسطى، او هو متخلف عرقياً كما في "أبستيمولوجيا" ما بعد الدارونية، وفي كلا الحالين يجب أن ينبذ.

وهذا بالضبط ما يعاني منه الذين حلوا محل الجاليات اليهودية في أوروبا، بعد نزوح معظم يهودها الى إسرائيل، لأن هذه الجاليات المهاجرة – يشبهون اليهود بأصولهم الإفريقية والشرق أوسطية إضافة الى انتمائهم الى دين مغاير.

هكذا تحل دعوى "الإرهاب" محل ادعاء الشر للخارج عن مألوفات الغربي شكلاً ومجتمعاً، ومحل دعوى التخلف العرقي الذي يمنع القانون المجاهرة بها، بعد سقوط النازية والفاشية، ومحل ما يسمى بمعاداة السامية الجديدة.

---

(1) Madness and Civilization, op.cit.

(2) Madness and Civilization, op. cit, P 24.

و"فوكو" الذي افتتح هذه البحوث "الأنثروبولوجية"، رغم عدم تطرقه لما أوضحناه سابقاً، له فضل الريادة في إبراز كيفية بروز كل لا حقيقي في الحقيقة الاجتماعية الغربية[1]، والتي تكشف عن بنية "أنثربولوجية" لا مجال للتسامح فيها ولا معها!! مبنية على كون اللغة هي أول وآخر "بنية" يحكم بناء عليها الغربي بالجنون على شخص او مجموعة بشرية ما[2]، ودلالة ذلك عند "فوكو" هي في أن (الحلم والجنون من جوهر واحد.... قائم على توترات هلوسية ناتجة عن تهيجات لا يمكن السيطرة عليها.... تخرج من المختل بطريقة لا تختلف عن الحلم)[3]، وسبب ذلك هو أن (الموضوعات – المحيطة بالإنسان – لا تبرز لمن يعاني من الجنون كما هي في حقيقتها)[4].

ألم يقل "ماركس" كما سبق وذكرنا حين الحديث عن الماركسية: (فنحن نقر بأن ثمة في اليهودية عنصراً عاماً مناهضاً للمجتمع)[5]، والشيء المناقض المناهض للمجتمع في بنية الفكر اليهودي: "نبوة أحباره" التي كانت قائمة على الحلم، او وعي شبيه به.

بينما الحضارة الأوروبية حضارة عقلانية تعتبر الجنون في استمرار الحلم حين اليقظة، وعلى هذا بنيت كل تقييمات الشذوذ النفسي "Mania"، وعلى هذا الأساس (لم يقارن – فوكو – الجنون باللاشعور، بل بتماهيه مع الحلم – اليقظ)[6].

يقول "سبينوزا" (الصوت الذي سمعه – الذي خطف سارة زوجة إبراهيم – من صنع الخيال لأننا نقرأ – التكوين 20: 6 – "فقال الله له في الحلم.... فهو إذاً لم يكن يقظاً بل نائماً – أي في حالة يميل فيها الخيال بطبيعته الى خلق أشياء لا وجود لها – عندما استطاع أن يتخيل إرادة الله.... ويعتقدون أن الاسرائليين سمعوا

---

(1) Ibid. P 93.

(2) Ibid. P 100.

(3) Ibid. PP 102-103.

(4) Ibid. P 127.

(5) المسألة اليهودية، مرجع سابق، ص 55.

(6) Ibid. P VIII.

مجرد ضوضاء عالية لا تتميز فيها الكلمات، وخلال هذه الضوضاء أدركوا الوصايا العشر)[1]، وقال: أن (غاية الشعائر الدينية: ألا يفعل الناس شيئاً بمحض إرادتهم)[2] بسبب (العصيان الطبيعي للشعب.... لهذا السبب، أدخل موسى الدين في الدولة بسلطته الإلهية، وبناء على أمر إلهي حتى يقوم الشعب بواجبه)[3].

وهذا هو نقيض الأخلاق الأوروبية التي عبر عنها "كانط" بالواجب النابع من الضمير لا من الخوف من "Deontological"، والتي تحدثنا عنها "في صلة القناعة الأخلاقية بمصير الفرد"!!

لذلك يمكن القول إن سبب تغيير "سبينوزا" دينه الى المسيحية من اليهودية تأثره بالبيئة الثقافية الأوروبية التي تزدري إتباع الحالمين، يقول" (اتصل المسيح بالله مباشرة اتصال الروح بالروح، والنتيجة التي نصل إليها من ذلك هي أنه، باستثناء المسيح، لم يتلق أي شخص وحياً من الله دون الالتجاء الى الخيال.... وينتج عن ذلك أن النبوة لا تتطلب ذهناً كاملاً بل خيالاً خصباً)[4]، وهذا طبعاً لا يتفق مع نبوة الرسول صل الله عليه وسلم، فوحيه كان باليقظة مباشرة، لكن تعتيم سيرته في الغرب دفعهم الى الظن أنه متنبئ مثل كل أحبار إسرائيل، فالبنية "الأنثربولوجية" الأوروبية غير المتسامحة هي التي فرضت منذ "محاكم التفتيش" هذا التعتيم على السيرة النبوية الإسلامية، وعلى الإسلام بشكل عام، ليظل وحي المسيح خلال سلوكه أقرب الى الذهنية الغربية المعادية للسامية- يهودية كانت أم عربية أم سريانية أشورية كلدانية – الخ مما تشاء، عند كل وجه ليس فيه حمرة الروم المقشرة، باستبعادها الدائم لسمرة الزنج المحبرة، وحقدها على من بين بين لأنها لم تقدر عليهم !!

---

(1) سبينوزا، رسائل في اللاهوت والسياسة، مرجع سابق، ص 127-128.

(2) المرجع السابق، ص 213.

(3) المرجع السابق، ص212.

(4) المرجع السابق، ص 134.

فمتى يكون الجنون أداة قبول من المجتمع ومتى يكون أداة رفض؟؟ أي هل الجنون في بعض الأحيان بأحلامه البارانويية "Paranoid"، التي تعني ما هو بجانب العقل "بجانب = Para – العقل = Nous " بالإغريقية، مختلفة عن غياب العقل بالجنون، حيث أن عبارة "جَنَّ" تعني باللغة العربية اختفى، وبالانكليزية "Mania" التي تعني عدم الثبات والاختلاط، وتُستَعمَلُ: "كربونات الليثيوم Lithium Carbonate" لإيقافه.

نحن إذاً أمام معنيين للجنون:

1- اختلاط العقل او غيابه.

2- ما هو بجانب العقل – يجانب العقل – من سلوك.

فما يجانب العقل الذي تزدريه الثقافة الأوروبية، وهو ما عبر عنه "سبينوزا": «بالنبوة التي لا تتطلب ذهناً كاملاً، بل خيالاً خصباً» – كما أشرنا –، أما ما هو ناتج عن اختلاط العقل، فتعتبره الحضارة الأوروبية خطراً على الوعي، وقد عالجته أخيراً بشكل عرقي قاسٍ.

بينما ظل الشرق الإسلامي يخلط ما بين هذين الاعتبارين، واليك مثالاً واضحاً من فترة الخروج الفاطمي عن العقل بادعائه – حيث أسسوا ما سموه مشيخة العقل الباطنية:

(للفاطميين ولورثتهم ناحية أخرى باطنية يسمونها العبادة العلمية وهي تدخل في فهم القرآن، وتأويله التأويل الذي يراه أئمتهم)[1]، ومن مثل هذا التأويل تحصل على ما وصفه "سبينوزا": (بالخبث حتى نعتقد أنهم وحدهم الأمناء على أسرار الله ولم أجد فيها إلا أعمالاً صبيانية)[2]، بشكل ينطبق على "القبالة اليهودية" التي ورثها الفاطميون من اليهود، كما ورثوا البوذية في تقمص الحكام – التأله – وتناسخ

---

[1] عبد المنعم النمر، الشيعة، دار الحرية للطباعة والنشر، القاهرة 1988، ط2 ص 227.

[2] رسائل في اللاهوت والسياسة، مرجع سابق، ص 299.

العامة، لذلك قال "الحاكم بأمر - ه - الله" الفاطمي لداعي دعاته (كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون أنك إله)[1].

وأساس هذه المجانبة للعقل هو الاعتقاد الفيضي "Emanationism" القائم على مبدأ أن الله محرك لا يتحرك، فهو يفيض مثل النور عقلاً أولاً، وهذا العقل الأول هو الذي يفيض محركات الكون، وبما أن الخليفة أولاً!! فهو العقل الأول، أي الإله المتحكم في فلك ما تحت القمر (وترى التعقيد والتحايل في هذه العقيدة، فالله ذات منزهة عن الأسماء والصفات خلق العقل الأول.... والعقل الأول هو الذي صدر عنه في النهاية هذا الكون، فيوصف بما اتصف الله به)[2].

وهذا ليس اختلاطاً للعقل او غياباً له، بل مجانبة له اتسمت بها كل الحركات الصوفية بعبارات الباطنية، التي تجعلك بالتقمص أنت لست أنت، وبالتناسخ أحط من الحيوان، تشبه "فيلماً" عربياً - مصرياً - سخيفاً يعترف فيه الشرير على فراش الموت بأنه ليس والد ضحيته بل هو أمها؟!

وقد قويت هذه المجانبة للعقل بين العامة في الحضارة الإسلامية، حتى صار العقل عندهم يعني الإلحاد، وعدم مجانبة مقولاته "Category" يعني الزندقة: "من تمنتطق فقد تزندق"، لكن زندقة تجنب العقل الباطنية الحقيقية هي قمة الحكمة في الدين، التي يجب أن لا يطلع عليها إلا متجنب للعقل مثلهم معتدٍ على التراث الإسلامي أثيم!!

أما المختلط عقلهم بمرض نفسي فلم يكونوا قادرين على تحديده في ذلك الوقت، فهو إما "ولي" ما دام لا يعتدي على غيره، وإما مجنون إذا كان هائجاً يعتدي على الناس، يجب وضعه بالمصح الذي تحول الى مجرد مكان حجز للمجانين - الشرسين -، ففقد "المارستان" الذي كان الأطباء يعالجون به كل الأمراض وظيفته كمشفى، وصار مأوى للمجانين.

---

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام، ط3، ج6، ص 259.

(2) عبد المنعم نمر، الشيعة، مرجع سابق، ص 231.

وإزاء هذه المجانبة للعقل عند الحكام، كان الخروج عن العقل أفضل وسيلة لتجنب بطش هؤلاء الطغاة الذين يفعلون ما يحلو لهم، تحت ستار التأويل المفتوح لهواهم، لذلك تجنب "ابن الهيثم" "الحاكم بأمر الله" وحمى نفسه منه بالجنون، الذي تهيأ له منذ صباه، أداة يدافع بها عن نفسه، من "مجانبي" العقل الذين يثيرون الشبهات على المتمسكين به، يقول: (تهيأ لي منذ صباي باتفاق عجيب، ان شئت قلت بالهام من الله، وان شئت قلت بالجنون)[1]، فلما ولاه "الحاكم بأمر – ه – الله" بعض الدواوين (فإن الحاكم كان كثير الاستحالة مريقاً للدماء بغير سبب.... فأجال فكرته في أمر يتخلص به، فلم يجد طريقاً الى ذلك إلا إظهار الجنون)[2]، إذ طالما أنت مع الجهلاء تضطر الى التجاهل حتى يقال إنك مثلهم جاهل، مع متجنبي العقل لا خلاص لك إلا بالالتجاء الى الجنون الخالص؟!

أما في الغرب فإن الالتجاء الى الجنون كي يخلص الشخص من متجنبي العقل فلم يكن فعالاً، حتى في أيام محاكم التفتيش التي اعتبرت الجنون ضرباً من تلبس الشيطان للإنسان، والذي يجب إخراجه بكل أنواع التعذيب!! وإن ظل هذا المنهج يطبق بعد محاكم التفتيش في المشافي، فلأنه يشبه الصدمات الكهربائية للدماغ المتوتر التي لم يتوقف الطب العصبي عن استعمالها نهائياً، إذ صدمة قوية للدماغ تغير في بنيته الأساسية وبالتالي تغير كل سلوك صاحبه، سواء بالضرب او بالكهرباء او بجلطة دماغية.

لذلك كانت المواجهة عنيفة بين متجنبي العقل من التوراتيين في الغرب، وبين العقلاء فيه، وبها سر انتصار السكيولارية "Secular" التي تعني فصل الدين عن الدولة، وتعني بالعربية النظام الدنيوي، ولا أدري لماذا ترجم بالعلمانية ؟! فلم يبق أمام "الأنثروبولجي" سوى البحوث النفسية والإحصائية والقانونية للجنون، الذي لم يتمكن عندهم من أن يصير ميكانيزماً – آلية – اجتماعياً دفاعياً؟! يظهر عندنا بوضوح حين دراسة تاريخ علم النفس الاجتماعي الغربي، ولذلك لم يدرسه "فوكو"،

---

[1] عيون الأنبياء، مرجع سابق، ج3، ص 151.

[2] المرجع السابق، ص 150.

واقتصر في بحثه فيه على تاريخيته والأخلاق التي تحكمت فيه، وكيفية تشكله نفسياً وعصابياً من الناحية العلمية، يقول: (إن عمى الدماغ يحصل عبر المسالك الحسية – العصبية – وعندها يظهر الجنون)[1] بينما نحن نرى حصوله عبر المسالك التكفيرية الاجتماعية عند متجنبي العقل، إضافة الى ما ذكر.

أي أن الجنون – كمصطلح قانوني – يختلف باختلاف الحضارة، بينما هو كمصطلح نفسي واحد بين البشر، فالدين الإسلامي خلافاً لقول "فوكو" عن الدين الذي يعرفه لا (يقود مباشرة الى الجنون.... حيث التكرار فيه يؤدي اخيراً الى تحرك الجنون بحرية)[2].

إذ يكون تكرار الشعائر اللاعقلانية سبب ذلك، أما الحث الذي يختلف عن التكرار اللاعقلاني بعقلانيته في الإسلام أمر مختلف، ففي الحث على الأمور العقلانية – الذي ضخمه الاعتزال في تراثنا – لا تنفصم العلاقة بين العالم الواقعي والعالم الذهني المثالي، انفصالها بالتكرار الشعائري العبثي.

ففي العمل العقلي وإعمال العقل لا يمكن أن يوجد أي جنون، بينما خلافاً "لفوكو" في العمل الفني يظل الإمكان محتملاً، وهو حين قال: (ان "نيتشه" بيوم ما من خريف 1888م وقع بالجنون المطبق، وبعدها لم يعد يقدم فلسفة بل علم نفس في أعماله)[3]، دل على ما أقول، وناقض قوله اللاحق (بأنه حيث يوجد عمل فني، لا يوجد أي جنون)[4]، وعلينا أن نضيف: طالما أراد الفن التعبير – وفي كل تعبير عقل – وهذا خلافاً للتصوف حيث يتجنب العقل، فإن الفن يصبح مفهوماً لا جنون فيه.

وقد رفض الغرب المعرفة الدينية بسبب الجانب التوراتي والصوفي ""الميستي" المسيحي فيها، ورفضت السنة النبوية الإسلامية الزهد والتصوف ليبقي

---

(1) Ibid, P 158.

(2) Ibid, P 217.

(3) Ibid, P 287.

(4) Ibid, P 289.

على الدين خالياً من معاينة التوراتية والزهدية، التي عادت بقوة من الأديان السالفة الى الإسلام، لتحول أكبر دين تجريدي عقلاني للإله الى وثنية عبادة الحكام والمتصوفة، ففقد معناه الحضاري، ولا زال العالم الإسلامي في أغلبه متمسكاً بتلك العوامل التي تهدم صلب كيانه العقلاني لأنها الأسهل، لضعف التحصيل الثقافي والعلمي بين الناس.

قال ﷺ: (ليس العي عي اللسان ولكن قلة المعرفة بالحق)[1]، فكيف يمكننا أن ننتفع من مثل هذا الحديث الشريف، وعلى أي أساس فلسفي تقوم النفعية؟!

---

[1] مسند ابن حنبل، مرجع سابق، ج 4، ص 42.

الباب الثامن

الفلسفات المسيطرة على العالم اليوم

النفعية، "Utilitarianism" والميكيافيلية:

قرر "هوبز" أن (العقل في الإنسان ليس أكثر - قوة - او أهم من العاطفة - المشاعر عنده -)[1]، وقرر أيضاً أن (ليس في الديمقراطية أكثر من حكم الارستقراطية الأدبية)[2] وقاده هذا الى النتيجة التي اشتهر بها وهي أن (الناس دوماً في حالة حرب.... وخشية متبادلة من واحدهم للآخر)[3]، فكل (إنسان مضطر بطبعه.... لأن يحمي بالحرب السلطة التي يحميها زمن السلم)[4] فالناس دوماً بحال قتال سلماً أم حرباً. وهذه حقيقة واقعية "Facts" لا يمكن نكرانها كما فعل "روسو"، حين قال: (دعونا لا نستنتج مع "هوبز" أن الإنسان شرير بالفطرة.... لأن ليس

(1) Thomas Hobbes, Human Nature and de Corpore Politico, Oxford University Press, N.Y., 1994, P 82.

(2) Ibid, P 120.

(3) Ibid, P 103.

(4) Leviathan, op. cit. 719.

لديه معرفة بالفضيلة حين يطلب من الآخر خدمات قد لا يمكنه تقديمها.... فمنطق "هوبز" هو أن الإنسان لا يهتم إلا ببقائه وحاجاته وسلالته.... مما يحتم ضرورة القانون – في المجتمع – .... لنستنتج من قول "هوبز".... أن الإنسان سيهاجم أمه إذا تأخرت برعايته.... ويخنق أخاه الصغير حين يزعجه ببكائه)[1].

ورغم أن هذه من ضمن الجرائم التي تحصل في كل المجتمعات ولا يضبطها سوى القانون، نحن نعرف أن علم النفس الحديث يعامل الدوافع والغرائز الإنسانية معاملة تؤكد شرورها، كذلك يمكننا أن نؤكد بمجرد رؤية نشرة الأخبار في أكثر الأيام حبوراً، كمية من الجرائم المنظمة بالحروب بين الدول لتقشعر منها الأبدان لكن لا تدان إدانة الجرائم الفردية التي لا تقل عنها وحشية وكأن:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر؟!

فما الذي يبقي العلاقات بين الدول، وحتى بين الأفراد – بكل عدوانيتها المعلنة والمستترة باللاشعور –؟!

أجاب "ديفيد هيوم" على هذا السؤال، بأن المسألة ليست مسألة عقد اجتماعي كما توهم "روسو"، بل هي مسألة: "منفعة" لا أكثر ولا أقل!؟ (فنحن إذا تفحصنا بالأسباب التي تجعل الرجال عظماء بصورة عامة عند كل الناس، سنجد أن أهم صفة تعزى لهم تقوم على شقين: من حيث قيامهم بدورهم الاجتماعي، مما يجعلهم خدومين – للآخرين – ولأنفسهم حيث يتمكنون من تحسين مصالحهم.... بقدر كرمهم وإنسانيتهم مع الآخرين)[2].

كذلك تقوم علاقات الدول على المصالح لا على الأخلاق الحميدة، ولهذا يتردد دوماً أن الأخلاق الإنسانية – كعلم – لم تتقدم منذ القواعد التي وضعها لها "أرسطو" – لنيقوماخوس" حوالي ثلاثمائة وثلاثين سنة قبل الميلاد[3]، ولم تفعل كل

---

(1) Jean-Jacques Rousseau, Discourse on the Origin of Inequality, Oxford University Press 1999, PP 44-45.

(2) A Treatise of Human Nature, op. cit, P 637.

(3) "أرسطوطاليس"، علم الأخلاق الى نيقوماخوس، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1924م.

الأديان السماوية بعد ذلك إلا بزيادة شعور الإنسان بالإثم، الذي استدعى زيادة طلب الرحمة من الله، والندم على التفريط بكل قواعد الدين الأخلاقية السامية من أجل المنفعة والمصالح الشخصية والقومية بين الدول – والدول الإسلاميـــة من بينها –، وعلى الرغم من كل ما حذر منه المصلحون والأدباء والفلاسفة، بشكواهم الدائمة من النفعية وقلة الأخلاق المصاحبة لها، وكفيض من غيض، قال المعري:

مثل البهائـــم غرتها سلامتها   والله يمهـــل حينـــاً ثم ينتقم[1].

على الرغم من كل هذا وسواء شئنا أم أبينا، أي سرنا مع التيار النفعي أم عكسه، فهو واقع يجب بحثه فلسفياً بكل أبعاده الممكنة، وأقول بحثه فلسفياً وأخلاقياً لما له من تبعية للأخلاق خلف الفلسفة او الدين بمعناه الإيديولوجي.

فأنت مهما أدنت النفعية لا تستطيع أن تعيش إلا ضمن قوانينها، شأنها شأن أي واقعة "Facts" واقعية معطاة، لذلك من الأفضل لك أن تفعل ما فعله "بنتام" في كتابه "ثروة الأمم" حيث وضع قاعدة عدم مقاومة النفعية في الاقتصاد: -Laissez" "Faire أي "دعنا أحراراً فنصبح منصفين"، وهذا شعار الثورة الفرنسية أيضاً، المبني على رأي "أرسطو" بأن (حب الذات ينطوي عليه كل منا ليس شعوراً مستنكراً، بل هو إحساس طبيعي محض.... وليس إلا الملكية الفردية، هي التي تكفل لنا السعادة)[2]، وقالها ضد نظرية "أفلاطون" الشيوعية في جمهوريته: (فمن البين أن الأفضل هو أن تكون الملكية خصوصية، وان يكون الانتفاع بها وحده هو الذي يجب أن يصير شائعاً)[3].

لكن ما هي الضوابط – الطبيعية – لحب الذات هذا؟؟ بمعزل عن أي قمع شيوعي – فوقي – يجبر على التخلي عن الملكية وبالتالي عن سعادتنا نفسياً، وعن غريزة "الحيز" لدينا، شأن كل الثدييات اللاحمة التي تحدد أماكن حيزها ببولها، لكي تربي صغارها بأمان، ومن لا يقدر على شم ذلك ستهاجمه "Territoriality" .

---

[1] اللزوميات، مرجع سابق.

[2] أرسطو طاليس، السياسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام 1979، ص 136.

[3] المرجع السابق، ص 135.

أجاب "ميكيافليي" على هذا السؤال أنه مع استحالة وجود أي ضوابط يجب إطلاق هذه الغريزة – حب الذات والسيطرة من أجل التملك والاستمتاع بالحيز – الى أوسع مدى ممكن مهما خالف ذلك الأخلاق والدين!؟

وأجابت النفعية "Utilitarian" بأن الضوابط هي من ذات طبيعة حوافز حب الذات، طبيعية وليست فوقية قهرية، فعدم مقاومة النفعية في الاقتصاد مثلاً يقوي المنافسة فتتحسن نوعية البضائع، مما يمكن من التقدم التقني ورخص الأسعار بذات الوقت، فترك الناس أحراراً في كل تنافس هو سر التقدم الاجتماعي للأمم وللأفراد، أي يجب تطبيق رأي "أرسطو" كما وضعتـــه حقوق الإنسان بعد الثـــورة الفرنسية:

Laissez-passer – Laissez-faire

دون أي تعرض للأخلاق يجبر المتعاملين بها، بل من خلال نتائجها لا فرضها بالقوة.

والقاسم المشترك بين هذين الاتجاهين – النفعية والميكيافيلية – هو عدم اللجوء الى أي وعد أخروي في ممارسة الأخلاق، كالثواب، العقاب الديني، لأن مثل هذا الأمر عند "الميكيافيلي" غير واقعي، وعند "اليوتيليتاري" النفعي يدخل في سياق المنفعة المؤجلة – ليس إلا – Credit –، يقول "ميكيافيلي": (الذين تمكنوا من تقليد الثعلب نجحوا أكثر من غيرهم، فإن من يتقن الخداع، يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته)[1]. وقد كتب هذا وفي ذهنه "سيزار بورغيا Cesare Borgia "الابن اللاشرعي للبابا "الاسكندر Alexander VI" الانتهازي عاشق التسلط، والبورغيا "Borgia"، هؤلاء أسرة "اسبانية" تسلطت على السلطة في القرن الخامس عشر، حيث وصل احد أفرادها "رودريغو Rodrigo" الى منصب البابوية، ولقب "بالاكسندر" بسبب أساليب التفتيش التي شجعها لطرد العرب من الأندلس، والقضاء على كل هرطقة مسيحية ضد تلسطه على الكنيسة – بزعمه –، حيث اتبع الأسلوب العربي العصبي العشائري في تسليط أقاربه على "روما"،

[1] نيقول ميكيافيلي، الأمير، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1979، ص 149.

ومنهم أولاده اللاشرعيون مثل "سيزار" و"لوسريزيا Lucrezia" اللذان اشتهرا بالجريمة والتطرف اللأخلاقي، شأن أولاد الزنا الذين لا ينكرون أصولهم، قال "ميكيافيلي": (وهناك أمير معين، يعيش في عصرنا، ويحسن بنا أن نغفل ذكر اسمه، جعل همه الدعوة الى السلام والوفاء للمواثيق، بينما هو في الحقيقة عدو لدود لهما، ولو قدر له أن يرعى أحدهما، لأضاع دولته)[1] وقال هذه واقعة حقيقية "Fact" تدل على: (حقيقة لا استثناء فيهـا – هي – : تبرير الغاية للواسطة)[2]، كقانون لم يضعه "ميكيافلي" بل جل ما هنالك أنه اكتشفه، في التعاملات الاجتماعية التي بدلت المفهوم الإغريقي "Politike" المشتق من التنظيم "Politics"، الى الترويض: من ساس يسوس أي رَوَّضَ وقهر فهو سياسي[3]، وقد حصل هذا التبديل في "الأندلس" التي كان يحاربها "رودريغو" قبل وبعد أن أصبح "بابا" للفاتيكان فتبناه لمعرفته بأثره النفعي المباشر مهما كان ضاراً في المستقبل.

ولعله لا يوجد في عبارة الطغيان ما هو أوضح من عبارة: "سياسة"، وارتباطها بالدهاء (فالدهاء عندهم كان مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن)[4] لذلك اجتمع دهاة العرب حول سياسة "معاوية" و(رواة التاريخ العربي يحدثوننا.... عن دهاتهم في صدر الإسلام فيقولون أنهم أربعة: عمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه ومعاوية بن أبي سفيان، ويقولون أن ابن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات وزياد لكل كبيرة وصغيرة، ومعاوية للروية)[5]. روية الترويض الذي جعله الفن الأول والأخير فيما سماه سياسة الدهاء. لذلك برز معه الطغيان الشرقي ثانية بعد الأكاسرة فكان (لا يبالي أن يأخذ البريء بذنب الأثيم، ولا أن ينكل بالقريب قصاصاً من البعيد)[6].

---

[1] المرجع السابق، ص 151.

[2] المرجع السابق، ص 150.

[3] انظر كتابنا، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 108.

[4] عباس محمود العقاد، معاوية في الميزان، دار الكتاب العربي، بيروت 1966م، ص 42.

[5] المرجع السابق، ص 45.

[6] المرجع السابق، ص 193.

ففي أحد كتبه الى "زياد" - الذي كان إبناً مجهول الأب مثله في ذلك مثل قدوة "ميكيافيلي" سيزار بورغيا - قال: (لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة... ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة)[1]، فإضافة الى وضع وزره على غيره، كانت (حيلة الشبهة من انجح الحيل في سياسة "معاوية" مع خصومه.... مات الحسن ومات مالك بن الأشتر.... ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.... فسبق الى الناس ظَنُ كاليقين أنها غيلة مدبرة.... وهو معاوية)[2]، وتشبه أن تكون وصيته لابنه "يزيد" قانوناً ميكيافيلياً لمعنى الترويض، بدل مفهوم التنظيم في معنى السياسة (فإنها سياسته التي كان يعيدها كما بدأها لو أنه عاد بها من جديد في أيام يزيد)[3]، لذلك ختم "العقاد" ميزانه لمعاوية بقوله عنه: (فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور)[4]، تلك هي صفة المروض لا صفة المنظم، في معنى السياسة في الطغيان الشرقي الذي افتتحه دهاة العرب منذ صدر الإسلام، ونقله ملوك الطوائف الى "الأندلس" شانهم شأن ملوك الطوائف عندنا اليوم، لتفضحهم "الميكيافيلية" بفضح أشباههم على سدرة البابوية.

فالذنب ليس ذنب "ميكيافيلي" في فضح الطغيان السياسي تحت اسم "Politics" أي التنظيم، لذلك قال "رسل": (إن الذين لم يقرأوا "مطارحات" "ميكيافيلي" سوف يأخذون جانباً واحداً من نظريته فقط)[5].

أما القارئ الذي يريد أن يقرأ مطارحات "ميكيافيلي" بصورة جيدة، فعليه أن يحل لغزاً أساسياً من ألغاز الكتابة الفلسفية، وهو تحديداً علاقة المفاهيم بالتجربة الحياتية الواقعية لكاتبها، سواء كانت تجربة أكاديمية، اجتماعية، او سياسية، او دينية.

---

[1] المرجع السابق، ص 196.
[2] المرجع السابق، ص 68.
[3] المرجع السابق، ص 198.
[4] المرجع السابق، ص 207.
[5] History of Western Philosophy, op. cit, P 492.

فالتجربة الإلحادية "لسارتر" الطفل مع جده شكلت كل توجهاته اللاحقة "Attitude" في مفاهيم الغثيان واللاهوتية، وكون الإنسان حرية لأنه متروك، وسواها من المفاهيم، كذلك تجربة "هيدغر" مع "النازية" وانضمامه إليها، ترتبط بمفاهيمه عن "الاستغراق" بما يحيط بالإنسان من "كينونات"، مع كل ما فيه من خطر حين التأمل بالذاتيات الطاغية الذي وقع فيه كما مع "هتلر"، وعدم وجود بديل تأملي لديه، لذلك استغرق بالنازية، ليقول في تعريف المعرفة بأنها (التحكم والسيادة على الموقف الذي نجد أنفسنا متورطين فيه)[1]، وذلك طبعاً في استغراقنا الكلي فيه، سواء اخترناه أم كان مفروضاً علينا، لذلك حاول أن يكون موجهاً للنازية ففشل؟!

وقد فرضت على "ميكيافيلي" تجربة لا أخلاقية سياسية سيئة، مع مسؤولين وحكام طغاة فاسدين، فعكسها في "مطارحاته" ومن جهة هؤلاء كانوا تحت ضغوط انفصالية داخل بلادهم وصليبية خارجها، وأمامهم قدوة طغيان شرقي تركي في شرق أوروبا، وأندلسي متداعٍ في غربها، فعندما (انتخب – أدريان السادس – لتولي الكرسي البابوي، قضى ستة أشهر ليصل من "هولندا" الى رومة، ليجد خزانة باباوية خاوية، وليعالج مشكلة الإصلاح البروتستانتي الديني، ومشكلة توغل الأتراك في أوروبا بعد احتلالهم لبلغراد "1521م")[2].

هكذا كانت الإمبراطورية الرومانية بحالة تداعٍ لاستحكام شرورها فيها، فاقترح "ميكيافيلي" علاجاً من نفس طبيعة الداء، لأن (من شيمة الجنس البشري التقليل من أعمال بعضهم بعضاً)[3] بسبب (غريزة الحسد المتأصلة في طبيعة الإنسان)[4]، وبناء على هذه الوقائع "Facts" في صلب الطبيعة الإنسانية (يجب أن

---

[1] Richard Wolin, The Heidegger Controversy, the MIT Press, Cambridge, London 1993, P 58.

[2] نيقول ميكيافيلي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1982م، ص 70.

[3] المرجع السابق، ص 207.

[4] المرجع السابق.

نأخذ دروس الماضي وعبره)[1]، لا أن نتخيل أي عظمة أخلاقية سابقة جعلت الأولين أفضل منا، ألا نجد صدى هذا بقول "شوبنهور": (فالخلف سيكون دائماً وبالدرجة عينها في الدناءة والحمق مثل السلف ومثل المعاصرين في كل زمان)[2].

فلماذا يخفي الأخلاقيون والوعاظ هذه الحقيقة ويتعاملون معها في ذات الوقت، مدعين التبرؤ منها؟! وهل كل من يبرز هذه الحقيقة وهي التي استعاذ منها القرآن بربها الذي خلقها مسؤول عنها؟

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفلق].

أما منهج المقارنة بين هذه الوقائع في الماضي والحاضر فهو أسلم المناهج لفهم التاريخ على حقيقته، يقول: (وسيضم ما أكتبه، وما توصلت إليه من نتائج، مقارنة أحداث الماضي بشؤون الحاضر)[3].

وهذا هو المقصود بضرورة عدم تصور "ميكيافيلي" على أنه مخترع عبارة: "الغاية تبرر الوسيلة"، بل جل ما هنالك هو أنه مكتشفها من خلال سلوك الناس الاجتماعي أمامه، والتاريخي الذي يعرفه حق المعرفة. لنقرأ في المطارحات "The Discourses" أن (الشعب الفاسد لا يستطيع الحفاظ على الحرية)[4]، وتحت هذا العنوان نجد أنه (بعد جيلين من الحكام الفاسدين يفسد الشعب، ويضرب على ذلك مثال "نيرون" في الماضي و"نابولي" و"ميلان") في عصره، أما إصلاح هذا الأمر فشبه مستحيل، لأنه (يندر أن نجد رجلاً صالحاً على استعداد لاستعمال الأساليب السيئة لإعلان نفسه أميراً)[5].

---

[1] المرجع السابق، ص 209.

[2] عبد الرحمن بدوي، شوبنهور، دار النهضة العربية، القاهرة 1965م، ص 279.

[3] المطارحات، مرجع سابق، ص 209.

[4] المرجع السابق، ص 283.

[5] المرجع السابق، ص 291.

ولا حل إلا في الديمقراطية عند "ميكيافيلي"، يقول: (الذين لم يكونوا ينالونه عن طريق الوراثة او الخديعة او العنف، يصلون إليه عن طريق أصوات الشعب "الحرة" – وفي ظل هؤلاء – ازدهرت "روما" – إذ ضمنت تتابع حكام يمتازون بالفضيلة)[1]، لكن الوصول الى هؤلاء، نادراً جداً لأنه (يندر أن يمارس الناس العمل كصالحين كل الصلاح أو طالحين كل الطلاح)[2]، لكن هناك أيضاً صعوبات بالإصلاح أكثر بكثير من (سهولة إفساد الناس)[3]، بسبب طبيعة الناس في سرعة (تنقلهم من طموح الى آخر)[4]، وكذلك إمكان دخول شخص حقير في منصب رسمي[5]. ومن السهل التأثير على الشعب بسين وسوف (بالآمال الكاذبة والوعود المتسرعة)[6]، خوفاً من قوة العامة حين يتحدون، مع معرفة سهولة تفرقهم وضعفهم الحقيقي[7]، وخير وسيلة لذلك إعطاء المناصب العامة الهامة لغير مستحقيها، من الذين يرتقون عن طريق الحيلة لا عن طريق العقل والمؤهلات، اعتماداً على مدى خطأ آراء الناس تجاه قضايا الساعة[8]، هكذا يضع "ميكيافيلي" قواعد السلطة عن طريق الحيلة والخنوع من جهة – طالما أن المتسلق ضعيف –، أو بالبطش والقوة حين يتمكن، وفي تاريخنا الحديث حين طبق "السادات" هذه القاعدة في عهد "عبد الناصر" ظل قريباً من السلطة، الى أن اقتنصها حين شغر منصب الرئاسة بموت "ناصر"، ثم راح يبطش بخصومه، ثم بقتله حصل ما يشابه.

فالطبيعة بكل سلطة تستدعي خنوع الثعلب ووثبة الذئب معاً، للوصول الى السلطة، لكن (عندما يبعدون عن القناعة يغدو الفشل من نصيبهم دوماً)[9]، فبعد أن يثب الذئب، عليه أن يلبس جلد الحمل الذي قتله، ولأن "السادات" لم يفعل: قُتِلَ!!

---

[1] المرجع السابق، ص 296.

[2] المرجع السابق، ص 310.

[3] المرجع السابق، ص 362.

[4] المرجع السابق، ص 369.

[5] المرجع السابق، ص 377.

[6] المرجع السابق، ص 389.

[7] المرجع السابق، ص 404.

[8] المرجع السابق، ص 525.

[9] المرجع السابق، ص 549.

وجلد الحمل لا يصلح إلا مع شعبه، أما إذا لبسه أمام القوى الأجنبية، فإنها ستكون أول من يساعد على قتله، لذلك افرد "ميكيافيلي" باباً لتعامل "رومة" مع الدول والمدن المجاورة، أكد فيه على (مدى الخطورة في تغافل – الأمير – عن الثأر لإساءة لحقت بشعبه)[1]، وهذا هو سر تلاحم اليهود في إسرائيل حول دولتهم (لا عندما ترتكب الإساءة بحق الشعب بكامله فقط، وإنما عندما تؤثر على فرد واحد أيضاً)[2]، وبذلك يشعر كل فرد بأنه غير هامشي في دولته فيتلاحم معها، مهما كانت مبنية على الطغيان كإسرائيل.

كذلك على القافز الى السلطة برأي "ميكيافيلي"، أن يمنح قادته والعسكريين الكبار عنده حرية التقدير في تنفيذ أوامره، لا أن يربكهم بالتفاصيل التي قد لا تتلاءم مع جو التمرد او المعركة[3] على أن لا ينسى القافز الى السلطة وجود المتربصين به، ولا يخشاهم زيادة عن اللزوم وذلك بأن يقلل العوامل التي تؤدي الى تكاثرهم ضده، فعلى الامير – الطاغية – (أن لا يسيء إساءات شخصية لأحد.... في ممتلكاته.... فإن الأذى الذي يمس المرء في ممتلكاته هو أكثر أنواع الأذى تأثيراً عليه)[4]، فمنذ "أرسطو" – كما اشرنا – وحتى "العولمة Globalisation" اليوم، ومن ابسط خلية "ميكروسكوبية" الى أضخم الحيوانات من الحيتان والفيلة والإنسان، والغريزة في الحيازة والحيز والملكية والتملك واحدة، ومسها هو اكبر سبب لانتفاض العضوية والحيوان والإنسان، ولم تدمر "الماركسية" داخلياً بسبب أهم من هذا، ولا تقتتل الدول على حدودها لسبب غير هذا.

فإذا مد الحاكم يده الى أرزاق الناس وحيزهم – أملاكهم – تحت أي شعار – اشتراكي او إصلاحي او أي تسمية –، عليه أن يتوقع من هؤلاء (الرغبة في تحرير الوطن – بمعنى الحيز – من الأمير الذي اغتصبه)[5]، وبذلك سوف

---

[1] المرجع السابق، ص 554.
[2] المرجع السابق، ص 555.
[3] المرجع السابق، ص 573.
[4] المرجع السابق، ص 599.
[5] المرجع السابق، ص 599 أيضاً.

يساعدون كل متآمر عليه، أي يصبحون مهيئين لخيانة وطنهم، دون أن يقدروا على ذلك لأن (وقائع التاريخ تثبت أن القائمين بالمؤامرات دائماً من الرجال ذوي الحظوة عند الأمير)[1] – دود الخل منه وفيه –؟!

لذلك على (الأمير الذي يحرص على نفسه من المؤامرات أن يخشى الذين أضفى عليهم المزيد من نعائمه، أكثر من خشيته من الذين أساء إليهم)[2] فالذين أسيء إليهم يصبحون مجرد داعمين للمتآمرين إذا نجحوا، ومنافقين للأمير إذا فشلوا. لكن حين ينتقلون الى بلد أجنبي بعد فشلهم – إذا لم يقض عليهم – يصبحون "كخدام" للتآمر على وطنهم، الذي به كثير من المستعدين للخيانة من عصبة الأمير وجماعته، يشجعهم تذمر المغتصبة أرزاقهم وباسمهم يتحدثون وينعتون انفسهم، بدل نعت الخيانة للوطن.

ويضرب "ميكيافيلي" أمثلة كثيرة على ذلك من تاريخ روما وأثينا، مؤكداً أن الذين ينجون من التآمر يصبحون (أكثر مرارة)[3] وبطشاً دون تمييز مثل: ما حصل مع (المتآمرين على الكونت "جيرولامو" ومن أسر زوجته وأطفاله الصغار، وظلت أرواحهم مهددة طالما بقيت قلعته مستعصية.... ووعدت الكونتيسة المتآمرين بأنهم إذا سمحوا لها بالذهاب الى القلعة ستعمل على تسليمها إليهم.... وسمح المتآمرون لها.... وما كادت أن تصل.... حتى تعرت أمامهم قائلة: ان في وسعها أن تنجب أطفالاً غيرهم، فأخرس المتآمرون ودفعوا جزاء – ذلك – النفي الدائم من – بلادهم –)[4].

فنجاح المؤامرة يعني موت الأمير، لكن فشلها يعطيه (وسيلة مبتكرة بإبراز قسوته)[5] التي تسمح لها الطبيعة الإنسانية، تحت دعاوى الدفاع عن النفس.

---

(1) المرجع السابق، ص 601.
(2) المرجع السابق، ص 604.
(3) المرجع السابق، ص 621.
(4) المرجع السابق، ص 623.
(5) المرجع السابق، ص 627.

ان دافع الوطنية في الاستقرار قد يدفع البعض الى تحذير الحاكم من خطأ التعرض لأملاك الناس وأعراضهم، لكن الأنانية تأبى النصيحة وتخلط بين ناقل الشر وفاعله، لذلك تقمع الدول "التوتاليتارية Totalitarian" حرية النقد والتحذير، فتفسح المجال لتبدل الطغاة فيها بصورة دائمة. لأن القائد الملهم ليس بحاجة الى من يغيظه بتحذيراته، التي يعتبرها بمثابة توبيخات، كما حصل لدوق "أثينا" الذي (رغب في إظهار اعتقاده بأن "الفلورنسيين" يحبونه، فسارع الى إعدام رجل كان قد أفشى له سر مؤامراتهم)[1]، مما أدى الى مصرعه نتيجة ذلك، وبإحباطه من عزائم المخلصين له بكل فلورنسا.

هكذا تجد أن "ميكيافيلي" لم يشجع الحكام على الرذيلة كما يدعي ناقدوه، بل كل ما تحدث عنه عبارة عن وقائع Facts"، لا يمكن تجاهلها عند صاحب أي سلطة كانت، ومن يتجاهلها تحت ستار الأخلاق التي لا تسمح بالدلالة على الشر، يتحرك بعقلية القرون الوسطى المظلمة بضرورة عدم اطلاع الناس على الحقائق بصورة عامة، والجنسية بصورة خاصة خوفاً من الغواية؟!

كتب "فرانسيس بيكون" يقول: (لقد كان ميكيافيلي من الجرأة بمكان دفعه الى الكتابة بشكل واضح وصريح عن كل ما تخلى عن كتابته – المسيحيون– والدين المسيحي لفضح الطغيان والجور)[2] – ويمكننا أن نضيف – أن: الطغيان والجور من ألصق الصفات بالإنسان إذا تمكن المرء من رقاب الناس أمثاله، وبأخذ هذه الحقيقة الواقعية "Facts" بعين الاعتبار، قامت كل الدول الديمقراطية على توزيع السلطات، لكي لا يبقى احتمال صناعة الطغاة حين تصبح السلطات الزائدة في أيديهم، من منطلق أن زيادة السلطة بيد الإنسان لا تعني سوى زيادة فساده وطغيانه، كائناً من كان حتى ولو كان من سلالة القديسين؟! وقد أشار الله الى هذه الطبيعة الإنسانية بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝﴾ [العلق/6] وقال: ﴿إِنَّ

---

[1] المرجع السابق، ص 629.

[2] دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 161.

جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝﴾ [النبأ/22] وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون/75].

ولا يبريء الإنسان من طبيعته الطغيانية هذه إذا طغى سوى؛ الموت، لأن بالطغيان كل لذائذ الشيطان ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء/78] صدق الله العظيم.

فقد لا يكون "ميكيافيلي" شيطاناً بقدر ما لم يكن "لوط" لوطياً، ولكن للاثنين وزر البشرية في مواقع الشبهات.

فوصف الأول ما يفعله الباباوات والأمراء حين حصولهم على السلطة المطلقة فلُعِنَ، وجعلت التوراة الثاني منقذاً للملائكة من اللواطة زانياً بابنتيه؟! بتقديمهما الى قومه أولاً[1]، ومستولدهما بنفسه ثانياً[2] حين خلت الأرض بعد تدمير مدنيتين لوط: "سادوم – و – عامورا"؟!

هذا الطغيان بالاتهامات لمن يحارب شراً ما، عند ذوي السلطة الفكرية، قد يكون أشد وأدوم من طغيان الحكام الطغاة، الذين وصفهم "بالأمير" وفصل سلوكهم "بالمطارحات" والتي لا زلنا فيها، لأن الحكام يزولون لكن طغيان ذوي السلطة الفكرية يبقى عند معتنقي عقائدهم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة/79].

لذلك يجب متابعة "ميكيافيلي" الذي فضح الطغيان الواقعي، بفضح الطغيان العقلي – العقائدي – الذي يزيد شرور هذه الأرض التي وكل بها الشيطان منذ السقطة الأولى. ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء/76]. ولأجل هذا فيما نحن بصدده لا بد من معرفة كيف تسربت الميكيافيلية بمعناها الرديء، –

---

[1] سفر التكوين: 6–19–7.

[2] سفر التكوين: 34 : 19–35.

ولو كان يجب وضع صياغة تعزلها عن مؤلفها - الى المذاهب الفلسفية الغربية، التي تفرض نفسها على عولمة العالم اليوم "كالنفعية" التي نحن بصددها، ثم "البرغماتية" التي سنأتي عليها.

ذلك أن إقرار النفعية بالمنفعة الاقتصادية التي تسير علاقات الناس ببعضهم بعض، رغم تبنيها للفكر "الارسطوطالي" المركز على - الحيز - وضرورة الملكية الشخصية، يجعل النبع "الهيغلي" الذي شربت منه شبيهاً بما شربت منه "الماركسية"، ذات النزعة الأفلاطونية - تحديداً شيوعية أفلاطون في الجمهورية، لا مثاليته -، فإذا أضفنا لكليهما تركزيهما على صلة السياسة بالاقتصاد، نجد أن "الميكيافيلية" تضرب بعمق في صميم هذين الاتجاهين بما يمكننا اعتباره فلسفة الاستسلام للواقع لا تغييره كما ادعت الماركسية، التي لم تغير سوى البنية السياسية فيه، ولم تحاول التصدي للبنية الأخلاقية، كما فعلت التجريبية.

يقول "جون ستيوارت مل" (ان أوراق الاعتماد الأساسية في أسس الأخلاق النفعية.... تعتبر العمل أخلاقياً إذا كان يهدف الى زيادة السعادة.... وأعني بالسعادة المتعة وتجنب الألم وغيابه؛ وباللاسعادة الألم)[1].

و"الميكيافيلية"[*] التي يمكن أن تدخل في هذا الطرح هي في؛ الضوابط التي يمكن او لا يمكن وضعها لمطلب السعادة هذا، الذي تعتبره النفعية أساس كل عمل أخلاقي فردي او اجتماعي؟!

والسعادة كحالة سيكولوجية مطلوبة من كل الناس، تحتاج الى ما يرسخها ويؤكدها، وهو ما وجده "ميل" عند "بنتام" بالمنفعة، خاصة وأن "ميل" كان يدرك جيداً أن المنفعة يجب أن لا تأتي من ضرر الآخرين، ذلك أن (الفضيلة حسب النظرية النفعية.... مرغوبة.... لا لأنها أداة للسعادة، ولكن لأنها جزء منها)[2]،

---

(1) John Stuart. Mill. On Liberty and Utilitarianism. Bantam Books. London 1993, P 144.

(*) "الميكيافيلية" هنا مصطلح يجب عدم ربطه بكاشف أمرها، أستعمله هنا مع الاعتذار لميكيافيلي، لعدم وجود مصطلح بديل لفلسفة الاستحواذ الأنانية هذه؟!

(2) Ibid. P 179.

وبهذا "تصبح الغاية جزءاً من الوسيلة"، وليست مبرراً لها، فليست السعادة بهذا المعنى مطلبا منفصلا عن الأخلاق، وإلا لصارت شقاء للآخرين، كما حدث في الثورة الفرنسية، التي قارعها "إدمون بورك Edmund Burke " من منطلق أن فكرة كتابه "ردود على الثورة في فرنسا Reflection on the Revolution in France "[1] وهذا المفهوم صعب على عامة الناس لذلك أكد على ضرورة المحافظة على التقاليد، لأنها نتاج أعمال عقل طويل من الأجداد، لا يستطيع الأحفاد القيام به، لأن (الذي يسير الناس هي عواطفهم لا عقلهم)[2].

ومن هذا المنطلق يصبح تأثير الأفكار التي يسمعونها أقوى بكثير مما يفكرون به، فإذا لم تكن عندهم تقاليد تردعهم، ساروا وراء غرائزهم على ظن أنها ستوصلهم للسعادة كالقطعان الهائجة، كما حصل في الثورة الفرنسية، وهكذا يفصل مطلب السعادة عن الأخلاق، وكلما دمرت الثورات تقاليد أمة ما، كلما أغرقتها بأحضان الخراب (لأن الطبيعة الواحدة لكل التحزبات التي تحرك كل حزبية هي واحدة ومبنية على روح الطموح، والمصالح الذاتية والسيطرة – القهر – والخيانات)[3]، وهي أساس تدمير الأمم إذا تمكن حزب واحد من السيطرة عليها، وهكذا دمرت "البورجوازية" تقاليد الأمة الفرنسية بدعوى الخلاص من الملكية، لتفتح المجال لإمبراطورية أسوا هي؛ النابليونية؟!

لذلك قال "ميل Mill ": (من الأفضل أن تكون مستاءً مثل "سقراط" على أن تكون سعيدا كالأهبل)[4]، فالنفعية يجب أن تمارس من خلال تقاليد اجتماعية رادعة، إنها مناخ فكري يطلب السعادة ضمن تقاليد عقلانية راسخة، فأنت لا تستطيع أن تدعي النفعية في مجتمع فوضوي ثوري، كل واحد فيه يشد النفع لصالحه، والأقوى مثل "نابليون" على أحسن الأحوال يعيد طغياناً ملكياً غير مسبوق.

---

(1) Edmund Burke, A Philosophical Enquiry, Penguin Books N.Y., 1998, P XI.

(2) Ibid, P XX.

(3) Ibid, P 36.

(4) On Liberty, op. cit. P 148.

ومنذ "أبيقور" أكدت النظريات النفعية على هذه الحقيقة التي تشير الى التقاليد، أي العقلانيات الراسخة عند الأمم، فلا حاجة للعوام لإعادة أي نظر فيها، وبذلك يرتفع المجتمع عن ظن أن السعادة التي تنشدها النفعية سعادة حيوانية – لذائذ –، فكثير من "الرواقيين Stoics " ركزوا على هذه المفاهيم، كما ركزوا على "كيفية" المتعة بدل "كمها"[1]، وهذا يعني أن اختيار النفع – المردود – الآني على حساب اللاحق الأفضل مرفوض في المذهب النفعي منذ بداياته الرومانية، وإلا تسربت "الميكيافيلية" الى اليوتيليتارية كما سنرى.

وكل هذا يرجع الى حقيقة واقعية أساسية "Fact" هي: أن ما يقود سلوكنا كبشر هو تجنب الألم بكل معانيه النفسية والجسدية، حتى لو قادنا هذا الى تجنب اللذة، التي هي ليست عكس الألم بل هي ألم من طبيعة غريزية، ذلك أن الأعصاب التي تنقل الشعور بالألم هي الأعصاب ذاتها التي تنقل الشعور باللذة، والفارق أنها هذه المرة مدفوعة بغريزة حياتية ما، خذ البلع مثلاً تجده لولا غريزة الإبقاء على الحياة بالطعام لكان مؤلماً جداً، وكذلك الجنس، لذلك تجد أن "السادية – و – الماسوكية Sadism-and-Masochism " تهدفان الى لذة منحرفة.

فنحن كبشر نتجنب الألم حتى حين نمارسه، فعكس الألم ليس اللذة، بل السعادة بزواله فقط، فالسعادة والألم يقرران كل ما يجب أن نعمله، لذلك وضعت النفعية قانونها الشهير: "أكبر قدر من السعادة – زوال الألم – لأكبر قدر من الناس"، إذ من الطبيعي أن الإنسان بحال زوال كل ألم به – نفسياً كان أم جسدياً – يمكنه أن يتوجه الى استغراقاته – حسب تعبير "هيدغر"[*] – التي تهمه في الحياة، فيبدع فيها لأنها هي وجوده.

---

(1) Ibid, P 146.

(*) أي تأمله او انخراطه بنشاط ما – استغراق وتأمل "Meditation" – فيشعر الإنسان بتواجده من خلال هذا النشاط، فأن تتواجد بهذا العالم يعني أن تنخرط بشيء منه الآن، وبشيء آخر بعد لحظة أخرى وهكذا، فالوجود والعالم عند "هيدغر" شيء واحد، وهذا أدق تعريف للكينونة – التواجد – التي تقود الى الشعور بالوجود من خلال هذا العالم الذي نحن فيه.

وهذا ما وضعه والد "ميل – James Mill" كأساس للنفعية الاقتصادية، مع بعض الخلط بين السعادة بزوال الألم واللذة، حيث توحي اللذة كمطلب هنا بمعانٍ لا أخلاقية، كان حرياً بالنفعية تجنبها بدل هذا الحوار الطويل الذي وقع على عاتق الابن "ميل"، خوفاً من "الميكيافيلية" في محاولات تنقية النفعية من هذا الاتهام، ناهيك عن إمكان انزلاق النفعية نحو "الميكيافيلية" مع أي مطلب نفعي قصير الأمد، قد تقوم به الدول بقدر ما يقوم به الأفراد.

وهذا ما نبه إليه "ميل" فامتدح النفع الآجل على حساب المنفعة الآنية، ولم يجد لهذا مثالاً أفضل من استشهاد المجاهد، طبعاً قبل أن تشيع في الغرب "الفوبيا" من كلمة استشهاد يقول: (يستشهد – المجاهد – من أجل جائزة أهم من سعادته الذاتية الفردية.... فمن النبالة بقدر أن يتمكن المرء من ترك حظه من السعادة او فرض إمكان تحقيقها، ولكنه بعد كل شيء نجد أن هذه التضحية الذاتية هي من أجل غاية محددة، لا علاقة لها بالذات، فإذا قيل لنا إنها لا تمت الى السعادة، فهي تمت الى الفضيلة التي هي فوق كل سعادة، ولذلك أسأل؛ هل كان بالإمكان القيام بالتضحية لو لم يؤمن البطل المستشهد بأنه يعمل للآخرين؟.... وبذلك يزيد بتوحده معهم مقدار السعادة في العالم، والذي يفعل هذا يستأهل إقرارنا بالإعجاب به أكثر من أي زاهد "عمودي" على عموده، والذي قد يكون قدوة في ما يستطيع أن يفعله الناس، لكنه ومن المؤكد ليس مثالاً لما يجب أن يُعَمَلْ – أمثال الشهداء–)[1].

فالفضيلة الفردية فوق السعادة الفردية لأنها بالاستشهاد تزيد مقدار السعادة العمومية، وهي المثال الذي يجب أن يحتذيه الناسك الحقيقي لا الذي يعتقد (أن المسيحي الحقيقي لا يمكنه القبول بقوانين الدنيا.... فكانت قاعدة النساك –العموديين – الهرب من حكمة الإغريق، والقطيعة مع مجتمع عصرهم)[2]، وهم يجهلون أن (جذور العمودية بقايا طقس وثني كان يمارس في "منبج" – هيرابوليس –)[3] على

---

[1] ميشيل نعمان، الرهبان العموديون السوريون، دار طلاس، دمشق 2002م، ص 36–37.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق، ص 39.

ظن أن (الآلهة تستمع بشكل أفضل لصلاة رجل يقوم في موضع مرتفع)[1]، ناهيك عن أنها (نوع من القداسة الظاهرية، وغالباً ما تكون استعراضية)[2]!

لذلك قرر "ميل" أن: مثل هذه المحاربة للذات ليست مثالاً يجب أن يعمل به، كما محاربة الجور بالاستشهاد.

هذه هي النفعية التي تميز الإنسان، وخلافاً "لبنتام" فرق "ميل" بين الغبطة في القدرة على قهر الذات، وبين السعادة التي تجلبها التضحية لأكبر قدر من الناس، فليس الألم واللذة وحدهما اللذين يقرران ما يجب أن نفعله دائماً كما ظن "بنتام" ولأجل إصلاح هذا المبدأ النفعي اقتصادياً وسياسياً قرر "ميل" مبدأ النفعية القائل بأن المنفعة الحقيقية هي التي تميز الإنسان عن الخنزير، منفعة قيمية عليا يقول: (من الأفضل أن تكون إنساناً غير ممتن على أن تكون خنزيراً سعيداً)[3]، فمنذ أن قررت "الأبيقورية" ضرورة تخليص الإنسان من مخاوفه حتى يتمكن من الحياة السعيدة، واللذة ليست في انتفاء الآلام الجسدية فقط، بل بالخلاص من الآلام النفسية أيضاً، التي تمثل الجانب الباقي من ذاتنا بعد الموت، والموت لا يمكن أن يطال ذرات الجسد عندهم، فلا داعي من القلق حتى من الموت، أقول: فمنذ ذلك الوقت والبحث في "طبيعة الأشياء"[4] كما في بداياته مع "لوكريتوس" وحتى "ميل" سمة أساسية من سمات التقاليد التحررية الغربية، التي تريد أن تدفع الناس (وهم لا يحفزهم إلا ما يتوقعون لأنفسهم من نفع، الى التصرف على نحو يؤدي الى السعادة العامة)[5] كما أراد والد "جون ستيوارت ميل" "جيمس ميل" أن يفعل، وهذا ما عبرا عنه بالعبارة النفعية الشهيرة: (ان حريتك بأن تحرك يدك في الهواء يجب أن تقف حيث تصل الى أنفي)[6] فلا شيء محرم او ممنوع سوى ذلك في المذهب النفعي،

---

[1] المرجع السابق، ص 40.

[2] المرجع السابق، ص 74.

[3] Ibid, P 148.

[4] دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 84.

[5] المرجع السابق، ص 189.

[6] المرجع السابق، ص 190.

لكن المرغوب من كل المجتمعات الإنسانية والمقدس فيها جميعاً، تضحية الفرد بحياته وسعادته من أجل حياة وسعادة الآخرين (فالأخلاق اليوتيليتارية تنظر بالاعتبار الى قوة التضحية عند الإنسان بخيره الأكبر – سعادته – من أجل خير الآخرين)[1]، وطبيعي أن يعني هذا شرط وعي – إدراك – المضحي بما يقدم عليه، وسوى ذلك إذا فرض المجتمع التضحية على الفرد فهو مرفوض، كما تريد النفعية الحديثة مما يسمونه قتل الرحمة "Euthanasia" في حالات مثل: "Spinabifida" حيث يتألم الطفل المولود بهذه العاهة الجينية – إذا لم يمت – من كل حركة او وظيفة عضوية كالبول والغائط اللاإرادي، وآلامه مبرحة، او من يلدون بدماغ ناقص، و حين لا أمل من تخطي الخطرفات العقلية لكبار السن الذين لا يوجد من يرعاهم، وسيموتون بالتهاب القصبات "Pneumonia"، او يدخلون في "كوما – غيبوبة – Coma " لا شفاء منها؟!

آن ذاك يدخل من يجادلون عن المبدأ النفعي بإشكالية التمسك بضرورة تجنب وتجنيب الألم من جهة، وإعطاء سلطة القتل للمؤسسات الطبية التي لم توجد لتنفيذ أحكام الإعدام، يقول "جون لوربر John Lorber": (أن مشرعة قتل الرحمة هو أخطر سلاح في يد الدولة)[2] او حتى المؤسسات الطبية، لا كما ادعوا إذا كانت الدولة نازية فقط، بل كل هذا عبارة عن دعوة لإفساد السلطة سياسية كانت أم طبية، من المنطلق الذي سبق لنا شرحه وهو: "كلما تركزت السلطة بأيد قليلة زاد الفساد"، لذلك تقوم الديمقراطية على أساس توزع السلطات، وقتل الرحمة لا رحمة فيه إلا في مخالفة أسس الديمقراطية من أجل موافقته أسس النفعية؟! وحتى لو قرر نفعي ما أن حياته لم تعد تستأهل العيش، بسبب آلامه التي لا تطاق جسدياً او حتى نفسياً، يجب أن يظل هذا قراراً فردياً، يدخل ضمن الانتحار، وأن لا تشرعه أي أخلاق عمومية، تماماً مثل الحامل التي تجهض جنينها لسبب لا يمكن لأحد أن يحكم عليه من خارج ذاتها، قد يكون ذا علاقة بالشرف او بالجريمة او حتى

---

(1) Ibid, P 155.

(2) Peter Singer, Practical Ethics, Cambridge University Press. U-S-R, 1995, P 213.

باللاسواء النفسي – الآم نفس جسدية "Psychological Disorder" – وهي أمور لها علاقة باللاسواء لا بالنظريات النفعية التي وضعت للأسوياء فاللاسوي حين يؤذي نفسه او آخرين يجب أن يدخل في خانة الجريمة، لا النظريات الفلسفية التي وضعت للأصحاء.

كذلك لم توضع الأخلاق النفعية – اليوتيليتارية – لمقارنة الإنسان بالحيوان حين الذبح، بالجدل حول أن (حياة الإنسان ليس لها قيمة أكثر من حياة أي حيوان)[1]، مما دفع بالكثير من النفعيين الى النباتية في غذائهم "Vegetarian"، وتطرف بعضهم فرفض أن يأكل من النباتات سوى ثمارها كي لا يقتل النبتة حتى لا يحرمها من متعة الحياة (فالبطة التي يقتلها الصياد ربما كانت لها حياة سعيدة)[2]، كذلك النبات الذي نقطعه لغذائنا، والحل برأي "سنغر" هو: (التوقف عن قتل الأحياء من أجل الغذاء)[3]؟!

فكيف نعيش؟!

هكذا طغى الجانب الليبرالي المتطرف على النفعية المعاصرة، فبعد أن كانت النظريات النفعية تتعلق بالاقتصاد والسياسة والمجتمع، صارت تتعلق بالشذوذ الاجتماعي بكل حالاته النادرة والمرضية.

وهذا ينطبق على كل رأي آحادي لا يستطيع حتماً أن يعبر عن كل وقائع "Facts" الوجود، وما مطالبة المذهب النفعي بالشمولية، إلا دليل رغبة دوغمائية عند المطالب، لكي لا يضطر الى مذهب فلسفي آخر حين يواجه مستعصيات حالاته، أو حتى رأي ديني في هذه المستعصيات.

فالراديكالية الليبرالية في القرن التاسع عشر، أغلقت بكل اتجاهاتها الفلسفية؛ وخاصة الماركسية والنفعية كل باب استشارة دينية، او أي استشارة من فلسفة

---

(1) Ibid. P 117.

(2) Ibid. P 133.

(3) Ibid. P 135.

أخرى، وعلى هذا المنوال سار أتباعهم في القرن العشرين، أمثال "بيتر سنغر" الذي ذكرناه بتعصبه اليوتيليتاري، بمعنى أنه أراد أن يحل كل مشكلات الكينونة – التواجد – بالنفعية وحدها، وهذا هو العيب "الدوغمائي" بكل واحدية فكرية كائناً ما كانت، وهو الذي يدفعها الى التعصب.

ومن أهم علامات التعصب سخف القول والحجة، كقول "سنغر": (يجب علينا رفض الرأي الذي يضع حياة أفراد جنسنا بمرتبة أعلى من بقية الأجناس، فبعض أفراد الأجناس الآخرين هم أشخاص – كالبشر – وبعض أفراد جنسنا ليسوا بشراً)[1]؟! كبرهان – حجة – سخيف على ضرورة أن نصير نباتيين "Vegetarian"، وربما أكثر من ذلك أكلة فواكه فقط "Frugivorous"، كي لا نحرم الحيوان من المبدأ النفعي الأساسي: سعادته بحياته حين نأكله؟!

والأسوأ من سخف الحجة عدم رؤية صاحبها لها – خاصة إذا كان واحدي التفكير –، فماركس الذي (هزيء من نفعية بنتام حين لاحظ أن – هذه النفعية – تصلح لأمة من أصحاب المتاجر)[2] مثلاً، لم ينتبه الى من سيسخر من شيوعيته بما سبق وذكرنا من القول: (لنفرض ولو للحظة أن البلاشفة سينتصرون فمن سيحكمنا؟ لا شك الطباخون او ربما الوقادون او سياس الخيل،.... من هم رجال الدولة هؤلاء.... السمكرية بالسلك الدبلوماسي.... أمن الممكن أن يحدث هذا؟! وسيتلقى البلاشفة على سؤال كهذا رداً حاسماً من التاريخ)[3]، وقد تلقوه مع سقوط الاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية الأوروبية بنهاية ثمانينات القرن الماضي اجتماعياً، وفلسفياً هو بسبب سخف الحجج الناتجة عن التعصب من جهة، وعدم رؤية المتعصب لسخفها حين تصدر منه من جهة ثانية، بسبب دوغماه في واحدية التفسير، فما قاله "ماركس" في نفعية "بنتام" صحيح، وما قاله الروس عشية خضوعهم لماركسيته صحيح أيضاً، لسخف الحجج التي تدعم الدوغمائيات الواحدية

---

(1) Ibid. P 117.

(2) Ibid. P 128.

(3) من سيرة حياة "لينين"، مرجع سابق، ص 644.

عند كليهما، وانعكاس ذلك على الأتباع كالأحزاب الشيوعية في كل مكان تسعى لإخضاعه، واليوتيليتارية مع أمثال "بيتر سنغر" التي تروج اليوم "للعولمة" مع قرينتها – الذرائعية – البرغماتية.

حين أسقطت النفعية مفهوم الوعي من كل حساباتها المعيشية التي تميز الإنسان، واستبدلته البرغماتية بالمنفعة – القريبة من الميكيافيلية – ظهر كل الذين يتباهون بنباتيتهم في مجالس النواب الأوروبية والأمريكية اليوم، ويحتضنون كلابهم مع زوجاتهم، وفئران أبنائهم – البيضاء – في بيوتهم، يساهمون بالجرائم في أفغانستان والعراق وفلسطين والحبل على الغارب بلبنان وسواها، من أجل المنفعة البترولية لهم، غير مميزين بين كلب "بوش" الذي ينزل معه من الطائرة الرئاسية الأولى او ضرورة أن يكون للرئيس بعده كلباً وإلا؟؟ والقنابل التي تلقى على شعوبنا الإسلامية كي يسرق بترولها، بل الامتياز لكلب "بوش" وأمثاله، لأنه منذ "بنتام" الذي اعتبر أن (وضع خط فاصل بين الإنسان والحيوان ليلائم وضعا ما، يظل بدون أي وزن أخلاقي)[1]، وخطر مثل هذا الكلام هو رفض التمايز الواعي عند الإنسان عن الحيوان، (فلماذا نجر الوعي للنقاش هنا)[2] كما يصر "سنغر"؛ إذ (يجب معاملة الناس كأفراد لا كمتوسط وعي شامل)[3].

وهذا يعني أن كل من يختلف وعيه عن الوعي الغربي يصبح مثل الحيوان الذي يجب مراعاة حيوانيته – وان لم يقل ذلك صراحة – من أجل النفع له ومنه فقط لكن الذي قاله صراحة هو: (أن بعض الناس تكون علاقاتهم أقرب مع قططهم أكثر من جيرانهم، والذين يربطون الأخلاق – بالتعاطف – البشري – هل لديهم حق يبرر عدم قبول هؤلاء الناس بإنقاذ قططهم من حريق قبل جيرانهم؟!)[4]، وكلنا يذكر مئات الألوف من الدولارات التي دفعت لأسطول جوي كي ينقل الكلاب

---

(1) Ibid, P 72.

(2) Ibid, P 74.

(3) Ibid, P 75.

(4) Ibid, P 76.

والقطط التي شردتها الحرب في لبنان لأمريكا، بينما مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ستظل الى ما شاء الله، ليسكن في مساكنهم برابرة "الاشكناز والفلاشا والسفرديم".

بينما لا يوجد أي قانون غربي لا يحترم الملكية بعد زوال الشيوعية، او يقبل بتأميم ممتلكات شعب لآخر، سوى شيوعية إسرائيل!؟! ألا يعني هذا ما أكده "مكلنتاير Alasdair MacIntyre" من أن (المصطلحات الأخلاقية لا يمكنها أن تفهم إلا بإرجاعها الى خلفيتها الاجتماعية المحددة)[1] والعيب الذي يأخذه على كُتّاب الأخلاق في القرن العشرين هو (كتابتهم وكما لو أن الأخلاق، ومعها الفلسفة الأخلاقية توجد بمعزل عن كل صيغهما الاجتماعية)[2] وكأنهم بصدد "ميكيافيلية" جديدة.

فالفلسفة الأخلاقية بهذا المعنى ليست بمعزل عن باقي مستويات المعرفة الإنسانية، وأول خطوة بهذا الاتجاه هي في عدم الخلط ين القيم الاجتماعية والوقائع "Facts"، وإلا وقعنا في طوباوية ما هو كائن وما يجب أن يكون.

فما هو كائن هو أن الإنسان حيوان لاحم شأنه شأن أي مفترس آخر، وما يجب أن يكون هو عدم إراقة دم الحيوان في فردوسٍ ارضي مفترض من قبل المدرسة النفعية، وما هو كائن هو أن الإنسان يطمح الى السعادة لكنه لن ينالها في هذه الكينونة – ببساطة – بسبب سرعة التغير فيها، وما يجب أن يكون هو زيادة المتع وتجنب الألم، ويعترض على ذلك الدين لتأجيله للمتع الدنيوية.

قال البشاشة ليس تسعد كائناً   يأتي الى الدنيا ويذهب مرغما[3]

وما هو كائن أنه من الصحيح أن الذي يسير الناس هو: عواطفهم لا عقلهم، وهنا نجدهم لا يعرفون ما هو المفيد – النافع – لهم، حتى ولو ساروا حسب عقولهم. والتاريخ مليء بالمطالب التي أودت بأصحابها، فمصارع الرجال في

---

(1) Alasdair MacIntyre, A Short History of Ethics. Routledge, London 2002. P 239.

(2) Ibid, P 240.

(3) إيليا أبو ماضي، الخمائل، دار العلم للملايين، بيروت 1965م، ص 61.

مطالب أشداقها، يقول "نيتشه": (أنه من أجل إعادة تقييم القيم نحتاج الى طاقات أكثر مما هو متصور.... فأنا لم أكن أملك أي فكرة لما يحصل معي وبداخلي.... فأنا على العكس من طبيعة الأبطال لا أريد شيئاً، او أن أجهد خلف شيء، او أن يكون لي هدف محدد او رغبة رأي، ليس لدي شيء من هذا على حد علمي)[1]، وهذه هي المستحيلات الحقيقية التي عبر عنها "المعري" بقوله:

حسبتم يا بنـــي حـــواء شيئـــاً فجـــاءكم الــذي لـــم تحسبـــوه[2]

وقال:

وليس يأمــنْ قومٌ شرَ دَهرهـــمُ حتى يَحلوا ببطنِ الأرض أجداثا[3]

وقال الخيام:

والمجازات خلِ وابغِ الحقائق

نحـــن فيـــهِ فوارس وبيـــادقْ بين أيـــدي اللّعاب وهو الخـــالقْ[4]

وقال:

ويح قلب الإنسان كم يتمنـــى ومحـــال دون الأمـــانـــي حـــالا[5]

والأدب مليء بمثل هذه الأمثال، حول استحالة أن نعرف الخير الخالص من كل شر، واللذة الخالصة من كل ألم، مستحيل أن نعرف ما هو الخير لنا "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".

---

(1) Nietzsche, Ecce Homo, Penguin Books, N.Y., 1992, P 35.

(2) اللزوميات، مرجع سابق، ج 2، ص 605.

(3) المرجع السابق، ج 1، ص 248.

(4) وديع البستاني، رباعيات عمر الخيام، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت 1868م، ص 101.

(5) المرجع السابق، ص 122.

ذلك أن اختلاف الناس حول العمل الذي يؤدي الى السعادة ناتج عن اختلاف قيم ووقائع الحياة التي عاشوها، بسبب عدم إمكان التجريب على الأخلاق وبالتالي عدم خضوع الأخلاق للمنطق، وهذا ما يسمى بالعاطفية الانفعالية "Emotivism" التي تُبقي للأحكام الأخلاقية – كالنفعية – بديلاً عن المنطق والتجريب العلمي في مجالها، أو التعبيرية "Expressivism" التي تُدخِلّ القناعات الاعتقادية في الأخلاق، وتفسرها الاسقاطية "Projectivism" التي يمكن اختزالها بعبارة: "يقع الجمال في عين الرأي"، أي أننا نسقط على العالم مشاعرنا، كما ادعى "هيوم" مثلاً" أن السببية ليست في الأشياء بل في فكر الإنسان، وعلى هذا الأساس ينتبه الأخلاقيون المعاصرون الى أن كل حديث عن القيم او حتى الجماليات، كناية عن إسقاطات من خلفية وقائع الحياة التي عاشها المسقط، فهي ذاتية.

وقد انعكست هذه الذاتية منذ "بنتام" حتى "ميل" – الابن – على هؤلاء المفكرين الانكليز، فظهر ما سمي بالفلسفة اليوتياليتارية النفعية، التي يتابعها المعاصرون أمثال "سنغر"، والذين يجعلون من الحيوانات الأليفة "Pets"، التي يحبها الغربيون منذ أزمان سحيقة – ربما حين كانوا رعاة – شخصيات لها ذات "Persons Character"، ويفضلونها على الكثير من البشر، والمسلمين خاصة، فإذا هزيء "ماركس" من نفعية "بنتام" على أنها: "تصلح لأمة أصحاب المتاجر" كما سبق وأشرنا، وهزّئ "البيض الروس" من "السمكرية والطباخين في السلك الدبلوماسي الشيوعي" كما بينا أيضاً، فمن حقنا أن نهزأ من النفعية المعاصرة بنعتها بأنها: تصلح للترويج لتجارة الحيوانات الأليفة، شرط وضع قوانين تحميها من عبودية تحكم الإنسان بها، وتشجع أيضاً اقتنائها لكي يقع الناس بغرامها – كما هو الحال بالغرب –، آن ذاك تصبح أهم من كل بني البشر على أساس ضرورة "معاملة الناس كأفراد لا كمتوسط وعي شامل" – كما ذكرنا –، والذي يرفض هذا أخلاقه إسلامية دينية يجب تدميره معها، لأنه يذبح الخرفان في أعياده – الأضحى مثلاً–، ويأكل عين الخروف في ولائمه، ويرفض معاملة الإنسان كالكلب المدلل في

حدائق البيت الأبيض، لأن كرامته الإنسانية ترفض أن يكون كلباً خاضعاً ليدلل ويذل، شأن المتمسيحن ببوش وأمثاله. تحت مسمى محاربة الإرهاب؟!

هذه "الإموشونالية Emotivism " تريد أن تقول لنا: هذا خير؟! والبرهان أنني لأنني قوي أريده، فعليك جعله مبدءاً أخلاقياً وإلا، فمن الخير للدول ذات الجيوش النظامية أن لا تخوض حورب عصابات مع الدول الشمولية "Totalitarian" الإسلامية، ذات الجيوش المسحوقة اقتصادياً وسياسياً ونفسياً ودينيا بتلك الدول، لذلك اخترعت مبدأ لا أخلاقية حروب العصابات تحت مسمى: "الإرهاب"، وكأن الحروب النظامية التي يقومون بها أخلاقية، لا ترهب الناس الذين تدمر بيوتهم على رؤوسهم الكترونياً، ما دام القتل الذي تمارسه من بعيد ليس فيه استشهاد ولا بطولة.

كل هذا بسبب صعوبة تعريف مفهوم الخير بمعزل عن ثقافة من يريد تعريفه، وعدم المنفعة اليوتيلاتارية من ربط الإرهاب بالجيوش النظامية، طالما أن الغرب المؤسساتي قادر على تجنيدها – كمؤسسة –، وغير قادر على حرب العصابات، التي تحتاج الى بنى اجتماعية قبلية لا بنى اجتماعية طبقية، الأولى تنتج العصائب المقاتلة في حروب الاستشهاد العصبية، والثانية لا تستطيع أن تنتج سوى مؤسسات منظمة، والجيش من ضمنها، لذلك وبسبب اختلاف الخلفية الاجتماعية، وبالتالي "الإموشونالية" لكل منهما ينعت المقاتل المسلم بالإرهاب، والجندي الغربي بالنظامي؟!

وهذه الأحكام القيمية لا قيمة لها في الواقع كمبرر أخلاقي للناس كي تقتل بعضها، كبديل عن قتل الحيوان– مقبول – عند النفعية من أصول ميكيافيلية.

وهذا يعني أيضاً أن أحكامنا الأخلاقية كبشر لا تخضع الى العقل، ولا تأخذ من المنطق سوى قياساته التي تضعها اعتباطاً لتستنتج منها ما وضعته في مقدماتها الصغرى، وبهذا تقع هذه "الإموشونالية" الأخلاقية بالدور المنطقي بكل معنى الكلمة، من صفة "Validity" المنطقية.

هذه هي "الحيدة"[1] الأخلاقية التي تريد النفعية أن تقودنا إليها، لتبريء نفسها مثلاً من الإرهاب العسكري المنظم بالجيوش الشرهة للبترول، في عالم العولمة البرغماتي اليوم، لكي لا تسمي نفسها ميكيافيلية جديدة.

وهذا يعني أن اليوتيليتارية الجديدة قد وصلت الى كل ما يمكن أن تصل إليه الأفكار البشرية الكبرى، فمن الصحيح القول: أن العلاقات بين الناس علاقات منفعة لا علاقات عقد اجتماعي، بقدر ما هو صحيح بأن المنافع المؤجلة هي دوماً أكثر أخلاقية من المنافع المستعجلة، وبدون هذين الشقين تبرز "الميكيافيلية" تماماً كالبحث عن الحقيقة الذي قد يستغرق أجيالاً دون الوصول إلا الى الترجيحي لها "Plausible"، وكالميكيافيلية في العلاقات النفعية بين الناس تخرج الفلسفة عن كونها بحثاً عن الحقيقة الى الدوغما الاعتقادية إذا لم تأخذ بالترجيح والنَفَس الطويل في البحث عن الحقيقة، ولعل من أهم أسباب الشقاق وبالتالي التخلف في الفكر الإسلامي بعد الإسلام كما بدأ، هو قول الباطنية والسرانية بالحكمة التي وصلوا إليها، تماماً كقول النفعية اليوم "بالإحيائية الواحدة" لكل المخلوقات، والفاكهية "Frugivorous" بالغذاء في الوقت الذي يرتكب أصحاب الحكمة عندنا كل المخارق التي ترفض المعرفة العلمية الحديثة على ظن أن لديهم باطنها الحقيقي بالهراء المخفي – المخجول من إبرازه – عندهم، ويعادون كل من لا يطاوعهم على ذلك، كذلك يرتكب القائلون بالنفعية كل الجرائم ضد نوعهم البشري، وهم يندبون قطاً يقتل أثناء ذلك؟!

---

[1] عبد العزيز بن يحي بن مسلم الكناني، الحيدَة، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت 1983، حيث أضاف للمنطق مبادءه الأساسية – أركانه – التي هي: مبدأ عدم التناقض – و – مبدأ الثالث المرفوع – ومبدأ الهوية، أقول: أضاف مبدأ "الحيدَة" الذي يعني: أنه لا إجابة منطقية إذا لم تكن من جنس طبيعة السؤال الذي تطرحه، فإذا سألتك عن البحر مثلاً تجيبني عن الماء والغازات لا عن الطعام والهضم، أي لا تُحيّد الجواب ليكون منطقياً من طبيعة السؤال، استعملها الكناني في تفسير القرآن بالقرآن فقط وحددها، وكما رأينا استعملها "سبينوزا" في تفسير التوراة بالتوراة ولم يحددها، او يذكر شروط الحيدَة كما فعل الكناني.

والسبب وراء كلتا الحالتين عدم الأخذ باحتمالية المعنى الحقيقي لأي شعار فكري، ولإيضاح هذا الأمر دعونا نشبه الحقيقة التي بذهن صائغ الشعار الفكري بلوحة يرسمها فنان لمنظر ما، ثم يعجب بها آخر فيذهب الى المنظر ويرسمه بنفسه، او يأخذ اللوحة وينقلها على لوحة من صنعه – أخرى –، ثم يأتي ثالث ورابع وخامس، وهكذا كل ينقل لوحته التي يظن أن اللوحة الأولى تحتاج الى لمساته الخاصة التي يجب أن تعدلها أساساً.

فإذا نحن جمعنا كل هذه اللوحات في لوحة واحدة سنجد مغايرة لما رسمه الفنان الأول، رغم أن كل هذه اللوحات تشترك بالصيغة المنطقية الواحدة للوحة الأولى، التي تحاول – حاولت – عكس المعنى الطبيعي الذي ترسمه على لوحتها، كذلك العبارات الفكرية تريد أن تبرز الواقع بوقائعه "Facts"، لفهمه والتعامل معه بصورة أفضل، بل وحتى تغييره كما طالبت الماركسية من الفلسفة، وليس بالضرورة تحديدها لهذا الطلب بالصراع الديالكتيكي الاجتماعي من أجل دكتاتورية الطبقة العاملة كما تطرفت الشيوعية.

ان اللوحة المغايرة التي تداورت عليها الأيدي، رغم اشتراكها بالصيغة المنطقية للأصل ليست هي هو.

وهذا ما حصل مع النفعية، وحتى الماركسية وأي منهج فلسفي يسمى مدرسة فلسفية، وما حاولتُ ابرازه من "النفعية" هنا هو الصورة "الميكيافلية" التي راحت تتضح في خطوطها الرئيسية اليوم أكثر من صورة أسرة "ميل" السابقة، تماماً كما تظهر الصور الباطنية – الإسلامية – وبعض الصوفية صور التأليه الفرعوني والتموزي، بخطوط أوضح من صور الإسلام الذي تدعيه حين تسود فرقها.

لذلك حين قال "وتغنسين" إن الصورة من أي فكرة هي التي تدل على أصلها ومعناها، لم يجانب الصواب وكان قريباً منه "Plausible"، لكن (التكرار والتناقض لا يشكلان صورة للواقع)[1]، وبتطبيق هذا على النفعية المعاصرة، نجد أن تكرارها

---

(1) Tractatus, op. cit. P 41.

ليوتيليتارية "بنتام" و"ميل" ووالده، مع التطرف الدوغمائي في تطبيقاتها على كل مجالات الحياة والفكر، الذي أدى بنا الى رؤية تناقضات ذلك المضحكة، يجعل منها بعيدة عن الواقع، على العكس من "بلوزوبيلية Plausibility" مؤسسيها، مما أبرز أمامنا ميكيافيلية غربية تتستر باليوتيليتارية تارة وبالبرغماتية أخرى، وخاصة في هذا العصر عصر الشَّبَق البترولي.

فكيف تتحالف الفلسفات الميكيافيلية تحت ستار النفعية تارة والبرغماتية أخرى؟! وما هي: "البرغماتية" التي تحكم العالم اليوم بمسمى العولمة؟!

البرغماتية مناخ ثاقب:

في سبعينات القرن الماضي وعلى الرغم من شدة الدعاية الصهيونية ضد العرب والمسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، كان هناك حلف سري بين أمريكا والحركات الأصولية الإسلامية، يتجسد في دعم الأمريكان "لطالبان" الجهادية في أفغانستان، امتد بصورة او أخرى نحو دعم او على الأقل عدم معارضة الثورة الإسلامية في إيران، من أجل هدف برغماتي ذرائعي هو: محاصرة الاتحاد السوفياتي والحد من امتداداته الآسيوية.

وقد انعكس هذا هكذا بعلاقة طيبة – وإن كانت حذرة – منا نحن المسلمين هناك بأمريكا، الى حدود أدهشتنا تماماً كما أدهشنا التحول المفاجئ السلبي ضد كل مسلم بعد "2001"، إذا لم نكن على دراية بالمناخ الفكري الذرائعي الأمريكي، الذي يمكنني تصنيفه باتجاه خاص داخل البرغماتية هناك، وهو – أي كلمة ذريعة بمعنى الوسيلة التي يبنى عليها الحكم من خلال نتائجها – كجزء من البرغماتية يصلح (لأنصاف المثقفين فيها، لا للنظرية البرغماتية التي عبر بها "شارل ساندر بيرس C.S. Pierce" 1839–1914) عن المناخ الفلسفي الأمريكي الأكاديمي هناك، واشتقها من الكلمة الإغريقية "Pragma" التي تعني السلوك الدال على أمر ما، والمرشد له عبر العقل وضبط الإرادة ولم يشتقها من كلمة "براكتيكوس Praktikos" التي منها

عبارة "Practical" التي تعني العملي[1]، بغض النظر عن أي ضبط أخلاقي او إرادي.

ديوي:

ولأن "جون ديوي John Dewey" (1859– 1952) المتأثر بالهيغلية في فصلها الفلسفة عن الاتجاهات الأخلاقية – والدينية خاصة –، ولأجل النجاح بالتربية والعلوم والسياسة رفض تسمية "بيرس" او لم يستعملها إلا بمعنى؛ "الذريعة" فسميت برغماتية بالذرائعية – الشائعة اليوم ولو بصورة مبسطة في السياسة الأمريكية – والتي تعني "الأداتية Instrumentalism" وهي لا تقبل بأي فكر مهما كان صائباً إذا لم يكن ناجحاً، لأن الفكر عند "ديوي" مجرد وسيلة – ذريعة – للنجاح في الحياة.

من منطلق أن ليس في الفكر الإنساني إلا توجيه للسلوك لحل معضلات عملية، فالأفكار هي مجرد أدوات يصنعها الإنسان لحل وكشف ما ينتج عنها في الواقع، فنحن نُحَصِّل معارفنا من خلال مشاركتنا عملياً بالأشياء لا بمجرد تأملها فقط، فأن تقود السيارة مثلاً يعني أنك تحصل على معرفتك بها وبالسوق من خلال فعل القيادة، وهذا لا يعارض المعنى النظري للابستيمولوجيا منذ الإغريق والمشتق من كلمة "Epistem"؛ التي (تعني النظر بتمعن للأشياء سواء بالعين او بالبصيرة او بهما معاً، عبر التأمل في الشيء الذي نريد دراسته)[2]، بل يضيف إليه "الأداتية" التي هدفها الانغماس – الاستغراق الممارس – في الشيء: الفائدة والنجاح باستعماله او حتى لأجل اكتشافه للسيطرة عليه.

فالمعرفة بهذا المعنى ليست مجرد استغراق "هيدغري" يشعرك بوجودك، من خلال استغراقاتك بهذا الأمر الذي يهمك او ذاك، بل فيها تورط عملي أيضاً، نراه من خلال كل نشاط عملي يعطينا مردوداً ومعنى وهدفاً لأفكارنا التي نوظفها

---

(1) Hani Yahya Nasri and Vincent G. Potter, Text in Sociology, Dar Albayan Al Arabi, Jeddah 1982, P 48.

(2) المنطق والأبستيمولوجيا، مرجع سابق، ص 10.

في هذا الأمر او ذاك، وانعكاس هذا على السياسة لا على العلم فقط، عبر عنه "ديوي" بقوله: أن (التفكير في الأحداث المقبلة هو الطريقة الوحيدة للحكم على الحاضر.... من أجـــل إخضاع ما نسيطـــر عليه الى ما لا نستطيع السيطرة – عليه –)[1].

ولأجل هذا الغرض أي (لعرض الصورية المنطقية عرضاً تجريبياً)[2] فيما سماه "ديوي" مبدأ الاتصال بين الفكر والواقع في منطقه، يقول: (وأرى أن أنبه في هذا الصدد تنبيهاً خاصاً الى مبدأ الاتصال.... وهو مبدأ لم يلحظ خطره من قبل – فيما أعلم – إلا "بيرس "Peirce)[3]، وهذا الادعاء يقلل من شأن التجريبية التي تعتبر أن (الحقيقة والخطأ هما بصورة أولية ملك الأحكام – العقلية – فلا حقيقة او خطأ إذا لم يكن هناك عقل.... وهذا الجمع بينهما – الحقيقة والخطأ – نلاحظه على أنه الصفة التي تميز الحقيقة)[4]، مما يعني أن الاتصال بين الفكر والواقع، فكري قبل كونه تجريبياً، وهذا لا يعني (أن الحقيقة تساعد على تحقيق أهدافنا.... فنحن حين ندعي أن الاعتقاد حقيقة.... ليس مثل قولنا إن الاعتقاد يساعدنا على التقدم نحو أهدافنا، وهكذا نجد أن لا علاقة للحقيقة بالتقدم نحو أهدافنا)[5] أي بالاتصال بين الفكر والواقع، فما هي علاقتنا مع الحقيقة؟

يجيب "رسل": إنها حتماً علاقتنا مع الوقائع "Facts" بمعزل عما يريده الفكر من الوقائع أن تكون، او أن تخدم أي هدف من أهدافه، ذلك أن (العلم في أساسه هو: معرفة الوقائع "Facts")[6]، فالوقائع حقيقية وهي ليست صحيحة ولا خاطئة، كما أنها قد تساعدنا او لا تساعدنا على الوصول الى أهدافنا، سواء تمعنا بها "Epistem" أو انغمسنا وتورطنا بها عملياً او لم نتورط، وبعبارة أخرى: أن الحقيقة

---

[1] جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك، مكتبة الخانجي بالقاهرة، عام 1995م، ص 280-281.

[2] جون ديوي، المنطق نظرية البحث، دار المعارف بمصر، عام 1960م، ص 47.

[3] المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

[4] Bertrand Russell, Philosophical Essays, Routledge, London 1994, P 158.

[5] Ibid, P 98.

[6] Ibid, P 94.

دائماً بمعزل عن الإنسان، فقد يفيد الانغماس بالأشياء من أجل تعلمها ودراستها بصورة أفضل، فمن الأفضل للذي يريد تعلم القيادة أن ينغمس في دراسة عمل المحرك في السيارة، لكن هذا لا يعني انه كشف حقيقة الميكانيكا والإستاتيكا في الفيزياء.

وسبب هذا الخطأ البرغماتي غموض عبارة الانغماس، فإلى أي حد يمكن للإنسان أن يتعلم عملياً ما لم يتعلمه نظرياً؟!

جيمس وديوي:

هذا ما لم يحدده "ديوي"، وأجاب عنه "وليم جيمس William James 1842-1910" بالمردود.

لأن الأمر المهم هو ليس وضع معيار للمعنى "Norms and Ideals"[1] كما عند "بيرس" او "ديوي"، بل وضع برغماتية - عملية ونظرية معاً - للحقيقة، فكل - تصريح - قضية تعتبر حقيقية إذا قامت بكل ما هو مطلوب منها وأنجزته، وهذا المبدأ اختزله نقاده واتباعه أيضاً بعبارة: "أن كل ما ينجح هو صحيح - حقيقي -"، فإذا كان الفكر الديني غير متطابق مع الوقائع الطبيعية التي يكشف عنها العلم، لكنه يعطي معتنقيه فوائد الإيمان، من استقامة في التعامل، وراحة بدل القلق على المصير، فإن هذا الفكر - الديني - والإيمان به مبرر.

ولأن هذه الصيغة من البرغماتية هي التي صارت شائعة، لأنها تعكس التوجه الأمريكي العمومي العام والعامي، رفضها "شارل بيرس" كما رفض الأداتية البرغماتية "لديوي"، نادماً على شيوع تسميته هذه في غير ما قصده منها، الى درجة دفعته الى تغيير التسمية لمنهجه من برغماتية الى "برغماتيسية" "Pragmaticism" التي ترتبط بالمعايير الأخلاقية التي تتحكم بشعور الناس وأفعالهم وعقولهم، من خلال مجموعة قواعد تسمح بفحص أي فكرة لإظهار مدى وضوحها من عدمه.

---

(1) Vincent G. Potter. Charles S. Peirce on Norms and Ideals. the University of Massachusetts Press 1967.

بيرس:

وقد كان موقف "بيرس" الابستيمولوجي هذا نابعاً من قلق شبيه بما ذكرناه عند "ديكارت" عندما قال: (أحياناً أوضح أفكاري للناس من ذوي العقل السليم.... لكنهم حين يعيدونها.... يعدلونها دائماً لدرجة أني لا أعود أقبل هذه الأفكار)[1]، لأن البرغماتية التي أسسها "بيرس" صارت "حِرَفِيَّة" عند "ديوي" وميكيافيلية عند "جيمس"، ومن خلال خليط هذين الاتجاهين شاعت لتفسر كل مناخ الفكر الأمريكي، الذي ترك للجانب الأكاديمي صفة الهامشية التي ظلت لصيقة "بشارل بيرس" إذ لم يكن الرجل يشغل أي منصب علمي، لكن نظريته الفلسفية هذه شغلت كل الأكاديميات الأمريكية والى اليوم، دون أن تدخل بالمناخ الفكري العامي، الذي كانت النسخة البرغماتية "العملانية" ذات الطابع البرغماتي "الميكيافيلي" أقرب الى فهم العامة، في أمة تشعر بقوتها المتزايدة عالمياً دون أي رسالة تحملها للآخرين، شأنها شأن كل فاتح لا رسالة لديه، منذ "الهكسوس" في مصر الفرعونية، "فالاسكندر" في الشرق، "فالرومان" ورثته، حتى "المغول" وخاناتهم التي وصلت الى حدود أوروبا الغربية، قوة بلا رسالة تحمل ثقافة حِرَفية هائلة – صناعة – تبررها فلسفة: إن الصحيح هو كل ناجح إذا حققنا التفاعل العملي معه، لتظهر سطحية لا مثيل لها في تاريخ الفكر تقول: الأمريكي لأنه قوي وناجح فهو رجل حق يجب إتباع سلوكه(*).

وهكذا صدرت أمريكا "الكولا" – وهي منشط من ثمار مخدرة يؤدي الى الإدمان –، قبل إبداله "بالكراميل" في خمسينات القرن الماضي، و"الهامبرغر" وهو الأكثر إيذاء لكولسترول الدم، وأفلام الإبادة الجماعية للهنود الحمر، والعنف الذي يقوم به هذا الإنسان الناجح في كل العالم، حتى "الجنيز" اللباس الذي يلبسه من يأتي

---

(1) Discourse on Method, op. cit, P 49.

(*) ومن هذا المنطلق الفكري الذي تضلله إرادة القوة والسيطرة، قال "كيسنجر" عن "السادات": "إنه كان يعاملنا على أساس أننا أخلاقيون في كل محادثاته"، من الظن بأن الله لا يعطي النجاح إلا لمن يستأهله؟!

من وراء البقر، صار لباساً شعبياً في كل الدنيا(*)، على أن لا ننسى أن هذا الشعور بالقوة الذي ربطوا الحق به، دفعهم الى إنتاج القنبلة الذرية واستعمالها على "اليابان" بإبادة جماعية من خلال ادعاء أن الحق معهم لأن اليابان غدرهم في "بيرل هاربور".

واليوم يزودون إسرائيل بها لأن لديها قوة ضغط وبالتالي هي قوية فصاحبة حق ضد العرب والمسلمين فقط لأنها قوية؟!

شطط فكري غير مسبوق إلا بمثيله وداعمه شطط "النفعية" التي سبق وتحدثنا عنها قبل هذا، فإذا بيّن "شارل بيرس" أن وضوح الأفكار الذي طالبت به الفلسفة منذ "ديكارت" – الوضوح والتميز – لا معيار له سوى الفرق الذي تسببه حين تطبيقها على الواقع، وعلى المشكلات التي تعاني منها وحتى كلمة: "براغماتيزم Pragmatism" لا تعني عنده سوى المنهج الذي يجب إتباعه في الواقع لنؤكد فيه صحة معنى ما ندعيه، لذلك سميت "البرغماتية" بنظرية المعنى، والتي ترفض كون المعرفة لا ذاتية، بجعل العالِمَ مشاهداً معزولاً عن وقائع "Fact" العالم، فيما كان يسمى قبل "بيرس" بالموضوعية، التي هي في الواقع غير صحيحة إذ كل مشاهد لواقعة "Fact" ما، مشارك فيها بصورة او أخرى لأننا نحن كبشر جزء من وقائع هذا العالم، نعيش معها وبها، وطلبنا للمعرفة جزء أساسي من مطالب البقاء عندنا، وليست من مكملات – كماليات – الرخاء فيه، حتى يُظَنُ أن الفلسفة مجرد ترفٍ فكري.

هي ليست ترفاً فكرياً لكنها شأنها شأن كل الأفكار العظيمة في الفن او في الدين او في العلم، قابلة لأسوأ أنواع الاستغلال، واستغلال الفلسفة يأتي دوماً مثل استغلال الدين او العلم من خلال شروحها التطبيقية، التي تبقي على المسمى لتحوله عن محتواه، وقد كان هذا التحول في البرغماتية نحو الذرائعية والأداتية مع أصدقاء "بيرس" أنفسهم وهو على قيد الحياة وهما "ديوي" و"جيمس"، اللذان قاداها

(*) اخذ في الريف عندنا مكان السروال.

نحو الأداتية في التعليم والسياسة مع "المكيافيلية" بصورة معدلة، لتلاءم رغبات شعب متحرر طموح أكثر من اللزوم، فبدل من أن تكون (الحكمة من الميتافيزياء لتوليد المبادئ التي تستقر عليها الفيزيقا – العلوم – لتزودنا بمعايير عن الحقيقة)[1]، صارت كالنفعية سابقتها أداة من أدوات إرضاء تطرف العوام والسياسيين الأمريكان؟!

يقول "بيرس": (لقد حصلت – من البرغماتية – على إثبات بأن المنطق يجب أن يرسخ على أسس أخلاقية تكون على درجة عالية من التطور)[2]، من أجل هدف برغماتي أساسي محدد هو زيادة معقولية العالم، لا من أجل أي سعادة فردية او سيطرة اجتماعية[3]، فلا نهاية لأي فكر بالعمل – كالماركسية –، بل بالإبداع المتطابق مع وقائع الوجود، والذي هو بداية لأفكار جديدة، فالمعقولية هي هدف الفكر و"البراكسيس" معاً، وقد عبر "بيرس" عن هذا الهدف بزيادة سيطرة المعقولية على الوجود بعبارة "Synechism الاستمرارية"[4]، فكان يبحث في منهجية للفكر لا كأداة للسيطرة على الطبيعة، التي حولتها العمومية البرغماتية اليوم على الكون والناس من ضمنها.

وسبب الرغبة بالسيطرة على الطبيعة، ناتج من قدرة الإنسان – المحدودة والترجيحية طبعاً – على العالم الفيزيائي، أما ما وراءه الذي هو مجال الفلسفة، و"المفارق" الذي هو مجال الدين فلا سلطة للإنسان عليهما سوى الفهم والفقه، وكلاهما تفسيري لا تحويلي، تأويلي لا تغيري، على العكس من الفيزيقا التي نغير فيها متى كشفنا قوانينها، وصعوبة كشف هذه القوانين بالعلم ليست بقدر صعوبة الميتافيزياء في الفلسفة والفقه في الشرع، لأن الإنسان حين يكشف قانوناً من قوانين

---

(1) Vincent G. Potter, On Understanding Understanding, Fordham University Press, N.Y., 1994-Dedicated to Hani, Inga, and John-, "Look at Integrative Wisdom".

(2) Peirce, on Norms and Ideals, op. cit, P 4.

(3) Ibid, P 53.

(4) Ibid, P 70.

الطبيعة بالعلم؛ يحوله فوراً الى التكنولوجيا التي تسيطر عليه، وتنتج منه أدوات تنتجه في كل لحظة.

لكن كشف قانون من قوانين الميتافيزياء، أو كشف الفقه لأمر من أمور الشرع وشرحهما، لا يمكنه أن يتحول الى أداتية كالتقنية يستعملها كل إنسان عُرِف بالعلم أم لم يُعَرف.

وبعبارة أخرى: إن مردود الفلسفة كامن في الفكر الخاص بالبحاثة فيه، أما الناس فتتبعه من خلال فقهها له وكذلك الحال مع الدين بالمذاهب أو بعقيدة إيديولوجية في بعض الأديان كما في كل الفلسفات على الأعم، فلا يستعملهما كل الناس كما يشاؤون!!

هكذا صاحبت الاداتية والمردودية البرغماتية انتشار التكنولوجيا في أمريكا أولاً، ثم في كل العالم بصيغة العولمة ثانياً، فطوت شهرة مؤسسها "بيرس" بالبرغماتيسية التي لا يعرف عنها سوى قلة، حتى في أمريكا ذاتها، لأنها لا تهم المردود اليومي لسيطرة الأداتية، فكل الناس الذين لا يرفضون ما تقدمه التكنولوجيا البرغماتية يقعون بضرب خطير من ضروب استعباداتها، التي تسمى عولمة اليوم لأنها هي المسيطرة على التقانة العالمية والجيوش.

ولا أحد سوى "الكلبي" عبر فلسفة "ديوجين"(*) يستطيع الفكاك من شباك هذا المناخ الفكري البرغماتي اقتصادياً وتقنياً، والأقرب الى هذه الكلبية في هذا العصر هم الشعوب المتخلفة في مجاهل الغابات الاستوائية الذين لا يحتاجون (لا للملكية ولا للأسرة ولا للدين، ولا حتى للمنزل ولا للنظافة ولا لأي شيء يمكن استعماله من صنع الإنسان، لأن في كل نتاج إنساني من صناعة او عقيدة او مذهب او حتى

(*) "ديوجين Diogenes of Sinope" الذي اظهر بحياته فضيلة عدم الاعتماد على الحضارة بأن لا يرغبها فلا يحتاجها، لكن بريقها البرغماتي شكل مناخها الذي يسيطر على العالم بالعولمة بعد أن دمر الشيوعية.

فكرة، ضرباً من الاستعباد للآخر الذي يستعمله، كما عبر عن ذلك لاحقاً "ميشال فوكو Michel Foucault"[1].

وإضافة الى استحالة الكلبية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً اليوم، هناك شبه استحالة فلسفية ضد المناخ البرغماتي الذي يتمدد نحو كل العالم اليوم، في كون الناس لا تميل الى الفلسفة ميلها الى البريق النفعي المباشر، الى حدود "الميكيافيلية" التي يمارسها الناس مع بعضهم دون أن يعرفوا بالضرورة أي شيء عن تلك الفلسفة، فمن السهل جداً فهم النفعية وذرائعها، ومن الصعب تجنبها دون ذخيرة فلسفية عميقة، يدرك الإنسان من خلالها ما أدركه "رسل" من أخطار هذه الجائحة الفكرية، التي تشكل اليوم مناخاً كونياً هي بصدد تعميمه على كل الناس، وأخطر ما فيه أنهم هم أداة هذا التعميم ووقوده بالوقت ذاته.

ذلك أن التجارب الإنسانية القاسية مع الفاشية والنازية والاشتراكيات الشيوعية، وكل الأحزاب السياسية الدوغمائية والمتطرفة، دفعت الناس الى تجنب الحزبيات، دون أن يعرفوا كيف يتجنبون المناخات الفكرية الأخطر منها، والتي لا تطالبهم بأي تبني أو انتماء لأي عقيدة، تلك هي ثقافة العولمة في مناخها البرغماتي الكاسح، والتي اعتبرها "رسل" جزءاً من القوى اللامنظورة التي تتحكم بحياة الناس، كل الناس على هذا الكوكب.

"برتراند رسل B. Russell" والبرغماتية (1872-1970)

فيلسوف القرن التاسع عشر والعشرين، والرياضي الذي ألف ستين كتاباً وعاش حولى المئة، تجريبياً يناهض إرهاب الدول بالحروب، وخاصة التدمير الشامل الذي تملكه بعد الحرب الثانية معظم دول الغرب، وكتحليلي تجريبي وجد أن التطابق في أي تقرير لغوي لا يعني تطابقاً في المنطق الذي يحكمه، وربما بهذا حل إشكالية "ديكارت" التي سبق لنا ذكرها، والتي عبر عنها "ديكارت" بقوله: "ان الناس حين تعيد أفكاره تعدلها "دائماً" لدرجة أني لا أعود الى قبول هذه الأفكار بعد

---

[1] دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 81.

ذلك" وهو أمر يعنيه كل من يلقي محاضرة عامة او جماعية ثم يطلب من مستمعيه تلخيصها او إعادة أفكارها الرئيسية.

وهذا بالضبط ما حصل مع برغماتية "بيرس" على أيدي "ديوي – و– جيمس" كما أشرنا، وحتى مع "رسل" ذاته مع الألسنيات التي طغت على الفلسفة بعد تلميذه "وتغنستين"، لدرجة أزعجت وأضرت بصلة العلم بالفلسفة، وهو ما عبر عنه "هوكنغ" على لسان "وتغنستين" الذي قال مقلصاً حقل الفلسفة؛ (أن ما بقي لها من مجال هو التحليل اللغوي"، كانحطاط غير مسبوق للتقاليد الفلسفية العظيمة من "أرسطو" حتى "كانط")[1].

والحق أن "رسل" رغم افتتاحه لهذا التقليد من خلال اتجاهاته التحليلية التجريبية، التي أراد للمنطق الرمزي أن يضبطها من أي فصام بين التطابق اللغوي والتطابق المنطقي للأفكار، لم ينزلق بالتعقيدات الألسنية "لسيبويهات"[*] القرن العشرين "كجاك ديريدا Jacques Derrida" في كتابه: "Positions" [2] مثلاً.

ومن خلال مدى التطابق المنطقي للأفكار البرغماتية الشائعة في عصره، والى اليوم مع منطق الحقيقة التي تبحثها الفلسفة ولو ذرائعياً، هاجم "رسل" البرغماتية بأدق ما يمكن – منطقياً – في منطلقاتها الأساسية، قبل أن تلد اليوم مسخ العولمة الاقتصادية والسيطرة السياسية على العالم، بعد أن دمرت بسفسطتها سفسطات الإيديولوجيات الشيوعية، فقفزت لتحل محلها بعربدة عسكرية لا تقيم أي وزن للحق او الإنسانية.

وركز "رسل" هجومه على برغماتية "جيمس" التي لا تراعي إلا تصحيفها لبرغماتيسيسة "بيرس"، بشكل جماهيري يساير المناخ الميكيافيلي السائد في الغرب في فترة الانبهار بالعلم في القرن التاسع عشر والعشرين، والحق أن "رسل" نفسه لم

---

(1) A Brief History of Time. op. cit, P193.

(*) من "سيبويه".

(2) Jacques Derrida, Positions, the University of Chicago Press 1982.

يكن بعيداً عن هذه الانبهارية، لذلك جاء نقده للبرغماتية من صلبها، خاصة وأن كل مناخ فكري شائع يعكس الحس العام المنطقي المبسط للناس "Common Sense"، وهذا ما ناهضته تجريبية "رسل" بكل عنف يقول:

(ان الفلسفة لا ترى في الحس العام "Common Sense" أي مطابقة للواقع بأي صورة من الصور)[1] لأن الحس العام يحوي تناقضات منطقية لا تحلها سوى التجريبية، وهي إن فعلت لا يأخذ بها البرغماتي (فبرغماتية جيمس يمكنها أن ترضي متطلبات الجميع، إذ يمكنها أن تبقى متدينة مثل كل الفلسفات العقلانية، او في الوقت ذاته مثل التجريبية تظل على علاقة حميمة مع الوقائع "Facts")[2]، لذلك تبدو البرغماتية بالنسبة لطبيعة الحقيقة دوغمائية جداً.

ويقول "جيمس" تحت عنوان "معضلة الفلسفة": (تاريخياً نجد أن الاتجاهات الفكرية والاتجاهات الحسية هي مرادفة للعقلانية والتجريبية.... وبينما نجد الاتجاه الدوغمائي هو الأميل للعقلانية بتأكيداتها، نجد التجريبية أكثر ريبية وانفتاحاً للحوار)[3]، ثم يضع "جيمس" قائمة بما يمكننا تسميته "دوغما" كل منهما على النحو التالي:

التجريبية الصارمة	العقلانية الصارمة
1- تسير بالوقائع "facts"	1- تسير بالمبادئ.
2- على هدي الحواس.	2- على هدي الفكر.
3- مادية.	3- مثالية ذهنية.
4- متشائمة.	4- متفائلة.
5- ملحدة.	5- متدينة
6- قدرية.	6- حرية إرادة.
7- تعددية.	7- واحدية.
8- ريبية.	8- دوغمائية.

(1) Philosophical Essays, op. cit, P 113.
(2) Ibid, P 113.
(3) William James, Pragmatism, Longmans Green and co, N.Y., 1940 P11.

وكل من هذين الاتجاهين يحقر الآخر[1].

وهذه الأمر لا علاقة لها بالعالم الفعلي برأي "جيمس"، لأن (تناقضات الحياة الفعلية غائبة عن هذه الأسس – السابق ذكرها–)[2]، التي بكل منها نقاط ضعف لا واقعية.

ذلك أن عبارة مدرسة فلسفية وصارمة لا تعني سوى دوغمائية، فالمفكر الحر قد يكون "ريبياً" في موقف ما مثالياً في آخر، وحتى الواقعية التي دعا لها "جيمس" لا تعني بالنسبة للفكر الحر سوى نفعية وميكيافيلية أحياناً، فيجب هنا أن لا تبهرنا عبارة واقعية أيضاً، كما أن لا ننساق للدعوة الى النزول الى مستوى الفكر العام "Common Sense" ، التي يدعونا إليه معظم الناشرين لكتبنا، فرسل على حق حين قال بعدم مطابقة الفكر العام للواقع، – كما أشرنا – لأن هدف الكتابة الفلسفية ليس إرضاء النفعية العمومية السطحية التي تحكم الرأي العام، بل هدفها رفع هذا الرأي الى حدود "الفكر الكلي" الذي يحكم الوجود والتواجد، وغاية الفلسفة بهذا المعنى ترجيح الآراء القريبة منه، فبها الاقتراب المنهجي من الحقيقة في سير الفكر الإنساني اللانهائي نحوها.

لذلك يقول "رسل" (إن المنهج البرغماتي في سعيه بصورة أساسية لحل الخلاف الميتافيزيائي.... حول ما إذا كان هذا العالم واحدياً أم متعدداً، جبرياً أم مادياً أم روحياً.... لا حاجة له.... لأنه لا يؤدي الى إحداث أي فرق في الواقع)[3].

فإذا كان "جيمس" يريد (أن يبقى متديناً.... مع المحافظة على علاقة حميمة مع الوقائع "Facts")[4] فهو ليس بحاجة الى وضع هذا في أي إطار جديد، وإلا وقع بعبارة الصرامة التي نعت بها التجريبية والعقلانية – كما في المقارنة السابق

---

(1) Ibid, P 12.

(2) Ibid, P 21.

(3) Philosophical Essays, op. cit. P 115.

(4) Pragmatism, op. cit. P 33.

ذكرها بينهما -، والصرامة لا تؤدي إلا الى الدوغمائية لأنها تحد الفكر الحر بإطار يجب أن لا يخرج منه.

وعمليا نجد أن الفكر الحر الأمريكي بسبب المناخ البرغماتي الذي سيطر عليه منذ ميكيافيلية الرواد الأوائل للقارة الجديدة، وقبل توصيف "بيرس" له بالبرغماتية، هذا الفكر الحر يسعى بكل وسائل الاستعباد الى جر كل العالم له اليوم، تماما كما جروا الزنوج لحقول القطن والاستعباد قبل توصيف "جيمس" وسواه لمناخهم الطغياني هذا بالبرغماتية، ويسمون هذه العبودية الجديدة لكل الكون هذه المرة بتسمية "نفعية" جذابة هي: العولمة "Globalisation"، وللحق يجب أن نشير بهذا الصدد الى رفض مستحدث ليسميه المناخ الفكري الأميركي بالبرغماتية - كما نوهنا - منذ بداياته، أعني رفض "بيرس" لهذه النفعية القاتلة في الجانب البرغماتي - ولأنه لم يترك أي مؤلفات منشورة نقل عنه البحاثة "فنست ج. بوتر" قوله: (أن السلوك المثالي - الأخلاقي - هو الذي ينفذ دورنا البسيط في عملية الخلق، بمساعدة - مد اليد الى - مزيد من العقلانية في العالم، وكما بالتعبير العامي "يتوقف علينا، القيام بهذا")[1]. لأننا - برأيه - نتحرك ضمن تطورية عاقلة يجب أن نساهم بمزيد من العقلانية - لا النفعية - فيها، وإلا قادت النفعية الجديدة هذه الى دمار شامل في المستقبل، بعد أرباح وفيرة في الحاضر.

فمن المسلم به لكل فكر فلسفي منذ "نيقوماخوس" أرسطو أن الخير هو خير الجميع، و(يظهر بصور مختلفة بمقدار - اختلاف صور الكائنات فهو -: في مقولة الجوهر إنما هو الله - ومنه - العقل، وفي مقولة الكيف إنما الفضائل، وفي مقولة الكم هو المقياس - الدقيق - وفي مقولة الإضافة هو النافع لكل الناس طراً -، وفي مقولة المتى هو الفرصة الجيدة المتاحة للجميع -، وفي مقولة الأين هو الوضع المنظم، والأمر كذلك بالنسبة لبقية المقولات)[2]، أي لبقية حوامل هذا الوجود ككل،

---

(1) Vincent G. Potter, Charles S. Peirce, op. cit, P 203.

(2) علم الأخلاق الى نيقوماخوس، مرجع سابق، ج1، ص 182.

التي لا تقوم ولا تظهر دون أخلاق الخير، التي أساسها كما أكد "كانط" هو واجب الإنسان الأخلاقي بأن يعامل الآخر كما يحب أن يعامل، وإلا لن يكون هو حراً (إن إدعاء حرية الإرادة التي يشعر بها الفكر الإنساني العادي مؤسسة على الضمير)[1] وإلا صار السيد عبداً لعبده، تماماً كما قرر "هيغل" في ديالكتيكية السيد والعبد، وقبله قال أبو العلاء:

وأفقر النـــاس في دنيـــاهمُ ملكٌ   يُضحِي الى اللَّجِبِ الجرار محتاجا[2].

فأساس الحرية هي الأخلاق عبر الضمير، لا عبر المنفعة "برغماتية" كانت أم "ميكيافيلية"، لذلك لا حرية للشعوب الأمريكية دون جيوشها التي تحاول قهر العالم، تماماً كما كانت الحرية عند الرومان، حاجة دائمة الى اللجب الجرار، فماذا لو حاقت بهم هزيمة ولو صغيرة، مما يبرؤون أنفسهم منه ويسمون خصومهم به، أعني الإرهاب؟!

مثل هذه التجربة سوف تلزمهم بالعودة الى المثاليات الذهنية الأخلاقية، فتعود بهم التجريبية – إذا صح التعبير – الى خصمها العقلاني الأخلاقي، الذي بإمكانهم العود الذهني له الآن قبل حصول كارثة الحس العام، الذي لا يفهم الحرية إلا بمعناها المحلي – القومي الأمريكي –، وهو بحاجة الى المنطق الشمولي لتفهمها على أنها تخص كل الناس.

وصحيح أن البرغماتية هي التي دفعت البيض في أمريكا للقبول بالزنوج – بل وتدليلهم –، والقبول بالحمر والصفر وعدم إبادتهم كأوسع فهم ممكن لمعنى الحرية هناك، كي لا يضيع الاتحاد بحروب أهلية جديدة – كسبب عملي فرضه الحس العام –، لكن منطق أن على الأمة الحرة استعباد سواها لا زالت البرغماتية لم تأخذ منه الدرس والعظة، لذلك هي تدعم إسرائيل بلا تحفظ وكأنها ولاية من

(1) Kant, Grounding for the Metaphysics of Morals, op. cit, P 57.

(2) اللزوميات، مرجع سابق، ج1، ص 264.

ولاياتها، لأن لليهود نفوذاً اقتصادياً هناك، بينما للعرب نفوذ مالي - بترو دولار - لا توجهه أي سياسة؟!

فهل البرغماتية هي المسؤولة عن كل هذا المناخ الأمريكي بسبب عزلها عن الجانب الأخلاقي للبرغماتيسية؟!

إن جوابي على ذلك: بنعم!!

ولإيضاح دواعي هذا الجواب لا بد من شرح أوفى لبرغماتية "جيمس" النظرية، التي نَظَّرَتْ للمناخ الفكري الذي أوصل الولايات المتحدة الى هذه المواصل "الميكيافلية" في الاقتصاد والسياسة والحروب اليوم.

برغماتية "جيمس":

وتنطلق هذه النسخة البرغماتية من قول "جيمس" أن (مزاج الفلاسفة هو الذي يحدد فلسفاتهم)[1]، التي سبق وأشار إليها بين التجريبية الصارمة والعقلانية الصارمة - كما ذكرنا -، ويمكننا أن نضيف أن هذا المزاج محكوم دوماً بالمناخ الفكري الاجتماعي العام للفيلسوف، وهو الذي حين يعكسه - يعكس مناخ أمته الفكري - ليصنع ما يسمى بالنظرية او المدرسة الفلسفية، التي تتضمن كل النظرة الأنطولوجية والكوزمولوجية التراثية للأمة.

الفلسفة بهذا المعنى تصوير جيد لتصورات، لا تستطيع أن تخرج من سلطتها القومية المحدودة، إلا بعظمة التواصل الكوني بين الثقافات وبدون هذا التواصل يصبح الفيلسوف مجرد قصاص تجريدي يرسم واقعاً تشخيصياً ثقافياً، وتاريخ الفلسفة شاهد على ذلك، فالمذاهب الفلسفية الكبرى كانت ثمرة تواصل ثقافي عالمي كالفيثاغورية بين المصرية القديمة واليونانية الإغريقية، والفلسفة العربية بين الإسلام والإغريقية، و"المدرسيات" الفلسفية بين الفلسفة العربية والمسيحية.... الخ، فالمزاج الذي اعتبره "جيمس" المحدد الرئيسي لفلسفة الفلاسفة لا يعني هذا،

---

(1) James. Pragmatism, op. cit. P.35.

لكنه هو بالتحديد كان يعكس مناخاً أمريكياً "ميكيافيلياً" أعطاه تسمية جديدة، لذلك عنون كتابه الذي شرح فيه البرغماتية بأنها: "اسم جديد لطرق قديمة في التفكير"[1]، قدمها يأتي من ضمن ما يأتي "بالميكيافيلية" التي تجنب ذكرها، والتي تحكم علاقات الناس في المجتمعات الأمريكية، لأن (النظرة النهائية الناجحة في الأشياء، تكون على تأثير هام إذا كانت متماشية مع الطريقة المعتادة لمجرى الفكر)[2]، وهذا يعني أن أي فكرة تعاكس التيار خاطئة لأنها فاشلة؟!

يقول: (ان المنهج البرغماتي هو بصورة رئيسية من أجل حل الخلاف الميتافيزيائي.... عما إذا كان العالم نتيجة واحدية أم كثرة .... مادياً أم روحياً.... وذلك بتفسير كل من هذه المفاهيم من خلال محصلتها العملية)[3] لأن كل (ما نؤمن به هو في الواقع يحكم أفعالنا)[4] وهذا هو برأي "جيمس" مبدأ البرغماتية الذي وضعه "بيرس" – دون أن يشير الى أي إرجاع منهجي لبيرس[5].

فما دام الواقع هو الذي يوجه ممارساتنا، فإن هذا التوجيه هو الذي علينا أن نعنى به[6]؟! ذلك أن الهدف من كل فلسفة هو إظهار مدى الفروق التي تجعلنا نتلاءم مع الواقع عبرها، فنتيجة هذا المنهج البرغماتي هي في احداث التقارب بين العلم والميتافيزياء، أي بين الواقع "Realities" والوقائع "Facts". وذلك بجعل الواقع Realities" مع الوقائع ومن نتاجها "Facts"، وذلك بتقديم أقصى جهد وعمل لذلك، فالبرغماتية لا تحتاج (لا الى دوغما ولا الى نظرية سوى منهجها)[7] الذي يحدد المعنى من كل فكر وسلوك بما يمكن الحكم عليه من خلال مردوده، "فديوي" وشيلر "Schiller and Dewey" أكدا أن (الحقيقة في أفكارنا ومعتقداتنا يجب أن

---

(1) Ibid, P1.

(2) Ibid, P 38.

(3) Ibid, P 45.

(4) Ibid, P 47.

(5) Ibid, 47 رغم انه ذكره هنا وهناك.

(6) Ibid, P 48.

(7) Ibid, P54.

تعني المعنى ذاته بالعلم.... فالفكرة تكون حقيقية بمدى العون الذي تقدمه لنا بالنسبة لأفعالنا وخبراتنا)[1]، ذلك أن الحقائق الجديدة هي دوماً ما بين الخبرة والفعل من تطابق، من خلال الاعتماد على حقائق قديمة لاستخراج وقائع جديدة منها، فالحقيقة القديمة منذ "أرسطو مثلاً هي وجود ميل من الأجسام نحو محور الأرض، استخرج منها "نيوتن" قانون الجاذبية، كواقعة "Fact" علمية جديدة.

لذلك قرر "جيمس" أن (الحقيقة الموضوعية يجب أن تعني كل تطابق بين فكرنا والواقع)[2]، مما يعني أنها ليست ويجب أن لا تكون ذات هدف نفعي فقط، لكن إذا جاء منها نفع بمدى العون الذي تقدمه لنا من خلال مردودها فهي: برغماتية!!

فهل الحقيقة الدينية في فكر أي أمة من الأمم تتطابق مع الواقع العلمي بوقائعه "Facts" ولماذا من المفروض عليها أن تتطابق، ومن فرض ذلك؟!

يقول "جيمس": (ليس للبرغماتية أي تعصب ضد "الثيولوجيا" – والمسألة هنا – تعتمد على مدى علاقة الثيولوجيا بالحقائق الأخرى)[3]، والمشكلة عند "جيمس" هنا أن إنكار وجود المطلق (يعني الإصرار على أن الإنسان يجب أن لا يرتاح)[4] لمصيره، لأنه بالموت يعود من المحدود الى المطلق، وبإنكارنا لهذا ننكر كون (الحقيقة فرعاً من فروع الخير.... وأنها إلهية وثمينة)[5]، لكن العدو الأكبر لها هو تضاربها مع مثيلاتها من باقي الحقائق التي نعرفها اليوم، لكن هذا لا يعني أن تغيرات الوقائع – بمزيد من كشفها – سيبقي الإنسانية الى الأبد في تشويش تضارب الحقائق المعتمدة على وقائع جديدة دوماً، فهل ما تعنيه البرغماتية: بما يلائم بين الحقائق والوقائع أمر آني أم مستقبلي؟!

---

(1) Ibid, P 58.

(2) Ibid, P 67.

(3) Ibid, P 73.

(4) Ibid, P 75.

(5) Ibid, P 76.

لا توجد ضمانة علمية وتوجد ريبية فلسفية حول إمكان ذلك بأي مستقبل لذلك قلت عام 1995/12/1 حول هذا الأمر:

"What Fit Now Never Can Fit Absolutely"

ما يلائمنا الآن لا يلائم مطلقاً

وهذه أزمة أساسية من أزمات الفكر البرغماتي في مدى ثقته بمستقبل التطور – إذا كانت العبارة صحيحة – العلمي، لأن التطور مفهوم جيوبيولوجي[*] بحت، إذ بأي حق نتحدث عن تطور الإنسان من خلال التعليم الجيد وخطرفات الشيخوخة بانتظاره، لتدمر ما أخذ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل 70] وبأي حق نتحدث عن تطور العلم، ونتائجُهُ التكنولوجية تدمر العالم بيئياً وعسكرياً وأخلاقياً؟ فما كان يلائم هذه الأفكار حول التطور الاجتماعي اليساري، بحسن الظن والثقة بغلبة الشيوعية في المستقبل كما في القرن العشرين، لم يعد يلائم هذا القرن الواحد والعشرين.

أما إذا أردنا أن نتحدث عن المستقبل بمعنى ما بعد الموت، فلا يلائم اليوم الآخر إلا رحمة الله، ولا قيمة لكل ما عملناه في دنيانا!! لان (ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء)[1]، فهذا "القياس Syllogism" على ما يلائم هو ما أعنيه بالتماهي بين "البرغماتية"، و"الميكيافيلية" بالضبط.

ألم يقل "جيمس" إن الحس العام "Common Sense" الذي طوره الناس ومنه – بتمحيصه – ظهر علم المنطق، (يقوم على استخدام بعض – لا كل – صيغ من المقولات)[2]، فإذا دلنا على حقيقة ملائمة او لائم بين مجموعة حقائق هل يعني أنه يعبر عن كل الحقيقة وكل المقولات المنطقية؟!

جواب "جيمس" أنه – أي الحس العام – "يقوم على استخدام بعض صيغ المقولات، – لا كلها –، أي: بلا؟!

---

[*] بيولوجي على مدى أحقاب جيولوجية بملايين السنين.

[1] مسند ابن حنبل، مرجع سابق، مجلد 6، ص 106.

[2] Pragmatism, op. cit, P 171.

والغريب هنا هو كيف سمح "جيمس" ببناء كل "البرغماتية" عليه وهو الذي يعرف محدودية هذا "الحس العام"؟! والذي ادعى أنه موجود بكل اللغات ولا نستطيع أن نفكر بصورة طبيعية دونه – دون الحس العام "Common Sense" –، وبه يظهر أن الاستدلال يتعارض مع الاستقراء[1]، فأنت لا تستطيع أن تقدم استقراءاتك لأمر ما بسهولة تقديم استدلالاتك حوله، وهذا طبعاً دلالة على ضرورة عدم الركون الى "الحس العام" في كشف الثوابت وراء المتغيرات – أي الاستقراء – وهذا سبب وجيه لضرورة عدم الركون الى الحوار في كشف الحقيقة، كما كان يفعل "سقراط" الذي دفع – بسبب ظاهرة الركون الى الاستدلال لا الاستقراء في الحس العام – حياته ثمن ذلك، بالرأي العام الذي تألب عليه.

هكذا نجد أن بنية العقل الإنساني العامة بدون فكر عميق – استغراق بالمنطق حسب "هيدغر" –، بنية هشة مزروعة بكل إنسان عبر بنيته اللغوية دون أن يلاحظها، لذلك ظن العرب أن المنطق مجرد تعبير عن بنية قواعد اللغة الإغريقية فهاجمه النحاة وبعض المتعصبين للغة.

أما بالنسبة الى "جيمس" فإن هذه الوقائع "Facts" في بنية الفكر العام عامة "Global"، عند كل الناس على مختلف لغاتهم، تدل على أن كل ما نفكر به هو: (أسلوب فكر هدفه التلاؤم مع الواقع المعطى)[2] وهذا يعني برأيه أن: (كل نظرياتنا أداتية)[3] هدفها التلاؤم مع المعطيات الواقعية أمامنا من أجل البقاء: فعن أي حقيقة بمعزل عن البقاء نريد أن نتحدث؟؟ أي ما هو المفهوم البرغماتي للحقيقة؟!

يسارع "جيمس" للإجابة بأن: (الحقيقة هي كل ما يتوافق مع الواقع)[4]، وهذه المقاربة للحقيقة تعني أن (ما تحدثه الحقيقة لفكرة ما بأن تجعلها حقيقية هي في

---

(1) Ibid, P 184.

(2) Ibid, P 194.

(3) Ibid, P 194.

(4) Ibid, P 198.

مدى كونها واقعية)[1]، ولأجل هذا الغرض نحاول دوماً فحص الأفكار للتثبت من صحتها ومدى "صلاحيتها Validation " (وهذا هو ما في ذهننا دوماً عندما نقول أن أفكارنا مطابقة للواقع)[2]، أي أن فكرنا واقعي وموضوعي.

فإذا كانت واقعية توجهات الناس خاطئة، فهل هذا يعني أن على المفكر البحث عن تطابق معها لأنها أمر واقع؟! أم أن اختلاف الأمر الواقع "De-Facto" عن الوقائع "Facts"، يسمح بمثل هذا الصراع حتى يصبح التوجه الخاطئ صحيحاً، فالتدخين وزيادة النسل وتعاطي المخدرات والكحول أمور واقعة، فهل علينا تبريرها اقتصادياً وتجارياً أم محاربة التجار والاقتصاديين وحتى الأطباء الذين يروجون لها، وهم قوى واقعية لا يمكن إنكار نفوذها؟!

فحين حظر "الكونغرس" الأمريكي الكحول كاد أن يودي بالبلاد الى حرب عصابات، رسخت قوتها وتحولت حتى بعد رفع الحظر الى المخدرات، وهذه القوى الاقتصادية التي يجب أن لا تضللنا عبارة: عصابات خارجة عن القانون عن قوتها الاجتماعية الفعلية، وهي التي تضع الملايين بيد المشاهير من الممثلين في "هوليود" لكي لا يقفوا أمام الكاميرات إلا وبيدهم سيكارة، بعد منع الإعلانات التجارية للدخان التي حظرها "الكونغرس" مع نهاية القرن العشرين، فعن أي جهة وعلى أي موقف يجب تطبيق نظرية المردود البرغماتية، في تطابقها مع الواقع؟

قال "سارتر": (تستطيع فئة من الرجال أن تقيم نظاماً فاشياً، وتستطيع غيرها أن تتخاذل، فتتركها تفعل ذلك دون مقاومة، عند ذلك تصبح الفاشية هي الحقيقة الإنسانية)[3]؟! هذا هو الأمر الواقع الذي كان على "البرغماتية" فصله عن الوقائع "Facts" الطبيعية، تلك التي يمكن لمفهوم الحقيقة البرغماتية بمعنى موافقتها للواقع أن تنجح، في مجال الطبيعة لا المجتمع، وهناك يمكن للحقيقة الواقعة "facts" الجديدة أن تعدل الوقائع القديمة في الحقائق والوقائع الحقيقية العلمية فقط.

---

(1) Ibid, P 201.

(2) Ibid, P 201.

(3) الوجودية مذهب إنساني، مرجع سابق، ص 64.

أما ما يسمى بالحقائق الاجتماعية فكلها قائمة على الأمر الواقع "De Facto" لا على الوقائع "Fact"، والحقائق الفلسفية كالحقائق العلمية قابلة للتعديل بتغير الوقائع، وهذا ما يجعلهما يختلفان عن الحقائق الاجتماعية والدينية، حيث الامر الواقع فيهما غير قابل للتعديل، الا بما يسمى بالاصلاح الديني وهو في نهاية الأمر كالإصلاح الاجتماعي ثوري تراق فيه الدماء، وينتج عنهما تغير في الدين والمجتمع مهما ادعى دعاة الإصلاح عكس ذلك.

فهل هذا ما عناه "جيمس" من أن (الحقائق الجدية الناتجة عن مخاض خبرات جديدة، مع الحقائق القديمة تتحدان وتتعاونان لتعديل بعضهما بعضاً)[1] لكن الواقع الذي نختبره يدلنا على أن هذا الأمر لا يمكن أن يعمم إلا على الحقيقة العلمية والفلسفية فقط، التي بهما تنحصر الوقائع "Facts"، وبسواهما الأمر الواقع "De Facto"، المتشبه بالوقائع "Facts" وليس هو هي[*].

واليوم وقد أصبحت "البرغماتية" مناخ أمر واقع على المستوى العالمي "Globe"، يجب الحذر من الخلط "البرغماتي" بين الواقعة والأمر الواقع، وإلا وقعنا بدوغمائية أشد على بني البشر، اقتصادياً بصورة أساسية وثم اجتماعية وسياسية أخطر من كل الإيديولوجيات "الفاشية والنازية والشيوعية الاشتراكية" السابقة.

لا تستطيع أن تقف في وجهها وتقاومها إلا "دي فاكتو De Facto" أرسخ من مناخها النفعي الجديد – ميكيافيليتها الجديدة – أي المبادئ الدينية التي تجعل الأخلاق في خدمة حياة أخرى، لإنتاج منفعة او مكسب، ولما كان هذا الاتجاه والتوجه "Attitude" الأكثر وضوحاً في الإسلام، فالصراع بينهما حتمي.

فإذا قال "جيمس": (ان الواقع بصورته العامة هو الذي يجب أن تأخذه الحقيقة بعين الاعتبار – كما أشار الى ذلك السيد "تيلور" –)[2]، فإن "البرغماتية"

---

(1) Pragmatism, op. cit, P 169.

(*) وفي مثالنا السابق؛ الأمر الواقع أن الناس تحب التدخين بكل أنواعه؟! فهل نقبله كواقع.

(2) Ibid, P 44.

اليوم لا تأخذ بعين الاعتبار الإيمان الإسلامي، وتظنه نمطاً آخر من أنماط الهرطقة المسيحية، لتعامله بقوة السلاح فقط، وهو الخطأ ذاته الذي وقعت به الإيديولوجية الاشتراكية السوفياتية، مع من كانت تظنهم أقلية في اتحادها السوفياتي.

أما لكي يثبت "جيمس" أن (كل ما هو مفيد حقيقي وكل ما هو حقيقي مفيد)[1] لأن كل ما يوحي لنا بأفكار حقيقية توجه خبراتنا يقدم لنا فرصة تقدم، ويضرب على ذلك مثلاً أنه بإمكاننا أن نأخذ الرقم "27" مثلاً على انه تكعيب العدد "3"، او يمكن أخذه على أنه نتاج ضرب "3×9" او "26+1" او "25+2" او "100−73"…. الخ[2].

فأخذ الأمر الواحد من جوه مختلفة، يأخذ إضافة كل وجه من رغبتنا بجعل الأمر يلائمنا، مما يعني (أن الكثير من الإثباتات هي من نتاج مشاعرنا)[3] من أجل ما يفيدنا، فالحقيقة عنده نفعية ونحن ننشئها في كل وجوه الحياة والفكر، وليست (مسبقة الصنع كما تدعي العقلانية وبأنها صيغة جاهزة منذ الأزل)[4].

فإذا استبدلنا كلمة العقلانية هنا بالدين، نستطيع أن نفهم موقف البرغماتية من الدين، فهي تقبل به طالما يؤدي خبرة اجتماعية جيدة، ومردوده على النظام الاجتماعي جيد، فحقيقته كما فهمها "بوتر" من البرغماتية (ليست ممكنة ولا مرجحة ولا مستحيلة لأنها تعتمد على فكر طارئ على الفكر)[*]. لذلك قال "جيمس" في نهاية كتابه "Pragmatism" أن (الدين الأخلاقي هو طباق جيد بين الطبيعة المتطرفة والقطعية المتعالية.... وهذا ما سمحت لنفسي تسميته بالطرح البرغماتي الذي تحتاجون إليه)[5]؟؟

---

(1) Ibid. P 204.

(2) Ibid. P 251.

(3) Ibid. P 254.

(4) Ibid. P 257.

(*) في تعليقه الشخصي على ص 282 من المرجع "برغماتية" السابق لجيمس.

(5) Ibid. P 301.

هذا الدين الأخلاقي الذي أراده كي يخدم "البرغماتية"، هو أن الإسلام حتماً هو القوة الوحيدة التي تتصدى لها اليوم.

كل هذا يعني أن مفهوم الحقيقة التي بنت عليه "البرغماتية" كل فلسفتها بحاجة الى إعادة نظر، ومفهومهم للوقائع "Facts" كما أظهرنا شمولي لا يأخذ بعين الاعتبار الفرق بين الواقعة والأمر الواقع، يقول: "ديوي" عن أن الأمر الواقع مجرد عادة (فقوة العادات الثقافية.... وأيضاً القوى الذاتية.... تخنقها في بعض الأحيان الأوساط الاجتماعية و.... تكافح لتحرير نفسها.... والأخلاق بمعناها الواسع هي وظيفة التفاعل بين هاتين القوتين)[1].

وهذا يعني أن الضمير عنده من نتاج العادات الثقافية، تماماً كما كان يظن "دوركايم"، فلا توجد حقيقة موضوعية اسمها الضمير بمعزل عن المجتمع – كحاسة داخلية عند الإنسان[2] – مما يدلنا على أن فهم البرغماتية للوقائع بحاجة ماسة الى إعادة تقييم لهذا، ولأسباب فكرية بحتة أفرد "رسل" عدة فصول بدأها بنقد مفهوم "جيمس" والبرغماتية للحقيقة التي بنوا عليها فكرهم[3].

وأساس اعتراض "رسل" هو في التساؤل: (لماذا يجب أن يكون كل ما هو نافع حقيقي)[4]؟؟ طالما أن ما ينفعنا اليوم قد يضرنا غداً!!

فهل علينا (أن نقول الحقيقة، أم أن نتكلم عن الحقيقة؟)[5]، وفي كلتا الحالتين (لا نستطيع أن نتكلم عن الحقيقة لأننا لا نحيط بها)[6]، لكننا نستطيع أن نقول الحقيقة بكل تصريح لا لف فيه ولا دوران، أي بكل تصريح فج "Crude" حسب

---

(1) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، مرجع سابق، ص 24.

(2) انظر كتابنا، علم النفس دراسة الحواس الداخلية عبر السلوك اليومي، مرجع سابق، القسم الثاني.

(3) Philosophical Essays, op. cit, PP 112-159.

(4) Ibid, P 130.

(5) Ibid, P 131.

(6) Ibid, P 133.

"رسل"، فقولنا "إن ما ينفع اليوم قد يضر غداً" قول حقيقي، لكن أن نعرف الحقيقة وراء ذلك يحتاج منا أن نكون على علم مسبق بكل الحقائق التي تؤدي الى ما نسميه القدر، وهذا هو المحال؟!

خذ ادعاء "ديوي" أنه يعرف "حقيقة" أن الضمير نتاج العادات الثقافية، فكيف تتصدى العادات الثقافية لثقافتها بالدين الأخلاقي عند "جيمس"، وبعبارة معاصرة نجد أن معظم من عاشوا في العادات الثقافية الغربية من المسلمين وانخرطوا فيها منذ ولادتهم هناك، يتبعون الخيار الإسلامي في ضميرهم اليوم، وهم قلما يعرفون عنه شيئاً، كالزنوج الأمريكان تماماً.

فعن أي عادات ثقافية يضحي بها الشهيد ليخلص ويخلص الآخرين من الظلم والطغيان؟ فلو كانت العادات الثقافية هي التي تصنع الضمير لما كان للمسيح حواريون، ولمحمد ﷺ صحابة يفدونه به بالغالي والنفيس، ولما استغنى – والى اليوم – الشهداء عن عاداتهم الثقافية ومغانم – منافع – حياتهم في سبيل رفع الظلم(*)؟!

لقد كان على "البرغماتية" أن تعرف أن الضمير حاسة داخلية فطرية متصلة بالمطلق وبه تصلنا، وعليهم على الأقل أن يعاملوا هذه الحاسة مثل باقي الحواس الداخلية على أنها ركيزة من ركائز كل نفس عاقلة، ذات مشاعر ورغبات، توجههم جهة الحق بصورة تسبق كل معرفة وثقافة وعادات ثقافية، خطرها أن المحروم منها – او من يقتلها بتجاهلها – لا تظهر عليه أي مظاهر إعاقة، كفاقد النظر او أي حاسة خارجية، لكنه وكما يقرر علم النفس الحديث هناك أناس تصاب بما يسمى "بالتموج" في السلوك بين الفضول وتأكيد الذات، وبين الانسحابية "Extraversion"، والذي لا يعرفهم يظن أنهم أناس مختلفون لا يمكن التأكد من

(*) كقول المتنبي الذي أوردناه سابقاً:

ولو أن الحياة تبقى لحي — لعددنا أضلنا الشجعانا

أم أن الوهم "البرغماتي" بالحياة هو الذي يسمي هؤلاء: "إرهابيين" ضالين؟!

هويتهم، بما يشبه انفصام الشخصية، فهم فاقدو القدرة على نمطية توجيه حواسهم الداخلية، تماماً كفاقد الضمير الذي لا يمكنك أن تعرف أنه كذلك، إلا من سلوكه المعادي للمجتمع، حين يريد تأكيد ذاته بمختلف الوسائل، وحتى لو أدى ذلك به الى كل خروج لا محسوس به على القانون والعرف والدين، فكيف يمكن للعرف والعادات الثقافية أن تكون هي التي تصنع الضمير، وأمثال هؤلاء يخرجون عنها، وهم رؤساء دول كبرى؟!

ثم إذا كانت العادات الثقافية في بعض المجتمعات مؤذية، فهل يعني الخروج عنها خروجاً عن الضمير؟! بمعنى هل الخروج عن البرغماتية خروج عن الضمير، ضمير العولمة النفعي الميكيافيلي؟!

إن التخدير الذي مارسته البرغماتية على رجال الدين المسيحي في كونها أول فلسفة منذ "ديكارت" تعترف بهم في الغرب، وخاصة في كتاب: "إرادة الاعتقاد" – لويليام جيمس –[1]، هو الذي دفع ببعضهم الى استحسان استعمالها كعادة في صلب التراث المسيحي في "تطويب" من ترى من الفلاسفة إمكان استغلال فلسفته لصالحها، بدءاً من "أفلوطين" وانتهاء "بجيمس"؟!

وإن كان من الصعب تطويب تطورية "بيرس"، إلا أن اتجاه "البرغماتيسية" الذي فصل نفسه بها عن "البرغماتية" – وكلا العبارتين من استحداثه –، هو اتجاه أخلاقي لأنسنة "النفعية" و"الميكيافيلية" ليلتقي مع الدعوة إلى الأخلاق الكنسية فهو منها دون تطويب.

لكن القلة من المبشرين الذين طوبوا "جيمس" رغم الرائحة القوية لميكيافيليته في نسخته البرغماتية، ظنوا شأنهم شأن من سار في ركاب الاستعمار من آبائهم أيام الاكتشافات الجغرافية، أن هذا ينفع المسيحية التبشيرية في الانتشار، لذلك تحرك هؤلاء المبشرون دوماً في العالم الثالث من خلال الخدمات الاجتماعية والإنسانية، قبل أن يتحول من يريدون تحويله للمسيحية، لكن بعد تحولهم وإذا

---

[1] William James. The Will to Believe. Longmans Green and Co. N.Y. 1897.

شكلوا قوة اجتماعية – مثل لبنان – تغض الكنيسة النظر عن جرائمهم، كما حصل في الحرب الأهلية اللبنانية منذ "1975" والى اليوم.

والأساس الفكري لهذه البرغماتية الميكيافيلية النكهة؛ كتاب "جيمس" الذي يرى فيه "جيمس" عن حق أن الإيمان بأمر ما هو الذي يجعل من هذا الأمر حقيقة واقعية – لصاحبها على الأقل –، فنحن واقعة "Fact" بحد أنفسنا وبحد وجودنا وتواجدنا، وكل واقعة هي حقيقة موضوعية، فإذا وجهت حقيقتك الموضوعية هذه نحو مطلب ما – تؤمن بصحته – ستناله!!

فما تريده من نفسك يكون و"ما تريده من الآخر يكون"، والدليل على ذلك، حين تعامل أي جماعة أحد أفرادها – ولتكن المدرسة – على أنه غبي وكسول، وتحاول أن تقنعه أنه كذلك، فإذا اقتنع أي اعتقد بأن رأي كل هؤلاء يجب أن يكون أصح من رأيه بنفسه صار كذلك، وهكذا تُخرج السجون المجرمين بدل إصلاحهم بالثأر العقابي فيها، في بعض الأحيان.

والعكس صحيح، لأن المُقَيِّمْ كالأستاذ مثلاً الذي يصنع مثل هذه العنونات "Labelling"، يخضع للرمزية الاجتماعية الطبقية في مجتمعه "Symbolic Interactionism"، فلا يجرؤ على تقييم أولاد المسؤولين الحكوميين وأصحاب السلطة بأي تقييم سلبي، فينال هؤلاء كل ايجابيات التقييم فيظنون في أنفسهم تفوقاً مما يساعدهم على النجاح، لكن البليد منهم، حقاً حتى ولو نال أعلى العلامات يصاب بجنون العظمة، ليرسخ في نفسه ما ليس فيها.

وفي كلتا الحالتين يمكن وضع القانون التالي للإرادة ككل قانون في صيغة ترجيحية "Plausible"، بأن ما تريده من الآخر يكون، لكن الأقوى هو ما تريده من نفسك بمعزل عن رأي الآخرين لأنه الأرسخ بالكينونة، لذلك قال الله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر98]، آن ذاك يؤكد السلوك التوجه، ليعود التوجه لتأكيد السلوك بقوله تعالى التالي للآية السابقة ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر99] سواء في هذه الدنيا أو كما في بعض التفاسير بالموت.

فالتوجه "Attitude" هو الذي يصنع السلوك "Behavior" والعكس، وتلك حقيقة نفسية لا يجهلها عالم النفس "وليم جيمس"، بل وظفها لدعم برغماتيته، يقول: (هذه هي كلماتي الأخيرة لك – في موضوع هل الحياة تستأهل أن تعاش – لا تكن خائفاً من الحياة؛ آمن بأن الحياة تستأهل أن تعاش وإيمانك هذا سيصنع هذه الواقعة "Fact")[1].

أما "رسل" الناقد الأشد "للبرغماتية" فيناقش صعوبات الإيمان، قبل الدخول في دائرة التوجه والسلوك، لأن الريبية الفلسفية – حتى المعتدلة منها "Mitigated"– (عند كل مثقف فيها القليل من الإيمان.... وعلى الرغم من هذه الواقعة "Fact" فإن الأمور الواضحة المقنعة "Obviousness" تبقى دوماً مصدر إيماننا النهائي)[2] هذا يعني حسب "جيمس" أن التوجه نحو مصدر الإيمان ليس ضرورياً، والضروري هو التوجه الذي يصنع السلوك، أي المسألة ليست مسألة قناعة أكاديمية تصنع الإيمان – كما عند رسل – بل مسألة غسل دماغ ذاتي – كما عند جيمس –، وبين غسل الدماغ والقناعة تفترق البرغماتية عن التجريبية.

وإذ يقر "رسل" بقلة ما يمكننا أن نؤمن به في عالم سريع ومتسارع التغير في وقائعه "Facts"، يطلب "جيمس" منا تجاهلها؟ لأجل المردود الجيد للإيمان على معتنقه!! فهل هذا يعني أن الهدف هو المردود فقط، أي مثلاً: علي أن أومن بالمسيحية لأنها سوف تعطيني مركزاً في جامعاتها – وقد تعرضنا لذلك – مثلاً؟! او بالبوذية او الزارادشتية.... الخ أيهم مردودها أفضل؟! وعن أي مردود يجب أن نبحث؟! مردود المنفعة الوقتية، أم مردود الحقيقة الأزلية المطلقة؟!

"البرغماتية" تتحدث عن مردود وقتي تسميه واقعياً، وهو قد يكون نتيجة "دي فاكتو De-Facto"، بينما التجريبية تتحدث عن مردود تجريبي يصعب اليقين –

---

(1) Ibid. P 62.

(2) Philosophical Essays, op. cit. P 127.

الإيمان – فيه، لكن الإسلام يتحدث عن اليقين المطلق فوق هذين، متحداً ومتحدياً اليقين التجريبي في ذات الوقت، لذلك يعرف الإسلام عند العلماء فيه بدين العلم، بمعنى المعرفة الأوسع من مجرد التجريبية، والتي بها تتجاوز نحو المطلقات الفلسفية، ثم المفارقة!!

لعله من الصحيح ما قاله "رسل": (إننا إذا عددنا عدد ما نؤمن به، نجد أننا نؤمن بأشياء مختلفة على درجات مختلفة من القناعات)[1] التي تشكل الإيمان عنده.

بينما يرى "جيمس" (أنه لا يمكن لأي مفهوم تجريدي أن يكون بديلاً فعلياً عن الواقع المشخص)[2]، ويضرب على ذلك أمثلة، منها: أن الفرق الذي تحدثه إرادة الأفراد في التاريخ، لا علاقة له بأي مفهوم تجريدي بديل، (فكل الظروف التي سهلت بروز الرجال العظام وفُرضت عليهم، عَدَّلها هؤلاء الرجال.... مثل محمد ﷺ[*] أعادوا تشكيل هذه الظروف على مقاس واسع فوق العلائق الاجتماعية المسبقة الوجود)[3]، وهو يؤكد هنا أن ليس على الفيلسوف – كما هي حال "رسل" – تعداد قناعاته، وما يلائم منها هذه الواقعة "Fact" او تلك: (فالواقعة الحقيقية الأمريكية تبقى بما يعزى لكل واقعة "Fact" عملية، متطرفة في عمليتها كصفة – أساسية – للشعب الأمريكي)[4]، فنحن إذا في البرغماتية أمام فلسفة تعكس قناعة شعب لا قناعة أكاديمي، يؤيدها الواقع المشخص من الناحية الدينية مثلاً؛ بأن (تأثير الفكر على الجسد دليل على مدى الشفاء – او عكسه – الذي يقدمه – أو لا – يقدمه الإيمان)[5]، فإذا كان الإيمان كما هو حاله دوماً يقدم الشفاء من الأمراض الجسدية، فلماذا علينا أن نسد هذا الطريق بالريبية او اللاادرية الفلسفية!؟

---

(1) Philosophical Essays, op. cit, P 126.

(2) The Will to Believe, op. cit, P 70.

(*) صلى الله عليه وسلم ليست موضوعة في الأصل الانكليزي.

(3) Ibid, P 226.

(4) William James, The Varieties of Religious Experience, The Modern Library, N.Y. 1929, P 94.

(5) Ibid, P 95.

ورد "رسل" على هذا هو (أننا لا نستطيع أن نقول أن الإيمان صحيح حين نعني أنه ناجح ومفيد)[1]، فليس كل ناجح ومفيد صحيحاً لأنه قد يكون من المفيد للمصاب بجنون العظمة فرض قراره على آخرين فينجح، فهل هذا صحيح ويجب أن نعلم الناس "البارانويا Paranoia" حتى ينجحوا في حياتهم مثلا!؟

و"جيمس" كعالم نفس يقترح أن الإيمان يبعدنا عن العالم الحقيقي الذي فيه يموت الضعيف، وتدمر الدول الكبرى الصغرى، والأحداث فيه لا تترابط دوماً بشكل منطقي مثل: عاصفة تدمر جهد حضارة او بركان يبتلع قرية او حوادث سير بسبب "غضب السائقين النفسي Road Rage"، مما يشبه الجريمة بلا هدف ولا دافع ولا فائدة .... الخ.

الإيمان برأيه يبعدنا عن هذا العالم الحقيقي (مثل الفن او العلم.... فنتصرف كما لو أن هذا الكون لنا وحدنا – والآخر غير موجود)[2] أي كأن الله صنع كل هذا من أجلي وحدي، فهو يراقبني بالصغيرة والكبيرة فأستقيم.

أي حسب عبارة "هيدغر" يعطينا الفن كما يعطينا العلم كما يعطينا الدين الشعور بالوجود لا بالتواجد فقط، حين استغراقنا فيه – تأمل القدرة – حين الصلاة مثلاً.

المسألة للمرة الثانية – والألف ربما – ليست مسألة برهان عقلي على أن الفن حقيقي – وهو طبعاً ليس كذلك – بل برهان واقعي على أن له قدرة استغراقية على من يتأمله تشعره بتواجده، وترتفع هذه القدرة عند المؤمن بالدين نحو الاستغراق بالوجود لا بالتواجد فقط.

هذا ما قصده "جيمس" حين قام "تجريبياً" بملاحظة ما سماه بالشفاء الإلهي "Divine Healing"، يقول (لقد وجدنا دلائل قاطعة – نفسية – تقنعنا بأن رفع التوجهات النفسية بشكل ملائم، يرفع المعاناة عن كثير من المرضى الذين لم

---

(1) Philosophical Essays, op. cit. P 129.

(2) The Will to Believe op. cit, P 119.

نستطع أن نفعل شيئاً لهم، وأكثر من ذلك قد أخر اقتراب الكثير منهم من الموت)[1].

إذ مهما حاول الإنسان رفض الثنائية فيه من روح وجسد لا يستطيع أن يرفض ثنائية كونه فكراً وجسداً، وكل ما يؤثر على احدهما يؤثر على الآخر، فالجسم السليم بالعقل السليم، والعقل السليم بالجسم السليم، وبما أن بالعقل مشاعر، فالفن يؤثر على الجسد من خلالها، ولأن به رغبات وضميراً يؤثر الدين من خلالهما كلما برز احدهما "لإستغراقات" صاحبه، وإنها لحقيقة علمية ثابتة في أن التوجه النفسي ضد الألم الجسدي، يجعل الدماغ يفرز مادة تشبه المورفين – أندروفين – لإيقاف الألم، وهو ضد اليأس والقنوط كما يفرض "الدوبامين" – هرمون المكافأة – على "ألفا" الدماغية نشاطها الذي يغري بالحياة.

لكن "رسل" يرفض جر الفلسفة إلى البرغماتية النفعية، فهو يريد "أن يتحدث عن الحقيقة البرغماتية ولا يريد أن يتحدث بالحقيقة البرغماتية"، كجزء أساسي في منهجه التجريبي الذي يرفض الحديث عما لا تدلنا عليه الحواس مباشرة، ففي حواره مع الأب "كوبلستون F.C. Copleston" قال: (أن الاعتقاد بأن الإيمان يؤدي الى نتائج أخلاقية ليس دليلاً على حقيقته)[2]؟ فرد عليه "كوبلستون بأن (الإيمان يؤدي الى نتائج جيدة)[3] فقال: (أن الخبرات الجيدة جيدة، لكنها لا تدل على شيء خارج صاحبها.... إذ من الممكن أن تتأثر بما تحب ولكن هذا ليس دليلاً منطقياً على أن لهذا التأثر وجوداً موضوعياً)[4].

فرد "كوبلستون" قائلاً: (لكن لا يوجد أي معيار موضوعي لأي أمر خارج المشاعر)[5] فقال "رسل": (مثلما لا يوجد للمصاب بعمى الألوان ألوان.... فلماذا لا

---

(1) Religious Experience. op. cit. P 95. Philosophical Essays. op. cit. P 130.

(2) Bertrand Russell. Why I am Not A Christian. Routledge, London 1996. P 145.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

(5) Ibid, P 147.

ندينه على عماه فكرياً؟)[1].

وهذا يدلنا على انحصار الفلسفة التجريبية بالوضوح الحسي، والبرغماتية بالمردود، بأي ثمن تجريبي او مثالي عقلي او حتى ميكيافيلي او نقيضه الديني، فالمهم عند التجريبي الوقائع الملموسة، وعند البرغماتي المردود، نمطان يدلان على اتجاهين اجتماعيين عكستهما فلسفتان مختلفتان!!

وهذا يقودنا الى سؤال رئيسي هو حول دور القيم الاجتماعية في توجيه البحث عن الحقيقة، وكأن الفلسفة بهذا المعنى مجرد شرح لمناخ اجتماعي مفروض، فإذا لم يكن بالإمكان فصل الفلسفة عن مناخها الفكري الاجتماعي، فنحن لا نتحدث هنا عن الحقيقة بل عن حقيقة هذا المناخ الفكري إزاء ذاك، فهل نحن مجبرون على الحديث البرغماتي إذا: من خلال مناخنا الفكري الخاص، وبهذا المطب يقع الفكر الإنساني المعاصر في شباك البرغماتية في امتدادها بدءاً من الاقتصاد بما يسمى بالعولمة، وانتهاء بمقاومتها بنفس أدواتها النفعية والميكيافيلية أيضاً، كفخ وقعت به الحركات الإسلامية التي قتلت أبرياء أثناء جهادها ضد هذه القوة اللامنظورة الخطرة على كل الكون.

وقد انتبه "رسل" لأمر القوى اللامنظورة التي تخضع الناس من خلال فلسفة معينة لتعكس مناخ فكر قوم او أمة، وظن أن تجريبيته بمنأى عن ذلك، يقول: (ونحن نعاني من القوى غير المشخصة العظمى التي تسيطر على حياتنا اليوم، فتسبب بقاءنا عبيداً.... ولو أننا لم نعد عبيداً بحكم القانون.... فقد عبد النشطون السطوة – السلطة – بدلاً من السعادة والصداقة، وأذعن – الباقون – الأقل طاقة، او خدعوا بتشخيص خاطئ)[2]، وأظن أنه لم يذكر "البرغماتية" بالاسم هنا، لأنه هو بحد ذاته أيضاً صاحب قوة غير مشخصة اسمها التجريبية.

---

(1) Ibid.

(2) رسل، السلطة والفرد، مرجع سابق، ص 106.

والدرس الذي يجب أخذه من هذا النقد بين المناخات الفكرية التي يمكن تسميتها بالقوى غير المشخصة او غير المنظورة هو: أن حب الحقيقة لا ينفصل عن حرية الفكر من قيود ما يعكسه هو بحد ذاته على ذاته، ومن لا يحب المطلقات من الفلاسفة – كالتجريبيين – عليه أن يقبل بهذا المطلق، وإلا لم يكن فيلسوفاً.

لأن البحث في المطلقات هو شأن فلسفي بحت مهما حاولت التجريبية تجنبه، والأديان التي تفترض المطلق ولا تبحث فيه، تجر الفلسفة الى رواقها فيصبح لاهوتها أسير المنطق الفلسفي فيخسر زمام المبادرة الدينية.

وتلك هي نقطة الضعف الأساسية بكل ثيولوجيا، منها أرادت البرغماتية النفاذ الى الفكر المسيحي الأمريكي وتوجيهه، الى درجة دفعتهم الى القبول بأن العراق عدو لهم رغم أن الذين هاجموهم في 11/9 لم يكونوا عراقيين!؟

فإذا بحثت على السبب كان الجواب هو:

البترول!؟

الباب التاسع

الحقيقة والحقيقة المطلقة

هل توجد حقيقة من الحق، أم أن الحق يأتي من الحقيقة؟ في الصيغة الأولى نجد الاتجاه بالفلسفة نحو الإلهيات – الثيولوجيا –، بينما في الصيغة الثانية يتجه الفكر نحو الأخلاق، وهذا يعني أن الشروط التي تصنع التساؤل هي التي تجعله – توجهه – نحو البحث في هذه الحقيقة او تلك.

وأنا في كل ما قلته سابقاً حاولت قدر الإمكان – حتى في الجمل الشرطية التي – استعملتها – تجنيب القارئ من شروطي الفكرية الخاصة التي توجه البحث، لذلك وكمثال أخير على ذلك لم أُعَرِضْ القارئ لنقدي الشخصي للماركسية ولا للبرغماتية، بل عَرّضتَهُ لنقد "رسل" لهما من خلال ثوابت فكره وفكرهما.

فالبحث عن الحقيقة؛ ومنذ "طاليس" الذي قال: بأن كل الأشياء مصنوعة من الماء حتى "جيمس" الذي قال: بأن الحقيقة هي كل ما يتطابق مع الوقائع والواقعية "Facts"، و"رسل" الذي أضاف بضرورة التجريب لا التنظير حتى نؤكد صحة – حقيقة – أمر ما، الى "كارل بوبر" اليائس من إمكان الإنسان بقدراته الحسية

والعقلية التي – أراها – موجهة للبقاء لا للبحث في الحقيقة–، لذلك أعلن "بوبر": ترجيحية كل الحقائق التي قال بها العلم وادعتها الفلسفات المختلفة على أحسن الأحوال، والبحث عن الحقيقة هو الشاغل الأول للفلسفة وما حولها من علوم، لا في الإطارين الأخلاقي والثيولوجي فقط، بل بكل أطر الواقع منذ "طاليس"، لذلك من الخطأ الظن أن الميتافيزياء معرفة تحاول البحث عن الحقيقة الأخلاقية او الإلهيات فقط، والفيزياء – فيزيقا – في صلبها، فكلمة "ميتا Meta" تعني "ما وراء Beyond" وليست "خلف Behind"، أي الحامل للفيزياء، لذلك وضعها "أرسطو" عنواناً لما كتبه بعد "الفيزياء Physics"، لأنها الإطار الحامل لكل المفاهيم "الفيزيقية".

فما قاله "الجرجاني" في تعريفاته بأن (الفلسفة – هي – التشبه بالإله حسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية كما أمر الصادق صلى الله عليه وسلم في قوله: (تخلقوا بأخلاق الله أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات)[1]، يتعلق بجانب واحد من جوانب الحقيقة وهو تحديداً الجانب الأخلاقي والثيولوجي – الإلهيات – فيها، وهو تعريف جامع غير مانع للحقيقة المطلقة التي تنشدها الفلسفة من الفيزياء تحديداً، للبحث في العالم الحقيقي الحامل بثوابته على متغيرات العالم الذي يبدو – يظهر – لحواسنا، عالم الظواهر.

إن البحث عن الحقيقة المطلقة من خلال الفلسفة، وتحديداً من خلال فروعها الميتافيزيائية، هو: البحث عن الثوابت الفكرية التي تحكم صور التغيرات أمامنا وبنا، لكي يتوجه فرع الفيزياء في البحث عن الوقائع "Facts"، التي اثبت التجريب أنها معطيات تحرك الثوابت الفيزيقية من بيولوجية وفيزيائية وكيميائية، المتداخلة مع كل معرفة إنسانية.

فهل يوجد ثابت واحد ما وراء "Beyond" الحقيقة المطلقة!؟ الجواب تجده في البحوث الفلسفية الواحدية "Monism"، أما من يقول بحقيقتين وراء الحقيقة المطلقة

---

[1] علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، المطبعة الأهلية المنشأة بجمالية مصر، عام 1306 هجرية، ص 73.

فهم أصحاب الثنائيات مثل روح وجسد، عرض وجوهر.... الخ. وهؤلاء هم الثنائيون "Dualism"، أما من يقول بأكثر من ذلك مما يحكم الحقيقة المطلقة، فهم أصحاب الكثرة "*Pluralism*"، وقد استعرضناهم بشكل متداخل حسب المذهب الذي كنا نناقشه.

وسواء كان هذا أم ذاك يظل السؤال العقلي يلح حول طبيعة هذا الإطلاق للحقيقة وبها، والخطوة الأولى لفهم ذلك تبدأ من معرفة معنى او معاني الحقيقة المحددة والمحدودة والمشخصة، فإذا عرفت أياً من هذه المعاني وقدرت على استعماله في شبكة من المعلومات الاستدلالية القياسية، ستحصل على حقائق مشخصة!!

وقد أخطأ من سمى هذه الحقائق المشخصة بالمادية، وهو يحصر الحقيقة بما هو محسوس، لأنه ليس كل المحسوسات مادية مثل الإحساس بالكرامة او الحرية او الحق.

وأنا حين عرضت في هذا البحث أمثال "هوبز وهيوم ورسل" لم أعرضهم بعبارة فلاسفة ماديين، بل تجريبيين لأنه لا توجد فلسفة ملموسة ومادية، كما توجد سيارة او طائرة او حتى ذرة "آتوم Atom" ميكروسكوبية، بل توجد فلسفة لا تقبل إلا بالحقائق التجريبية، وأخرى تقبل بها وبالحقائق العقلية أيضاً، أمثال "بيركلي وديكارت" وكل الفلسفة العقلية، التي يخطئ من يسميها أيضاً بالفلسفة المثالية، نظراً لأنه ليس كل عقلاني مثالياً.

خذ الفلسفات الوجودية التي استعرضناها تجد فيها الجانب العقلاني حتى في تبنيها للامعقولية الوجود، وانطلاقها من هذا المنطلق، أما الفلسفة الفرنسية التي سمت نفسها بالوضعية "Positivism" مع "كونت" فهي ضمن الإطار التجريبي ليس إلا.

وكما رأى القارئ معي الى الآن أن الفلسفة بطبيعتها سواء كانت في بحثها عن الحقيقة عقلانية أم تجريبية، قلما تهتم إلا بجانب الفكر في الذات الإنسانية،

باستثناء الفلسفة الوجودية التي ركزت على جانب المشاعر في الذات الإنسانية، ففتحت الباب – برأيي – لتلك العلاقة التي يجب أن تنتبه إليها فلسفات المصير بين العقل الكلي الغرائزي مسبق البرمجة فينا، وبين العقلانية الناتجة عن عقلنا الذي نبرمجه نحن.

وقد قاد التركيز على المشاعر في الفلسفة الوجودية تلك أولاً وفي بداياتها، من مذهب الإرادية "Voluntarism" مع "شوبنهور" الى مذهب إرادة القوة مع "نيتشه"، كما أظهرنا للقارئ حيث اعتبر كل منهما أن واحدية الحقيقة ليست بالألوهة، بل بالإرادة الكونية العمياء نحو القمة المنحلة في كل مظاهر الكون والطبيعة والإنسان، على أنها الحقيقة النومينية "Noumenon" التي أشار إليها "كانط" فيما خلف ووراء – بذات الوقت – قدراتنا العقلية والحسية، والواقع أن نومن "كانط" كما أظهرت للقارئ هو برهانه الوحيد على وجود الله، كواجب للوجود ليس موجوداً فيه لأنه خالقه – كما أفهم "كانط" –، والنومن الخارج عن قدراتنا التجريبية والعقلانية والحسية، يدل على وجود الحقيقة بحاجز فوق قدرة الإنسان وأدواته وبنيته التطورية على بلوغه، وفي هذا الحاجز يكمن كهف "المُثُل" الأفلاطونية بمعنى جديد، وبه حقائق الكون.

تلك الحقائق التي حاول "بوبر" الاقتراب منها في التحولية الابستيمولوجية عبر قدراتنا البشرية "الترجيحية Plausibility"، التي بحثها معرفياً "Epistemological Plausibility" والتي هي غاية قدرتنا على فهم الحقيقة، ومنها نتصور الحقيقة "النومنية" الكانطية المطلقة(*).

هذا هو مجمل ما دار حوله بحثنا من خلال هذه المفاهيم الإنسانية عن الحقيقة والحقيقة المطلقة، التي شكلت خلفية البحوث المعرفية الفلسفية عند هذا الفيلسوف ضمن هذه المدرسة، او ذاك ضمن تلك، من الذين استعرضنا فكرهم الصلب الذي وجه ولا زال يوجه التوجهات الفكرية العالمية "Attitude" في العلم

(*) أي الاقتراب من تصور الخالق تعالى عن كل صورة، عبر ما يعبر عنه الإسلام بالله أكبر.

والمعرفة وفي السياسة خاصة، والذي تجسد بالصراع الحزبي بين النتشوية النازية وكل من الشيوعية الماركسية الروسية والبرغماتية، منذ ثلاثينات القرن الماضي في الحرب العالمية، ثم الحرب الباردة حتى نهاية القرن العشرين، بين البرغماتية والاشتراكية.

لكن بعد تسعينات القرن الماضي على أثر تداعي الفلسفات الاشتراكية، والانتصار الساحق للبرغماتية بسياستها "الميكيافيلية" التي تسوق العالم اليوم نحو العولمة، من منطلق واحدية حقيقة المردود، المتطابق مع واقع الإنسانية الأناني اللاخلاقي العنيف، أقول: بعد هذا النصر الساحق الذي يفرض البرغماتية على العالم اليوم، تقف واحدية الحقيقة الإسلامية المفارقة وحيدة في وجه هذه التطابقية مع الواقع لتعلن – ولو بشكل مضطرب – وبصوت خافت وضعيف ضعف البنية الاجتماعية عند كل المسلمين، أن الحقيقة ليست إنسانية بل مطلقة، لا بد لها من صلة مع الحق.

وما الإنسان وكل حقائقه الترجيحية سوى مشروع هامشي من مشاريع الحق الكونية، التي لا نملك منها سوى قبس الضمير القادر على الاهتزاز بالخطاب القرآني، ومن لا يفهم او لا يفعل فلن يضر الحقيقة الواحدية المطلقة – التي هي من صنع الله – شيئاً.

ونحن اليوم إزاء القمع الفكري والسياسي والاقتصادي والحربي ضد هذه الواحدية الفكرية الإسلامية، نشهد معركة إنسانية فريدة بكل أبعادها السابق ذكرها، يدخل فيها العالم الإسلامي طرفاً لا ذيلاً، كما كان عشية عام "1945م" حين أعلنت الدول العربية وبعض الدول الإسلامية الحرب على "المحور" بعد سقوط "برلين".

حقيقتنا البشرية أم الحقيقة المطلقة، تلك هي معركة التصنيف القادمة، والتي نحن فيها الآن حيث يأخذ الحوار الفكري فيها بعداً عنيفاً، من كلا الجانبين، بينما النصر تقرره الفلسفة الأقوى كذلك علمنا التاريخ، وآخر درس له بهذا المعنى سقوط الشيوعية والاشتراكيات.

شرط أن ندرك أن الحقيقة متى اقترب منها واحد من البشر ثم أطلقت، لا يردها سوى حقيقة أوسع منها، فالحقيقة المطلقة من كل تشخيص التي أطلقها الشرق تنتظر إجابة عقلية من الغرب لا مدفعاً، إذ مع كل قذيفة وكل جريمة ترتكب بحق قائلها، يتسع انتشارها هناك قبل هنا، ومع كل أدب ضد الحقيقة الإسلامية المطلقة تزيد معرفة الخصوم بها، ولأنها أساساً تخاطب الضمير بلغة القرآن، فسيضطرون الى تذوقه!!

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [النبأ 1- 39] .

هذا هو ما يقدمه القرآن الكريم لحدس الحقيقة البشرية حول الصحيح من الخاطئ، حدسٌ الهي مطلق يخاطب مطلقاً – هو الضمير فينا –، فمن استطاع تلقيه استطاع وضع معيار للصحيح من الخاطئ في سلوكه، ومن لم يستطع يحتاج الى جولة طويلة في الفكر الإنساني حول الصح من الخطأ. يجب أن يبدأها بالتساؤل

عن: مبدأ سوى الضمير يمكننا أن نزن به الصح من الخطأ؟! لا أن يهاجم الضمير فيدعي مثلاً أنه من نتاج اجتماعي لا فردي ذاتي، مجرداً الإنسان من أهم خاصية في صلب فرديته، يشعر بها ليل نهار، كما تطاول "دوركهايم" في نظرياته القائلة بأن كل شيء اجتماعي، على أخص خصائص فردياتنا أعني: الضمير!!

فهل يوجد مبدأ نزن به الصح من الخطأ؟!

إن أول مشكلة يمكن للإنسان – حين يصبح مسؤولاً عن نفسه – أن يواجهها هي الأحكام، التي عليه أن يطلقها على ما يواجهه من أمور ومعضلات، وبعضها قد يقرر مستقبل حياته كالفرع الذي عليه الاختصاص به في الجامعة، او الزوجة التي ستشاركه حياته، او عدد الأطفال الذين سينجب او يتجنب الإنجاب كله على بعضه، وأين سيسكن وكيف يعيش؟!

وبعض هذه الأحكام قد تكون "قيمية" لا قيمة لها، فالذي يفضل العلوم ويحتقر الفنون لن يضر الفنون شيئاً والعكس، تماماً كالذي يكره الشقراوات او يحبهن سواء بسواء لن يفيد السمراوات ولن يضرهن، فأحكام التفضيل كلها ذاتية لا تؤثر بالواقع خارج الذات، كالذي يكره ديناً من الأديان او يحبه لا يقدم ولا يؤخر في ذلك الدين، ما لم يكن ذا سلطة وتسلط يقدر بهما على محاربة هذا الدين، وهنا تنتقل أحكام التفضيل من الذات الى الآخرين، ويصبح الصحيح من الخاطئ مرتبطاً بالقوة التي تفرضه، ليبقى ببقائها ويزول بزوالها.

ولما كان الإنسان حيواناً مائتاً فكل أحكامه القيمية لا قيمة لها في نهاية المطاف، ومثال ذلك إذا أردت مثالاً من واقع الحال هو: كل ما كانت تعتبره الاشتراكية الشيوعية صحيحاً أين هو الآن؟!

او كل ما كانت تعتبره النازية صحيحاً؟! او كل ما يعتبره الطغاة في مصلحة شعوبهم أين هو بعد زوالهم؟!

وهذا يعيدنا الى الارتباط الوثيق بين المطلقات والصحيح من الخاطئ في أحكام القيمة المشخصة، فكلما كان الحكم القيمي أوسع مدى، واقترب من المطلقات

كان أكثر دواماً، كأن تختار هذا الفرع من الاختصاص بالجامعة من أجل ظنك القدرة على الإبداع فيه، لا للمربح الذي سيدره عليك في المستقبل لذلك قيل إن شهادة الطبيب لا تصنع طبيباً، وشهادة الفلسفة لا تصنع فيلسوفاً!؟ بسبب أن الحكم القيمي إذا لم يكن مطلقاً كانت نتائجه ضحلة.

فكل صحيح إذا يجب أن يكون قريباً من مطلق ما، لذلك – حكمتُ – على أن ما يقدمه القرآن من حدوس إلهية مطلقة لأنها تخاطب المطلق الوحيد فينا والذي هو الضمير، صحيحة لقربه من مطلقين بهما تشابه: المطلق الإلهي، والمطلق الإنساني، الذي يتطلع إليه تعالى ويسعى بالضمير الى التواصل معه، طالما أن الشبيه لا يفهم إلا بشبيهه الذي هو منه تعالى.

ولكي نكون أكثر تحديداً فيما نقول يجب أن ننبه الى أننا عندما نسعى الى مثل هذه المعرفة – والفهم –، لا نكون في مجال "الثيولوجيا" ولا أي لاهوت، إلا من باب الاطلاع عليه وعلى فقهه فقط، بل نكون في مجال المعرفة الأخلاقية التي يحلو للبعض تسميتها – علماً – بمعنى معرفة الأخلاق "Ethics"، الذي لا يستند على اللاهوت او الفقه الديني، بقدر ما يستند على التخلق الشخصي "Morals" التهذيبي الخلقي المعتمد على الضمير، وحدوسه المطلقة من كل تحديد عقائدي مفروض.

والأخلاق إذ تدرس تخلقات الناس المختلفة، تدرس الصحيح من الخاطئ في الأحكام التي تؤدي الى أفعال سلوكية، لذلك يجب التمييز بين الأخلاق "Ethics" التي تحكم فكراً ما، وتخلقات هذا الفكر كما تمارس فعلاً "Morals"، فالأخلاق الإسلامية مثلاً لا تبيح الكذب، لكن من تخلقات بعض المسلمين "التقية"، والأخلاق المسيحية لا تبيح تعدد الزوجات، لكن من تخلقات معظم رجال الأعمال السكرتيرات.... وهكذا.

لذاك يعمل هذا المعيار التفصيلي بين الأخلاق والتخلق على كشف الصح من الخطأ في أي سلوك، بمدى التطابق بين الأخلاق التي يعتنقها صاحبه، وتخلقاته

السلوكية الفعلية، وهذا ما يسمى بالمعيارية الأخلاقية في أثناء تعاملها مع الجيد من السيئ، من الشرير من الخاطئ في السلوك "Normative Ethics".

أما التخلقات التي قد تخرج عن هذه المعيارية الأخلاقية او تلك، فهي موضوع دراسة علم الاجتماع النفسي الأخلاقي، لارتباطها بكل فرد على حدة ضمن بيئته المعينة.

أي أن للتخلقات صلة بالدوافع اللاأخلاقية واللااجتماعية الغريزية عند الفرد، والتي ورثها من موروثات شبيهات الإنسان في نوعه منذ فجر التاريخ، مما يجعل كل بحث في التخلقات يتضمن افتراض هذا الجانب اللامدني في كل فرد، ومنه – من هذا الجانب – توصل بعض الفلاسفة مثل "هوبز" كما ذكرنا الى "ذئبية الإنسان على أخيه الإنسان"، وعامل علم النفس منذ بداياته مع "فرويد" صلة المكبوتات بالمحرمات الاجتماعية، يقول "فرويد" عن نظريته في الكبت: أن (الغريزة والمقاومة ستصارع إحداهما الأخرى لفترة من الزمن على مستوى الشعور حتى تختفي الغريزة – و – الصراع في العصاب – يحصل – من تقهقر "الأنا" بعد أول صدمة يتلقاها مع الدافع المحظور.... لكن الدافع يبقى محتفظاً بكامل شحنته من الطاقة، وأطلقت على هذه العملية: الكبت)[1]، ولأن الشعب الذي يعيش معه "فرويد" كان ألمانياً قال: (كانت جماعة من الأعداء يتهمون الألمان بالهمجية.... ألمني أن خبرتي الخاصة لا تسمح بإنكارها)[2] لأنه يهودي.

وما (الاتفاق الكبير بين التحليل النفسي وبين فلسفة "شوبنهور".... إلا تأكيد السيطرة على الانفعالات والأهمية القصوى للجنسية منها.... والكبت.... أما "نيشته" فتتفق تخميناته اتفاقاً عجيباً مع كشوف التحليل النفسي)[3].

هكذا أدان علم النفس منذ بداياته مع الفلسفات التي رافقت ظهوره تاريخياً، وداعة الإنسان الأخلاقية الكاذبة، في تعارضها مع مطلقاته الضميرية لذلك أنكر

---

[1] سيغموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، دار المعارف بمصر 1967 م، ص 36.

[2] المرجع السابق، ص 57.

[3] المرجع السابق، ص 68.

"نيتشه" الضمير وتنكر له "فرويد" بعدم بحثه إلا على أساس الكابت الشعوري للمتوحش في الإنسان – أنا عليا فقط –، وهو ليس كذلك.

حتى أن علم النفس لم يفسح مجالاً لدراسة الضمير – كجزء من حواسنا الداخلية المطلقة التي تشكل مع الفكر والمشاعر والرغبات أساس كل نفس إنسانية – إلا مؤخراً جداً[1].

أما علم الاجتماع فيخبرنا أن لكل مجتمع قيمه المطلقة التي لا يناقشها ولا يرغب من أحد أن يغيرها له، ويتبناها نظامه القانوني السياسي لذلك يدافع عنها حتى ولو اقتضى الأمر الحرب، أما في الدول التي بها مجتمعات تختلف قيمها المطلقة – دينية كانت أم وضعية – فهذه الدول معرضة للحروب الأهلية، وعلى العكس منها في الدول التي تبنت قيماً مدنية "Secular" او دينية واحدة، فإذا كانت هذه الدول قوية لجأت الى نقل قيمها المطلقة الى من تقدر عليهم من الشعوب الأخرى، كذلك حصل أيام الفتح الإغريقي مع الاسكندر، والفتح الروماني بعده، ثم الفتح الإسلامي أيام الإسلام كما بدأ، وما بين هذه الفتوحات من دول حصلت معظم فتوحاتها نتيجة صراعات القيم المطلقة بينها.

واليوم نشهد العولمة البرغماتية الأمريكية تمارس امتداداً قيمياً مشابهاً حول كل العالم، الى حد يمكننا معه التأكيد على أن جوهر القوى اللامنظورة التي تتحكم بالعالم من خلال هذه الفلسفة او تلك هي: "القيم" المطلقة في اختلاف تفسيراتها الإنسانية.

وما الصراع بين البرغماتية والإسلام اليوم، بل ما سبب هجوم الفكر البرغماتي في مرحلة ما بعد مؤسسيه الأوائل – "بيرس، ديوي، جيمس –" على الشيوعية ثم على الإسلام اليوم، إلا بسبب اختلافه الجذري عن القيم المطلقة الشيوعية، حين توافق مع الإسلام أولاً في حربها – ثم بعد سقوط الشيوعية، توجه

---

[1] انظر كتابنا علم النفس دراسة الحواس الداخلية عند الإنسان، مرجع سابق، "من ص 293" الحواس الداخلية وصلتها بالأخلاق "الى ص 373"، والتي لم يعالجها أي كتاب سابق.

لمحاربة القيم الإسلامية المطلقة، تحت شعار ما يسمى اليوم بالحرب على الإرهاب.

يقول "نيتشه": (الإنسان مقاد رغم انفه بالأخلاق.... فأحدنا يضع نفسه بجانب مجتمع العدل والخير وبصورة نهائية بجانب الحقيقة، بينما يضع ما تبقى من العالم بالجانب الآخر)[1].

هذا هو المبدأ الذي نستطيع أن نزن به الصحة من الخطأ، فلسفياً أولاً، ثم تاريخياً وبعده اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، ولأجله تتضخم بعض العلوم على حساب أخرى، وتقوى التكنولوجيات الناتجة عنها، وخاصة التكنولوجيات الحربية، وكل ما له صلة بالغزو حتى غزو الفضاء وتكنولوجيات الاتصال من أجل غزو الأسواق.... وسواها.

وبناء على هذا المبدأ نستطيع أن نقرأ تاريخ الفلسفة، ونرى توجهات الفلسفات المعاصرة، ذلك أن مبدأ انقياد الإنسان – شاء أم أبى – الى هذا التوجه الأخلاقي او ذاك، حتى لو كانت أخلاقياته ضد الأخلاق مثل "نيتشه" مثلاً،هو الثابت وراء تغيرات السلوك الإنساني وتنوعاته، التي تضع الفكر والمشاعر والرغبات في خدمته، أي في خدمة الضمير – أياً كان اتجاهه– حتى ولو كان ضد ذاته بالجريمة والعدوان، وهو الذي يصلنا بالحقيقة المطلقة رغم نسبية تفاوت الرؤية البشرية لمعنى الحياة؟!

تفاوت الرؤى البشرية لمعنى الحياة:

رأينا أن المبدأ الذي يقفُ وراء تغيرات الحياة الإنسانية ويحملها "Meta" بشكل ميتافيزيائي هو انقياد الإنسان لمجال أخلاقي معين، مما يعني أن اختلاف الأخلاق يؤدي الى اختلاف الرؤى الإنسانية للهدف من الحياة ولمعناها أيضاً، وليس لاختلاف النظم الاجتماعية والسياسية فقط كما ذكرنا.

---

(1) Nietzsche, Twilight of the Idols, Penguin Books, N.Y. 1990, P170.

وضمن هذين الإطارين - الهدف والمعنى - يمكننا أن نلمس منطقياً أن الأخلاق تحددهما، وهما يسيرانها ويحددانها، وبعبارة أخرى نجد أن الإنسان هو الذي يحدد الهدف والمعنى من حياته بالأخلاق - او المنظومة الأخلاقية - التي صنعها أمثاله، وليس من مصدر آخر سوى الضمير - المسبق البرمجة فيه للحكم على تحديداته هذه -، فإذا تضارب ضميره مع المنظومة الأخلاقية التي فرضها المجتمع عليه، علق الأمر او ذهب الى منظومة أخلاقية أخرى وغير ولاءه او عقيدته بها، وبين هذين الخيارين نجد أسهلهما تعليق الأمر.

والذي يعلق الأمر على منظومته الأخلاقية ولا يقتنع بأخرى، يصبح عامل تشكيك وارتياب بالمنظومات التي أمامه او تطرح عليه، إذا هو لم يتبنَ أي واحدة منها.

وفي المجال الديني يسمى هؤلاء بالملحدين، وبالمجال الأيدلوجي المرتدين، وفي كلا الحالين يشكل هؤلاء تهديداً بالعدمية "Nihilism" في ضميرهم وضد ضمائر الآخرين، لذلك ندين إيديولوجيا اللاأدريين، بمعنى القائلين باستحالة معرفة صحة منظومتهم الأخلاقية "Agnosticism"، وقد أطلقت عليهم الماركسية اسم مناهضي الثورة والتقدم(*)، وأطلقت عليهم "الدوغما" السارترية اسم أصحاب الإيمان الرديء، أما بالمجال الديني فهؤلاء هم الملاحدة، فإذا حاولوا أن يحذفوا او يضيفوا الى الدين قيمة أخلاقية سلبية او ايجابية معينة، سموا بالهراطقة.

كل هذا من أجل تحديد معنى وهدف للحياة من خلال هذا الثابت في أصل المبدأ الذي نزن به الصحيح من الخاطئ، أي التوجه الأخلاقي الذي يفرضه الضمير - او المجتمع - معهما معاً، او بعزل أحدهما عن الآخر، او بتجاهلهما معاً وهو؛ ما يسمى بمناهضة المجتمع - الفوضوية -- اجتماعياً، او قتل الضمير فردياً، وقتل الضمير هو: أشد أنواع الفوضوية إيذاءً للذات والآخرين "Anarchiste"،

(*) إذا ارتدوا عن الماركسية، ورجعيين إذا هم أساساً لم يقبلوها، ورد هؤلاء بنعت الماركسيين باللاأخلاقيين - شيوعيي النساء وكل الأملاك - الملاحدة.

ولكن كل الفوضويين يجمعون على عداء الدولة للفرد، وضرورة خلاص المجتمع من دُولِه، كي يترك للضمير بناء العلاقات الإنسانية، خاصة وأنه – الضمير – هو الذي يصونها بوجود او عدم وجود الدول، وهذا التناقض في الفكر الفوضوي بين تحييد الضمير – قتله – من جهة، وترك العلاقات الإنسانية له من جهة أخرى، وهو سبب عدم شيوع فكرهم بين الناس.

أما التجمعات الاجتماعية التي تريد أن تخلص من سلطة أي توجه أخلاقي ميتافيزيائي ثابت عند أفرادها، مثل كل التجمعات القتالية سواء كانت جيوش كوماندوز "Commandos"، او ميليشيات مقاتلة او "مافيا"، فتدرب أفرادها على القتل، بدءاً من قتل الحيوانات والتهامها حية، وانتهاء بقتل أعدائها بعد تعذيبهم. وهم إذ يحتجون بأن الهدف من التعذيب استخراج المعلومات من الخصم، كي يوفروا أرواح جنودهم او أنصارهم، يخفون حقيقة أن للتعذيب هدفاً أبعد من ذلك، ويتجاوز من يظن بأن من يمارسه مريض بالسادية "Sadism"، نسبة الى الكونت "فرنسوا دي ساد" الذي كتب أول رواية تصف المتعة من ممارسة التعذيب تحت اسم: "مئة وعشرون يوماً من سودوم"، وهذا التجاوز هو بهدف قتل الضمير(*).

والذي يموت ضميره بهذه الطريقة يتخلص من سلطة أي توجه أخلاقي أي من كل ميزان للصحيح من الخاطئ في سلوكه، والمتعة الناجمة عن هذا أكبر من السادية – وان كنت لا أستثني السادية هنا فيها –، وتحديداً تشبه كل متع الخلاص من حاسة من الحواس – الخارجية – حين تعرضها بشكل مستمر لاستثارات لا تحتمل، كالذي يفقد حاسة الشم بعد أن يعيش حياته في "كنيف" من القاذورات، او حتى حاسة السمع لمن يطلق كل يوم آلاف القذائف، او حتى اللمس للمتألم من حروق من الدرجة الأولى في كل جسمه.

(*) لسارتر قول مشهور هو: "إذا لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح"، والحق أن يقال: "إذا لم يكن نور الله في الضمير موجوداً فتلك هي الإباحية"!!

إيقاف الحواس الداخلية كإيقاف الحواس الخارجية عن العمل به متعة الخلاص من توتراتها – وهي ليست جنسية هنا –، فالمتألم يقبل "المورفين" لإيقاف حاسة اللمس، كما يقبله المتألم نفسياً لإيقاف حاسة الفكر.

أما الذي يريد أن يوقف حاسة الضمير – وهي من الحواس الداخلية – فيستطيع قتلها بالتدريج بدءاً من تعذيب الحيوانات الأليفة، الى ما تفعله القوات العسكرية الخاصة، من أكل الزواحف حية، بعد سلخ جلودها بأسنانها، ويعدون هذا منتهى الرجولة؟!

تماماً كما يتباهى من يشرب عشرات الكؤوس من الكحول، التي توقف حاسة الفكر عنده، وتحرض الإرادة والمشاعر، ليثبت رجولته، والغريب كيف أن الخلاص من الحواس – داخلية كانت أم خارجية – والذي يؤدي الى تعطيل كل رؤية ممكنة لمعنى الحياة، بضرب كل الميتافيزياء الفطرية في الإنسان، يصبح قيمة اجتماعية عند البعض تعبر عن الرجولة، وكأن الرجل الأفضل لا ذاك الذي يتمتع بحواس إضافية مثلاً "ESP"، – إذا كان ذلك ممكناً –، بل من يفقد بعضاً من حواسه داخلية كانت أم خارجية، دون أي اضطرار؟

ولعل الجواب بالرغبة في تشويش او حتى الخلاص من المبدأ الذي نستطيع أن نزن به الصحة من الخطأ بالفكر والأخلاق أي؛ الضمير، لكي لا يقرر الإنسان لنفسه خياراً يلزمه بمبدأ من مبادئ الأخلاق؟! لذلك ينظر معظم الناس الى المتعاطين نظرة احتقار – حشاش او سكير.... لأنه لا يستطيع أن يحدد لنفسه معنى لحياته.

فإذا قررت الوجودية أن هذا العالم وإن كان مفهوماً فهو غير معقول، وكادت فلسفات ما بعد الحداثة أن تنفي أي معنى للحياة او هدف لها، فقد أعطت بنفيها هذا معنى للامعنى الذي قررته وهو: اللامعنى؟! وهذا الدور يعني أن الذي يصنع معنى للحياة هو كل فرد على حدة، ليشكل معناه الخاص، دون أن يعني ذلك أن لدى الناس أدوات مختلفة، يستعملونها تسبب اختلاف الأخلاقيات التي تشكل

منظورهم الشخصي هذا او ذاك، فالكل يتمتع بحواس داخلية تكاد تكون متساوية بزخم ما تضخه من معلومات، تحدد مختلف توجهات الناس.

لكن أساس إثبات الحرية هو أنه على كل إنسان أن يحدد معنى حياته بنفسه، وإلا وقع بغلطة المعري في قوله:

نفارق العيش لم نظفر بمعرفـــة   أي المعاني بأهل الأرض مقصود[1]؟

وكأنه ينتظر أن يأتيه معنى التواجد من بنية الكون او الوجود لا من نفسه!!

ولو حصل لكان هناك قانون اسمه المعنى من الوجود والتواجد، ولكان جبرياً شأن كل باقي القوانين التي تلغي حرية من يقع تحت سلطتها، كالجاذبية مثلاً؟!؟

إننا إذا لم نمنح للحياة معنى متصلاً بالمعرفة وبأنفسنا يومياً كهدف يحدد معنى وجودنا، سنظل نضطر الى وضع معنى تلو آخر لكل فترة من الزمن نعيشها، او أن نترك الدولة تحدد الهدف من وجودنا، يقول "سارتر": (كذلك الحال في الأقطار الاشتراكية فالهدف ليس الاستهلاك بل الإنتاج للإنتاج، الآلة تدور على نفسها، ومكانة الفرد محددة فيها تحديداً صارماً بمقتضيات خطة لم يسهم فيها.... ففي "تشيكوسلوفاكيا" على سبيل المثال كان التمرد تمرداً على نظام الإنتاج للإنتاج اللاإنساني، وهو تمرد انتهى بالمطالبة بالحرية)[2]، فكل هدف للحياة يضعه الآخرون لك هو عائق ضد حريتك، وهذا التفرد الذي تفرضه الحياة على كل فرد فيها من خلال رؤيته الخاصة لمعناها، يتضمن اتصالاً بالمعرفة، إذ بدونها نادراً ما يطرح الإنسان بشكل جدي السؤال عن المعنى والهدف من حياته، فإذا قالت المذاهب الشيوعية الاشتراكية أن المهم المجتمع لا الفرد، الذي لا تساوي حياته شيئاً بالنسبة الى الجماعة، فعليها أن تعرف أيضاً أن ما من شيء يساوي حياة الفرد

---

[1] اللزوميات، مرجع سابق، ج1، ص 327.

[2] سارتر، دفاع عن المثقفين، منشورات دار الآداب، بيروت 1973، ص 182.

بعظمة تفردها، الذي يشكل وجوده - الفعلي - مستحيل التكرار، عظمة كل إبداع الكون، على الأقل طالما ينكرون الخالق.

إن أكبر معيق لرؤية الفرد لمعنى حياته، هو معاملته ايديولوجياً كموضوع "أنثربولوجي" يريد أن يضع له صورة مسبقة، حتى ولو سعى لتخليصه من الجوع والأمراض، والآم الحروب والكوارث الأرضية والبشرية والأوبئة، لان هذا لا يحل السؤال: وبعد ذلك لماذا نريده حياً يتناسل؟؟ أليترك بالأرض نوعه وأمثاله "ضحايا للقدر والمصير" - كما ذكّرنا قول هرقليطس -؟

فالسؤال عن معنى الحياة وهدفها ميتافيزيائي لا أنثربولوجي، يجب أن توجهه الميتافيزياء نحو المعرفة التي بها مصير الإنسانية كلها، ومعنى حياة كل فرد منها، وبدون هذا التوجيه سيتخبط الناس بأهداف متضاربة وسيضعون لأنفسهم معاني حياة إيديولوجية متضاربة، تزيد من نزق كثرتهم المتنافسة على موارد هذا الكوكب، الآيلة الى النضوب.

لكن حين يدرك كل فرد أن مصيره نحو مزيد من المعرفة هو الذي يصنع معنى لحياته، ويعمل في هذا الاتجاه، لا يعود الهدف من التعليم تخريج الكوادر، ولا تأهيل الأمم لمزيد من القوة الناتجة عن العلم، وأعني التكنولوجيا، بل يصبح الهدف أسمى من كل هذه الوسائل - التي لا بد منها أيضاً - لأجل كشف عوالم أخرى خارج فضائنا، وأنساق أخرى داخله، لفض أسرار الكون لا مجرد البقاء فيه ولأجله فقط.

لا معنى للحياة دون هدف ميتافيزيائي ومفارق معرفي مطلق، لذلك يقصر الملاحدة عن فهم أي معنى لحياتهم، فتسيطر على أفكارهم شذوذات اللذائذ الآنية الجسدية، وينسون لذة المعرفة حولهم وهم بها، وعلى توجهاتهم معاني العبث واللاشيئية و"الغثيان"، كما في كل فلسفة "سارتر" مثلاً.

إن لذة المعرفة التي تجعل الإنسان فوق خنازير "أبيقور"، وهي التي توجهه نحو مطلقات الفيزياء والميتافيزياء والمفارقات، وكل شوط يقطعه باتجاهها يعطي لحياته معنىً جديداً.

ففي المجال الفيزيائي تفتح هذه المعرفة آفاق الفضاء، لرؤية عوالم أخرى "مايكرو" و"ميكرو" لها علينا كل التأثير، ولنا فيها كل المصير.

وفي المجال الميتافيزيائي تطلق معرفتنا تصورنا في ما يتصل بمصيرنا لمعرفة مكاننا ضمن هذه الأنساق الجديدة، ومكان هذه الأنساق فيما يعلوها من أنساق، ومعنى وجودنا ضمنها، فإذا قصر الفكر الإلحادي عن فهم صلة هذا المجال بالمفارقات؛ تأتيه المعرفة بطروحات المجال المفارق بعظيم صلته بالمطلقات، الأبعد من كل فيزياء وميتافيزياء، ولا تطالبه بالإقرار بها او بملكة فهمها، بل على الأقل بمعضلات التساؤل حول الألوهة!؟

فإذا انجذب الإنسان الى هذا او بعضه، خرج من سيطرة البطن – الاقتصاد – وما دون البطن – الغرائز –، ليعلن حرية إنسانيته من خلال مصيره الذي كرس حياته له ضمن جزء من هذه البحوث الفلسفية.

وما هدف الفلسفة سوى طرح أمثال هذه الإشكالات الفكرية المصيرية وأهمها: المعنى من الحياة، لا للتيئيس "العدمي" من الإجابات، بل لفتح الأبواب للمنطقي منها، كي لا تصير فلسفات الحداثة وما بعد الحداثة عبئاً يعيق رؤية الإنسان لمصيره من خلال معنى حياته وهدفها، الأقصر بالنسبة الى نسبية الكون من ومضة انفجار بعوضة على سلك مكهرب، والأثمن من أن يضيعها دون توجه نحو المعرفة، وبه كل فطرية غرائز الاستطلاع التي تكافئه بلذائذها الأعظم من كل لذائذ الأبيقورية والنفعية بأشواط، تشبه بعد المطلق عن المحدود.

معنى الحياة إذا ليس قانوناً نبحث عنه ونجده في الوجود، ولا هو متصل بأي مكافأة لذة سوى لذة المعرفة التي هي ميتافيزيائية بطبيعتها، وبها الحرية ولا معرفة بدونها، فالإنسان هو الذي يعطي من خلال هذا معنى لحياته، كذلك كل المجتمعات من خلال وسائل الاتصال تغذي هذا الاتجاه اليوم، بل إن كل وسائل الاتصال ما كانت لتتقدم لولا المعرفة بكل الآفاق التي تفتحها لكل فرد عاقل كي يحدد معنى حياته، بمعزل عن هدفها الاقتصادي.

ولأن الأمر كذلك لا يوجد مجتمع ينكر أهمية التعليم، والاختلاف فقط في أهدافه، ولعل هدف البرغماتية من التعليم، هو في ما التقطته من معاني ضرورة التطابق مع الواقع، (كل الوقائع تؤثر على ممارستنا، وهذا التأثير هو معناها بالنسبة لنا)[1]، وهكذا نجد المعنى في كل نظرية حقيقية متطابقة مع الواقع، وحين نجده نبحث عن مكملاته عبر دافع البحث عن مزيد من الحقيقة، كي نحدد من خلالها مصيرنا، وهكذا تعدل الحقائق الجديدة الحقائق القديمة، ونظل نبحث عن معنى الوجود من أجل معرفة المصير.

ان الرغبة بالمتع – و – إرادة القوة والسيطرة، إما من أجل ممارستهما او من أجل تفسير أسباب الأمراض والمجاعات وعذابات الأطفال، التي تنتهي بموتهم بالأمراض القاتلة كالايدز والسرطان.... الخ لا يمكن أن تدلنا على أي معنى للحياة، والثيولوجيا المسيحية التي سودت الصفحات عن مشكلة الشر في العالم، لم تدفع بقرائها سوى لمزيد من الشك بعقائدها، وتأكيد لا معنى هذا الوجود، حين عجزت عن حل القياس "الأبيقوري" القائل: بأن "ديوجين الكلبي" الرافض للاستعباد من خلال أي إنتاج اجتماعي مادي، او مثالي عقلي وديني – حَرَضَ أبيقور – على التساؤل: عما إذا كان الإله عارفاً بشرور هذا العالم وعاجزاً عن إصلاحه؛ فهو معاق، وإن كان لا يريد هذا الإصلاح فهو شرير، وبكلا الحالين تسقط دعاوى الدين، والأخلاق، ويصير الهدف والمعنى من الوجود محصوراً بالمتعة[2].

لكن الفقه الإسلامي الذي قرر أن هذه الدنيا مكان بلوى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة155]، من أجل هدف من هذه البلوى هو: أننا هنا في هذه الدنيا بطريق الى جهنم، فنحن فيها وإن لم نشعر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

---

(1) William James, Pragmatism, op. cit, P 48.

(2) دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 82.

[النساء 168-169]، فهذه الأرض طريق الى جهنم لمعظم الناس؛ فهي جزء منها، وما ضياع معنى وجود هؤلاء، بين إرادة السيطرة والقوة وإرادة اللذة، إلا لكي يظلموا، وبذلك يكشف القول القرآني الشريف طريق جهنم في هذه الدنيا، لكن لإرادة المتعة معنى راق يوصلنا الى لذة سماوية هي لذة المعرفة، وبها يتحدد الهدف من تواجدنا ووجودنا ككل ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة 11].

وحتى في اليوم الآخر لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالمعرفة بهذا المعنى الإسلامي ليس هدف الحياة فقط، بل بها هداية الناس أثناء طريق جهنم هذا، ولها الخلاص في المصير بالآخرة أيضاً، فهي التي ستجنبنا المزيد من العذابات التواجدية الأخرى(*)، في برزخ هذا الوجود الكلي الخطير الذي نحن فيه، ولن ينقذنا منه سوى رحمة الله المتعالي تعالى.

هذا هو موجز الإيضاح الإسلامي لمعنى الشر الذي نحن مبتلون به في "طريق جهنم" هذا ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء 35]، وذلك بأداة الشر الغواية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج 3].

ان إرادة المعنى حسب كل هذه الاعتبارات ذاتية، مرتبطة بالمعرفة والحرية، فهي ميتافيزيائية بكل معنى الكلمة، فإذا ادعت الوجودية أن السؤال يجب أن لا يكون "عما إذا كان للحياة من معنى، "بل" من يعطي معنى للحياة"؟

فالجواب هو المعرفة لا العلم، والفلسفة الحرة عندما يواجه الإنسان مواقف نهائية، على مفترق طريقه نحو مصيره، وأثناء هذه المسيرة نحو المصير عبر تقلبات الحياة، لا بد من قصة تروى لكل واحد منا؛ والنبيه هو الذي يستخلص من سيرة حياته الذاتية معنى وجوده لا تواجده فقط.

(*) عن علي "رضي": "حرام على نفسٍ أن تخرج من الدنيا حتى تعلم أين مصيرها"، انظر مسند ابن حنبل، دار الفكر، بيروت، ج 6، ص 284.

لذلك نبهت ما بعد الحداثة، ومارست الحداثة قاعدة أن: الإنسان حيوان قصاص، وجماع قصص كل هؤلاء البشر منذ الخليقة، من خلال القليل الذي ذكر منها، يشكل تراجيديا الوجود الإنساني، التي لن نجد فيها أكثر من كون هذه الأرض مكان تطهير.

تطهير لأجل سر يلغز على العقل، ويوضحه الوحي لهذا العقل العاجز، بأنه: إذا آمنت بالخالق، فمن غير اللائق أن تقف أمام حضرته الإلهية وبك شائبة، لذلك يجب إزالة شوائبك بمحن الأرض وان لم يكن فبعذابات ما بعد الموت، فإلى أين تلتجئ لغير الله، وأيها تختار؟! لا معنى للحياة دون استسلام الإسلام للخالق، والبديل التفاهات بقصص – سير ذاتية – الأدب المروية التي ترسخ اللامعنى، مثل "طاعون كامو" الذي لا تنطبق مجازاته إلا عليه في حرب الجزائر، لكن لكل منا سيرة ذاتية أخرى، وحرية اختيار أخرى، على عدد أنفاس الخلق، فأنت لم توضع بين خيار الدفاع عن أمك او عن الحق، لكن لكل منا معركته الخاصة مع الحقيقة التي تدفعه حريته الى البحث من خلالها عن الحق.

ففي كل سير البشر الذاتية تراعي المصير حسب اختلاف رؤية من عاينه وعاين مدى أهمية مصيره بالنسبة إليه، فبالبحث عن المصير لأجل معنى الحياة، فإذا لم تجده بالفلسفة فعليك بالفن، وإلا فبالعلم، لكن الناصح من يسمع للدين، والأنصح من يفهم معنى التسليم الإسلامي.

فلنبحث بالفن والعلم بعد بحثنا عن مصيرنا بالفلسفة، أما باب الإسلام فأوضح من الاثنين بكل معنى الكلمة، على أن أنبه القارئ الى أننا في هذا المجال نطرق فلسفة الفن – الفنون –، وفلسفة العلوم، بالتعرف على العلم أولاً، كجزء أساسي من المعرفة التي توسع فهم كل إنسان لمعنى حياته، وتحدده له، فلنبدأ بالعلم.

ما العلم؟

إن كلمة علم بمعنى: "Science" قد اختلطت عند العرب المتأخرين على أنها مرادفة للمعرفة، وتحديداً ما يتوقف عليه الحكم على الأشياء من خبريات، بينما في

العلم إدراك للوقائع "Facts" في كيفية تداخلها مع هذه الجزئية او تلك تجريبياً لا خبريا، أي عياناً لا نقلاً.

وبمعزل عن الوقائع "Facts" التي هي: معطيات لا صحيحة ولا خاطئة، مثل: كون اللهب أحمر والجليد صلباً والذهب أصفر.... الخ، لا يمكن أن تؤسس أي معرفة علمية، لأن المعرفة العلمية لا تأخذ يقينها إلا من "الوقائع" التي تكشفها، لذلك لا يمكن إعطاء صفة العلم بمعنى "ساينس" "Science"؛ لما يسمى بالعلوم المدونة – النقلية – كعلم الكلام مثلاً، لأنه لا يستند على الوقائع، بل على الأمر الواقع الذي حصل فيه نتيجة مخاض شرعي لهذا الرأي او ذاك: "De Facto" .

ولأنه لا علم بدون "حس عام Common Sense" يريد اليقين العقلي لا النقلي وحده، فلا علم بدون منطق، أي لا علم بدون أداة البحث عن اليقين الإنساني أي المنطق بكل اتجاهاته المختلفة.

وبسبب استناد كل العلوم "Science" على المنطق، ولان المنطق يدخل بالمعارف النقلية أيضاً، سميت هذه المعارف خطأ بالعلم وصار من يمارسها ويطبقها ويعرف تفاصيلها يسمى عالماً، بدل عارف بهذه المعارف، فاختلط الأمر على طلاب المعرفة عندنا، وسمي أناس بالعلماء وهم مجرد عارفين بالدين أي فقهاء[*] فقط، وهكذا صار "العالم العلامة والحبر الفهامة" الحائز على العالمية كتسمية للدكتوراه في النقل والفقه – يتجنبون استعمال العالمية اليوم – علماء، وهم فقهاء في الشرع وفي الدفاع عنه أي الكلام.

العلم بمعنى "Science" لا صلة له بالنقل والمعارف النقلية أي كل الخبريات، وهذا لا يعني أنه ضدها او عدوها إلا إذا ادعى العلمانية، وهذه الدعوى تعصبية ضد المعرفة الدينية: "Scientism"، وهي مصطلح مذموم من الباحثين العلميين جميعاً "Pejorative"، لأنه يدعي أن مناهج البحوث الفيزيائية والمقولات التي تحكمها، هي وحدها الصحيحة في كل المعارف الإنسانية، وتقترب الفلسفة

---

[*] الفقه يعني الفهم لما يطرح، لا طرح ما يحتاج الى فهم، وإلا صار علماً.

التجريبية لا المنهج التجريبي العلمي – مع المدرسة الانكليزية من "لوك" حتى "رسل" – من هذا الاتجاه، وان كانت ترفض أن تنعت بالعلمانية، لذلك علينا أن نميز بين المنهج التجريبي العلمي الذي لا يصح أي علم – ويبقى معرفة فقط – بدونه، وبين العلمانية، حتى في صيغتها المعدلة بالامبيريسية(*) "Empiricism".

وهذا يقودنا الى أن المناهج العلمية المختلفة رغم أنها جميعاً لا تنكر التجريبية، لكن بعضها يؤكد أن لا شيء يسبق التجربة سوى العقل الذي يصنعها، وهي المسماة بالمذاهب العقلية، أقول: أن المناهج العلمية المختلفة كلها تريد أن تكشف لنا عن وجود قوانين بالغة العمق تكمن في صميم الأشياء، وأسس تصميمها الطبيعية في عالم يسوده النظام، أينما اتجهنا في دراسته من كل ما يحيط بنا الى أنفسنا بذاتها، وحتى العشوائية التي برزت للعلماء حين سمحت أجهزتهم بدراسة العوالم الدقيقة – كوانتيوم في الفيزياء، و"DNA" في البيولوجيا – لا تخرج عن كونها "كاوس Chaos" داخل كل شيء بذاته – نومن – يفرز: "نوس Noesis" أي من الفوضى يفرز النظام، حسب قانون الحتمية في ضرورة تلاقي المتشابهات، في عالم يسوده النظام، أينما اتجهنا في دراسته من كل ما يحيط بنا الى أنفسنا بذاتها، وحتى العشوائية التي برزت للعلماء حين سمحت أجهزتهم بدراسة العوالم الدقيقة – كوانتيوم في الفيزياء، و"DNA" في البيولوجيا – لا تخرج عن كونها "كاوس Chaos" داخل كل شيء بذاته – نومن – يفرز: "نوس Noesis" أي من الفوضى يفرز النظام، حسب قانون الحتمية في ضرورة تلاقي المتشابهات، في كل مجال أمامك وفيك، وعبارة "نوس" ذات الأصل الفرعوني التي دخلت الى اللغة اليونانية، اعتبرها أفلاطون أداة او وسيلة كل منهج فكري يكشف به الإنسان عن "المُثُلْ"، وبهذا المنهج الحكمة التي تسمح بفهم عالم "المُثُلْ" الموازي – اللامنظور – لعالمنا، الذي تفصلنا عنه – عن عالم المثل – فوضى "الكاوس" كما يبدو اليوم.

بينما عند "كانط" هو عالم "النومن – Noumenon" الذي لا نستطيع اختراقه؟! وقد وقفت على تخومه اليوم نظريات "الكوانتيوم Quantum"، التي قدمها "ماكس

(*) وهي مذهب فلسفي لا مطلب علمي أمبيريقي فيجب التمييز بينهما.

بلانك Max Blank" في مطلع القرن العشرين، كأول انفصال عن نظريات "نيوتن" التي لا تصلح حين دراسة البنية الأساسية – الالكترونية – للمادة، ما أعقب ذلك من دراسات "نازية" ألمانية حول البنية المجهرية البيولوجية للإنسان، التي أكدت (أن ما صَنَعنا هو مجموعة متناهية من المعلومات يمكن معرفتها)[1] هي في كل "DNA".

وبدخول العالم الجزيئي فيزيائياً كان أم عضوياً "Quantum Field"، حاول علماء الفيزياء الجمع بين نظريات النسبية ونظريات الكوانتيوم[2]، تماماً كما يحاول علماء "البيولوجيا" و"الفيزيولوجيا" الجمع بين البيئة والوراثة في صنع الإنسان؟!

والمنطلق الفلسفي الذي كما يجب أن يحكم هذه الثنائيات المقلقة لقوانين "الميكرو" و"الماكرو" المختلفة للعلماء، وهو: الرأي الأفلاطوني الذي أكد منذ فجر المعرفة الإنسانية – الفلسفة – أن "الكاوس chaos" هو أساس كل "نوس Noesis"، أي أنه من الفوضى يخرج دوماً النظام.

فإذا أخذنا هذا الرأي بعين الاعتبار نجد أنه أيضاً في مجال الفهم المنهجي المنطقي، يخرج المنطق من الحس العام، الذي يعني الإحساس المشترك الفطري عند كل الناس، والمبرمج في جيناتنا الدماغية عن ملايين الأجداد، والمسمى بالانكليزية: "Common Sense"، وهي عبارة مركبة قلما نستطيع تداولها، وهي أساس فهمنا الفطري للمنطق، وهي كعبارة تعني مثلاً: أنك قبل أن تفهم مقولة "الكم" المنطقية، تعرف مسبقاً – قبلياً – أن الكل أكبر من الجزء، وعلى هذه المعرفة المشوشة يبنى الفكر المنطقي، حين نتعلم ضبط مسبقاتها بشكل منهجي.

والمنهج لا يعني سوى الطريق المضبوط او الاتجاه المضبوط برأيٍ منطقي محدد، وهو ليس علماً بل هو الإطار المنطقي الذي يتحرك العلم فيه، فإذا كان

---

[1] دانييل كيفلس وليروي هود، الشيفرة الوراثية، عالم المعرفة، الكويت كانون2/1997، ص 114 – و– 330.

[2] تسمى محاولات الفيزيائيين"Theory of quantum gravity"، انظر:

Stephen Hawking and Roger Penrose, The Nature of Space and Time, Princeton uni Press, P 200, Foreword.

مثالياً كمنهج "ديكارت" مثلاً: كما يقول: أن كل ما يتطلبه منهجه هو (عقل متحرر من كل الأفكار المسبقة)[1]، أي أن كل ما هو حقيقي يجب أن يكون بسيطاً وواضحاً ومتميزاً حتى يكون قابلاً للبحث العلمي (فلا شيء يكون بوضوح وتميز حين فهمه، دون أن يكون حقيقياً)[2].

ويسمى هذا المنهج المثالي – العقلاني – في تقصي المعرفة العلمية، وكل نقد وجه الى هذا المنهج جاء إما من أصحاب المنهج العلمي التجريبي – السابق ذكره –، او من أصحاب المنهج الريبي المعتدل – لاستحالة الريبية المطلقة لأنها تؤدي الى عدم اليقين، لذلك تدعى – "Mitigated Skepticism"[*]، بدءاً من اعتراضات "هوبز" على "ديكارت"[3]، مروراً بالفلاسفة التجريبيين من "لوك" حتى "رسل" وانتهاءً "بكارل بوبر"، حيث يجب أن يعتمد في المنهج العلمي لا على التحقق والتأييد بمعنى البحث عن الأمثلة التي تؤيد النظرية العلمية لأن حالة نفي واحدة كافية لإلغاء التعميمات النظرية، مثل الظن بأن كل الأسماك تبيض، او كل أفريقي أسود؟!

فلا يمكن التأكد من صدق منهج نظرية علمية إلا إذا خلت من إمكان النفي، وبهذا السياق تخلو نظريات "إقليدس" في الهندسة المستوية من النفي، لكن نظريات أمثال "ريمان" في الهندسة الميكروفيزيائية، شأنها شأن كل دخول في عالم "الميكرو" لا تنفي عالم "الماكرو" المستوي، بل تحتاج الى بداهات تتلاءم مع ذاك العالم الدقيق، ومن هنا يمكن لدارس المنهج العلمي أن لا يتحدث عن كلمة اليقين في العلم، وجل ما هنالك الصفة الترجيحية فيه وهي بالانكليزية: "Plausibility"، دون أن يعني هذا سوى ما حدده "هوكنغ" بقوله: (أن الكون محكوم بقوانين تمكن الإنسان من التنبؤ، لكن الحركة – في الكون أي في صلب بنيته الجزيئية – التي

---

(1) Rene Descartes, Meditations, Cambridge University Press, N.Y 1993, P 5.

(2) Ibid, P 67.

(*) الريبية المعتدلة.

(3) انظر كتابنا، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 167.

تنتج عن هذه القوانين، غالباً ما تكون عشوائية)[1]، أي كما قررنا: "من الفوضى ينشأ النظام"، والذي سيعود الى الفوضى ثانية بعد وصول الكون الى قطب التحطم الأخير "Big Crunch"[2]، والفرد الى برزخ الموت.

للمعرفة العلمية إذا أنساق "Symmetry" ترجيحية، لذلك تستدعي ما طرحته في كتابي: "منهج البحث العلمي" من نظريات مختلفة حول طريق او مناهج أي طرق الوصول إليها من خلال اليقين، لكن ماذا يعني اليقين؟ والبيانات "Evidences and Data"، والريبية ونسبية المعرفة، وبنيويتها، والتجريبية وصلتها بالحواس، والسببية، وأخيراً النظريات المثالية والواقعية حول كل هذه المناهج من أجل صياغة المفاهيم الدقيقة، كهدف لهذا الجانب من المعرفة الذي هو العلم[3].

هكذا نجد أن هدف العلم هو اليقين حتى ولو كانت الصبغة الأساسية لكل يقين الى ترجيحية "Plausible"، وهذه الترجيحية هي السمة الأساسية في كل خلفيات الحضارة الغربية، وإذا أردت أن تتأكد من عدم وجودها في الحضارات الشرقية، ما عليك سوى أن تراقب كيفية تبني الشرق للفلسفات الغربية المعاصرة، حيث صارت الماركسية ديناً في روسيا وفي الصين، وكذلك اشتراكيات العالم الثالث، بينما ظل مركز توريدها من "السوربون" في فرنسا يعمل على تعديلاتها البنيوية والوجودية وأخيراً مقاومتها مع التجريبية الانكليزية الأمريكية، قبل أن تعلن التحولية "الأبستيمولوجية" علناً الصفة التي كانت مضمرة في الفكر الغربي، أعني ترجيحية المعرفة على يد أمثال "بوبر" فكشفت الغطاء على الجانب الخاص الذي لا يوجد إلا في الفكر الغربي الفلسفي، وهو جانب مخاض الأنساق – والفلسفات – الفكرية الدائم فيه، في أساس ما قررته الفلسفة الإغريقية منذ أن بدأت بأن: "درب الحقيقة لانهائي"، وغاية ما يمكننا أن نحصله في هذا الدرب، بمعزل عن غرور الدوغمائيات التي تدعي الوصول، هو: البحث عن الثوابت بين المتغيرات فيه علمياً

---

(1) Stephen Hawking, Black Holes and Baby Universes, Bantam Books, London 1994, P 154.

(2) A brief History of time, Op. cit, P 38.

(3) انظر كتابنا، منهج البحث العلمي، مجد، بيروت 2004 م.

– أي تجريبياً –، وعما وراء المتغيرات "Beyond"، وليس ما هو وراءها فقط "Behind"، أي ما يشكل خلفيتهما او إطارها وحده.

لذلك وصف "كارل بوبر" المشروع الفلسفي الغربي منذ "بارمانيدس" الذي وجه الفلسفة الغربية نحو البحث عن الثوابت "Invariants" بأنه: حين (قرر "هرقليطس" التغير في كل شيء قرر "بارمانيدس" أن لا تغير أبداً، وهو ما تقره الفلسفة العلمية المعاصرة – بالثوابت عبر المتغيرات – وهو ما أكده "أميل ميرسون" فيما أشار إليه في الفيزياء بالمعادلات التفاضلية، التي سبقها مفهوم كيفية الفهم على أسس أفكار "إكسانوفان" الباكرة)[1].

هكذا يشترك المنهج العلمي مع كل المناهج الفلسفية، بالبحث عن الثوابت فيما وراء المتغيرات أي حواملها، وخلف المتغيرات أي أطرها، سواء بالترميز الرياضي او عبر المعادلات الفكرية الصارمة، عبر الاستقصاء المنطقي الدقيق الذي يسمى بالانكليزية: "Epistem".

وإذا كانت الفلسفة هي التي تصنع الأبستيمولوجيات المختلفة باختلاف منظوراتها – مذاهبها – للوجود كما هو موجود، فهي تقدم للعلم أطره المنهجية، التي يستطيع من خلال تفرده بهذه القدرة على اختيارها من بين كل مستويات المعرفة الإنسانية، أن يعدل نفسه بصورة مستمرة، فالعلم هو المعرفة الإنسانية، التي تشترك مع الفلسفة بالتعديل حتى لكل منطلقاتها، اذ ليس المهم السير في درب ثوابت الحقيقة فقط, دون قدرة "ريبية معتدلة"، على إعادة النظر بهذه الثوابت مع كل كشف معرفي او علمي جديد.

لذلك استطعت أن أقول فيما سبق، وعلى ضوء فهمي لفيزياء الكوانتيوم أن في كل "كاوس chaos" فوضى "الالكترونيات" به "نوس Noesis " ثبات النظام، ومن كل منهما يخرج نقيض الآخر بمعناه الديالكتيكي، وبهذا الحكم النسبي توجد أعراض جانبية "Side Effects" أنا وأنت منها، لذلك أعلن "نيتشه" أن الصدفة هي

---

(1) Karl Popper, the World of Parmenides, Routledge, London 2002, P XIV.

أنت؟! وهو ما يؤكده علم دراسة التصالبات الصبغية وما بها من "DNA"، نحمله من ملايين الأجداد من سلالتنا!! فجزيء الحمض النووي – "DNA" – لولب مزدوج كثير الالتفاف حول نفسه، بطريقة تتعدد معه فرص تلامس الجينات المتباعدة وتتنوع – وما البقاء إلا.... – (ثمرة الانتخاب الطبيعي، وإن كان عدد الذين يتمتعون بميزة الانتخاب هذه لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من الذرية.... وعلى الرغم من قلتها، هي البذرة التي تتولد منها أجيال متعاقبة)[1].

ومثل هذا الأمر يحصل مع كل الكائنات، لكن ثابت المعرفة الإنسانية عبر حواسنا التي تدرك بها العالم الخارجي يختلف مثلاً (عن صورة العالم بالنسبة للكلب.... فالعين البشرية لا تبصر من المجال الشاسع للموجات الكهرومغناطيسية إلا شريحة الألوان السبعة.... والأصوات والروائح خارج إدراك الأذن والأنف البشريين.... يوجد حولنا أكثر من عالم لا ندرك من هذا العوالم إلا عالماً واحداً، هو المهم بالنسبة لحياتنا)[2]، أي أننا لم نصمم إلا للبقاء، وهذه حدود مهمة العقل الإنساني الأساسية.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نؤكد أن وظيفة العقل الأساسية عند الإنسان هي: البقاء، كبديل عن ناب الأسد وجلد الدب، وما المعرفة العلمية والفلسفية عنده، منذ فجر الفكر اليوناني الذي نعرفه مع "طاليس"، سوى ما يتصل بمصيره، ولا يهتم ولم يهتم منها إلا بذلك، لذلك لا تجد أذناً صاغية لأي بحث علمي او فلسفي لا يمس البقاء والمصير، وبهذا يتلاعب السياسيون بأقوامهم، وتتلاعب التكنولوجيا بالعلم لإرضاء ما يخدم البقاء، ولو على حساب الأجيال القادمة، من تلوث وقدرات تدميرية للمعرفة قبل الذرة؟؟

وهذه النواقص من صلب بيئتنا الوراثية تعكس "الكاوس" من صلب بنية الكون الجزيئية، لذلك لم تبتعد الفلسفات الوجودية عن الإجماع على اعتبار كل هذا

---

[1] ارنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، عالم المعرفة، الكويت يناير 2002، ص 225.

[2] المرجع السابق، ص 91.

الوجود الذي يمكننا أن نتفهم أوضاعه الفيزيائية والحياتية: مفهوماً، لكنه غير معقول؟!

فأنا أستطيع أن افهم عدم وجود قوانين ثابتة في العالم الجزيئي، ومنها يخرج كل قانون يحكم العالم المنظور "ماكرو Macro"، لكنني لا أستطيع أن أجد في كل هذه الكيانات شبه اللانهائية للفيزياء وللعضويات الناشئة منها، لا بالعلم ولا بالفلسفة أي معنى او هدف محدد لها، ولولا مستوى المعرفة الدينية المطمئن(*) لكان وجود كل منا نتيجة "كاوس" أنتج "نوس"، أي فوضى أنتجت نظاماً ما خلال زمن لا متناه، ليعود هذا النظام الى أسسه الفوضوية في لامتناهيات قادمة، عبر الحتمية العلمية واللامعقولية الفلسفية اللتين نعرفهما الى الآن سواء بالموت او بالتدمير، ولهذا قال سارتر: (الوجود قابل للفهم ولكن هذا لا يعني أنه معقولاً)[1]، وسبب هذا في بنية المنهج الفكري الإنساني، أقصد الغائية، تلك الظاهرة الفكرية – الواقعية – الإنسانية التي اختلف حولها وعليها الفلاسفة منذ "الغزالي"، الذي أنكر السببية على ظن أن الفلسفة تقوم عليها، لكي يثبت – غائية -- الإيمان، الى "ديفيد هيوم" الذي أنكر السببية على العكس من "الغزالي" – غائية أيضاً – بها أراد أن يحطم الإيمان، كمشكلة تشبه إنكار المتصوفة للعقل الذي لا يستطيعون أن يوضحوا ذوقهم – بمجرد ادعاء أن عندهم ذوقاً – إلا فيه، أي بالشرح الذي يستخدم مقولات العقل، حتى حين دعواهم بأن أحوالهم لا تُشرحْ ؟!

قال "تولستوي" بهذا المعنى: (السبب قد يكون عدم فهمي لأمور او إهمال بعضها.... فحاولت أن أحصل على تفسير عند مفسر ما.... فلم أجد شيئاً.... بأي مستوى من مستويات المعرفة.... خاصة وأن كل البشرية تجد معنى وجودها في معرفة غير عقلية لا أستطيع سوى أن أرفضها مثل: أن الله واحد وثلاثة، والأيام الستة التي خلق بها الكون والشياطين والملائكة وكل ما لا يمكنني أن أقبل دون أن

(*) أي ما لم يحدد الإنسان من ذاته الهدف والمعنى لوجوده.

(1) Jean-Paul Sartre, Truth and Existence, University of Chicago Press 1992 P 16.

يضيع رشدي)[1]، أما أنا فأتساءل؟! هل هذا نقد للمعقولية والغائية أم هو نقد لفقدانها في المسيحية؟! وأظن أن هناك ضرورة لتجاوز العقل إذا أردنا أن نبحث في الغائية تماماً كضرورة تجاوز الميكروفيزياء إذا أردنا فهم عالم الماكرو "Macro" الذي نعيش فيه، دون إهمال عالم "الميكرو" الذي هو أساسه، كعالمين لا غنى عن بعضهما، لكن لكل منهما منهج فهمه الخاص، وهنا صلب سوء فهم الغائية من السببية التي نعيش فيها، بينما للغائية أسس كونية فيزيائية فوق قدرة فهمنا لأنها، في مجال ما سماه "كانط" بالنومن او على كل واحد منها تصوره الخاص لها يقول "كانط": (إن الرياضيات من بين العلوم قد وفرت لنا مثالاً عن استقلاليتها عن الخبرات – الحسية – التي نستطيع من خلالها بناء كل معرفة قبل تجريبية APriori)[2]، وهذا نقض لرأي أمثال "تولستوي" في الاقرار الا بالتجربة المنهجية الحسية العامة وحدها، فمنهج المعرفة عند "كانط" تحليلي عياني مثل "تولستوي" و"هيوم"، إضافة الى تركيبي قبلي يقول: (ان السبب والنتيجة موجودان أيضاً بكل ضرورة نعبر عنها، مع أنهما قبليان "APriori" ومن – ذاتية – مفاهيم بحتة، وعلى هذا الأساس التركيبي.... تقوم كل أهداف استقصاءاتنا المعرفية بشكل قبل تجريبي، وهذا لا يعني أن الأحكام التحليلية ليست مهمة جداً من أجل الوصول الى المفاهيم الواضحة)[3].

على أن ننتبه الى أن القبلية والبعدية – العلية الرياضية – تقومان على قبلية وبعدية منطقية، بالتناظر مع القبلية والبعدية العينية الزمانية في المشخصات الحياتية، وتلك تدل على هذه السببية وترسخها، أي أن للعلية والسببية أصولاً مجردة رياضية، في أساس بنية الكون مع الوعي وقبله.

ولأن دلالات المطلق في صلب المعرفة العلمية الرياضية، فبها ومن سهولة إدراك المطلقات من خلالها، يمكننا أن نقرر الحقيقية الواقعية للعلية والسببية من الحقيقة الرياضية.

(1) James Fieser. Mc Graw Hill. Philosophical Problems. N.Y. 2003. PP 36-37.
(2) Ibid. P 196.
(3) Ibid. P 197.

هكذا يزود المنهج الرياضي العلوم بإطارها، لا بقوانينها التي علينا وحدنا شروط الكشف عن تلك القوانين بالاستقراء والاستدلال والاستنتاج والاستقصاء والملاحظات الموضوعية، من أجل صياغة المفاهيم التي تحكم كل مبدأ إمبيرقي علمي.

كذلك تستعير العلوم من اجل تمثيلها للواقع بالسرعة الحدية للاستدلالات الحاسوبية بالرموز الرياضية، لنضع أمام المستقرئ للظواهر أياً كانت؛ فيزيقية او إنسانية او بيولوجية، كافة القدرات البشرية الاستدلالية والاستنتاجية للظاهرة المدروسة من خلال الكمبيوتر، الذي لا يخرج عن كونه أداة استدلال ليس إلا، منذ أن حاول "ليبنز" إجراء الاستدلالات المنطقية بطريقة آلية، حين وضع أول آلة حاسبة "1673م" على أساس آلة "بسكال" الحاسبة السابقة، وقدمها الى الجمعية الملكية في "لندن"[1].

وهكذا تطورت أسس وضع الحاسوب على أساس إشارة توضع بدل تعريف خصائص شيء ما، ضمن إحصاء كل الموضوعات المتشابهة فتوضع الإشارة نفسها للدلالة على هذه الموضوعات كلها، وهذا أسهل من تعريف كل منها على حدة: مثل إشارة H لكل البشر وإشارة M لكل الفانين فبدل أن نقول: كل البشر فانون؟! نقول M H، ويرمز للفئات الشاملة "Disjunctive Set" برمز"0" .وحين نحدد الفئة المرجعية من هذه الفئات نرمز لها بالرمز "1".

وهكذا تكون الفئة "B" المكونة من كل إنسان مفكر متضمنة في الفئة الشاملة "1" بالرمز 1-B .

وهكذا نجد أن الرموز "0,1، +,-" حين تضبط بقواعد "الجبر" الذي وضعه "دي مورغان وشارل بيرس"، يتأسس رباط قوي بين المنطق والرموز الفئوية الشاملة والمرجعية، أي القضايا القابلة للتصور والقضايا النوعية الشاملة، أي بإمكاننا وضع منهج يختزل المعادلات الفكرية - المنطق - بالرموز الرياضية، وبالتالي

---

(1) Leibniz. Philosophical Writings. Everyman Paperback. London WWW. Dk. Com.

بالمعادلات الرياضية – الرياضيات – كما بين "رسل ووايتهد" في كتابهما المشترك "Mathematica Principia" بشكل مفصل، مبني على أهم قاعدة في المنطق أعني؛ قاعدة الثالث المرفوع "Excluded middle" التي يعبر عنها رمزياً "بإما– أو" ولا ثالث بينهما، فأنا إما هاني نصري الحي او الميت في هذا الزمان وهذا المكان، ولا يمكن أن أكون بقميص آخر في زمان ومكان آخر، وهذا مالا تراعيه نظريات التقمص التي وصلتنا منذ الإله – إله التقمص – تموز، والمؤمن بها يجب أن ينكر وجود الكمبيوتر. القائم على رمزين "1, 0" ويمكن استبدالهما بنقطتين زرقاء وحمراء شرط فتح وإغلاق الوشيعة "Chip" عبر "إما – أو" فقط ويرمز لها (بفنجان مقلوب) شكله هكذا: " ⊂ باللغة الإنكليزيـــة"، و " ⊃ باللغة العربية".

أي أن الصفر والواحد هنا ليسا عددين بل رمزان، يكفيان لتوليد كافة الرموز، تزود بهما آلة ترانزستور يتخذ فيها الجهد الكهربي قيمتين مختلفتين "إما أو"، عن طريق كتابة الرمزين بصورة متكررة شاملة ومرجعية، وهكذا تحصل كل العمليات المنطقية الاستدلالية "فقط"، لذلك من الخطأ والتضليل تسمية الحاسوب بالفكر الآلي، لأن ما ينطبق عليه من آليات الفكر هو: الاستدلال المضبوط بالثالث المرفوع المنطقي فقط، أما الاستقراء فلا يمكن للآلة أن تقوم به بأي حال من الأحوال، وكذلك الحدس والغياب الكامل لأي تمثيل فكري او مرئي، بناء على حقيقة واقعية "Fact" وحيدة في عالم الرموز وهي: العلاقة بين ما نريد أن نرمز إليه مع باقي كل الاستدلالات الاحتمالية الشاملة والمرجعية الخاصة به، وبهذا يتفوق "الكمبيوتر" حسابياً فقط على من برمجه.

وبالكمبيوتر إذا لدينا لغة لكن ليس لدينا معنى لهذه اللغة إلا من خلال الإنسان الذي يبرمجها والذي يقرؤها(*)، فالكمبيوتر وسيط استدلالي ليس إلا، لكن يمكنه بسبب آليته أن يروض اللانهايات أمام أعيننا بسرعة تختزل عمرنا لو شئنا حسابها تقليدياً، وكمثال على هذا نقول: أنه لولا الكمبيوتر لما استطعنا فك شيفرة

(*) فالكمبيوتر شأنه شأن أي غائية إنسانية لا يحمل معقوليته فيه، بل هي مضافة إليه منا.

الجينوم البشري والعضوي لباقي الكائنات النباتية والحيوانية. تلك هي الحدود القصوى لدخول التكنولوجيا التي يوجهها المنهج العلمي في العلم، كأداة إحصائية باهرة للرياضيات أعادت للرياضيات صفتها الامبيريقية التي كانت متضمنة فيها منذ "أقليدس"، والتي أوهمت "فيتاغورس" بألوهية الأعداد فأخذ "فيثاغورس" بذاته صفة القداسة حين ترجمته الى العربية، وصار نبياً عند الباطنية الإسلامية.

هكذا يدمر العلم الأساطير في منهجياته الصارمة التي تقود بدورها الى التكنولوجيا، التي بدورها مبهرة لمن يمتلكها ولكنه لا يمتلك العلم الذي يوجهها، وأقصد التقانه الحرفية في العالم الثالث، وكمثال صارخ على ذلك: أنك تجدهم يصنعون صحون الاستقبال الدقيقة للأقمار الصناعية في سوق الحدادين بجانب "المسكي" في مصر، وسوق "الحميدية" بدمشق ولا يعرفون كيفية – مبدأ – عملها؟!

العلم هو الفرق بين الحرفة والتقنية ومن حيث الكم يحتاج التقني أن يكون حرفياً في تصميم نماذجه، وعالماً حين هذا التصميم، وهذا ما كان العرب يسمونه: "بالمطرف".

ولو لم تكن صناعاً يد المطرف لماتت نفاسة الأشياء.

ويمكنني أن أعدل القول السابق: بلو لم يكن بالعلم صناعة يد المطرف لتحول المطرف الى حرفي يستجدي السياح دون أي كرامة لتحددها فلسفات الأخلاق العلمية.

يقول تلميذ "تيلزبور" أستاذ الفيزياء في جامعة باريس المعاصر في كتابه؛ "Interpreting Contemporary Sciences": (الرياضيات هي علم العلاقات الموجودة في عدة موضوعات، وهي تستخدم كأداة في بعض العلوم الفيزيقية.... والرياضيات لا تساعدنا على إيجاد المعنى، فالمعنى يجب أن يكون موجوداً في العلم نفسه.... وهذا درس أساسي عندما نواجه ميكانيكا الكوانتيوم)(1).

---

(1) Roland omnes, Princeton University, U.S.A 2002, P 152.

وهذا يعني أن العلوم كلها عبارة عن مفاتيح للمعرفة وليس أدوات للتقنية، للعلوم إذا مناهج وطرق مختلفة للارتقاء في دروب المعرفة، في محاولات الوصول وقهر قممها الشاهقة واحدة بعد الأخرى، وما التقنية إلا الأداة الحرفية التي تفيد من كشف العلم للوقائع، من أجل أغراض اقتصادية وجمالية - إن لم نقل فنية - معينة، فالتقنية من منتجات العلم التي تستعمل القوالب الحرفية والنظريات العلمية في الإنتاج الكمي الكبير، وهي كما هو واضح ليست هدف العلم.

والعالم الثالث الذي تتهافت جامعاته على عبارة "التكنولوجيا"، ومعاهده على عبارة "التقنية" لا تستطيع أن تدرس إلا العلوم، وهي بعيدة كل البعد عن تدريس الحرف، وفقط البيروقراطية هي التي تفرض هذه الأسماء، في ما يمكنني تسميته بمظهرية الثقافة التي تدل على فشل نظمنا التعليمية.

إن دراسة النظام الذي يحكم هذه الواقعة او تلك، حتى ولو كان من أصول غير منظمة، أولم نستطع أن نعرف بعد تنظيم تلك الأصول كما سبق وأوضحنا، دراسة النظام هذه تنطلق من مسلمة أن كل هذا الوجود محكوم بقوانين ونحن بوجودنا - تواجدنا - من نتاج هذه القوانين ولهذا نستطيع البحث عنها خارجنا، من منطلق أن الشبيه لا يعرف إلا بشبيهه لأننا منها.

قال "كانط" (إن كل شيء محكوم بقوانين.... وما الفهم سوى خاصية من خصائص هذه القوانين بذاتها، وهو القادر على اختبار كل باقي القوانين.... وكل القوانين ضرورية او هي شرط لكل ضرورة)[1]. وليس في المناهج العلمية أكثر من طرق مختلفة لكشف هذه القوانين، واستخراج الوقائع "facts" الثابتة التي تحكم تمظهرات القوانين، في هذا المجال العلمي او ذاك المستوى المعرفي، فإذا عدنا أدراجنا الى ما ذكرناه عن الحدوس، التي تكشف لنا المعارف من خلال الحس العام المرهف لعظماء التاريخ أمثال؛ "هرقليطس" نجده يحدس بأن الوجود - التواجد - غير محكوم بالقوانين فقط، بل أيضاً بالرابطة التي تربطها مع بعضها، والتي أطلق

---

(1) Immanuel Kant, Lectures on Logic, Cambridge University Press, N.Y. 1992, P 251.

عليها اسم "اللوغوس Logos" أي: القانون الكلي الكوني الذي يضمن تناغم القوانين مع بعضها "Nous"، لأنه إذا توقف أحد قوانين الوجود خرب العالم؟! يقول: (اللوغوس او القانون الكلي للكون كما هو.... غير أن الناس عاجزون عن فهمه.... بالرغم من أن الأشياء جميعاً تظهر الى حيز الوجود بمقتضى هذا القانون)[1].

والحضارات التي ضيعت مفهوم "اللوغوس" او الناظم لكل القوانين، بنعته بالمسيح ﷺ مثلاً، لم تبعد عن أبنائها الفكر العلمي والمناهج المعرفية فقط، بل ادعت أن الله هو اللوغوس حسب تأليه عيسى عليه السلام، بينما تنزيه الله تعالى يوجب أن يكون هو تعالى خالق اللوغوس لا فيه، وإلا صارت الرابطة بين القوانين أكبر من خالقها او هي هو، وهذا عجز فكري واضح، اعتبر "أنشتين" أن العقل العلمي لا يستطيع قبوله يقول: (من النادر أن ترى بين أصحاب العقل الفذ العلمي من لا يتمتع بشعور ديني خاص، لكنه مختلف عن الصيغة التدينية للرجل العامي)[2]، وقال: (إن قوانين الطبيعة تكشف عن ذكاء خارق.... بالمقارنة به كل - الفكر - الإنساني هامشي بصورة مطلقة)[3]، ونحن نعرف هذا العقل من خلال منهج التناسق بين كل القوانين في الطبيعة، فنحن كما يمكن أن نتيقن من أننا نعيش بعالم يحكمه الفكر، سواء بدأ من فوضى الانفجار الأول "Macro"، او بصداه في العالم الميكروفيزيائي الدقيق الذي تكشفه نظريات الكوانتيوم الفيزيائية "Micro"، فثمرة كليهما هي العالم الذي نعيش فيه بين ضوابط "اللوغوس"، والذي لا يستطيع أن يتفاداه أي منهج علمي.

لنوجز ما قلناه:

- العلم معادلات رمزية وفكرية موجزة: "لأن في الإيجاز أبلغ الصياغات".

---

(1) شذرات هرقليطس، مجاهد مجاهد، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة 1980م، ص 82.

(2) Albert Einstein, Ideas and Opinions, Bonanza Books, N.Y., P 40.

(3) Ibid, P 40.

- كلمة "Science" تعني كشف الوقائع "Facts" التي هي ليست صحيحة ولا خاطئة، أي بلغة المنطق ليست كاذبة ولا صادقة، اصطفتها الطبيعة الفيزيائية او البيولوجية لذلك، مع إمكان أن تكون سوى ذلك، وهي ليست كالأمر الواقع الذي يصطفيه – يفرضه – الإنسان بالقوانين التي يضعها.
- وهذا هو الفرق بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي.
- أساس العلم "الحس العام" المشترك بين كل الناس "Common Sense" وهو الذي يوضحه ويهذبه بالمنطق.
- فإذا اتجه هذا الحس نحو الفقه سمي نقلاً معرفياً، وهو ليس علماً، كذلك العلمانية كتعصب للمعارف الحسية فقط ليست علماً.
- بينما التجريبية سواء كانت مثالية أم ريبية ذاتية أم امبيريقية فهي أساس طريق او منهج كشف الوقائع "Facts" العلمية.
- وهذا كله مبني على ملاحظة أن الطبيعة تحكمها قوانين بالغة العمق في بنية كل شيء موجود ومتواجد.
- ومصدر هذه القوانين الشيء بذاته "Noumenon" الذي لا نعرف عنه شيئاً، لكن يتبدى من خلال نظريات "الكوانتيوم" بفوضى "كاوس Chaos "، يؤدي في عالم "الماكرو" سواء كان فيزيائياً أم بيولوجياً الى "النظام Noesis ".
- تماماً كما يخرج المنطق من الحس العام الفوضوي، ومن فوضى التصالبات الصبغية للكائن الحي.
- ولأجل كشف هذه الوقائع لا بد من اختيار منهج من مناهج – طرق – البحث العلمي المتاحة، والتي ذكرتها بكتابي: "منهج البحث العلمي" السابق ذكره.
- على أن نأخذ بعين الاعتبار حين نختار أحد هذه المناهج أن لا تكون نتائجها قابلة لأي نفي، حتى لو كانت كذلك يجب اعتبار حتميتها احتمالية ترجيحية "Plausibile".

- وبهذه الترجيحية يدمر العالم شوفونية "Paranoia" العلماء باليقينية العلمية الساذجة، كما سبق ودمر الدوغمانيات الفيزيائية الكنسية.

- لذلك يمكننا أن نسمي "ترجيحية" الأنساق العلمية المختلفة يقيناً غير مطلق، بمعنى بيانات وبراهين محكمة "Evidences and Datas"، نصوغ من خلالها مفاهيمنا "Concept" كهدف أساسي لكل علم ويقين متواضع.

- وأسوأ ما يصيب المعرفة العلمية بذاتها هو: الدوغمائية؛ أي التعصب لمنهج بحثي في العلم ضد سواه، لأن هدف العلم هو البحث – تحصيل – الثوابت وراء وخلف المتغيرات، فيما يفيد هذا في مجال ما لا يفيده في منهج ومجال آخر.

- لذلك سمي المنهج الذي يضم كل مناهج البحث العلمي: بالمنهج – بالهاء المشددة – أي "Epistem"، وأصل هذه الكلمة إغريقي يعني؛ النظر بتمعن من جميع الجوانب لكل ما نريد أن نستخلص منه المفاهيم، وتفادي الخطأ والاختلاط "Chaos" والعشوائية في صلب كل نظام وقانون، ولتفادي الريبية "Scepticism" التي تنشأ – كرد فعل على – المفاهيم الجديدة التي نكشفها، بمعنى جرها من اللامنظور الى حيز النظر والفهم.

- على أن نلاحظ مع ومنذ "أفلاطون" في حوار "الثيئتس Theaetetus"، أن "الابستيمولوجيا" لا تتعارض مع "اللوغوس" الذي هو أساس الإيمان الفلسفي الميتافيزيائي، شرط تجنب التعميمات الكلية: "Holism"، فكون الصدفة هي أنت؟! كما نقلنا عن "نيتشه"، لا يعني عدم وجود ضابط – عقل كلي- ينظم الصدف بأمر ربه، وبهذا المعنى لا تتنافى الأبستيمولوجيا مع الدين أيضاً، من عدم تنافيها مع الميتافيزياء، بل وبالاستناد على عدم التنافي هذا، والقياس المنطقي عليه.

- العلم إذا يبحث عن المفاهيم التي قد تشترك معه ومع – باقي مستويات المعرفة الإنسانية التي توازيه من: "فن ودين وفلسفة"، وهذه الثلاثة مع العلم تشكل

مستويات متوازية غير متداخلة، لأن منهج كل منهما يختلف عن الآخر، وغايتها أيضاً، فالمنهج الفني ذوقي وغايته الجمال، والمنهج الفلسفي عقلي وغايته البحث عن الحقيقة، وكل ما يتصل بالمصير بصيغ برهانية منطقية فقط، بينما المنهج الديني نقلي هدفه وغايته تبشيرية بالخلاص والخلود، أما المنهج العلمي ومهما قيل عنه هو استقرائي غايته الوصول الى الثوابت التي تحكم المتغيرات(*) كما هي معطاة "Facts"، لأجل تشكيل المفاهيم، ثم ترميزها بمعادلات رقمية قابلة لأن نستعيد بها الظاهرة متى شئنا، وبعبارة أخرى هدف العلم وغايته السيطرة على قوانين الطبيعة، وإخضاعها لإرادتنا الإنسانية، وأداته بهذا المعنى الريبية المعتدلة في رصد الظواهر التي يدرسها "Mitigated Skepticism" من خلال الشك بالحواس، لذلك يستعين العلم بالتقنية التي تضخم الحواس كالمجاهر والميكروسكوبات والمكبرات الصوتية وسواها، لتحويل الظاهرة الى مفهوم ذهني وبالتالي ترميزها بمعادلة رقمية.

وهذا هو أساس الصراع بين التجريبية العلمية والعقلية – العقلانية – التي تريد توجيه العلم في صلب فلسفات العلم من "لوك" حتى "بوبر"، لذلك يمكن رصد مناهج للبحث العلمي بدل منهج واحد – حاولت جمعها بكتابي: منهج البحث العلمي السابق ذكره –، وسبب هذا بنية الفكر الغائي الإنساني التي اختلف حولها الفلاسفة منذ "الغزالي" و"هيوم" حول مفهوم الغائية والسببية، والتي أوصلت الفلسفة العلمية الوجودية المعاصرة الى إنكار المعقولية في الوجود، بينما لا زالت الميكروفيزياء "الكوانتية" تحاول التوفيق بين القوانين التي تحكم كل من عالمي "الميكرو Micro" الذي هو أساس عالم "الماكرو Macro" والتداخل بينهما، في البحث الذي أراه لا مجدياً في البحث عن نظرية تجمع بين النسبية "Relativity" وميكانيكا الكوانتيوم "Quatum mechanics"، يقول "هوكنغ": (وهاتان النظريتان لا تتوافقان مع بعضهما كما هو معلوم، فلا يمكن أن تكونا صحيحتين معاً، لذلك فإن واحداً من السعي في

(*) وهذا اقصر تعريف للاستقراء "Induction".

الفيزياء اليوم – هو هدف كتاباته – وهو البحث عن نظرية تتضمنهما معاً... وقد نكون بعيدين عن الوصول الى مثل هذه النظرية، ولكننا الآن نعرف الكثير عن الصفات التي يجب أن تكونا بها)[1].

– ونحن من جهتنا يجب أن نحترم تكريس العلماء لأنفسهم من أجل هذا السبيل، لكننا في الوقت الحاضر لا يبدو لنا في هذا الأمر أكثر من جزء من التناوب الكوني الذي عرفناه منذ الإغريق، بين "الكاوس Chaos" و"النوس Noèsis".

– أما ارتكاز العلم على الرياضيات رغم أنها منطق تجريدي بحت، فهو من الحقائق العلمية التي أفرزت من الصفة الاستدلالية في المنطق العلمي كل استنتاجيات الكمبيوتر، كحاسوب تضبطه قواعد الجبر ورمزياته العددية والاختزاليات اللغوية – الترميز الذي يمكن التواضع عليه خارج إطار الرموز العددية – في وشائع "Chips" ، تفتح وتغلق كهربائياً حسب "إما – او" بين الصفر ورقم واحد، كتجسيد "للثالث المرفوع" المنطقي، مع الغياب التام لأي تمثيل استقرائي وفكري سوى ما يبرمجه المبرمج، عبر لغة لا معنى لها إلا من خلال برنامجها.

– الكمبيوتر إذا وسيط استدلالي منطقي "جبري رياضي" للعلم، من أجل تسهيل كافة الاستدلالات التي تقودنا إليها الملاحظة، كي لا يغيب عن فكرنا أي استدلال يؤدي الى نفيٍ واحد، لما نصنعه من مفاهيم نتيجة مشاهدتنا الاستقرائية.

– أما صلة التقنية بالعلم فتجدها مع همزة الوصل بين الحرفي والتقني، حيث يجهل الأول العلم ومعانيه رغم كل إبداعاته الفنية المقصودة وغير المقصودة، بينما يحاول أن يطبق الثاني المعرفة العلمية على تقاناته من أجل إنتاج مماثل لتلك التقانات، لكن على نطاق واسع، فتأتي الحرف بالفرادة والجمال، وتأتي التقنية بالتكرار المنتج لهذه الفرادات الذي يفقدها نفاستها كما عند الحرفي، وهذا هو ثمن المعرفة العلمية الذي يدفعه التقني، ناهيك عن أن الإنتاج الغزير للتقنية شأنه شأن

---

(1) A Brief History of Time, op. cit, PP 13-14.

أي إنتاج غزير آخر فيزيائي يساهم بزيادة الكربون في الجو من المصانع، وبيولوجي بالزيادة التي يمكن أن تحصل لأي نوع عضوي حتماً على حساب نوع حيواني او نباتي آخر، يهدد التوازن الطبيعي بدءاً من زيادة في واحدات الخلية من "فيروسات" وانتهاء بزيادة البشر. والجيولوجيا و"علم المستحاثات" أعطيانا درساً من رد "اللوغوس" أي قانون الترابط بين القوانين، على كل خلل في توازن الطبيعة "Natural Equilibrium" بانقراض بعض الأنواع، والبشر مجرد نوع مستحدث من هذه الأنواع يخضع مثل سواه الى قانون اللوغوس في حتمية تلاقي المتشابهات، فإذا زاد ذلك من نوع ما، عدله بحتمية انقراض النوع.

وفهم هذا الأمر في تعارض تلاقي المتشابهات مع تدميرها إذا طغت، من توازن اللحمة بين القوانين الطبيعية – اللوغوس – الحتمية، صعب على الكثير لأنه يتعارض مع كل دوافع التكاثر البيولوجية والنفسية عند الناس، وفي هذا دمار نوعهم من شبق تكاثرهم اللامضبوط.

– هذا هو أساس الاعتراضات المعاصرة على "الأعراض الجانبية" للعلم، التي تسبب كل ما ليس متوقعاً بسبب أساس الرغبة البشرية التي قام عليها العلم منذ "بيكون"(*) بالسيطرة على الطبيعة وفض أسرارها، حين شعر بقوة المعرفة التي تعطيها لمن يعرف أكثر كأساس لكل بحث عن الحقيقة، والتي يلمسها كل من يشتغل بالفلسفة والعلوم، من أن الطبيعة تخضع – تطيع – بعض المبادئ العمومية التي يمكن التعبير عنها بالوسائل المنطقية والرياضية، واختبارها بعد ذلك تجريبياً، ثم السيطرة بالتالي عليها.

– والذي سمح ويسمح للعلم بهذا، ونراه بكل تقاناته المدمرة – ولا أعني الحربية فقط – هو جانب الماصدق: أي الصلاح الشرعي "Validity" الذي يسمح

(*) كان من أخس الجنس البشري وأكثرهم عبقرية، به بدأت المعرفة العلمية وبهذه الروحية عوملت الطبيعة كعدو يجب فضح أسراره. انظر كتابنا، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مجد، بيروت 2002م، ص 162 وما بعدها.

به المنطق حين الانتقال من المقدمات الى نتائجها، بغض النظر عن حقيقتها الأخلاقية، بسبب طبيعة هذا الانفصال الحاد بين المعرفة العلمية وباقي مستويات المعرفة، من أخلاق ودين.

– وهذا يقودنا الى أهمية البحث عن الحقيقة بشكل متطرف، نراه فقط من كل مستويات المعرفة الإنسانية، في الفلسفة الخالية من الدعوات الدوغمائية – لا في كل الفلسفة – وفي كل العلم وبحوثه كافة لأن (روحية النظام العلمي تبدأ عندما لا يعود الإنسان يرسو على أي قناعة – مسبقة –)[1]، فإذا سأل أحدنا: لكن ما الذي يجعل الأمر كذلك؟ يجيب "نيتشه": (إذا كانت الحقيقة ضرورية فيجب أن لا تقرر مسبقاً، بل يجب أن تقرر بشكل يصل الى حدود المبادئ الإيمانية، وبذلك تجد القناعة التعبير عنها بأن لا شيء أكثر ضرورة منها.... لكن إذا ثبت أن الحقيقة واللاحقيقة كليهما مفيدان بصورة دائمة.... في مثل الحسابات النفعية "Utilitarian" فهذا خطر على الحقيقة وعلى إرادة الحق وعلى طلب الحقيقة بأي ثمن.... لأن إرادة الحقيقة لا تتضمن فقط أن لا اسمح لأحد أن يخدعني ولكن.... لن أخدع حتى نفسي)[2]، أي بما أظنه ينفعني!!

على هذا الأساس يجب أن تقوم فلسفات العلوم المختلفة، بذاك التطرف في حب الحقيقة، خاصة وان الحقيقة العلمية حين تكشف واقعة ما، بجرها من اللامنظور الى حيز المنظور، تفرض تغيراً واسعاً في كل مجالات المعرفة ومستوياتها المختلفة، ومثل هذا العمل الضخم لا يتم بأي أفكار مسبقة او قناعات أيديولوجية او دينية[*]، وهذا هو أساس تفرد العلم بالتطرف في حب الحقيقة، وفشل كل عالم يدخل ميدانه بأفكار مسبقة.

حتى لو كان هدف العلم فض أسرار الطبيعة وإخضاعها، على خساسة هذه "البيكونية" الشائعة عند كثير من العلماء، على العالم أن يخضع لخيارات الطبيعة

---

(1) Friedrick Nietzsche, The Gay Science, Dover Pub Inc, N.Y., 2006, P 156.

(2) Ibid, PP 156-157.

(*) لاحظ كتابنا: "الإسلام ليس إيديولوجيا".

من كل ما يمكن أن نتصورها عليه نظرياً من نظريات، في هذا الحقل الذي ندرسها فيه او ذاك، لا أن يُخَضِعها لخياراته؟!

ولكي يفعل ذلك عليه أن يحب دروبها التي تقوده الى أسرارها. ويسير بكل صعوباته عن طيب خاطر، وإلا لن تسمح له بأي فض لأي سر من أسرارها، إن الطبيعة بهذا المعنى: امرأة لن تعشق إلا من يحارب من أجلها، لا من يحاربها؟! فالمعرفة العلمية لشرفها الكبير بتأثيره على كل ما نعرف لا يمكن اغتصابها، لكن يمكن للعالم أن يخونها بعد أن يتمكن منها، آن ذاك تثأر منه بكل ما نشاهده من أعراض جانبية للآلة التقنية التدميرية للعالم حربياً وسلمياً.

فحب الحقيقة حد العشق المتطرف عند العلماء ضرورة لنجاتهم ونجاة نوعهم، لا مجرد رومانطيقية تراجيدية تدين خياناتهم، والأمثلة كثر: فخيانة التفجير للذرة قبل معرفة بنيتها الحقيقية من قبل علماء الحرب ليكسبوا الحرب الثانية، تدفع بلادهم ثمنها اليوم من الرعب الذري بأيدي القوى المعارضة لسيطرة تلك الدول، والبلاد التي أخرجت عفريت الذرة من قمقمه، واستدعته من حيث اللامنظور "الميكرو"، قبل كل النظريات الكوانتية التي تحبو اليوم لفهم أساس البنية الفيزيائية للذرة التي تصنع كل شيء، هي أول من سيدفع ثمن إخراج هذا الشيطان. كذلك يمكن للعلماء أن يخادعوا بالحقيقة ويغشوا بها الشعوب، لكن وبالها عليهم وخيم، فهي وليدة الحق الذي هو الله تعالى!! وبهذا يكمن سر مناعة الوقائع العلمية "Facts"؟!

وأخيراً وليس آخراً على الباحث في العلم أن يوضح للدارس له مرة بعد أخرى تلك المفاهيم التي طرحناها هنا، مفصلة كما في بداية محاولتنا الإجابة عن هذا السؤال:

ما العلم إذاً؟!

إذ من الصعب مثلاً لمن يتعامل مع هذه المفاهيم وتعريفاتها لأول مرة، إدراك صلب صيغة السؤال البسيط السابق بكل الخلفيات الفكرية والإنسانية الغزيرة

فيه، شأننا في ذلك مع كل بساطة بها كل تراكمات المعارف والعقول الإنسانية التي حاولت إيضاحها، لذلك ولأن الإعادة من خلال طرح هذا السؤال بصيغة أخرى، ترسِّخ المفاهيم بذهن القارئ فيألف المصطلحات العلمية بشكل أفضل، لنعالج السؤال من خلال فلسفة العلم، فنسال ما هي فلسفة العلم او فلسفاته؟!؟ خاصة وان هناك إشكالية اختلاف مناهج البحث العلمية(*)، التي قد تعني للقارئ عدم اتفاق العلماء لا الطبيعة النسبية التي تحكم العلوم، ولإيضاح مثل هذه التساؤلات لا بد من طرح "فلسفات العلوم" بعد أن طرحت وأوجزت السؤال المنهجي عن "ماهية "العلم.

على أن يعامل القارئ التكرار الذي سيجده في طرحنا لفلسفات العلوم كأداة، لم أجد أفضل من أمثلتها المختلفة لإيضاح مفاهيم العلم، التي هي الهدف مما أكتبه هنا.

فلسفات العلوم:

لا تهدف فلسفات العلوم الى توجيه العالم نحو الحقيقة فقط، فخلفها دافع أهم هو: فهم معنى الوجود من خلال العلم، فماذا نعني بالعلم الذي به احتمال مثل هذه الإضاءة؟! على أن لا يعني هذا أن العلم محصور بالمصير الذي به معنى هذا الوجود الكلي، فبه فلسفات السيطرة على الطبيعة وكل من عليها حتى الإنسان، وبه فلسفات تحدي الخلق والعدميات كلها، أي أن به كل السلب والإيجاب الذي يمكنك أن تفكر به.

فمنذ أن وضع "كانط" الشروط الضرورية للمعرفة وحددوها في الظواهر لا بالشيء بذاته "نومن"، أصبحت "الابستيمولوجيا" تتحرك بصلب السؤال الأساسي فيها هو: متى وكيف أستطيع أن أتيقن من معارفي، وبأي صفة يمكنني وصف هذه المعارف؟!

وللإجابة على الشطر الثاني من هذا السؤال يجب التأكيد على أن الصيغة التي يمكن أن توصف بها أي معرفة كانت، سواء كانت علمية او فنية او فلسفية، هي صيغة قواعد الفكر الأساسية أي؛ المنطق.

(*) رغم هدفها بكشف اللامنظور وأسسها الواحدة بالمنطق، فهي بالنتيجة طرقٌ وليست طريقاً واحداً نحو الحقيقة الفيزيقية بكل تشعباتها.

وما منهج البحث العلمي بهذا المعنى سوى (الطريقة - او مجموعة الطرق التي يستخدمها العقل الإنساني للفهم في أي حقل معرفي، وتتبع من المنطق)[1]، لذلك قال "أنشتين": (أن كل ما في العلم لا يزيد عن كونه تمحيصاً لطرق التفكير اليومية المعاشة)[2]. وتسمى مناهج البحث العلمي بالمناهج الأبستيمولوجية، والأبستيمولوجيا كلمة مشتقة من كلمة "Epistem" الإغريقية التي تعني النظر بتمعن، سواء بالعين او بالبصيرة[3] أي بحواسنا الخارجية او الداخلية، او بهما معاً.

وطبيعي أن هذا النظر المتمعن غايته في المعرفة اليقينية، من خلال ما يظنه الناظر أنه الطريق الأسرع للإجابات المنطقية على تساؤلاته، فمنهم من يتمّعن من خلال الريبية المعدلة "Mitigated Skepticism"[4]، ومنهم ينظر من خلال التجريبية او العقلانية او النقدية- مباشرة وغير مباشرة - لكن كل فلسفة من هذه الفلسفات عندما تتدخل بالأبستيمولوجيا العلمية، تحاول الوصول الى هدف واحد هو: المفاهيم "الاستقرائية" الثابتة لتعلن أنها وصلت الى المعرفة العلمية، وهذا هو معنى فلسفات العلوم.

لكن الذي طرأ على كل هذه الفلسفات العلمية بعد "غاليلية" هو عدم الاكتفاء بأي "استقراء" لا تؤيده الوقائع "Facts"، لذلك صار الهم الرئيسي للعلم هو كشف حقائق "الوقائع" هذه، لا الحقيقة المطلقة[*] التي تركت للفلسفة وحدها، وهنا يمكننا أن نسجل انفصال العلم عن الفلسفة من جهة، وعدم قدرته على أي إجابة عن أي تساؤل ديني، وربما لهذا السبب يرتاب قصار العقل المتدينون من العلم، ويكرهه المتعصبون الذين لا يزالوا في عالمنا الناطق بالعربية يخلطون بين كلمة علم وكلمة معرفة، وينسبون هذه الى تلك فيسمون "الفقيه" عالماً والعكس، ويذهب بعضهم الى

---

(1) المنطق والأبستيمولوجيا، مرجع سابق، ص 7.

(2) المرجع السابق، ص 7 أيضاً..

(3) المرجع السابق، ص 10.

(4) المرجع السابق، ص 301.

(*) ارجع الى ما قلناه عن الحقيقة المطلقة قبل بابين.

توليته الشؤون الحياتية كلها بما فيها شؤون العلم، فَيُحَرِم ويحلل بما ليس من اختصاصه مما يسبب الحجر على العلوم عامة والإنسانية خاصة، ويستوي في ذلك من يطالبون بولاية الفقيه او من لا يطالبون، والكل يوليه أمراً لا علاقة له به، وهذا سبب تخلفنا العلمي، رغم كثرة جامعاتنا وما نسميه بالمعاهد العلمية، وسبب شغفنا بالتكنولوجيا التي هي من نتاج العلم، وليست من أهدافه، لذلك تحبطنا تغيراتها السريعة، فيظن البعض أن سبب ذلك قصور بعقل أمته، وآخرون – ملاحدة – قصوراً معيقاً بسبب دينها؟!

بينما المسألة في كل عجَرِها وبجرها هي: مجرد اعتداء مستوى معرفة إنسانية على آخر لا علاقة لها به، لا نجدها بهذه الحدة بين الدين والفن سوى من خلال شكلية – تحريم – الصور، التي لم يعد يأخذ بها الفقهاء، وسكتوا عنها دون أي فتوى، بل أكثر من ذلك يتحفوننا بصورهم في أماكن سيطرتهم دون بحث ولا تمحيص ديني حول أمرها، وهو من مجالات فقههم الأساسية، لا الهجوم على او كبت المعارف العلمية، او تفسيرها بشكل لا يدل على علم بها، يحرضهم على ذلك ما لدى بعض فلاسفة العلوم الملاحدة من رغبة "عدمية"(*) بالشهرة وإغاظة المؤمنين، إزاء كل اكتشاف علمي جديد، فينساقون وراء هذا التحريض الذي لا قيمة علمية له، بدل انتظار ما تسفر عنه التجارب العلمية الجديدة التي تنقض الأسس التي بني عليها هذا التحريض او ذاك؟ وهذا يقودنا الى حقيقة علمية هامة وهي:

أن العلم هو مستوى المعرفة الإنسانية الوحيدة القابلة للتصحيح!! فالفن لا يصحح بعد أن ينتهي واضعوه، وكذلك الفلسفة تقف بكل أخطائها بعد موت واضعها، والدين طبعاً لا يصحح بعد النبي الذي بشر به، بل يُتّبع كما هو حتى ولو تعارضت مقولاته مع طبيعة الحياة المتغيرة، وثنياً كان أم توحيدياً؟!

وهذا يقود الجهلة من الفقهاء الإسلام إليه، بادعائهم العلم، وخلطهم بين المعرفة وخاصة الدينية منها مع العلم، عبر "بارانويا" تبجيلية لهم فارغة إلا من منافع الألقاب، التي تنفعهم كمفتي للسلاطين – القادة اليوم –.

(*) "Nihilism".

إن العلم حقل معرفي له قواعده الفكرية الصارمة من حيث التجربة والمشاهدة والبحث عن الثوابت وراء المتغير من الظواهر، فهو ليس المنبع الوحيد للمعرفة، لكن "ترجيحية" يقينه تدفع أصحاب المنافع السلطانية الى ادعائه، ولكن منهجه الصارم في البحث في الظواهر من حيث تعامله مع المواضيع العيانية في العالم قد لا يتلاءم مع معتقدات زيد او عمر حولها، وحتى يمكننا أن نعمم ذلك لا على الفقهاء فقط، بل على المعتقدات الفلسفية، ففي ما بعد الحداثة "Postmodernism" إجماع تحد لمدى مشروعية عيانية وواقعية العلم، وهو موقف سلبي من هذه المعرفة الإنسانية، يختلف عن الإنضوائية الفقهية المدعية العلم، ويتفق مع الرافضة للعلم بدعوى تأثر العلم بالعوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية، مما يحرف منطقه حين توجهه هذه العوامل.

فمراكز البحث العلمي لا تختلف من حيث خضوعها لتوجهات مموليها عن مراكز البحث التلفزيوني والإذاعي، سواء كان هؤلاء الممولون وزارات دول او شركات خاصة، وهؤلاء الممولون بدورهم يخضعون للعوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وحتى لكيفية فهمهم النفسي لهذه العوامل، من خلال خلفياتهم الإيديولوجية، والدوغمائية أيضاً.

وهذا يوصلنا الى حقيقة من حقائق العلوم الإنسانية وهي: أن توجهات العلم ليست موضوعية رغم أن لا علم بدون موضوعية لكي يستطيع تقديم أي حقيقة واقعية "Fact" للناس؟!

وحل هذا التناقض بين ضرورة التوجه الموضوعي في العلم، وبين توجيه هذا التوجه بالمؤسسات التي ترعاه، لا يتم إلا بالانتقائية من جانب هذه المؤسسات، وكمثال على ذلك: معادلات البديل عن البترول كوقود كانت معروفة منذ الحرب العالمية الثانية، لكن مراكز البحث العلمي ظلت تكبت بحوثها حول "الكازهول"، الى أن تستفحل أزمة الطاقة كما نظن أننا باتجاهها اليوم.

وقل الشيء نفسه عن "الايدز" الذي لا يفتك بالشمال قدر فتكه بجنوب العالم وخاصة أفريقيا، لذلك لا ترصد مراكز البحث العلمي الطبية ما يكفي من الميزانيات الضخمة لإيجاد لقاح او دواء لهذا "الفيروس" القاتل لنصف أطفال "نيجيريا"، التي أحصت ضحاياها من بين باقي الدول الإفريقية التي لم تحصِ(*)؟! وهذا مثال على العوامل الديموغرافية السياسية والاقتصادية المتداخلة، ناهيك عن المؤثرات العرقية التي يعد طرحها جزءاً من نظريات المؤامرة التي لا توجد لها قرائن ودلالات علمية تؤكدها، لأنه لو وجدت هذه الدلائل تتحول من تهمة "ظنية" حسب التعبير القانوني، الى اتهام، ولأجل أن لا تصل الظنية الى الاتهام بهذه المسألة الحساسة – العرقية –، استطاب الفكر المعاصر الغربي تهمة: "الحكم القيمي" المسبق حين القول: بالمؤامرة، جاعلاً من القائل بها خارجاً عن الموضوعية العلمية.

بينما لا يعد خروجاً عن الموضوعية العلمية انتقائية مراكز البحوث العلمية، للموضوعات التي ترصد لها الميزانيات الضخمة، بينما يفيد التوجهات الإيديولوجية والسياسية والاجتماعية عند من بيدهم مراكز القرارات العلمية البحثية هذه، فإذا لم تكن العوائق التي تضعها سياسات هذه المراكز في توجيه مسارات المعرفة العلمية مؤامرة، فماذا تكون المؤامرات بغير مثل هذه الانتقائيات.

المؤامرة ليست طبخة سرية للإيذاء كما كان يظن بحكماء صهيون، بل هي اليوم بتأخير سلم الأولويات حسب المنفعة البرغماتية منها، مما يؤدي الى تدمير المُختَلِفْ دينياً وعرقياً وسياسياً، عن دين وسياسة وعرق من يملكون مراكز البحث او أي قوة كونية أخرى، فالأمم المتحدة التي امتنعت عن التدخل في مجازر "التوتسي" في أفريقيا شجعتها، والتي تتدخل بالصغيرة والكبيرة في السودان تحبطه، للاستيلاء على بترول "دارفور" وربما "كاردوفان" الذي دلتهم عليه – دلت الدول المسيطرة على الأمم المتحدة – مراكز البحث العلمية الفضائية؟

(*) وبقدر ما تنقص ميزانية البحث العلمي في "الايدز" في الغرب، بقدر ما يستبعد ذكره في مراكز البث التلفزيوني العالمية، دلالة على مصادر التمويل البرغماتية الواحدة بين مراكز البحث العلمي العالمية، ومراكز الاتصالات.

وهذا يعني أن البحوث العلمية الموجهة، وفي مثالنا السابق عن الأقمار الصناعية، التي تدل الدول الكبرى على أماكن المخزونات البترولية تحت الأرض، أكبر دليل على أن البحوث العلمية في الفضاء ليست لاكتشاف أسراره فقط، بل لاكتشاف أسرار الأرض أولاً – مخابراتياً وجيولوجياً وعسكرياً وسكانياً –، فإذا بدا لهم اكتشاف كوني ما أثناء ذلك، وجهوا الأنظار له وهذا ليس نظرية مؤامرة؟ إنه واقعة من وقائع طبيعة البحث العلمي في جوهره(*) الذي يبنى اليوم على النفعية "Utilitarianism" والبرغماتية "Pragmatism"، وكلاهما لا يمس جوهر منهج البحث العلمي، بل توجهاته وتوجيهاته الانتقائية فقط.

لذلك علينا أن نميز بين جوهر المنهج العلمي الذي لا يصير علمياً إذا خضع لمعتقدات من يبحث به، وبين توجيه هذا البحث او ذاك نحو الأولوية التي تقررها مراكز البحث العلمي، وأنبه هنا الى أن طبيعة المنطق الذي هو أساس البحث العلمي أنه إلى أداة فكرية "Organon" يمكن توجيهه كتوجيه أي أداة أخرى كما نشاء(**).

وعدم التمييز هذا بسبب المناخ الرافض – التقدمي اليساري – الذي سيطر على ما بعد الحداثة "Postmodernism" فهو الذي شكل تقليعة هذه الفترة بتوجيه الريبية لكل ما قامت عليه الحضارة – التي يعتبرونها بورجوازية – لأجل هدمها، ناهيك عن اختلاط فهمهم لمعنى النسبية العلمية التي قال بها "أنشتين" في الفيزياء.

وهذا يحتم علي إيضاح معنى النسبية في العلم كي لا تختلط مع السفسطة التقدمية الحديثة، بأن الأمور والأحكام شخصية ولا توجد موضوعية علمية؟! كجزء من الرغبة البدائية في التفلت من القوانين بكل صيغها المنطقية والعلمية وقواعد اللغة أيضاً لكي يفعل المتفلت كل ما يظن أنه ينفعه – نفعية – بلا حساب.

(*) التي كانت تحكمهما الميكيافيلية والتي تسمى اليوم برغماتية بفوارق بسيطة بينهما كما سبق وأوضحنا.

(**) المنطق والابستيمولوجيا، مرجع سابق، ص 19.

فأن تخلط بين النسبية في الفيزياء القائمة على أساس أن مراقبين في مكانين مختلفين لظاهرة ما، يريانها من منظارين مختلفين، فالضوء الذي يراه أحدهما قبل الآخر لا يعني أن الضوء غير سرعته، بل يعني أن (الضوء يتمدد في الفراغ بسرعة حدية ثابتة مستقلة عن الوضع الحركي – لراصده –)[1] لكن مكان الراصد هو الذي يحدد شروط تلقيه، وكذلك الصوت في تجربة "أنشتين" على تلقي صوت صفارة القطار لراصدين في مكانين مختلفين، لان الزمن والمسافة يتعلقان بالراصد (فتماماً كما أن الجمال يتعلق بالناظر، كذلك يحمل كل إنسان معه زمانه ومكانه الخاص)[2]، وهذا لا يعني أي تغير في سرعة الصوت او الضوء، فالنسبية تتعلق بالمتلقي لا بالظاهرة، فأساس النظرية النسبية كما يصفها أنشتين هي: أن الزمان والفراغ شيء واحد غير منعزل عن بقية الفيزياء[3]، وهذه هي ثوابت فيزيائية لا يصح علم الفيزياء ولا علم الفضاء بدونها، وبناء على هذه الثوابت يصل علماء الفضاء اليوم الى المريخ، ويرسلون للمجرات "مسابيرهم"[*].

النظرية النسبية في الفيزياء إذا تؤكد عدم نسبية هذا العلم بمعنى أن المسائل فيه ليست مزاجية، والخلط بين النسبية في الفيزياء ونسبية الفيزياء يؤدي الى كل مغالطات وريبيات ما بعد الحداثة، لذلك يجب علينا عدم الخلط المنطقي بين إمكان المعرفة ونسبيتها، تماماً كضرورة عدم الخلط المنطقي بين ضرورة التجريب، وكون الحقيقة كلها تجريبية، او ضرورة الريب بمعنى الشك فيما يقدم لنا كمعرفة، والريبية بكل ما يقدم لنا، تحت مسمى الحداثة المبنية على سوء فهم النسبية[4].

فإذا فهمنا هذا الأمر بوضوح سهل علينا التمييز بين الحقيقة العلمية التي لا تتأثر لا بالاقتصاد ولا بالمجتمع ولا بالسياسة، وبين هذه العوامل التي تؤثر فقط في إيقاف البحث بهذه الحقيقة على حساب تلك، الذي توجهه انتقائية المسيطرين على

---

[1] جوزيف شوارتز، انشتين، الانتشار العربي، بيروت 1999م، ص 97.

[2] Ronald W. Clark, The Life and Times Einstein, Harry N.Abrams Inc., N.Y. 1984. P 9.

[3] المنطق والابيستيمولوجيا، مرجع سابق ص 305.

[*] جمع مسبار.

[4] المرجع السابق، ص 306.

مراكز البحث العلمي الجدية، لا تلك التي تأخذ نفس هذا المسمى لتبجيل جامعاتنا الحكومية والخاصة سواء؟! ولا نسبية في هذا بل استنساب واستزلام، بسبب عوامل اجتماعية بحتة على رأسها الفجور العصبي[1] المتفشي في عالمنا العربي، والذي تناولته من خلال جوانبه المتعددة بمعظم بحوثي – العلمية – في فلسفة هذه الظاهرة المدمرة لتقدم أمتنا ومصيرها.

أما ما يجب تمييزه حين وبعد أن يوجه العلم – من خلال أموال مراكز البحث العلمي – لحقل ما هو: اعتماده على الرياضيات والحسابات اللوغاريتية الكمبيوترية وهي كلها معارف ذهنية بحتة غير تجريبية سماها "كانط" بالمعرفة القبلية "A-Priori" ، أما تطبيقها على الواقع الذي يكشف المنطق وقائعه "Facts" فهو ترجيحي "Plausible"، ومن خلال هذه الترجيحية يصح القول أن العلم هو مستوى المعرفة الوحيد الذي يصحح نفسه، وهذا لا يرجع كما هو واضح لأي نسبية في العلم.

ومن هنا نجد أن كل ادعاء علمي بكشف لحقيقة ما، موضوع قابل لكل النقاشات المنطقية، كي تثبته وتنفيه، فإذا أثبتته تثبته دوماً، حتى إشعار آخر، فالمتتبع للعلوم الطبية مثلاً او من تُطَبَّقْ عليه مداواتها، قد يقضي حياته وهو يستعمل دواء ما – تيقنت الصيدلة منه –، ليفاجأ بأنه لا علاقة له بالشفاء، حين توقف إنتاجه مؤسسات الدواء العالمية الكبرى، او توقفه منظمات الصحة والغذاء بالدول المتقدمة بعد ثبوت عدم فاعليته التجريبية، او حتى لآثاره الجانبية السيئة.

وهذا وان كان يشبه التأثير بالبلاسيبو "Placebo Effect"[*] النفسي، إلا أنه ليس هو، فالأول يحصل نتيجة الثقة – بعلم – الطب، او بسبب "هستيرية" المريض الملح على الدواء بأي ثمن، فيعطيه طبيبه أقراصاً من السكر او العسل مثلاً على أنها دواء، فيكون شفاؤه نفسياً بكل معنى الكلمة، أما الثاني فناتج عن حجم

---

[1] انظر كتابنا، عصبية لا طائفية، دار القلم، بيروت، ص 1982.

[*] الدواء الوهمي الذي تعالج به الحالات النفسية، وخاصة الهستيرية.

الترجيحية في كل فرع من فروع العلم، ويظهر هذا الحجم بشكل واسع في الطب والصيدلة.

أما في علم النفس والاجتماع وباقي العلوم الإنسانية فيمكن إخفاء إخفاقات ترجيحيات هذه العلوم بالأدب الذي تكتب به، او إلقاء اللوم على الفلسفات التي انطلقت منها هذه النظرية او تلك، إذا هي لم تعطِ أكلها التجريبية مباشرة او بعد حين طويل.

وتنعدم الترجيحية في العلوم النظرية الرياضية، وتقل بالعلوم الأكثر اعتماداً على الرياضيات، لذلك يمكننا القول إنه: كلما ابتعد علم ما عن أصوله النظرية الرياضية البحتة، زادت نسبة ترجيحية نتائجه، وهذه ليست نسبية قطعاً، أنها معيارية "Normative".

والمعيار في المنطق هو: المقياس المجرد الذي يدل على ما هو الشيء، الذي منه تظهر القواعد الاستقرائية، التي تنطبق على جميع جزئيات ما هو موضوع الدراسة.

وهكذا يصبح المعيار العلمي كناية عن النموذج العقلي الاستقرائي الذي يوجه قياسات كل تجربة، وفي مجال الميتافيزياء هو: المقياس العقلي الذي نحكم به على قيم الفيزياء والمفارقات، وهدفه صياغة القواعد والنماذج الضرورية في كل هذه الموضوعات الفيزيقية والبيولوجية والإنسانية، على أسس تجريبية قائمة على: الملاحظة الوصفية الدقيقة، ثم تفسيرها ثم إيضاح الثوابت التي تحكمها ما وراء المتغيرات التي تظهر بها عبر الاعتماد على الوقائع "Facts" التي تحكم موضوع الدراسة، سواء كانت في الشرع أو في العلوم الفيزيقية أو البيولوجية أو الإنسانية.

وهذه الأخيرة – الإنسانية- يصعب وضع المعايير لها أكثر من وضع المعايير للعلوم الطبيعية، لأن الميزان "Criteria" الذي توزن به أكثر تجريداً "Abstraction"، بمعنى أنه أقرب الى التصور من النظر الواقعي "Epistem" الذي تتيحه الرؤية المباشرة للمشخصات الفيزيقية، حيث يمكن الاتفاق بشكل مباشر على

المعيارية- العقلية- التي يجب أن تخضع لها، لذلك ترى الناس لا يختلفون على معنى تفاحة اختلافهم على أسباب سقوطها، ثم اختلافهم على معنى القدرة التي تحكم الجاذبية، ثم صلة الاتفاق بالصدفة بالحرية وبكل هذا؟!

لذلك ترى أن التجريد في العلوم المجردة يحاول دوماً الاستناد على المشخصات لإيضاح مراميه عبر دلالات الحواس الخمسة - اللمس....-، هكذا يحاول الفكر المجرد أن يعطي صوراً تتطابق مع المشخصات "Replica"، وهنا تقترب الأمثلة العلمية مع الأمثلة الشعرية والأدبية من حيث الاستعمال الواحد للمجازات، كل حسب غرضه المختلف، فتظهر القوانين الفيزيائية المجردة بشكل متطابق مع الواقع، بينما في الأدب تظل في سحابات المجاز.

لأن القوانين العلمية الناتجة- بالطبع- عن التجريد هي نماذج استقرائية قابلة لكل تعميم مشخص، تحمل في طياتها الثبات ما وراء"Beyond" التغير، مما يسمح حين ظهور ظاهرة ما تَمت دراسة قوانينها بالتنبوء بما سيتبعها، فترتبط السببية بالقانون سواء كانت جزءاً منه أو هي مضافة إليه بحكم الترجيح والاعتياد، لأننا لا نعرف كل المتغيرات التي تحكم السببية بالقوانين.

ان التجريد قدرة فكرية يمكنها عند البعض من إخصاب الفكر، وعند آخرين من إخصاب الفن، لكن من يمتلك هذه القدرة لا يمكنه أن يتنكر للقدرة الخلاقة عند الخالق، لأن فيه قبسة منها، تشبه القبسة الاخلاقية الموضوعة بنا في الضمير، من واضع كل هذا الكون، بدءاً بالأمومة والأبوة وانتهاء بالتضحية من أجل القيم.

وبهذه القدرة يمكننا أن نميز المشخصات عن المجردات أيضاً، عبر قبلية - قبل تجريبية واختبار- المعرفة "Apriori" الإنسانية، عند كل الناس قبل احتكاكهم بالأشياء مع فجر الطفولة.

والأطفال يقومون عبر هذه القدرة - التجريدية- بنقل المواضيع أمامهم الى المعرفة بها، فتصبح الأمور الحقيقية عندهم هي كل ما يتطابق بين ما هو أمامهم وما يتصورونه عنه، لذلك قال "كانط" (يظهر كل عنصر من عناصر المعرفة

الإنسانية مع الخبرات وليس منها)[1] خلافاً للتجريبية الانكليزية والوضعية الفرنسية. والسبب ببساطته وتعقيده هو فطرية القدرة على التجريد عند الإنسان قبل كل تجربة، لتجدها ضعيفة عند البعض قوية عند آخرين، لذلك قال "كانط" (ان الحدوس بدون مفاهيم مجردة عمياء، والمفاهيم المجردة بدون حدوس حسية فارغة، وهما معاً يُخضعان المعرفة الفيزيقية للإنسان)[2].

وإيضاح هذا يعني أن عماء المفاهيم بدون حدوس مجردة يؤدي الى كل التخبطات والأخطاء، حيث يظن المرء أمراً ما دون معرفة الثوابت التي تتحكم فيه، فيقع بأفدح الأخطاء، وخاصة في علاقات الناس مع الطبيعة ومع بعضهم، كظن الخير بالوجه الجميل دوماً؟!

ولتلافي مثل هذا الضلال وضع "كانط" اثني عشر مقولة تضبط اثني عشر حكماً وتقابلها[3]، ولا مجال لذكرها الآن لأنها تدخل في مجال الأحكام المنطقية.

أما المفاهيم المجردة بدون حدوس حسية فهي فنية أدبية فارغة من أي معنى حقيقي واقعي.

هذه المعايير هي التي تضبط المعرفة العلمية، وهي قد لا تكون كاملة، إذ يكفي بعضها للقيام ببعض الضبط، على أن ننتبه الى أن الأهم فيها ما يسمى بالموضوعية "Objectivity"، هو معاملة الظاهرة المدروسة بحيادية كأنها موضوع منفصل عن الذات التي تدرسها، ومن السهل قول هذا لكن من الصعب تطبيقه، وخاصة في العلوم الإنسانية والفيزيائية التي توجهها مراكز البحث العلمي كما سبق وذكرنا، لكن على الكل الذي يمارس البحث العلمي أن يدرك أن الحقائق الذاتية – الصوفية والطبقية والعصبية – التي تسير أي بحث ما او تنتج منه ليست حقائق علمية، كما أن كل بحث علمي تسيره افكار مسبقة "Preconceived Ideas" لا يعطي

---

(1) Vincent G. Potter, on Understanding, Fordham University, N.Y. 1994, P 107.

(2) Ibid, P 108.

(3) Ibid, P 109.

صاحبه نتائج تتطابق مع منطق الواقع بوقائعه "Facts" أي موضوعية، لذلك بعد أن توجه مراكز البحث العلمي مراكزها لحل معضلة علمية، تطلق يدهم في التصرف المالي والفكري الحر فيها، وإلا لن تحل هذه المعضلة، فتَدخّل هذه المراكز توجيهي فقط، ثم تحديدي لما يجب أن يصرف في البحث على وجه التقريب حسب مدى رغبتهم بحل الإشكال، فإذا كان ملحاً أطلقوا يد الباحثين دون تحفظ، كما فعل "البنتاغون" في مشروع تفجير الذرة – مشروع مانهاتن – أثناء الحرب العالمية الثانية، فوصل العلماء الى حل القنبلة الذرية، الذي نتج عن تحذير "أنشتين" لروزفلت.

فنتاج المعرفة قابل للتواصل السهل بين الناس، حتى لو كان مدمراً او تثير غرائزهم بالتدمير أكثر من أي خطاب أدبي تحريضي بآلاف المرات، لان تحديد مدى صدقه في اختباره، لا في مدى العواطف الجياشة فيه، أي هو موضوعي النتائج التي يمكنك الأخذ بها او تأجيلها او حتى تركها، كما في البحوث "الجينية" اليوم على أمراض الأعراق المختلفة.

وهذا يؤدي الى الاعتماد على نتائج البحث العلمي بشكل ترجيحي عالي النسبة، إذ يوجد دوماً احتمال الآثار الجانبية الخطرة الناتجة عن تطبيقاته "Side-Effect".

وهذا لا يعني عدم دقة البحث العلمي، لان مفاهيمه اقرب الى القطعية، او به تنظيم دقيق للحس العام "Common Sense"، حين يربط الوقائع "Facts" بالمنطق المنهجي ويصل الى القوانين او النظريات او الافتراضات العلمية، وكلها تعبيرات عن نسب الترجيحية في اليقين العلمي بدرجات مختلفة، فالقانون من نتاج التحقق من الافتراضات ضمن نظرية ما، فهو أكثرها ترجيحاً "Plausible"، أما اليقين المطلق فمحال في عالم الظواهر "Phenomena" أي العالم الذي تحكمه قدراتنا الحسية المحدودة، وتصوراتنا العقلية الجامحة، والواقعون في أسره بسبب تطوريتنا التي سارت على مسار البقاء لا المعرفة، فلم تحاول اختراق اللامنظور إلا بسلاح

التجريد، الذي يصور لنا كوناً أوسع بكثير مما نحن فيه سماه "كانط" بالنومن "Noumenon"، وأشارت له كل الأديان السماوية، على أنه المعرفة الإلهية المحجوبة عن البشر – علم الغيب – والذي لا نمتلك أي حاسة لاختراقه، كذلك ظن الفلاسفة الإغريق منذ "سقراط" أن إيقاف الحواس بالموت يوصلنا إليه، قال سقراط: (أن كل طالب حكمة وباحث عنها يعرف بأنه طيلة الفترة التي لم تكن الفلسفة خلالها قد سيطرت على روحه بعد يكون سجيناً.... مغلول اليد والجسد.... ومن ثم تسيطر الفلسفة.... وتحاول باقناع لطيف تحريره.... فتستحث الروح على الإحجام عن استعمال الحواس.... لأن.... ما تراه الروح يكون غير حسي ولا منظور، فروح الفيلسوف يتوجب عليها ألا ترفض فرصة إطلاق سراحها)[1].

وسبب هذا الظن دينياً كان أم فلسفياً هو اليأس من أن يشكل خط سيرنا التطوري – حسب المعنى الحديث – للجنس البشري حواس إضافية "ESP". فإذا كانت وظيفة الفلسفة التوضيح المنطقي، وكان المنطق حسب "وتغنستين" هو كناية عن تصوير للواقع بلوحة كلامية – الرسم بالرموز –، والمنطق أساس كل علم، فالعلم ظاهرياتي بكل معنى الكلمة، يعمل من خلال المعنى الذي تقدمه له الصور المنطقية للتساؤلات الفلسفية.

وبتحديد الإطار الذي يعمل به العلم هذا لا يبقى أمامنا سوى توجيه العلم عبر التحديدات المنطقية نحو الدقة التي تتطلب استخدام المفاهيم المحددة ظاهرياً عبر تقانة القياسات الدقيقة، التي تزيد من موضوعية الدراسة المحددة لظاهرة ما، للحد من الانطباعات الشخصية حولها، وللقيام بالقياسات الدقيقة، لذلك تحسنت أدوات القياس موسعة حقل الحواس بشكل لم يكن يتصوره الأقدمون، لكن هذا لا يعني أبداً أننا بحاجة دوماً الى تقنية عالية لقياس ظاهرة ما وتحديدها علمياً، كما يفعل بعض الأطباء قبل تقرير مرض ما، بإرسال المريض الى الفحص الالكتروني والشعاعي والليزري وتشغيل كل الأجهزة الحديثة به، من تنظيرات وسواها، قبل

---

[1] آخر أيام سقراط، مرجع سابق، ص 171.

أن يقرروا أن لديه عسر هضم مثلاً، وحسب المثل الأمريكي "يستخدمون أمضى السكاكين اليابانية لقطع قالب من الزبدة"؟!

إن الاعتماد المتزايد على التقنية اليوم لا يضعف الحدوس العلمية والاستقراءات فقط – كأن لا يدرس الطلبة جدول الضرب لوجود الحاسبات الالكترونية – بل أيضاً يشجع على استغلال المعرفة العلمية لجني الأرباح من تشغيل الأجهزة، سواء على حساب الطلبة في المدارس التي تزيد أقساطها لأن بها كمبيوترات حديثة، او المستشفيات على حساب المرضى، او شركات الدواء التي تضع أدوات قياس الكترونية صحية او منزلية لا حاجة لها بشكل ضروري، وتروج لها دعائياً بزعم أن لا صحة بدونها؟!

وكل هذا يدلنا على وجه من وجوه الاستغلال العلمي الفردي والبحثي المؤسساتي، فالعلم اليوم بقدر ما يعين على كشف الوقائع الحقيقة "Facts" في كل المجالات، قابل للاستغلال الاقتصادي والتقني في كل وجوهه، عبر الدقة التي توفرها تقاناته. وأنه مهما ضخمت التقنية من الحواس، واستغلت ذلك أم استعملته لمزيد من الدقة التقنية، فإن الدقة المتوفرة بأرقى التقانات تظل ناقصة غير قادرة على اختراق اللامنظور، وهذا اليأس من معرفة "النومن" او ما كان "أفلاطون" يسميه علم "المُثُل"، هو الذي دفع الفلاسفة الى اليأس من الحواس، والاعتماد على العقل وقدراته التجريدية، وهو الذي دفع المتصوفة الى محاولة الذهاب أبعد من ذلك؟! يقول الغزالي: (بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات.... فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه)[1].

وفي الإسلام لا يتم هذا إلا بعد المـــوت يوم الحشر ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾ [ق 19-22].

---

[1] أبي حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، مكتبة الجندي بمصر، عام 1973، ص 30.

"فبصرك اليوم حديد"

و"روح الفيلسوف يتوجب عليها ألا ترفض فرصة إطلاق سراحها"!!

"لعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر"!!

فالمثل والنومن في الفلسفة. كلها لا تتم بزيادة حواس الإنسان إلا عبر الملايين من سنين التطور، شرط أن توجهه للبحث عن الحقيقة لا للبقاء فقط، أي شرط تغيير مسار العقل الإنساني التطوري نحو الحقيقة اللامنظورة في مسيرة تطورية جديدة سيكون عمرها ملايين من السنين القادمة، مع تقانات الدنا "D.N.A" بكامل تحويراتها للجينوم البشري، في مستقبل من المحال للإنسانية أن تكون فيه.

ولأن الأمر لا يتم عبر هذه الاستحالات، فهناك إجماع ديني وفلسفي حول الموت، وصوفي عسى بالتماوت يتم كشف الغطاء، ولكن يظل في حجاب الجسد والحواس.

وهذا يعني أن لا حاكم وراء العقل طالما نحن أحياء، والعقل محدود بالظواهر، لذلك فكامل طاقاته بالدقة أي بالعلم محدودة بالظواهر أيضاً، فلا معرفة مرجحة أكثر من العلم يقيناً قبل الموت، رغم ما به من كل الهَنَاتْ السابق ذكرها.

والمنهج الذي يتبعه العلم في استقصاءاته "Enquiry" يسمى بالمنهج العلمي "Methodology"، فإذا انخرط – توجه – نحو اتجاه فلسفي – نظرية معرفة معينة – سمي "Epistemology" .

وحين نبحث في نظريات المعرفة "Epistemology"؛ المختلفة كما عرضتها في كتابي: "المنطق والأبستيمولوجيا"[1]؛ عن الوقائع التي يمكن الاعتماد عليها من خلال كل نظريات المعرفة المختلفة "Facts"، لنسجل ما يمكن أن يكون بينها من ترابطات، يمكنها أن تفيدنا في أي افتراض فلسفي او نفسي او اجتماعي، نستطيع إزالة كل اختلاط بين الأفكار في هذه الحقول المعرفية، من حيث أن ما لا يقبل

---

[1] مرجع سابق، وأيضاً راجع ما قلناه سابقاً حين تساءلنا سابقاً عن: ما العلم؟

التجربة لا يمكن تحديده والاعتماد عليه، إلا إذا كان يتعلق بالمفاهيم العقلية المجردة، والميتافيزيائية والمفارقة، والمتصلة بحدوس حسية تدل على المصير والعلم أيضاً.

وهذا يقودنا الى أن مجال المعرفة العلمية الناتج عن تراكمات الحس العام "Common Sense"، حين يوجهه المنطق المنضبط، تظهر الموضوعية والدقة في أي بحث حول وفي أي حقل من حقول المعرفة، فإذا توجه نحو التجربة وتطابق معها ظهر العلم.

وطريقه يبدأ بالوصف والإيضاح ثم التوقع، بشكل أبعد من كل حدودنا الحسية، دون الركون الى نتيجة نهائية تذهلنا بكشفها لقوانين لم تكن بالحسبان، لأن رجل العلم يترك دوماً مكاناً لتعديل هذه القوانين، على ضوء ظهور وقائع "Facts" جديدة، وهذا ما كنت أعنيه بقولي: أن مستوى المعرفة العلمية وحده من كل مستويات المعارف الإنسانية؛ قابل للتصحيح، طالما يعمل من خلال المعنى والرمز، "ولأن المعاني تتغير فتتغير الرموز ويصحح العلم".

كذلك في بنية كل العلوم التطبيقية "الاجتماعية والصحية والاقتصادية والهندسية.... الخ"، تجريبية تعدل من كل النظريات الإمبيريقية فيها، وهذا لا يعني أن العلم قد نشأ من حاجات عملية، بل من حب اليقين الذي نجده في كل مستويات المعرفة الأخرى، فمن حيث نشأته يشبه نشأة الفلسفة والفن في تلك الرغبة لا في وضع معنى للوجود بمعزل عن المصير، بل بفهم واقعي امبيريقي – إذا أمكن – للمصير.

وهو حين لمس دقة توقعاته واستقراءاته دفع العاملين به الى إهمال التنبؤات الحدسية والسحرية واحتقارها، ودفعهم الى الادعاء بأن سياقات العلم هي وحدها يقينية في كل إيضاحاتها وتوقعاتها، بدل غموض التنبؤات وقطعية الغيبيات، التي يمكننا تعريفها باللاعلمية، أما النبوات الدينية فهي غير علمية، وليست لا علمية لأن مستواها المعرفي مغاير لمستوى المعرفة العلمية، وليست منها لننفي عنها صفة

العلمية؟ وهذا الخطأ بين اللاعلمي في الفلسفة أيضاً وغير العلمي فيها، هو الذي دفع الذين مارسوا هذا الخلط بين "اللا" – و – "غير" الى القول بموت الفلسفة مع تقدم العلم، كذلك ينطبق الأمر ذاته على الدين والفن.

فغير العلمي هو في كل مستويات المعرفة الإنسانية الأخرى غير العلم، من دين وفن وفلسفة، وليس مطلوباً منها أن تكون علمية، بل هي معارف من طبيعة منهجية مختلفة – تحدثنا عن الفلسفة ومناهجها، وسنتحدث عن الفن لاحقاً – لذلك لا يصح في هذه المعارف نعتها باللاعلمية كحكم قيمة، ومن يفعل يخسر هذه المعارف ولا يستطيع كسب العلم، لصلته اللامباشرة بها جميعاً، إنها معارف غير علمية وهذا لا يقلل من قيمتها بل يزيدها قيمة، إذا لو كانت كل حياة الإنسان والمجتمع علمية – منطقية ودقيقة – لكانت خلية نحل أفضل من مجتمع بشري، إذا لم نقل مجموعة روبوتات "Robots" أفضل من الإنسان.

إننا حين نتحدث عن النفس الإنسانية نتحدث عن المشاعر والرغبات أي العواطف والإرادة، إضافة الى العقل بشقيه مسبقة البرمجة أي الغرائزي، والفكر الذي نعمل نحن على برمجته، والعلم في مجاله فقط.

فالنحل كائن غرائزي – مسبق البرمجة الجينية – وليس فيه عواطف ولا إرادة – سوى ما برمج عليه من أداء – لذلك ومن خلال طبيعة عقله هذه يعمل كل أفراد الخلية للصالح العام، ونستطيع أن نتنبأ بسلوكهم، فهم يخضعون للعلم فقط، وهم أشبه بروبوت عضوي بهذا المعنى(*).

لكن في البشر عواطف تحركها الفنون، ورغبات تحركها الإرادة، والتي منها حب الحقيقة ورغبات البحث، من أجل رغبة معرفة المصير بالفلسفة او بالدين، او بهما معاً.

فالدقة بهذا المعنى ليست ملك العلم وحده، وكذلك الأهمية الإنسانية وأولوياتها الدينية والفلسفية والفنية.

(*) ولهذا السبب نفى كثير من الفلاسفة منذ "ديكارت" وجود الوعي عند هذه الكائنات، مما يستتبع عدم وجود روح لديها، وهذا موضوع جدل في الأخلاق الحديثة!؟

فالعلم مستوى معرفة مغاير لباقي مستويات المعرفة، التي ذكرناها، وهو حيادي في طبعه، لأنه أداتي بمعنى وسيلة، خلافاً للدين الذي هو غاية بحد ذاته، وللفلسفة التي تسعى دوماً نحو غاية محددة هي: حب الحقيقة.

وهو بهذا المعنى الأداتي قريب من الفن، ولإيضاح هذا دعنا نرى "كل الأدوات التي أنتجتها المعرفة العلمية منذ فجر التاريخ، لنجد أنها ليست شريرة ولا خيرة بحد ذاتها، فمن السكين الى العجلة الى الطائرة كأدوات يمكنها أن تستعمل في القتل، بقدر استعمالها للنقل، وهي – هذه الأدوات – لا تصبح خطيرة إلا إذا زادت الثقة فيها لا بمستعملها، فالبدائي الذي يفشل بإصابة طريدته يكسر رمحه والعكس، لتجد عند كل الشعوب سيفاً او رمحاً مقدساً بحد ذاته لأنه استعمل بالنصر يوماً ما.

فالثقة التي تزود بها الأداة حاملها، وخاصة إذا كانت بيده لا بيد غيره من الخصوم، تجعل هذه الأداة خطرة على صاحبها، ففشل أمريكا في العراق كفشلها في فيتنام، نتيجة ثقتها المفرطة بالتكنولوجيا التي تملكها، مما جعل من هذه التكنولوجيا شراً على حاملها من جهة، وعلى المدنيين من جهة أخرى، والتاريخ مليء بالعظات حول خطر التقنية العلمية على من يستعملها ومن تستعمل ضده، فتوازن الرعب الحربي ليس من توازن نوع السلاح التدميري الشامل، بل من أحاديته بهذا المعنى؟!

تصور مشكلة "تشرنوبل" وما سببته من دمار لا في روسيا فقط، بل في كل أوروبا، وقد نتجت من الثقة المفرطة بالتكنولوجيا العلمية من أجل السلام، وهي قابلة للتكرار باليابان اليوم.

والأخطر منها لو ركبت القيادات الحاقدة رأسها واستعملت السلاح الذري في أي مكان من الشرق الأوسط، ماذا سيصيب أوروبا وروسيا وحتى الهند منه؟! هل سيكون العلم هو المسؤول أم الأخلاق التي تسيره؟! وعندما نتحدث عن الأخلاق هل نتحدث عن الدين أم عن الفلسفة أم عن كليهما؟! أبمعزل عن العقل أم معه؟

تلك هي الأسئلة التي يحتاج تغير مناخ الأرض الفكري الإجابة عليها، قبل إمكان الوقوع برعونة استعمال التقنية العلمية بشرور التدمير الشامل، او باستعمال علم البيولوجيا بالتدمير الوراثي الشامل لأعراق لا تمتلك تقاناته العلمية؟!

العلم غير مسؤول عن هذه الشرور لكن المسؤول عنها نعت: "اللاعلمية" – كحكم قيمة – لباقي مستويات المعرفة، من دين وفن وفلسفة وإهمالها؟! وبإهمالها تهمل الأخلاق من الحياة، ويهمل الجمال فيها، بقدر إهمال أي حقيقة غير علمية، والمسؤول عن هذه الشرور هي البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أخذت من "البرغماتية" اليوم مناخها "الميكيافيلي"، مع غريزة البقاء للأقوى التطورية عندها، وتستعمل العلم بأداتيته لخدمة هذه الشرور، على حساب كل معارفنا غير العلمية، التي تشكل الذخيرة التراكمية لكل ما هو إنساني حضاري، وقبلها فعلت الشيوعية الشيئ ذاته!!

ومثل هذا الفكر المنحرف عن كل مسيرة الحضارة الإنسانية عدا الاستئثار بالعلم فقط، عاجز عن جمع الحقائق الإنسانية بما هو غير علمي مع علمية العلم، او لا يريد من أجل كل ربح آجل، ولهذا نرى تقليعة العلمانية "Scientism" تخبو لتظهر بين فترة وأخرى، حاملة معها كل أنواع المغالطات "Fallacies"، وهي لا تمت للعلم إلا بصلة الادعاء فقط[*].

إن العلم بحاجة الى المعارف غير العلمية لتحدد له اتجاهاته والقيم التي يجب أن تسيره، عبر الضمير في الأخلاق، والفلسفة في تفسيرها لمعاني المصير، والدين الذي يجب عدم كسر قيم معتنقيه بدعوى فوائد ومنافع العلم، أي أن العلم بحاجة الى توجيه صحيح من المعارف غير العلمية، لا العكس[**]، فعليه فقط تمييز الوقائع "Facts" من الإرادات التي تريد أن تملي أمراً واقعاً "De Facto" كما بالعلوم

---

[*] شرحناها سابقاً.

[**] لأنه إما أن يحولها الى علم أو يخرجها من غير علميته فيفقد توجهاته، ويصبح علماً يضيع مستواه المعرفي في السابق، او يصبح العلم غير علمي فيفقد توجهاته وهويته أيضاً ويتبع المستوى المعرفي الآخر، وفي كل الحالين تتغير الهوية المعرفية .

الإنسانية مثلاً بما سعت لفرضه على المعارف الأخرى والآخرين، كما أملت الشيوعية قيمها بعلم الاجتماع الاشتراكي فوصلت الى حدود مقاومة نظريات الكوانتيوم "Quantum" لأنها ليست ديالكتيكية، وتملي البرغماتية الميكيافيلية اليوم على الواقع السياسي والاقتصادي الذي تسيره عالمياً.

إلا أن الواقع الموضوعي التجريبي في بحثه عن الوقائع "Facts" في صلب طبيعة العلم، يعود ليفرض نفسه "ففرويد" الذي ذهب بعلم النفس شططاً، نحو إصراره على الجريمة الأبوية، التي هي سبب اللبيدو عنده "Libido"، يقول (إن الذي تفضله الطبيعة بكل طرقها هو حفظ النوع.... وهذه الغريزة المتموضعة.... لها طاقة غريزية قدمت لها مصطلح اللبيدو)[1] الذي منه ظهرت الخطيئة الأولى - حسب رأيه - (حيث أن أب القبيلة كان طاغية.... الأبناء تجمعوا.... ليغتالونه ثم يفترسونه.... لقد كان لهم عدواً ومثلاً أعلى في نفس الوقت.... لا تزال وليمة الطوطم تلقي ضوءاً قوياً على الأساس السيكولوجي للديانة المسيحية، التي لا تزال وليمة الطوطم على شكل التناول)[2]، وهكذا صارت هذه الطاقة الجنسية موجهة للأم بزعمه؟؟

ولهذا التنكر للخبرات الواعية التي ترفض مثل هذه التفسيرات، دفع علم النفس التفهيمي "Cognitive Psychology" الى دراسات تجريبية حول الصلة بين السياق البيولوجي - للدماغ - والسلوك "Experimental Psychology" من خلال سياق توضيحي - تفهمي - لردود الفعل بين الناس وما يقابلها عند الحيوان، مع استخدام المنهج الإحصائي والقياسي "Statistical and Measurement"، مما أسقط كل ما لا يمكن التجريب عليه من نظريات علم النفس، سواء عند "يونغ" و"فرويد" او إدلر" او سواهم، وصارت هذه النظريات جزءاً من تاريخ علم النفس ليس إلا، وهكذا فرضت الوقائع "Facts" التجريبية نفسها على علم النفس، كما هي مفروضة

---

(1) Freud, Civilization and Its Discontents, W.W. Norton and Company, N.Y. 1989, P 76.

(2) حياتي والتحليل النفسي، مرجع سابق، ص 76-77.

على باقي العلوم، وحذت العلوم الإنسانية حذو علم النفس أيضاً، فصار العلم لا يعني سوى ما تنتجه البحوث التجريبية من "وقائع" وما تكشفه من حقائق عيانية ليس إلا.

وهذا لا يعني أن المنهج العلمي يتنكر للحدوس التي تطرح على العلوم – كما تحدثنا عن حدوس "فرويد" مثلاً –، بل يعني إخضاعها للمناهج التجريبية المختلفة من أجل التأكد من واقعيتها الحقيقية، وهذا يصح على العلوم الإنسانية كما يصح على باقي العلوم التي تأخذ باعتباراتها كل الاستثناءات التي لا تنطبق عليها قواعد الاستقراء كافة، لأن (مصداقية العلم قابلة لإعادة التجربة وفحصها من أي شخص كان)[1] بينما بمقارنة ذلك مع التصوف نجد أن (التصوف تعبير عن مشاعر لا وقائع "Facts" .... لذلك لا يمكن أن يؤيده ولا أن ينقده العلم)[2].

لذلك لا يوجد في المنهج العلمي ما هو ضد الحدوس الشخصية، لكن إذا ادعت تلك الحدوس العلمية، كما حصل مع بدايات علم النفس وعلم الاجتماع، أي أنها أرادت تنتسب الى العلم، حق عليها تطبيق المنهج الاختباري التجريبي، فما يثبت منها تجريبياً يصبح علماً، وما لا يثبت يسمى تاريخ معرفة؟!

على أن ننتبه الى أن الكثير من الفكر البشري الميتافيزيائي والديني لا يمكن أن يخضع للتجريبية الامبيريقية العلمية "Empirical"، فهو غير علمي وليس لا علمياً – كما سبق واشرنا –، لكنه لا يعني أنه عديم الفائدة المعرفية ولا قيمة له، فاللاعلمية محصورة فقط بمن يدعي معرفة امبيريقية ثم لا يستطيع أن يثبتها تجريبياً في الكثير من نظريات "فرويد" التي سبق لنا مناقشتها، وهي بذلك تخرج من كل معرفة ولا يصبح لها أي سند معرفي.

تلك هي صفة وصبغة أساطير الحداثة وما بعدها؟! ونحن إن لم نرصد مثل هذه الأساطير التي يميل الذهن الإنساني الى صناعتها، بهدف تأكيد رأي إيديولوجي

---

(1) Bertrand Russell, Religion and Science, Oxford University Press, N.Y. 1961. P 179.

(2) Ibid, P 187.

او سياسي معين كالذي هدفت إليه الفرويدية – بجانبها اليهودي – من إباحة التحلل الجنسي، تحت غطاء فك عقد الكبت اللبيدية، أقول: إذا لم ننتبه لهذا الأمر اختلطت اللاعلمية مع غير العلمية مع العلمية، فيعود الذهن الإنساني الى عصور أسوأ من الوسطى في فوضى المفاهيم والأفكار.

وهذه حقيقة تنطبق على ما بعد الحداثة انطباقها على كل التقييمات السابقة لتاريخ المعرفة الإنسانية، فما قاله "رسل" المعادي لمستوى المعرفة الدينية يعاود الانطباق هنا حين قال: (غالباً ما تكون الحقائق الجديدة مزعجة وبصورة خاصة لمن يمتلكون السلطة)[1]، لذلك تنزعج مدارس التحليل النفسي – ذات السلطة الواسعة في الغرب من الامبيريقية التي تطبقها الجامعات هناك على نظريات مؤسسيها.

بقدر انزعاج النازية الحديثة من البحوث "الأنثروبولوجية Anthropology" حول لوسي "Lucy" في أثيوبيا عام "1974م"، من قبل فريق "دونالد جونسون"[2] بأن أمثال "لوسي" – المستحاثة – الذين خرجوا من أفريقيا الى كل العالم هم أصل كل الأعراق البشرية، وهنا وضع علم المستحاثات يده على حواء واحدة هي أصل الجنس البشري كله "African Erectus".

وهذا الوصف المبني على مستحاثة "لوسي" ينطبق عليه ما قلناه من أن "الصيغة التي يمكن أن توصف بها أي معرفة كانت؛ سواء كانت علمية او فنية او فلسفية هي في إطار قواعد الفكر المنطقية الأساسية" التي يستخدمها العقل الإنساني في توجهاته المختلفة، وهي ترتبط في مجال العلم كما أوضحنا بالتجريبية، بناء على معطيات الوقائع الموضوعية المكتشفة "Facts".

دون أن ننسى أن الانسجام في طرح أي حقيقة علمية، وهو الذي يسمى في المنطق: بعدم التناقض، ليعطي شعوراً بالتناغم ودقة في الوصف، يحتاج إليها العلم

---

(1) Ibid, P 252.

(2) Herbert Thomas, The First Humans, Thames and Hudson, London 1995, P 142.

كما تحتاج إليها الفلسفة والدين، فهو – أي الانسجام – يشكل القاسم المشترك بين كل المعارف الإنسانية، ولولاه لكان الاختلاط والفوضى في هذه المعارف "Chaos"، أي عدم الانسجام والنظام فيها.

ويبرز هذا الأمر بأوضح صوره بالفن؟!

ما الفن؟

يميز "كانط" بين الطهر والنبل والتسامي "Sublime" من جهة، وبين الجمال من جهة أخرى، على أن نرصد نحن أيضاً بين ما يثير شعورنا بالرضى من كل أمر لطيف به تناسب في الأجزاء مما يستحسنه البصر، لذلك قيل عن المرأة حسناء إذا كان شعرها سبلاً على قامة ممشوقة، وصبوحة إذا كانت بيضاء الوجه مثل نور الصباح، ووضيئة إذا كان نورها يغلب الظل إذا جلست فيه، وجميلة إذا صح "مارن" وجهها وأنفها، ومليحة إذا رقت شفاهها، وحلوة إذا اتسعت عيناها، وظريفة إذا كانت طلية بحديثها، ورشيقة إذا تحركت لا تتمايل من ثقل ردفيها، وكانت منسجمة الحركات.

ناهيك عن جمال الطبع إذا لم تكن شمطاء – عكس هيفاء – سليطة اللسان، أما جمال العقل عند كلا الجنسين فيظهر بمدى انسجام المنطق عند أحدهما، وعدم الاستسلام للغرائز – مسبقات البرمجة – في سلوكهما، لذلك تُعَدُّ المعرفة التي تبحث في الجمال "Aesthetics"[1] أو الاستاطيقا – كما ترجمها العرب دون تغيير لفظها – كل بحث حول نظريات الجمال ومعاييره، وهذه البحوث الفلسفية كانت تسمىٰ عند الإغريق "Aestheticos" التي منها اشتققنا عبارة الإستاطيقا.

على أن ننتبه الى أن الحكم على ما هو جميل يختلف عن الشعور به، لذلك توجد معايير مختلفة لكل فلسفة تتحدد بموجبها القوانين التي تميز مفهومها للجمال، وهذه المعايير تسمى؛ بالنقد الفني، ومثال ذلك: أن المعايير الفلسفية التي تحدد ما

---

(1) Philosophical Writings, op. cit, P 201.

هو جميل في النازية والفاشية مثلاً يرتبط معظمها بالروعة، لا بالجمال لكل أوجهه الأخرى، فما هو غير رائع ليس جميلاً أبداً عندهم، والروعة عند العرب هي الجمال المحفوف بالهيبة (والرائع الذي يعجب الناس بحسنه وشجاعته)[1] مثل البحر، او السماء رائعة لأنها جميلة ملغزة وجبارة، او الأسد رائع لأنه فراس وجميل.

يقول "رسل": (ان أفكار "هتلر" قد جاءت من "نيتشه" بصورة رئيسية)[2]، كذلك ذكر "كوفمان Kaufmann" أن ("ألفريد بوملر Alfred Baumler" كان الأستاذ الذي استدعاه النازيون الى "برلين" ليشرح "نيتشه".... فكتب "بوملر" أن "نيتشه" كان نازياً، مستنتجاً.... ما دعا الى تدريسه في المدارس)[3]، ويرى "كارل جاسبر": (أن "نيتشه" واحد من أهم الفلاسفة الذين أصبحوا صوراً تميز عصرهم)[4]، وهو مطلع القرن العشرين.

وقد ظهر تركيز "نيتشه" على أن المعيار الذي يمكن أن يقاس به الجمال هو الروعة فقط، في كتابه: "ولادة التراجيديا"، حيث يعرض هذا الصنف من الأدب.

فالنتيجة الحتمية لكل عمل رائع في نهايته المأساوية، لأننا بحاجة مادمنا بهذا الوجود اللامعقول أن نفهم له اتجاهاً، وقد رصد "نيتشه" اتجاه الحياة الإنسانية عبر لا معقولية أحداثها -أقدراها -، بما عكسه الفن "الديونيسي" الإغريقي القديم من الوهم الرائع الذي يغطي وجودنا عبر مدى عظمة المأساة، التي سيتحدد بها مصير كل واحد منا، فكلما عظمت النهاية الحتمية لحياة كل فرد منا وقست حين موته، وطار شررها على من حوله، كان لحياته معقولية أرسخ، ولم تعد مجرد مفهوم من مفاهيم الحياة البشرية العادية، لذلك دعا "نيتشه" قارئه الى رؤية (القدر الذي عانى منه الشعب - الإغريقي- لكي يصبح جميلاً!! فما عليكم سوى السير ورائي نحو

---

(1) محيط المحيط، مرجع سابق، ص 260.

(2) Religion and Science, op. cit. P 210.

(3) Walter Kaufmann, Nietzsche, Princeton, University Press 1974, PP 40-41.

(4) كارل جاسبر، عظمة الفلسفة، عويدات، بيروت 1988، ص 32..

التراجيديا لكي تضحوا معي في معبدها الإلهي)[1]، ("فدونيسيوس" الذي دمر "سقراط" في المحكمة بأثينا)[2]، قدم لنيتشه استقراء لا يمكن دحضه، عن واقعية ترياق الانخراط بهذا اللامعقول الذي أسمه تواجدنا في الوجود، عبر كل بطل يقبل بتراجيدية مصيره العنيف، حين الاستشهاد في سبيل ما يؤمن به؟!

(فالشجاعة والحكمة الرائعة "لكانط" و"شوبنهور" التي حملت أصعب أنواع الانتصار على التفاؤلية المخترقة لعلم المنطق في جوهره والتي بدورها قلبت صور قواعد ثقافتنا التي تعتقد أن كل ألغاز الكون قابلة للمعرفة)[3]، أنهاها نومن "كانط" والإرادة العمياء "لشبنهور"!! وبذلك مهدا السبيل كي يعيد "نيتشه" للتراجيديا قوتها، في قهر كل مصير فردي قهراً يجعل من الاستشهاد أروع ما في هذا الوجود، مما يسمح بقراءة التاريخ على ضوء هذه التراجيديا، وسمح "لنيتشه" باستقراء المستقبل في دور أمثال "هتلر" في التاريخ ونهايتهم التراجيدية العنيفة، التي تُجبر كل باحث اليوم سواء ضد او مع الاستشهاد، سواء سماه انتحاراً قتلاً أم فداء، أن لا يستطيع إهمال أمثال هؤلاء من الأثر المنطقي العميق لا في ماضي ما وصنعوه، بل في أثرهم التاريخي الباقي، فالروعة لا تكتب بمداد الحبر ولا ترسم بغير اللون الأحمر المسفوك، ومن خلالها تجد الأمم معنى وجودها، وعدا عن ذلك لا معنى لأي حدث في التاريخ، ولا معقولية له.

بغير الفداء التراجيدي – صحيحاً كان موقف الفادي أم لا، حسب تقييم المقيم – يبقى وجود الأمة بلا معنى ولا هدف سوى التكاثر والتناسل.

تلك هي المعايير الفلسفية التي حددت الجمال بالروعة من خلال الإرادة، كما وضعها "نيتشه" وتبناها الألمان، الشعب الذي تحترمه كل أمم الأرض، بسبب ذلك، وقد أفسحت له أوسع المجالات في التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي حتى بعد هزيمته الحربية.

---

(1) Nietzsche, The Birth of Tragedy, op. cit, P 117.

(2) Ibid, P 64.

(3) Ibid, P 87.

الشعب الذي ادعى انه وريث الحضارة الإغريقية بشقيها "السقراطي" و"الدينوسي"، حين ينجح معيار هذا يخفت ذاك والعكس، في الفن وتقانة الإتقان، وفي كل منتج إنساني رائع.

على أن أذكر القارئ بأن هذا المعيار الذي سماه "نيتشه" بالدينوسي التراجيدي، يختلف عن المشعور به منه حين تطبيقه، فالذي لا يشعر بمشكلة كون الوجود القابل للفهم غير معقول ، لا يعني له هذا المعيار شيئاً؟! والذي لا يرى بالتراجيديا حلاً بل انتقالاً الى عالم آخر – سماوي مثلاً او كلي كوني – يمارس تراجيديا الاستشهاد وإذا آمن بالانتقال السماوي، و"الكاميكازي" إذا آمن بالانتقال الكوني الكلي، وأتباع الفريق الأول مسلمون والثاني "يابان" بوذيون، وكلاهما يختلف عن ألمان "نيتشه" بأن التراجيديا بالنسبة لهم ثانوية وليست أساس مسعى الخضوع البشري الخالد في التاريخ، لأن كل التاريخ لا يعني لهم شيئاً سوى في لحظتي الإسلام كما بدأ، او بوذا كما ظهر فقط.

وهكذا تفرض الروعة على التاريخ مساره.

ألا ترى معي أيها القارئ كم في الجمال من خطر؟! يقول "نيتشه": (لا شيء في الجمال أكثر من الإرهاب الذي لا زلنا قادرين على تحمله)[1]. ذلك أن خطر الجمال ليس في الروعة فقط، بل هو في وداعته أيضاً، التي تثير الرغبة بالتوحد معه سواء باقتنائه او بإدخاله في الذات، وهذا ما سماه الإغريق "بالايروس – Eros"، وهي عبارة تتضمن الشعور بالإخلال بالتوازن او النقص لتحرك الرغبة بالتوحد والاتصال بالشيء الجميل، ولأن، الرغبة أقوى صيغ الإرادة فالرغبة بالحصول على الشيء الجميل "Eros" تستأهل وتؤدي الى التضحيات، ومن هنا يكمن خطر الجمال من خلال قوة جاذبيته التي تتركز في الشيء الجميل.

وهذا الخطر عند "أفلاطون" لا يتصل بالجانب الحسي من الجمال بل في الجانب المجرد منه (يقول سقراط: أن الأساطير قد مجدت أيضاً هذا الحب فالإله

---

(1) The Birth of Tragedy, op. cit, PXX VIII.

زيوس.... رفع الأبطال الذين أحبهم حباً روحياً الى مرتبة الخلود.... لأنه أحب سمو نفوسهم)[1]، وهذا يعني حسب "تولستوي" قدرة الجمال على نقل الانفعال[2]، وينسب "كروتشيه" هذا النقل الى الحدس[3] سواء في إيصال "ايروس" التوحد مع الجميل، او حدس أن الطبيعة قد أخطأت هدفاً ما فننفر بقدر ما ننجذب، ونحس بنفس رعشة الإيروس لكن سلبياً من كل قبيح، إذا لم يكن في القبح أي أذى، أما إذا كان فنفورنا دفاعي بكل معنى الكلمة، فهذا ما يجعل التقزز يختلف عن الاشمئزاز!!

ففي التقزز رعشة "ايروس" سلبية، بينما في الاشمئزاز استنفار دفاعي في كل حواسنا الخارجية والداخلية معاً، خوفاً من فقدان التوازن والانسجام فيها، قبل فقدانه بما هو أمامها.

يقول "شارل لالو" حول تفرعات الجمال هذه: (أن علماء الجمال قد طرحوا مسائلهم تارة بشكل رياضي او ميكانيكي او فيزيولوجي او اجتماعي والبعض يرون في هذا التنوع دليلاً على عدم تماسك هذا العلم، بينما هو يعبر عن ثراء)[4]. ومن باب استعراض هذا الثراء نسال:

لكن لماذا ترتبط السعادة بالرغبة بالتوحد مع الجمال، والشقاء والنفور من القبح؟! ولماذا في الأشياء الجميلة جاذب قوي. أي لماذا نريد من إحساساتنا أن تتصل بكل ما هو جميل، فنختار من الطبيعة أبهى أماكنها لقضاء العطل، او حتى للعيش هناك إذا أمكن، ونزين ما حولنا بمختلف فنون العمارة والديكور، ونزين أنفسنا بالثياب والروائح الطيبة، وأحاديثنا بالأدب والشعر، ونضفي على أجواء عزلتنا ما نختاره من أعذب الألحان، او نقتني العصافير المغردة؟!

هل كل هذا من أجل البهجة التي يعطينا إياها الشعور بالجمال؟! وهل السعادة محصورة بجمال الروح والمكان الذي تتواجد فيه؟! ونفي القبح منهما؟!

---

[1] أميرة مطر، في فلسفة الجمال، دار الثقافة، القاهرة 1974م، ص 31.

[2] المرجع السابق، ص 208.

[3] المرجع السابق، ص 225.

[4] شارل لالو، مبادئ علم الجمال، دار دمشق 1982م، ص 109.

هذه الأسئلة وسواها تشعرنا بأن التمثل والحكم على الشعور الجميل حسياً، يختلفان عن ذلك الشعور المغروز فينا بشكل "قبلي" بحب الجمال دون البحث به وبأهدافه، حتى يمكننا القول بأن سعى الإنسان وراء الجمال، سعيٌ غريزي فيه، لذلك يستحق الجمال كل التضحيات التي تقدم له، من كل أوجهه دون أن يقتصر على الروعة فقط، وهذا لا يعني أن اقتصار الجمال على الروعة ليس جميلاً، لكنه يعني أن من يقصره عليها فقط يهدف الى توجيه المشاعر الإنسانية من خلال الجمال نحو قيمه، "فنيتشه" الذي يلعب لعبة قيمية – في كل الفلسفة والأخلاق والنفس، يريد توجيه المجتمع نحو "إرادة القوة" والسيطرة، ليأتي رأيه في الجمال من أجل خدمة هذا الاتجاه، فإذا شعر بأن صديقه المقرب له "واغنر" يوجه موسيقاه نحو الإرادة العدمية المسيحية، ينقض عليه بكتابه: "The Case of Wagner" يقول: (لاشيء يمكنه أن يسهل الأذية في الانطباعات أكثر من صاحب روح عظيمة يحرم نفسه من أجنحته حين يطلب الفضيلة ممن هو متخلف)[1]، فهل هذا ما فعله "واغنر"؟؟ يقول "نيتشه": (أن واغنر يمثل المفهوم المسيحي – القائل –: يجب عليك ومن الضروري أن تؤمن)[2].

والحق أنه لولا صعقات "نيشته" التي هي مثل هذه، لما دخلت الروعة في فلسفته، بل إنه بدخولها في الفلسفة نتائج أخطر – ولا أقول أسوأ –: من "يجب عليك ومن الضروري أن تؤمن" التي برزت في النازية لاحقاً.

هذه هي فلسفة الجمال التي تختلف عن الشعور بالجمال لأنها إيضاح له، إيضاح غير بريء فروعتها تسحبك نحو الجمال، ولكن لهذا الجذب هدف في كل مذهب فلسفي يبحث عن الجمال، وهدف "نيتشه" إرادة القوة والسيطرة، وتحديداً الجرمانية!! وما بحثه بالجمال إلا وسيلة من وسائله – الرائعة – في إبراز فكره، لذلك وصف هو فلسفته بالإغواء "Seductive"[3]، كما (أطلق على نفسه بمحض

---

(1) Nietzsche, The Case of Wagner, Wintage Books, N.Y. 197, P 162.

(2) Ibid, P 161.

(3) Karl Jasper, Reason and Existenz, Farrar, Straus and Giroux, N.Y. 1978, P 33.

إرادته لقب فيلسوف الخطر الممكن)[1]، لكنه مهما كانت روعة أي فكر ودقته وصدقه فإن (الباطل يتربع فيه حين يؤكد أن هناك حقيقة واحدة تصلح لكل الناس)[2]، وهذا ما فعلته معظم المذاهب الكبرى في تاريخ الفلسفة، بكل الوسائل، وخاصة في صب (سكب) استقراءاتها على فلسفتها في الفن، فنيتشه لم يكن أول من ابتدع هذا الخط، لكنه "أروع" من "أبرزه"؟!

وللتحقق من هذا الأمر لا بد من استفتاء تاريخ فلسفة الفنون عند بعض من جاؤوا بعد "نيتشه"، وبعض من كانوا قبله، وضرورة هذا التبعيض هي فقط كي لا يتحول بحثنا هذا الى موسوعة في فلسفة الفنون،

فالغثيان الذي تصيبك فيه الفلسفات الإيديولوجية من ماركسية واشتراكية، حين يتحدثون عن الفن "الملتزم"، يمكن أن أعرضه للقارئ من موسوعاتهم التي يسمونها فلسفية، وفيها:

(ترفض الماركسية التفسيرات المثالية للفن على أنه نتاج وتعبير عن: الروح المطلق)[3] ويعنون تفسيرات "هيغل" للفن (والإرادة الكلية)[4] ويعنون "شوبنهور" و"نيتشه" (والإلهام الإلهي)[5] ويعنون الدين (والتصورات والانفعالات اللاشعورية للفنان)[6] ويعنون أنه على الفنان أن لا يكون مرهف الشعور، وعليه أن لا يثبت في لاوعيه – خافيته – أيَّ حدسٍ غير ماركسي، أي حسب ما نقلناه سابقاً عن "نيتشه": "يجب عليك ومن الضروري أن تؤمن هنا كما تؤمن بالدين"؟

فأي حسن او جمال او بهجة او انشراح او لذة او سعادة او روعة في هذا الوعظ، الذي لم تمارسه أكثر الأديان بدائية على أتباعها؟ يقولون: (للفن بين

---

(1) Ibid, P 33.

(2) Ibid, P 102.

(3) وضع آكادميين سوفيت، الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة، بيروت 1987م، مراجعة صادق العظم، ص 354.

(4) المرجع السابق، ص 354 أيضاً.

(5) المرجع السابق، ص 354 أيضاً.

(6) المرجع السابق، ص 354 أيضاً.

الشعوب البدائية علاقة مباشرة بالعمل)[1] ولذلك (يعرض الفن أهميته المعرفية ويمارس تأثيره الإيديولوجي والتربوي القوي.... ويرتبط – بتطور -؟ – المجتمع، وبالتغيرات التي تحدث في بنائه الطبقي.... فإن أسلوب الإنتاج الرأسمالي.... أسلوب معاد للفن)[2]، وكأن احدهم لم يزر "باريس" او سمع "بهوليود" او حتى "بلاس فيغاس"، او زار "طوكيو" او رأى ما عنده في "بطرسبيرغ" من متاحف القياصرة وقصورهم، التي سموها "ستالين غراد"؟!

أما الفن الحديث فهو عندهم (الفن التجريدي من ملامح الفن الرجعي المعاصر)[3] رغم سرورهم بانضمام "بيكاسو" للشيوعية.

وكل هذه "الدوغما" المصبوبة على الفن في موسوعاتهم، تريد بجلافة "قفقاسية" أن تجبر الناس على "يجب عليك ومن الضروري أن تؤمن" أن (النضال من أجل إعادة صنع العالم شيوعياً هو المثل الأعلى الذي يوجه فن الواقعية الاشتراكية)[4]؟.

فكيف حرفت آراء "هيغل" نحو مثل هذه السطحية الأمية الروسية الجورجية الستالينية اللينينية الماركسية، لتعلن موت الفن في الدول الاشتراكية الرديفة، حيث لم يبق للروس سوى فضيلة المحافظة على ما تركه القياصرة من فنون، وللنخبة التمتع بالإقامة في الكرملين، كمثل أعلى للنخب الاشتراكية في باقي العالم التي سرقت قصور ملوكها.

فبين الروعة التي أبرز فيها "نيتشه" اغواءاته الفنية للدعوة الى آرائه الفلسفية، والجلافة الأمية التي أبرزت فيها الاشتراكية فلسفتها الفنية، برز باطل تأكيد أن هناك حقيقة واحدة يجب أن تتجه إليها فلسفة الفنان وتتعلق بالفلسفة الأم التي يتبناها، لتصبح فلسفة الفنون إما تبريراً رائعاً لمطلب فلسفي، او تبريراً جلفاً

---

[1] المرجع السابق، ص 354 أيضاً.

[2] المرجع السابق، ص 354 أيضاً.

[3] المرجع السابق، ص 354 أيضاً.

[4] المرجع السابق، ص 355.

له، وبين هذين كان التبرير "الهيغلي" يسير الاتجاه ذاته لتبرير عقلانيته المسرفة، فاستعمل الفن لتبرير ايديولوجيته!!

ولعل الميزة الوحيدة التي تدفعني الى عرض مذهب "هيغل" في الفن هي في أنه لا يحرك حواسنا الداخلية للنفور مما يَعْرِض، كما حركتها السطحية الامية الاشتراكية الجلفة بالفن الموجه الذي تسميه: ملتزماً.

قال "ديدرو": (الاشياء التي تستثير الذوق او القرف الداخلي.... تأتي حصراً من الثقافة والتربية)[1]، والثقافة الجلفة الدوغمائية المريحة للإيديولوجيا والتي تروج لها ببروباغندا "Propaganda" الفن تحت تبرير "الالتزام"، مريحة لأصحابها لأنها تؤكد في كل عمل فني ما يخدم توجهاتهم، فيقوى سلوكهم بها مهما كان فظاً او مقرفاً، يقول "ديدرو": (فالدب قد يرى مغارته مريحة، ولكنه لا يراها جميلة)[2]، فمن المريح للأنظمة "التوتاليتارية" أن يخدمها فن ملتزم لأنه من جملة أعوانها على البقاء، ولكن الادعاء بجماليات مثل هذا الفن يثير العكس الذي هو: الغثيان.

وميزة مثل هذا الغثيان أنه يدلنا على الكيفية التي يمكن للفن أن يصبح بها قبيحاً، وأداة من أدوات كبت الوعي الجمالي عند الناس وتشويهه، تماماً كما شوهت الشيوعية الوعي الفردي في مجتمعاتها.

وهذا يعني أن مع الجمال علاقة بالقبح، حين نكون أمام فن لا يوقظ في إدراك الفرد علاقة مع الوعي الإنساني للكمال، الذي ينشده كل مخلوق، إما بصورة غريزية مسبقة البرمجة عبر تحسين سلالته بما يسميه علم البيولوجيا بالانتقاء الطبيعي "Natural Selection"، او بصورة واعية بزيادة الوعي الفردي بما يسمى بالتهجين، سواء كان فكرياً بزيادة الثقافة او سلالياً بالانتقاء العرقي "D.N.A" .

فكما زادت أنثى الببغاء من ألوان ذكرها بالانتقاء الغريزي لسفاد الذكر الذي به لون زائد ، فكذلك بالآلية نفسها ضخمت أنثى الفيل ذكرها الى قرابة الضعف

---

[1] دوني ديدرو، بحث في الجميل، أرواد للطباعة والنشر، طرطوس 1997، ص 33.
[2] المرجع السابق، ص 39.

حجمها، كذلك استخدمت أنثى الإنسان آلية معاكسة لهدف مشابه، مضيفة على الانجذاب الجنسي للذكر نحوها إشارة تزيد من انجذابه، هي: إثارة رغبة التحسين في نسله من خلال وعدِ جمالها عبر الانطباع الذي تتركه فيه بتناسقها الجسدي والروحي أي بجمالها الكلي.

وهكذا صار الجمال عند أنثى الإنسان هدفاً يثير في الذكر غريزة تحسين سلالته(*)، مما يسمح للأنثى بحقل اختيار أوسع من حجم الذكر او لون ريشه، وهو تحديداً عقله ثم شكله الخارجي، ثم مدى قوته الاجتماعية!! هدف واحد في تنوع اشكال الجمال هو الذي تسعى إليه أنثى الإنسان غريزياً، وهو تحسين النوع عبر انتقاء طبيعي معقد به:

- استحواذ من خلال وهم الجمال بالتجميل الاصطناعي للمرأة، وقليل من الذكور الذين يتحركون بهدف مشابه.
- وحث إقدام يبرز شجاعة عقلية وجسدية للذكر، كي يقدم جمالاً معنوياً، مقابل عرض جمال الأنثى المادي له. فأساس الجمال هو المفيد إذا، يقول "ديدرو": (ولما كان المفيد وحده أساس الجمال تغدو.... سائر التزيينات عموماً تافهة زائدة)(1)، ولذلك صار من الضروري التمييز بين الجمال الطبيعي وبين الجمال الصناعي، ومن هنا برز الفرق اللغوي بين الحُسن والجمال وبين الغانية التي تستغني بجمالها عن الزينة، والغادة والهيفاء وصاحبة البهاء، والبضة، وسوى ذلك من تخصصات تميز الجمال الطبيعي للمرأة عن ما تشترك فيه من جمال "الصبا" مع قريناتها من الشابـات، واللواتـي يتمتعن كلهـن بالصبا أي بالخصوبة(**).

(*) تزودها به الغريزة بالصبا أي الخصوبة، إضافة لما بها من تناسقات أخرى وراثية ، إن وجدت فهي الجمال – جمال المرأة وصباها – هما كمالها بالصبا والجمال الذي بهما تجذب فلا يمكن أن تقاوم!!

(1) المرجع السابق، ص 55.

(**) الصبا يعني الخصوبة فهو جذاب جنسياً وليس جميلاً، لذلك يظنون أن المرأة أجمل من الرجل في هذه الفترة.

هكذا زاد الوعي بالجمال بزاد التحليل المنطقي له، مما استدعى تقديم مزيد من التحديدات حوله، لذلك قال "هيغل": (إن العقل وحده قابل للحقيقة – لذلك يكون كل ما هو جميل حقاً بقدر مشاركته في هذا العنصر المثالي – العقل –)[1].

هذا هو فهم المعقولية العقلانية للجمال في قمة تجسدها في فكر "هيغل"، الظان أن كل ما في الوجود قابل "للمعقلة"؟! والإستاطيقا لا تخرج عن هذا.

ألم نقل أن هدف كل فلسفات الجمال ليس بريئاً، فإذا كان "نيتشه" يريد أن يشد الجمال نحو إرادة القوة والسيطرة، والاشتراكية تريد جره نحو ما هو مريح لمذاهبها، فإن "هيغل" يريد الجمال أن يخضع لعقلانيته المذهبية في كل شيء، فعلى العقل أن يسيطر على الجمال لا أن يسيطر الجمال على العقل بالغريزة، فهو لا يريدنا مثلاً: أن نتبع الجمال بناء على مسبقات البرمجة فينا – الغريزة – بل يجب أن نتبعه بالعقل، فتحسين السلالات مثلاً لا يمكن أن يترك للعوامل الاجتماعية، التي تسمح للكهل الجبان المترهل بالإنجاب من الجميلات، لأنه صاحب سلطة سياسية او مالية، فالمرأة التي تدفعها غريزتها نحو نشدان القوة في الرجل تضللها مفاهيم القوة الاجتماعية التي تضر بالنوع، من خلال (الإجبار – الغريزي – بالجمال في الطبيعة الإنسانية)[2].

هكذا يدعونا الجمال الى تأمله بالفكر، رغم أن (الحكم على كل ما هو – جميل – فنياً يتعلق بمعايير ورؤى لكل إنسان)[3]، لأنه في كل كمال ما يقود الى هدف معين، فمعنى العمل الفني (شيء يغاير ما يبرره)[4]، والمسكوت عنه مثلاً في جمال المرأة وجمالياتها هو عمل الطبيعة الفني في تحسين النسل، والمسكوت عنه في بحوث "هيغل" عن الجمال هو تأكيد عقلانية كل شيء، وعند "نيتشه" إرادة القوة، وفي الاشتراكية سيطرة ممثلي "البلوريتاريا" وتبرير دكتاتوريتهم.

---

(1) Hegel, Introductory Lectures on Aesthetics, Penguin Books, N.Y. 1993, P 4.

(2) Ibid, P 8.

(3) Ibid, P 19.

(4) Ibid, P 23.

ناهيك أن لكل عمل فني فردي هدفاً، فالذي يكتب قصة مثلاً: يريد أن يثبت لحظات مشاعره الضائعة في شخوص أبطالها، دعماً لرأيه ومشاعره او انتصاراً لمذهبه، من منطلق الجانب الإنساني المسكوت عنه وهو أن الإنسان حيوان قصاص[*]، لا يفقه علماً ولا معرفة بمعزل عن تاريخهما، وما محاولات البنيوية المعاصرة في تفكيك النصوص وعزلها عن مجازاتها، سوى الرغبة في كشف المسكوت عنه عند كل فنان كاتب. على أن ننتبه هنا الى (أن حقيقة الأشياء، لا تتعلق بالخير الفردي ومن سلوكه، فالرأي الصحيح، والجمال في ذات الإنسان وأعماله الفنية يتعلق بالخير والجمال والحق بذاتهم ولذاتهم)[1]، لذلك لا بد من تفكيك النصوص لإبراز هذا الفرق فيها بين ما هو ذاتي وما هو عام، كما فعلت البنيوية بعد ذلك.

يقول "هيغل": (أن الفن هو نتاج فاعلية إنسانية.... واعية تختبر المواضيع الخارجية، ويمكن معرفتها.... وتعلمها.... وتقليدها)[2]، وهذا يقودنا الى سؤال حول طبيعة هذه الفاعلية الواعية والذي أجاب عنه "تولوستوي" في كتابه: ما الفن؟ حيث أكد أن الفن يخدم الهدف ذاته للكلام، مع فارق أن اللغة تحاول أن تنقل الفكر، بينما يحاول الفن نقل المشاعر، من خلال هذه القدرة عند الإنسان على تلقي انطباعات الشعور إما إيمائياً، او باللون او بالموسيقى او بالقصة او حتى بالعمارة، وكلما كان الفن مرهفاً كان نقل المشاعر بما يشبه "العدوى".

والعدوى هي معيار الفن ودلالة رقيه او ضعفه، فكلما وقع المشاهد او القارئ تحت سلطة فن ما، كان دلالة على قوة هذا الفن وجماله، لأن الجمال هو "الفيروس" الوحيد الذي لا يتجنبه الإنسان، فالعدوى بجمال المرأة يعني تحسين

---

[*] ينشد خلود مشاعره وفكره ورغباته أي خلود نفسه من خلال قصصه التي يرويها، كبرهان ذاتي على عدم خلود المشاعر والأفكار والرغبات أي "النفس"، التي هي عبء ذاتي يحتاج كل فرد الى تخفيفه بتفريغه، ناهيك أن حسابه عليها – لمن يؤمن باليوم الآخر–.

(1) Ibid, P 25.

(2) Ibid, P 30.

السلالة، والعدوى بجمال عمارة ما يعني زيادة التقنية والإبداع في صنع فن يحاكيها، الم يكن قصر "الحمراء" في اسبانيا (سرير ملك العرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب، من أفخم ما صنعته يد الفن الجميل بهدف تشخيص وتكريس تصور الجنة السماوية عند المسلمين)[1] وكذلك حال القصور الشرقية – الخليجية – اليوم، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهذا يعني أن (تضمن الموهبة الفنية عناصر طبيعية، يحتاج بصورة أساسية الى زرع الفكر فيها)[2]، فالمعماري الذي لا يعرف هذه الحقيقة السابق ذكرها كواقعة تحكم كل فن "Fact"، في كون رهافته ترتبط بمدى الدعوى التي يسببها للمشاهد والمستعمل له، لن يعرف كيف يبني قصراً شرقياً؟! "فتاج محل": ليس مسجداً فقط ولا هو قبر فقط، إنه أمل عاشق بجنة سماوية لعشيقته على الأرض، من نسخة سماوية ملأت انطباعاته الدينية.

كذلك الموسيقى (مشاعر دون فكر.... تحتاج أن تبرز للوعي، ولهذا السبب تظهر موهبة الموسيقى وتعلن عن نفسها في مراحل الشباب الباكرة، حيث الرأس فارغ والقلب مشغوف)[3]، لذلك كانت انتاجات (غوته وشيلر الأولى غير ناضجة – فكرياً – وحتى بربرية)[4] خاصة في اعتبار أن الفن عمل إنساني يحاكي عمل المبدع – الله – في الطبيعة، وكأن الإنسان بحد ذاته ليس من عمل وإبداع الله؟! فعن أي محاكاة يتحدثان؟! إنها انطباعات مشاعر ذاتية لا محاكاة.

وحين تظهر الذاتية في الفن ضمن إطاره الجامع لكل الذاتيات فيه، يصبح الفن موضوعياً، وهو يؤكد موضوعيته بمدى العدوى التي يصيب بها متلقيه، فالذاتية في الفن لبنة في بنائه الموضوعي الذي يشكل الذوق العام له.

فالذي يميز الفن من العلم هو البداية من الذاتية في الفن بينما في العلم لا تبدأ بالذاتية ولا قيمة لها إن لم تكن موضوعية، لذلك يمكن تكرار كل استقراءات

---

(1) واشنطن إيرفينغ، الحمراء، ترجمة هاني يحيى نصري، مركز الإنماء الحضاري، حلب 1996م، ص 47.

(2) Ibid, P 32.

(3) Ibid, P 33.

(4) Ibid.

العلماء، ولا يمكن تكرار أذواق الفنانين، فكل مدرسة فنية تموت مع صاحبها تاركة رغبة بالعدوى لا تنتج إلا سواها بمدرسة أخرى، بينما في العلم تستمر المدارس العلمية وتصحح بعد موت صاحبها، ففي العلم استمرارية، بينما في الفن رعشات مشاعر، تعبيراتها لا تشبه فيروس العدوى التي أصابتها، بينما في العلم تشابه واستمرارية وتصليح وتحسين دائم، (بجعل المواضيع المشخصة أمام الحواس مجردات أمام الفكر)[1] تحتاج الى تشذيب دائم لتتقارب مع ترجيحية الحقيقة.

الفن كاللغة – بل هو لغة العواطف والمشاعر – يبدأ من الرموز والمجردات الشعورية، وهو حين يشخصها بقصيدة او بلوحة او بعمارة، يرسم مشخصاته – بالكلمات او بالألوان او بالأحجار – ومشاعره التي يريد أن يعدي بها سواه، لذلك يوجد في الفن "إغواء"، فهو أقوى من اللغة.

والقدرة على الإغواء بالمشخصات الفنية يمكنها حين إصابة المشاهد لها أن تزيف مشاعره، بل قد تسلبه منها لحساب مشاعر الفنان، فيظن الموضوعية فيما هو أمامه وهو وهم، لذلك اعتبر الإسلام الغواية بالشعر ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء 224] لأنها تؤجج العداوات ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة 9].

والأسوأ من هذا هو حين يعكس الفنان رعشات مشاعره على مصنوعة صنعها، ومن كمال صنعته يدعي أنها صنَعته ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان 3].

إن نظرية المعنى كصورة لغوية عند "وتغنستين"، تجعل من اللغة شبيهاً بلوحة فنية لمظهر طبيعي، مهما كانت دقيقة تختلف عن هذا المنظر، لأنها من منظور راسمها، كالكلمة من مقصود قائلها.

---

(1) Ibid, P 42.

لذلك من الخطأ والضلال كل تشبيه لله الخالق لكل هذا الكون ونحن بزاوية هامشية فيه، او التعبير عنه تعالى، او أي متعالٍ أقل من الذات الإلهية بمنحوتة أو ميزان، فرموز العدل بالميزان بيد امرأة مغمضة الوجه هي الحكمة، الذي تزين به قاعات بعض المحاكم لا يعني العدل ولا يشير إليه، بل يضلل الرائي أكثر بكثير من عبارة عدل او ميزان حق، ومن الوهم وضعه على قبضة سيف؟! فكل تعبير عن المتعاليات "Transcendental" التي هي فيما وراء "Beyond" الحواس، والتي من طبيعتها عدم الخضوع للتجارب الحسية ككل المواضيع المفارقة والميتافيزيائية، هو تعبير ناقص ومضلل، فإذا تناولها الفن أساء لها ولنفسه، والسبب ببساطة أنها ليست في حقل وشروط مستواه المعرفي.

ولعل الذي يضلل الفن بهذا المجال هو الذوق المشترك بينه وبين الإيمان، لكن الذوق الإيماني عام بينما الذوق الفني خاص فلا تشابه، فحين ينشرح ذوق صدري للإيمان بالله، لا يشبه مشاعري حين أنجز عملاً فنياً او أتمتع بعمل فني، أي أصاب بعدوى فيروسه إذا صح التعبير، لأن الذوق الأول وجداني ذو علاقة بضميري بينما الثاني حسي محض، لكن كليهما يحرك مشاعري، فإذا لم أميز وقعت من صراط الحق بالوثنية.

فكما أن (القسوة – الأنانية – وعنف المشاعر تروضها نعومة الفن)[1] من خلال الحواس الداخلية والمشاعر فيها خاصة، يروض الإيمان العقل والرغبات بجموحهما من خلال حاسة داخلية أيضاً هي الضمير، لذلك يمكنني القول: إن اللجوء الى الإيمان كاللجوء الى الفن يخفف من ضغوط الحياة، التي لولاها لكانت الحياة قسوةً وصراع إرادات عنيفة دون هدف. لذلك تساءلت؟ (ماذا لو كان هذا العالم من غير محمد ﷺ؟! ففي عصره ﷺ منذ 622 م كان الصراع على أشده على خريطة الأرض القديمة بين طغاة من الشرق، جروا كل شعوبه لخدمة امة اسمها

---

(1) Ibid. P 54.

"الفرس"، وطغاة من الغرب جروا كل شعوبه لخدمة مدينة اسمها "روما"، أما الهدف.... ما فيه سوى مكاسب ومناهب من هنا، ومكاسب ومناهب من هناك)[1].

كان هذا رغم كل الفنون المتقدمة عند الحضارتين، لكن بدون دين قويم (عالم غارق بطواعين ضلالاته الشرقية والرومية والعصبية العربية الجاهلية.... بدون أي مثل أعلى)[2].

إن الذوق الفني الذي يشارك الدين لا يعمل وحيداً لأن المثل الأعلى الفني جمالي يتعلق بالواقع، بينما المثل الأعلى الديني يتعلق بالمصير المتعالي على كل ما خبرناه واقعياً، إذا فقدته الإنسانية فقدت توجهها نحو المطلق الخالد، ليتوه الضمير بين مشاحنات المقبح والجميل فقط من الأفعال، بينما أساسه يرتكز على الحق والباطل المطلقين!!

لذلك لا يمكن للفن أن يبرز الألوهة، وان فعل بدا صنمياً سخيفاً، لكنه قادر على تحديها، "ففولتير" حين هزئ من الكتاب المقدس قائلاً (بما أنهم يقولون أن الله هو الذي كتب تاريخ ملوك اليهود.... يصبح الله مؤرخاً لهم وحدهم.... فلا يجب أن يبقى يهودي رث الثياب دون أن يكون بالمطلق متفوقاً على قيصر والاسكندر)[3].

فلا يستطيع احد منع الفن من تحدي الدين إذا كان الدين يدعي الألوهة وهو من كذب الأحبار، وتناقضاتهم حيث يأخذ الفن هذا التناقض ويبرزه بشكل كاريكاتوري مرسوم او مكتوب، يقول المعري:

إذا كشف الرهبان عن حالهم فكلهم يتوخى التبر والوَرِقا[4]

---

[1] واشنطن ايرفينغ، محمد ﷺ، ترجمة هاني يحيى نصري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت 1999م، ص 17.

[2] المرجع السابق، ص 16.

[3] Voltaire, Philosophical Dictionary, op. cit, P 236.

[4] اللزوميات، مرجع سابق، ج2، ص 197.

ويقارن "هيغل" بين (آلهة الإغريق والله حسب المفهوم المسيحي)[1] ليقرر أن (رسمه دائماً غير كامل كلما حاولوا إبرازه)[2]، لأن مفهوم الله غير حسي، وليس لاحسياً، فمكانه بكل عقل وكل مكان، بينما كل الفنون تعمل بين إطاري المكان والزمان، والشعر يسبح بالخيال بينهما، والرسم بالصور والألوان، وحتى العمارة لا تعكس سوى نظرة زمان محدد لمكان تستعمل فيه هذه النظرة بكل أبعادها الفلسفية، في إملاء المكان.

هكذا أوصلنا التمثل والحكم على الشعور بالجمال، الى فهم أفضل لخطر القبح على الوجود، وعلى الأنواع فيه، وهذا الفهم مجرد تفسير، وحكم من أحكام "الاستاطيقا"، ولأنه كذلك فهو تفلسف حول الجمال.

ففلسفة الجمال: إذا تختلف عن الشعور بالجمال وما يصاحبه من بهجة، لأنها عملية إيضاح له، ترتبط بالموقف الثقافي لمن يقوم بهذا الإيضاح، ولما كانت الفلسفة في إحدى أهم تعريفاتها سيراً في درب الحقيقة!! بشكل متصل، لا سيراً في دروب منعزلة عن الحقيقة، بل بدرب الحقيقة بذاتها، فإن مجرد أن نخطو الخطوة الأولى في هذا الدرب نجد فيه الكثير من الحقائق المبهجة الجميلة.

يقول كارل جاسبر (لقد عرفت الفلسفة بالماضي حسب موضوعها، فكانت تعنى بمعرفة الأشياء الإلهية والإنسانية، بمعرفة الوجود كما هو موجود، أو عرفت بأهداف كبحث يؤدي الى السعادة باستخدام الفكر...وهي بمعناها العام الواسع؛ المعرفة التي تحوي كل المعارف والفن الذي يحوي كل الفنون)[3].

لأن في درب الحقيقة كثيراً من الحقائق المبهجة الجميلة والفلسفة في إحدى تعريفاتها "الفن الذي يحوي كل الفنون"!! الفلسفة إذا تهتم بالجمال، بل إذا كانت تعبر عن انسجام فكري فهي جميلة بحد ذاتها، خذ كل المعارف الإنسانية تجد أن

---

(1) On Aesthetics, op. cit, P 78.

(2) Ibid.

(3) Karl Jaspers, Way to Wisdom, Yale University Press, N.Y. 1979, P 13.

فيها فكراً إضافة لما تعبر عنه، وتريد أن توصله للإنسان، بينما الفلسفة هي كلها فكر، يرتد على أي موضوع تدرسه، وهذا السير المقارب للحقيقة يعطي بهجة جميلة تشبه بهجة الفن لأنها تضع قارئها في درب الحقيقة، والحق جميل وخير أيضاً، فالفلسفة تضع الإنسان وجهاً لوجه أمام ثالوث "الحق والخير والجمال".

وبهذا الزاد الضخم من "الحق والخير والجمال" الذي يسيرهم بالفكر، تبحث الفلسفة "بالاستاطيقا"، وتبدأ من تناسقات الطبيعة التي لا يغرب عنها انعكاسها في تناسق الإنسان سواء الروحي التي عبر عنه "كانط" بالتسامي، أو الجسدي الخاضع لمعايير الجمال الحسي، أو النفسي الذي يسبب عدوى هذه الذات لذاك المذهب أو تلك الأفكار.

فكما أن نيتشه لم ير الجمال إلا بالروعة، وهيغل العقل بتجسدات الروح المختلفة، رأى تولستوي في أغاني الفلاحين ما يجذبه أكثر من كل ألحان بتهوفن، لأن هذا القروي الثري كان يعشق الجمال الساذج الطبيعي الذي لا تكلف فيه، لذلك يمكننا القول معه أن الناس اليوم لا تميل الى الشعر المقفى ميلها الى الزجل المرسل، لا لسبب سوى لكثرة قواعد الأول وضوابطه.

فأهم شرط من شروط الانجذاب الى الجمال بساطته، مع العلم بأن في كل تعقيد أبسط البساطات، فإذا حاولنا تقعيدها بقواعد أضعنا عنصر العفوية فيها، وصارت الأمور البسيطة غير قادرة على الاستحواذ وعدوى سامعها، فكبار شعراء العرب لم يكونوا يعرفون قواعد الخليل الفراهيدي ولا نحو "سيبويه"؟!

وهم حين عرفوهما غلبتهم الصنعة فصار شعرهم ثقيلاً على من يحاول أن يحمله أو يتأثر به، تماماً كما تغلبت العجمى على الشعر الحديث الذي يسمى مرسلاً، بتقليده فنون الآداب الغربية وقواعدها ونظرتها للحياة وفلسفاتها أيضاً.

لذلك قد تجد بعضاً من الشعر القديم المصاغ أحياناً بعامية على ألسن الناس بحكم القرية، ولا ترى أي شعر حديث متداول بينهم، فالذي يطغى هو الزجل الشعبي.

الجمال بالبساطة والبساطة قبل تداول تعقيداتها معدية الى أبعد الحدود، فهي جميلة، لذلك يتعلم الإنسان الفن من الطبيعة ويحاكيها فيضفي عليها جزءاً منه هو أي من جماله، والإنسان يجب أن ينظر إليه بهذا المعنى على أنه جزء من تجلي هذا الانسجام، ومن السخف النظر إليه على أنه نقيض للطبيعة.

لذلك يتعلم الإنسان كل فن من الطبيعة، وحين يحاكي الطبيعة ينتج فناً؛ خذ مثلاً ألحان الطيور المختلفة، هي أساساً لغات الطيور التي تختلف باختلاف ألحانها، والفنان الأول الذي وجد صعوبة الاتصال بين الألسن المختلفة لبني البشر، باختلاف الصوتيات بينهم، والذي كتب أول لحن، حكى وحاكى لغة مشتركة بين كل الناس، كتلك التي بين كل الطيور.

الموسيقى لغة عالمية، حتى بين الإنسان والحيوان فيها تأثير وتأثر، كذلك تحكيها اليوم وتكتبها كل الأمم؟! قاعدتها الأساسية السكون والحركة الصوتيان، وفي مدى الترفيع والتضخيم والحدة في أصواتها، تنتقل المشاعر بين كل الأحياء التي تسمعها.

الموسيقى بساطة وانسجام، وهي أحد أهم فنون نقل التعبير؟! يقول الفارابي: (وقد يظن بالترنمات أنها قد تفعل أيضاً في بعض الحيوان ، وذلك مثل ما يعرض للجمال العربية عند الحداء، فهذه هي الفطرة والغرائز التي أحدثت الألحان)[1].

الهدف من الألحان الاتصال بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والحيوان، الترغيب والترهيب، او حتى الاتصال مع الذات، وتقديم الانسجام لها بعد تعرضها لأي فوضى بالمشاعر؛ إن النغم بهذا المعنى الذاتي عبر اللحن، دعوة الى عودة الانسجام الذاتي الى الذات، قال الفارابي: (فان الترنمات مما تشغل – الإنسان – عن التعب في أوقات الأعمال فلا يحس بها)[2].

---

[1] أبي نصر الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس خشبة، دار الكتاب للطباعة والنشر، القاهرة، ص 70-71.

[2] المرجع السابق، ص 70.

ولأن الموسيقى دعوة الى التعبير عبر الانسجام الصوتي، فهي أسرع من أي عبارة لفظية في إيصال المعنى الى الذات، لذلك لجأ المتصوفة الى "السماع" حين أعياهم التعبير اللفظي وحتى الرمزي عن نقل المطلق الذي يشعرون به الى الآخرين، قال صاحب اللمع: (النغمة الطيبة روح من الله – تعالى – يروح بها قلوباً محترقة بنار الله)[1] وقال: (إن النبي ﷺ دخل بيت عائشة فوجد جارتين تغنيان وتضربان بالدف فلم ينههما عن ذلك.... ومثل بلال كان يرفع حنجرته إذا اشتد به الوعك)[2].

الموسيقى والنغم خطوة أولى ضرورية لجذب الناس نحو المطلق، ولكنها ناقصة بعين الفكر والتفلسف، لأنها تخل بالتوازن بين المشاعر والرغبات من جهة على حساب الفكر من جهة أخرى، وتطالب بتعطيل هذا الأخير.

وهذا المطلب التعطيلي للفكر الذي تقوم به الموسيقى، يخل بتوازن النفس الإنسانية، وبالتالي بجمالها، على حساب الجمال الفني – الموسيقي – ولذلك تتحول الموسيقى من الجمال الى القبح بعين الفكر إذا قبل بإقحامها في الدين!

هكذا يلحظ القارئ أنه لاستحسان الجمال صلة بالقناعات الفكرية، إذ منها يتدخل الفكر في الجمال، وتظهر الحاجة الى تفهم هذا الشعور المبهج لفلان والمقزز لآخر، أي يظهر علم الجمال "Aesthetics" أي الاستاطيقا، لا كعلم[*] بل كمعرفة، ترتكز على فكرٍ قواعده فلسفية وعلمية ودينية، من خلالها تتحدد وجهات النظر فيه وتختلف، لتصب كلها في إطار وعي واضح لمعنى الجمال، من خلال التجارب الإنسانية المختلفة.

والمحور الذي تدور عليه هذه التجارب الإنسانية المختلفة، لكي نعي الجمال بصورة أوضح هو "مثالي" بحت، بمعنى أننا نعشق صفات فكرية بحتة هي التي

---

[1] أبي نصر الطوسي، كتاب اللمع في التصوف، تحقيق رنولد نيكلسون، مطبعة بيرل في مدينة ليون، عام 1914، ص 269.

[2] المرجع السابق، 274– 275.

[*] بمعاني العلم التي حددناها، بل كمعرفة فقط.

تجذبنا الى هذا الجميل أو ذاك، أو يستحوذني هذا الجمال أو ذاك فأصاب بالعدوى منه، ولإيضاح هذا يقول "باسكال":

(إذا أحبني الناس من أجل قوتي.... فهل أحبوني أنا؟! لا لأني – سأفقدها.... كصفات قابلة للزوال، فنحن لا نحب أحداً البتة، وإنما نحب صفاتٍ لا غير.... فلا يهزأن احد بالذين يُكَرِّهون أنفسهم من أجل المناصب والمراتب، لأنه لا يُحَبُ أحد إلا من أجل صفات)[1].

فإذا أصبت بعدوى جمال ما، وأصابك "فيروس" "ايروس" استحواذاً، فعليك أن تعرف أنك لا تتجذب الى هذا الشيء او ذاك الشخص – المرأة مثلاً–، بل الى ما صنعته في فكرك من جماليات، لذلك يمكن القول: بذاتية "الاستاطيقا" ومثاليتها بكل معنى الكلمة، وهذا هو أساس لاموضوعية الفن. لكن هذه اللاموضوعية في الفن، لا تلقى قبول الآخرين إلا إذا صارت عمومية، أي أصابتهم بعدواها كما أصابت الفنان الذي صنعها.

لذلك قرر أفلاطون أن الحقيقة ليست بفكرة صائبة ولا برأي صحيح، ولا بعمل خير فردي، بل بصواب الفكر والرأي وصحتهما، وبالخير العام الذي تقره لكل الناس، فالخير الكلي حق كلي، وبالتالي جمال عالمي كلي.

الحق والخير والجمال بعموميتهم، لا بفرضية توجيههم، صوب حق جماعة او خير فرد او ذوق أمة، كيان واحد يبديه كل انسجام فكري.

ولذلك قال "هيغل": (إن موهبة الفنان وعبقريته، تتضمن عناصر وجودية – طبيعية – تحتاج بصورة رئيسية الى فكر متطور)[2]، لهذا يبدو كل إنتاج في أي مستوى من مستويات المعرفة الإنسانية، وخاصة في مستوى المعرفة الفنية، بكل فروعها، في بداياته غير واعد وعقيم، لما فيه من عنصر الفردية وعدم العمومية، ولذلك يظهر تطرفه وتعصبه.

---

(1) بليز باسكال، خواطر، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1972م، ص 110.

(2) on Aesthetics, op. cit, P32.

فالذي يبحث عن الإيمان بالدين، يبدأ بالتعصب لمذهب معين؛ والذي يبحث عن الشعور بالشعر يتحمس لقديم او معاصر... وهكذا كل بداية تحتاج الى تطوير، لتتحرر من الخصوصية نحو العمومية، ونحو انسجام أفضل مع كل معاني العمومية، لتبرز بمعنى كل مبدع خاص وفرادته، لكي تعبر عن تعدد احتمالية عظمة نوعه.

مرة ثانية نجد أن السير في درب الحقيقة يعطينا الكثير من الحقائقَ!! ومنها: أن إثارة الميتافيزياء في أي موضوع، بطرح أي مفهوم ميتافيزيائي يستدعي كل المفاهيم الميتافيزيائية حوله، وتلك خاصية هامة من خواص كل فكر مجرد، انك مثلاً عندما تحاول حل أي معضلة رياضية تستدعي كل معرفتك الرياضية لحلها، ولذلك تختلف طرق الحل بين الرياضيين وتتفق النتائج.

وهذا المنهج مع اختلاف طرق المعارف التي يسلك، يمكن من القول: إن استدعاء أي فكرة مجردة يستدعي حصر كل الفكر التجريدي للمستدعي ومعرفته، حول تلك الأفكار، في تلك الفكرة، والميتافيزياء كقمة من قمم الفكر التجريدي، لا يقوم أي مفهوم فيها بمعزل عن سياق كل مفاهيمها في الذهن، ومن كل الحضارات السابقة.

لذلك نجد أن طرح أي موضوع ميتافيزيائي، "كالجبر" يستدعي اولاً معاني "الحرية" وتلك تستدعي "الحق" و"الباطل" "الخلق" و"القدم""الوجود" و"العدم"، "الحياة"و "الموت"... الخ وهكذا.

والحضارة الأولى في فجر التاريخ الإنساني، أقصد الحضارة "الفرعونية"، وقد تركت لنا نتاجها، بصور وأشكال وعبارة، نظنها اليوم فناً! طالما نظرنا إليها والى الفن بمعيارنا المعاصر.

وإن لم نفعل نجد أن المصري القديم – الذي لا زلنا نرتبط مع فكره بالكثير من المفاهيم، وخاصة تلك التي تتعلق بالمصير، كخلود الروح فلسفياً ودينياً، وهيبة السلطة اجتماعياً، والعلوم علمياً – نجد ذاك المصري كان يسمي الكتابة "الهيروغليفية" بالصور المقدسة.

والكتابة "كمهنة" أكاديمية سرية، تؤهل من يتقنها لكي يكون "كاهناً". لا بمعنى رجل دين فقط كما هو اليوم، بل كطبيب وعالم هندسة وموسيقي وكيميائي وساحر.... وبكل العلوم لأن الطبيب والكاهن والساحر كان شخصاً واحداً.... رجال أقوياء يتودد إليهم الفرعون، وكان رئيس الكهنة (يترأس نوعاً مما يمكن أن نسميه "جامعة" فقد كان معبد "آمون" مأوى ومدرسة للفنون والموسيقى وكلية للهندسة، وكانت منطقة المعبد أكبر وأغنى من قصر الفرعون)[1]. وكان المتعبدون المصريون في ذلك المعبد وسواه من جامعات (لا يخونون او يفضون بأسرارهم لأحد من غير المريدين، وكل من يخالف هذه القوانين يعاقب بالموت)[2].

أن "أمنحتب" الذي كان أول مهندس وطبيب ومستشار للفرعون "زوسر" هو الذي اخترع "التقويم" مثلاً على ذلك[3].

وأداة نقل المعارف بين جيل وآخر من هؤلاء الصفوة من الناس المنتقين حسب قدراتهم، لامكانتهم الاجتماعية، كانت الصور. (ففي حوالي قبل خمسة آلاف سنة حين بدأت الهيروغليفية تظهر كانت الصور فيها تدل على الكلمات، فصورة سجادة كانت تعني السجادة، وتقرأ سجادة[4]. كذلك كان رقم (1) يرمز إليه (1) كما نكتبه اليوم، فإذا أضيف له ما يشبه العلم في رأسه "P" او بجانبه "1 P" صار يعني الواحد غير المعلوم أي "الله". والهيروغليفية ككتابة بالصور يمكن أن تقرأ حسب اتجاه وجه الصورة من اليمين الى اليسار والعكس.

فالجملة السابقة يمكن قراءتها: "الله الذي هو الشيء غير المعلوم" موجودة في كتاب الأموات[5]، وقد كان الفراعنة يلفظون كلمة الله: نتر "Neter"، وعلى متون التوابيت الحجرية في أهرام "Pepi" ببيي هناك تمييز في الهيروغليفية القديمة

---

(1) فيليب فاندنبرغ، لغة الفراعنة، دار ابن زيدون، بيروت 1984م، ص 126.

(2) المرجع السابق، ص 276.

(3) المرجع السابق، ص 51.

(4) Norma Katon, Hieroglyphs, The Writing of Ancient Egypt, the British Museum 1987.

(5) E.R wallis Budge, the Book of the Dead, Dover Publications, ine, N.Y. XXXV.

– قبل المكتوبة على الورق البردى – بين "نتر" الله وبين نترو "Neteru" الآلهة. حيث توضع عبارة "نترو" أي الآلهة بثلاثة نترو. أي ما يشبه ثلاثة أعلام "PPP" حين أصبحت الآلهة تشخص بأسرة الفرعون[1].

من كل هذا نجد أن أقدم حضارة بشرية لم تعرف الفن للجمال، بل عرفته للتعبير، فكلما كانت الصور "الصور المقدسة" الهيروغليفية أتقن كانت أوضح دلالة، وأكثر قدسية لأنها أوضح، وبالتالي أجمل، بمعنى أقدر على نقل خبرات من ماتوا من الكهنة، وهنا أساس قداستها.

ومن خلال هذا التقديس تسرب الفن الى الدين، من خلال هذه الفانسي "Fancy" او "الفانتازيا" التي تعني إثارة قوة الخيال إذا غابت المحسوسات عن العقل، ينحرف الفن عن غايته في تحصيل الجمال، الى الضغط على المشاعر كي تقبل الإيمان.

وبهذا يَمرُ الإيمان الى الذات من خلف العقل، الذي يهاجمه رجال اللاهوت لأنهم يريدون إثارة قوة الخيال لا ريبية العقل، على ظن أن هذه الريبية لا يقين بعدها.

إن أحداً لا يشك من أجل الشك تماماً كما لا يقتل أحد من أجل الجريمة، فالريبية – لا كمذهب فلسفي – بل هي في كل تفلسف، تعدل "Mitigate" من سذاجات اليقين بكل ما يعرض، وهدف هذا التعديل في الريبية المعتدلة "Mitigated Scepticism" هو طبعاً الوصول الى أقرب مسافة من الحقيقة واليقين.

بهذا المعنى فقط نفهم وظيفة الشك العقلية من اجل الوصول الى اليقين، بمعنى الاقتراب منه، وبهذا يمكننا أن نفهم الإيمان كنقيض للشك، فخوف اللاهوتيين من العقل ولجوؤهم الى "الفانتازيا" الفنية في الدين يعمل ضدهم لا معهم، لأن المشاعر ذات صفة أساسية هي: التحول والتقلب فلا يمكن جعلها ركيزة الإيمان.

---

(1) Ibid, P IXXXIX.

فالذي يؤمن من خلال الفن يشرك من خلاله الفن بالدين بالوقت ذاته، لكن الذي يؤمن من خلال العقل، من الصعب جداً كفره بهما معاً، أما الشرك فبالعقل محال.

إن الفكر الإنساني بإمكانه أن يعكس الوجود الى حد ما، والفن بكل صوره يمكنه أن يعكس الفكر الإنساني بخطئه وصوابه، ولكن عكس الفكر الكلي بفكرنا، والجمال الكلي بإحساسنا بالجمال يشبه عكس "النملة" لصورة وضخامة "الفيل" او الجبل.

النحات مثلاً: (يرى كل شيء على شكل شكل،.... وكل ما يحرك مشاعره يعبر عنه بشكل)[1]. فهو حين يرى المطلق بشكل، هل يعني هذا أن المطلق شكل؟!

إن "هيغل" حين قدر أن الفن هو محاكاة للطبيعة، قد قدر حقيقة من حقائق كل عمل فني، لكنه حين سمح لهذا المحاكاة أن ترسم المطلق تجاوز حقائق كل الحضارات السابقة، في إعلان عجزها عن هذه المحاكاة، كما تجاوز حدود الفكر في استحالة تلك المحاكاة، إلا إذا جعل من الفكر الإنساني صورة مطابقة للفكر الكلي لله، وفي هذا كل الادعاء والغرور؟! في توجيه "هيغل" للفكر نحو التأله.

وبعبارة أخرى: إن التوازن بين المشاعر والرغبات من جهة وبين الفكر، في أي عمل هو أساس كل جمال فيه، ولما كان إحلال المطلق داخل هذا التوازن محالاً، فإنه قبيح أيضاً.

والمجاز التخيلي في الفن قد يخل بهذا التوازن، ويسوقه من يعرض عليه الى مثل هذا الخلل، لكنه يبرر ذلك بشروط الوهم الجميل، حيث يحق مثلاً لمن يقع في عالم الأحلام رؤية أجمل الأوهام، او أقساها، وكلاهما جميل، لكنه غير حقيقي.

لهذا عجز الفن المسيحي عن رسم الله، وعبر عنه دائماً بصورة ناقصة، وهو عمل لم تجرؤ أي حضارة سابقة الإقدام عليه؟! يقول "هيغل": (لنقارن بين

---

(1) On Aesthetics, op. cit, P 46.

الآلهة الإغريقية والإله المسيحي كما شخص وفهم الفكر المسيحي، نجد أن الآلهة الإغريقية مشخصة غير مجردة.... بينما الله المسيحي.... الذي لا يعرف إلا بالعقل.... لم يعبر عنه إلا بصورة غير تامة)[1].

هذا الكيان الكلي الروحي حين أعطي صيغة شكل حسي، عكس مفهوم كليته بخصوصية كل فنان رسمه، فباتت كل تلك الخصوصيات عاجزة عن الإحاطة بكل هذه الكلية.

إن الرسم المصري القديم، حين حمل "بالصور المقدسة" الجمال، لم يقصده، ولم يرسم من الآلهة إلا ما آمن وأيقن بوجودها كتجليات واضحة "آمون" لنتر.

فهو لم يرسم "نتر" بل رمز له "P" بعلم، أي بدلالة، ولم يقصد الجمال، حين رسم "آمون" في كل فراعنته وكل قوى الطبيعة تقريباً، من منطلق ثلاثيها الواضع له الشمس والنيل وعالم الأموات بينما الرسم مع الحضارات المسيحية قصد الجمال، فسمح لنفسه من خلال فسحة الخيال، وفسحة قدرته على الوقوف بين الوحدة والتنوع بصناعة فن يهدف الى الجمال، ولا يريد أن يحاسب إلا بمعيار المشاعر، وحدها.

وبذلك أصبحت صلة الفن مع الفكر سلبية، فكان لا بد من أن تستقل المعرفة الفنية بمستوى معرفي خاص بها، ووضع حدود لمدى تداخلها مع باقي المستويات المعرفية الأخرى، حتى لا يصاب الفن بالقبح حين مثل هذا التداخل مهما بدا جميلاً.

وبمعرفة ذلك فقط، يتوقف الفن عن تخطي حدوده، ويبقى الفن في مستواه المعرفي الخاص.

الجمال هو الأساس في مستوى المعرفة الفنية، والفكر مكانه من هذا المستوى في مدى النظر إليه، والهروب من تهمة تشخيصه بالخيال حيث يقل الفكر الى أدنى مستوياته.

---

(1) Ibid, P 78.

أخيراً يمكننا أن نؤكد: أن موضوع الفن وهدفه عند كل فنان هو المشاعر الإنسانية، ولأنه كذلك، عليه أن لا يصدم الفكر بأي تعارض حاد معه وإلا مجته النفس، مهما بهرت به لأول لحظة، وأكثر من ذلك يجب على العمل الفني أن يكون تعبيراً وتبياناً له، لذلك يمكننا القول: إن الشاعر مثلاً الذي لا يتبنى موقفاً فلسفياً من الوجود لا يمكنه أن يرقى بشعره من حدود النظم الى القصيدة(*).

الملاحم الإغريقية مثلاً تبنت الفكر "الديونوسي"، فجاءت مؤثرة بالشعب اليوناني، وبكل من يعجب بهذا الفكر، كما سبق وأظهرنا ذلك مع "نيتشه"، لذلك ظلت الملحمة حكراً على القصيدة "التراجيدية" الإغريقية. ولم ينجح تقليدها عند أي شعب آخر، فافتقار الشعر العربي للملحمة ليس نقصاً فيه، بل يعود الى مفهوم الكمال الإنساني الفكري عند العرب في جاهليتهم بالاباء، ويعد عصر التدوين، بتوجيه الاباء نحو الجهاد، ثم بدفع هذا الأخير نحو النفس في مجاهدتها الصوفية، لذلك جاء الشعر العربي الصوفي، أكثر عالمية من الملحمة الإغريقية، ويكفي أن نذكر في هذا السياق "عمر الخيام" في عالمية شعره اليوم، وكذلك "جلال الدين الرومي"، وسواهم ممن يقرأ شعرهم اليوم بكل لغات الأرض.

وما سقوط شعر عصر النهضة العربية او ما يسمى كذلك اليوم باتباعيته او تجريده، سوى بسبب خلوه من فلسفة فكرية واضحة، او وقوعه في دوغمائية الالتزام.

الفن لا يستطيع أن يتجنب الفكر إذا، ثم الم نقل إن في مستوى المعرفة الفنية فكراً، إذا تجاهلته تلك المعرفة حولت دهشة جمالها مهما كان صاعقاً آخذاً الى قبح.

وعنصر الفكر في الفن هذا، هو عنصر ارتداد الفكر على المشاعر والرغبات، التي يبرزها الفن كي تكون منسجمة مع فلسفة كل امة في الحياة ليبرزها ذوق جمالي، دون أن يتداخل معها فيدعي أنه هو صانعها.

(*) وهذا يعني التفلسف ولا يعني الالتزام.

على الفنان أن يكون المعبر عن ضمير أمته، عن فكر أمته، لا الصانع لهذا الفكر وذاك الضمير، أو العميل الذي يفرضه.

لكن عالمية اليوم تدفع حتى بالعبارة التي هي نوع من النحت المعبر عن عقائد الشعوب والأمم، ووسيلة من سائل تعبيرها، تدفع فن العمارة الى مساجدنا اليوم نحو فوضى الاختلاط التي لم يعد لها نمط عماري عقائدي ظاهر، فاختلطت القبب الفاطمية بالعثمانية، والردهات الأموية داخل المساجد، بالمزارات الشيعية، وحتى القباب والنوافذ تزين اليوم بزينة "غوطية" كنسية قرن وسطية.

ودلالة ذلك أن المعماري العربي اليوم الذي لم يعد مرتبطاً بفكر محدد من تراثه، ويعبر عن تداخل هذا التراث، لجهله به، وهذا ليس دلالة على انفتاح مذهبي بين الفرق الإسلامية، بل دلالة على اختلاط الفقه، رغم بقاء كل صيغ التعصب.

اختلط "الفقه" وبقيت كل صيغ العصبية القبلية والتعصب، التي تبرز في فن العمارة العربي المعاصر، بسبب تكاتف الأدب العربي – وهو الفن – مع باقي الفنون العربية من غناء وشعر على إثارة المشاعر، وإقالة الفكر اليوم، حتى أنك لا تجرؤ اليوم أن تلقي أي محاضرة عامة، دون أن يعاملك الحضور على أساس أنك أديب.

لذلك ظلت الفلسفة هامشية في الفكر العربي المعاصر، فخلت الساحة لإثارة المشاعر فقط، ألم يقل "هيغل": "أن إثارة الشعور بدون فكر بهدف تحريك القلب بالفن يؤدي الى ترك الرأس فارغاً".

والرؤوس الفارغة تبحث عن الإيمان بالتعصب، فتقبل من الأصالة كل ما لا يتداخل مباشرة او لا يمس عصبيتها وتعصبها، ولهذا السبب تبدو العمارة العربية المعاصرة، خليطاً من المزارات والكنائس والردهات حتى في بناء المساجد.

العمل الفني يجب إذا أن يكون تعبيراً من تعابير الفكر بلغة المشاعر، وهو حين يفتقر الى عنصر الفكر يصبح تعبيراً عن مشاعر فوضوية، تلك هي حال

العمارة العربية المعاصرة، والرسم العربي المعاصر، وتلك أخيراً هي حال كل شعر الحداثة، وأدب "الترجمة" المشوه النقل والتعبير، أدب الحداثة والتجريد.

هكذا يعطينا الجمال معياراً نستطيع أن نحكم به على حال الحضارات الإنسانية، في مدى صلتها الفكرية بالمطلق – الله – وإبراز تلك الصلة بفنونها المختلفة، ومن خلال هذا الإبراز يمكننا أن نضع معيارنا ونرصد مؤشراته، التي تدلنا على مدى تراجع حضارة ما من تقدمها.

معيار الجمال هدف الفن:

لما كانت "الاستاطيقا" تُمثل تَمثل إدراك الشعور الحسي المبهج للرغبات والمشاعر الإنسانية، ثم الحكم الفكري على هذا الشعور الحسي بأنه جميل أو قبيح؛ "فالاستاطيقا" تقدم لكل "النفس الإنسانية" ككل، موضوعات حسية منسجمة بصوت او صورة او خيال ذوقي.... الخ واضعة هذه الموضوعات أمام النفس والذات الإنسانية ككل، لتتأمل بها.

الجمال إذاً دعوة للتأمل في المعطيات الفنية، سواء تلك التي صنعها الله بالطبيعة ومن جملتها الإنسان، او تلك التي حاكى الإنسان فيها صنعة ربه، ولا يخرج بذلك عن صنعة الصانع الكلي.

هذه الدعوة الى التأمل إزاء كل شيء جميل، دعوة لإبهاج النفس كي تستعمل هذه الجميل وترعاه، ومن أجل هدف محدد وضعه الصانع الأول – الله – في صلب كل جميل من أجل التحسين.

وكأن الجمال يقول لمن يتأمله إنه ظاهر لكل حق وخير فإذا طلبته طلبتهما، حتى ولو كان هناك فخٌ للطالب، لأنه ليس من المحتم أن يكون الجميل خيراً، ولكن كل خير حتماً جميل، وكذلك كل حق جميل، ولكون بعض الجميل خيراً تدفع الطبيعة الفرد الى كل التضحيات من أجل هذه البعضية، فبعد كل شيء ليس للفرد البشري إلا إمكان تحقق واحد من تحققات العقل الكلي، وهو رغم عظمة فرادته،

في نوعه منه الكثير، لذلك يحرق الجمال بجاذبيته الكثر من الفراشات حول نوره، بكل طيب خاطر للحارق والمحروق.

فكون الجمال يستأهل كل التضحيات لا يعني أقل من كونه أكبر الأخطار التي تصادف الأفراد.

والفكر حين يتأمل ما دهشت به مشاعره ورغباته من جمال، في أي نتاج صنعة بشرية او إلهية، يريد أن يتحرى مدى صدق الحق والخير خلف المبهج الجميل، فإذا ركن الى احتمال وجودهما، طلب الجمال وسعى خلفه مهما كلفه ذلك من تضحيات.

لماذا؟

ببساطة لأجل ما في كل جمال من وعد بالتحسين، ومدى صدق هذا الوعد يظهر بقناعة الفكر، بعد أن يخلب الجمال المشاعر والرغبات.

إن جمال الكون والطبيعة يدفعانا الى رؤية الحق وراءهما، فرغم كل عناصر الخطر الكامنة بهما، من أصغر "وردة" لما قد يكون بها من عناصر تحسسية او سمية قاتلة، لأوسع فضاء يدعو رواده الى الأشعة الكونية، والموت مع اللانهاية، أقول: رغم كل عناصر الخطر في جمال الكون، فبه الدعوة مفتوحة لنا لتحسين معارفنا عنه وفيه.

بينما الجمال الذي ينتجه الإنسان ليحاكي به الطبيعة مشروط بتحسين منظوره هو للأشياء التي يحاكيها، فصورة الوردة ليس فيها عنصر الخطر الموجودة في الوردة الطبيعية، فيها فقط رؤية الفنان لمعنى الوردة الذي ينقله إلينا، فنقبله او نرفضه، أي نضعه على محك الفكر، وبذلك يخصب فكرنا بمعنى ذاتي كان عند الفنان حول الوردة وانتقل ألينا بعدوى أصابتنا. فالعدوى عنصر التحسين في الجمال الذي ينتجه الإنسان لتحسين مواقعه هو في الطبيعة، وآرائه ومعتقداته فيها، بينما عنصر التحسين في الجمال الطبيعي يهدف كل كائن، فهو عنصر ديناميكي شمولي، يطال كل الوجود، حتى ولو كان خطراً على النوع الإنساني.

حتى هذا الوعي الذي تفتح بالسلالات البشرية، ما كان ليحصل لولا دعوة التحسين في الموضوعات الجميلة، داخل السلالات والمعروضة عليها، فجمال الرجل بعين المرأة والعكس، في كل سلالة بشرية دعوة للتحسين من خلال النسل الأفضل، وحين انتقل من الشكل الظاهر، الذي لا زال الحيوان يسعى له، الى جمال الخصال والفكر المطلوبة لدى كل شركاء الحياة، برز الوعي وراح يزيد.

لذلك يمكننا أن نعمم فنقول: إن ارتباط التأمل كدعوة يفتحها جمال الأشياء، بالأمل هو هدف كل جميل.

إننا حين نتأمل الأشياء Meditation نتخاطر مع العقل المنطوي فيها، ولا يلفت نظرنا ويجذبنا الى هذا التأمل، إلا الجمال الذي تبديه، فحجر عادي أمامك لا يلفت انتباهك لالتقاطه، كما يلفت انتباهك حجر فيه فلذات براقة، فإذا التقط الثاني عليك أن تقرأ الأول؟! أقول تقرأ الأول بمعنى أن "الجيولوجيا" ما هي إلا العلم الناتج عن قراءة ما تقوله لنا الأحجار.

إذا هي ارتدت الى الذات، صارت استبطاناً "Introspection" وإذا ارتفعت نحو المطلق صارت "Contemplation". ولا شيء شد المتصوفة نحو تأمل الإطلاق، أكثر من عنصر جماله المتبدي في كل الكون وفي كل شيء.

الجمال محرض لكل تأمل، والتأمل!!

يدفع نحو الأمل؟

وفي كل أمل عنصر تحسين!!

هكذا نستطيع أن نعي الجمال كصيغة مجردة بها دعوة مطلقة لكشف حجب الزمان والمكان، والامتداد بهما معاً نحو الأفضل، نحو الأخير نحو الأصح، نحو الأحسن، نحو الحق.

للجمال إذا صلة قوية بالأمل،

وفي حدود الأفق الأخير لكل الآمال، هناك يتحدد مصير الإنسان.

إن انجذابنا نحو الجمال، وهو الخطوة الأولى نحو مصيرنا، فدعوته للتأمل تهدف الأمل. ذاك هو معيار كل جمال.

موجز القول في الفن:

لنجمع أفكارنا حول ماهية الفن، وما هي صلته بالجمال لنقول:

- أن الانسجام في طرح أي حقيقة، او كشف أي واقعة "Fact" جميل، سواء ظهر هذا الانسجام بضمير الغائب الذي يفتح احتمالات تأويل كثيرة لأي نص أدبي، او الأروع هو حين يفتح ضمير الغائب احتمالات تأويل لانهائية لا يمكنك أن تجدها سوى بالنص القرآني الكريم، وهذه صورة من صور الانسجام الديني الذي يتميز به الإسلام، وأساس إعجازه اللغوي لا الفني كما يفهم خطأً.

لنعمم فنقول: كل انسجام جميل في الدين او في العلم او في الفلسفة، وجمال الانسجام لا يظهر أكثر مما يظهر إلا بالفن، حيث تناسب الأجزاء بالعمل الفني سواء كان موسيقى نحتاً او أدباً او رسماً او عمارة.... الخ.

- على أن لا يغيب عنا في كل ما ذكرناه من مستويات في الفن او باقي مستويات المعرفة، أن للجمال مظهراً ومخبراً، ميز "كانط" جمال المخبر بالتسامي وهو ما يمكننا أن نسميه جمال حواسنا الداخلية.

- أما – الفلسفات – التي تناولت معنى الجمال وماهيته "Quiddity" او ما يسمى بالمعرفة الاستاطيقية "Aesthetics"، فيُخضِعُ كل من هذه الفلسفات الجَمالية لمعيار مدرسته في الحكم على كل الأمور – كل على حدة –، فمعيار "نيتشه" في الجمال مثلاً هو الروعة فقط، كي تتلاءم مع إرادة القوة في كل فلسفته، ومعيار الماركسية الالتزام بآرائها الشيوعية، أي ما هو مريح لنشر الاشتراكية.

أما المعيار الطبيعي البيولوجي للجمال، فهو تحسين النسل وزيادة الخصوبة، حيث أضافت الطبيعة للجمال الذكري عند الحيوان ما يشير الى قوة الخصوبة لديه، إما بالحجم او باللون او بباقي مسارات وتمويهات البقاء، والتقطت أنثى الإنسان هذا

المعيار بغريزتها وأضافته لإيماءات الخصوبة لديها بالزينة، بينما استخدم الذكر البشري الزينة لإبراز الفحولة أيضاً(*)، كل حسب توجهاته، فاستعار من الحيوان رياشه: المرأة للإغواء والذكر للإرهاب، ومن الطبيعة معادنها النفيسة للمرأة والصلبة للذكر.

– و"هيغل" حين أدخل في الاستاطيقا المفاهيم العقلية التي تحدد عقلانية مذهبه لم يكن بعيداً عما قلناه، فعلى العقل أن يوجه الإحساس بالجمال لا العكس، إذ لا يريد "هيغل" من مسبقات البرمجة فينا أن توجه عقولنا التي تبرمجها فلسفاتنا وحضاراتنا وعلومنا، لذلك جاءت عقلانيته متغطرسة مدعية سير الإنسانية نحو التأله، فدفعت ما بعده من الفلاسفة الى التمرد عليها كل حسب منطلقه، لكن أكثرها معارضة له كانت مع لامعقوليات الوجودية التي فتح "نيتشه" طريقها.

فالبنيويات بإلحاحها على كشف المسكوتات عنها في كل ثقافة وأي عمل فردي، فككت الجمال كما فككت النصوص الفكرية والأدبية "Deconstruct"، فانعكس هذا على الفن بصورة عامة، وعلى الرسم حيث ظهر الفن التجريدي الذي ألغى الخطوط من اللوحات الزيتية الفحمية والرسمية، فصارت اللوحات بحاجة الى إعادة بنائها "Construct" من المشاهد بدل تفكيكها منه.

– هذه القدرة على تلقي انطباعات المشاعر التي يبرزها الفن للمشاهد دفعت نحو تعريف الفن بأنه وسيلة معرفة معدية أقوى من اللغة، فالجمال بهذا المعنى "فيروس" وحيد لا يتجنب الإنسان عدواه، والأكثر تعرضاً له هم الشباب حيث "الرأس فارغ والقلب مشغوف".

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نحكم على مدى ميل شعب ما الى الفن وآخر للعلم والفلسفة، وآخر للدين!! في مدى المناعة التي عند أفراده من جهة، وكثرة المراهقة الفكرية عند بالغيه من جهة أخرى.

(*) تسمى بالعربية "رياشا"، وبهذه العبارة دلالة من زينة الطيور.

فإذا استغل الدين الفن فهذا دليل على ضعفه، أما الضلال في هذا الأمر ففي تضليل المؤمنين حين يثير الفن مشاعرهم، فيظنون أن هذا نوع من "Ecstasy" أي التوحد مع الجميل بذاته – الله – (انه نوع من السياق النفسي)[1] يثيره الفن (لذلك يجب عدم إعطائه أي هوية دينية)[2].

ذلك أن التصعيد "Sublimation" بمعنى أن يرفع المرء ميوله من أدنى الى أعلى، لا يعني الخروج من الذات البشرية نحو الالوهه والسعادة اللاواعية بالألوهه "Ecstasy" كما ظن هيغل، بل يعني مجرد عدوى فنية أصابت او حركت المشاعر نحو هذا الاتجاه، فإذا أقنعك رجال الدين بعكس ذلك فهم يضللونك.

وعلى أساس هذا الضلال – الفني – بنيت الأديان الوثنية والصنمية التوحيدية أيضاً، التي تستعمل الأيقونات والغناء والفن بكل أوجهه في خدمة توجهاتها.

– وكما يمكن للفن أن يستخدم كأداة تضليل دينية – وكرد فعل من الفنانين على هذا – يستخدمه بعضهم ضد الدين، مثل: "المعري" في التراث العربي و"فولتير" في الغرب، وما بينهما من الأدباء الملاحدة[3]، والرسامين الذين يشوهون صور الأنبياء – كاريكاتير –، من منطلق أن الكاريكاتير "Caricature" عمل تفكيكي لأي شكل او نص فني ليضخم ما فيه من متناقضات، وهذا التضخيم غير المؤذي إلا لمن يقع عليه، مضحك لأنه تشويه لا أذية فيه غير السخرية من مضمرات النص المسكوت عنها، او الشكل الذي تخفيه – تسكته – الزينة.

فلماذا هناك مسكوتات ومعلنات في صلب الطبيعة الإنسانية والتي عبرت عن ذلك في الأدب بالمجاز، وبالكفايات الشعرية، وبدوافع كل عمل قصصي ومسرحي، وبلا شعور – حواس النفس الداخلية المكبوتة – كما في علم النفس،

---

(1) Evelyn Underhill, Mysticism, New American Library 1974, P 81.

(2) Ibid.

(3) انظر كتابنا، نقض الإلحاد، مجد، بيروت 2000م.

أهي أداوت الفن في تلاعبه بالتوجهات الإنسانية لأغراض إيديولوجية او سياسية معينة؟!

فإذا كان الجواب يرتبط بالأخلاق التي تريد المحافظة على القيم التي نشأ عليها الإنسان، او بتصنيع قيم جديدة له، فالمسألة في أساسها إذا ليست مسالة فن بمعزل عن الأخلاق، ولا علم بمعزل عن الأخلاق ولا دين بمعزل عن الأخلاق، ولا أخلاق بمعزل عن الضمير.

هذا هو المعيار الأخلاقي الذي ضمناه بطرح الصلة بين الفهم والفلسفة، بمعزل عن كل دوغمائيات تتلعب بالعقل الإنساني لغسل العقول، دون أن يكون هذا الأمر مضمراً او مسكوتاً عنه في هذا الكتاب الذي يهدف أول ما يهدف الى إخراج القارئ من قيود الأقفال التي توضع على فكره.

وأخطرها في تراثنا العربي عبارة: بلا فلسفة؟! فهي أساس ما تبعها من اقصاءات لشبابنا عن العلم وعن الفن وحتى عن الدين من خلال تمويه توجهاته الأخلاقية أيضاً، ففي صلب تخلفنا الحضاري هذه الشراسة تارة والكاريكاتورية تارة أخرى، والتكفير ثالثه ضد أم العلوم والمعارف: الفلسفة.

فبئس أمة تتجنب التوجيه الصارخ لربها تعالى حين أنعم عليها بالكتاب والحكمة بقوله ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 231] تتجنب كل عظمة هذا التوجيه الذي يتبعه ﴿خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة 269] بسخف ولغط عبارة مثل: "بلا فلسفة" أو"من تمنطق فقد تزندق" او سواها من لحن القول، لتسد به عقول ناشئتها بهذه الدوغما العصبية او تلك؟!

الخاتمة

قلت في بداية هذا العمل أنه محاولة لجر العقل الإسلامي من الماضي – القريب نسبياً – الى الحاضر، تأكيداً لعبارة: "إن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان"، وهذا لا يعني أنه يفسر كل زمان ومكان لأنه متروك لاجتهادات الفكر.

فلكي نفهم أن الإسلام ليس "إيديولوجيا" يجب أن نحيط بالفلسفة، لان من معظم اتجاهاتها الكبرى تتشكل الإيديولوجيات، فبإشاحتنا عن سقط القول: "بلا فلسفة" الذي ظن مبدعه أنه أصاب كبد الحقيقة بين العوام، و "من تمنطق فتزندق" بين الخواص، يمكننا أن نعيد الى هذا المستوى المعرفي القائم على العقل بذاته، صفة تقدم العقل العربي الإسلامي في تمييزه الدقيق بين الإيديولوجيات الفلسفية والدينية، وبين الدين والفلسفة الخاليان من أي غرض سوى البحث عن اللامنظور في الأول، وعن الحقيقة الموضوعية في الثاني. ولأن هاتان الصفتان تنطبقان على الإسلام كما بدأ بكل عقل ونقل فيه، وجدنا في الإسلام كما بدأ الدين والمعارف الخالصة، من كل الإيديولوجيات التي تسربت إليه بالفرق والمذاهب بعد ذلك.

في الإسلام فلسفة بلا ايديولوجيا، وطريقة عيش بلا تعصب، ودين بلا تطرف، وفن بلا تشخيص، وعلم تسيره الأخلاق الدينية، فالإسلام ليس ايديولوجيا[*]، لأنه متجذر بكل مستويات المعرفة الإنسانية، من دين وفن وعلم وفلسفة، فلا يمكن اقتلاعه بسهولة اقتلاع الإيديولوجيات، كما اقتلعت النازية والفاشية والشيوعية.

يقول "بوبر": (ما الذي حدث عندما نزل النبي موسى من جبل سيناء.... اكتشف بدعة العجل الذهبي.... وصرخ لتأتي إليه رعية الرب.... كل واحد يقلد

(*) انظر كتابنا تحت هذا العنوان: الإسلام ليس ايديولوجيا، دار الفكر عام 2010 م.

سيفه.... وهكذا في هذا اليوم سقط ثلاثة آلاف رجل، - و - بعد إقامة المسيحية بوصفها ديانة الدولة - ظهر - التاريخ المرعب للاضطهاد الديني.... و.... هناك أسباب إيديولوجية تداعت الواحدة بعد الأخرى لتسويغ الاضطهاد والوحشية والرعب وخاصة: الوطنية والعرقية والطبقية)[1]، أي مثل النازية والفاشية والشيوعية على غرار محاكم التفتيش، وكلها ايديولوجيات تشبه ايديولوجياتنا من خلال ما يسمى بالطغيان الشرقي حيث قامت على الفتاوى السلطانية بتكفير خصوم هذا السلطان ضد ذاك، في الإسلام الذي تنكر - بالفرق العشائرية - لما بدأ من دين لا ايديولوجيات فيه.

وهنا تكمن قوة هذا الدين قبل تفرقه وبعد هذا التفرق أيضاً تجاه خصومه الذين إذا تصدوا لأحد اتجاهاته الفرقية الايديولوجية، لا يستطيعون ضد كل فرقة، فإذا هم هاجموا الفقه الإسلامي عند هذا المذهب او ذاك، لا يستطيعون مهاجمة المنطق الإسلامي في الوجود والتواجد لله، وان هم هاجموا هذا الاتجاه الفلسفي "المشرقي" الإسلامي لا يستطيعون التنكر لكل الفلسفة المغاربية الإسلامية، وكذلك مع الفن والعلوم.

لذلك لا بد من الفلسفة الإسلامية كلها إن لم يكن لخدمة كل جوانب الحضارة، فلفهم موقعنا منها على الأقل، يقول "جاسبر": (إن الفلسفة تتضمن عنصراً يتم فيه التوصل الى الدقة وتحصيل المعارف، وتحقيق التقدم على غرار العلوم الجزئية، ويتمثل هذا بوجه خاص في مجال المنطق.... كما يتمثل في العلوم التي تحدد موقف البحث وشروطه)[2].

وأكثر من ذلك لا بد من الفلسفة حتى يفهم خصومنا استحالة عبثهم بحضارتنا، لكي لا يكرر أمثال "بوش" والخائفين من الخائنين عندنا الظن بان

---

[1] كارل بوبر، درس القرن العشرين، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر عام 2008م، ص 112-113.

[2] كارل جاسبر، تاريخ الفلسفة، التنوير للطباعة والنشر التوزيع، بيروت عام 2007م، ص 48.

الإسلام ايديولوجيا يمكن إسقاطها، كما سقط الاتحاد السوفياتي!! ولا ينجر الى هذا المطب أمثال "اوباما" من المرتدين؟!

بالفلسفة نستطيع إيضاح مثل هذه الأمور لتجنب مزيداً من سفك دماء غير مجد، وبلا فلسفة ستظل هذه الحماقات تتكرر بلا جدوى، فالفلسفة لا توجه "الأبستيمولوجيا" التي توجه المنطق والمقولات "القطاغوريا" للعلمية وللمعارف الإنسانية فقط، إنها أيضاً تحمي من الحمق والغرور والجهل والبارانويا السياسية التي تؤدي الى إراقة الدماء دون جدوى أيضاً.

فمنذ "Protreptikos" بروتربتيقوس" أرسطو أي: "الحث على دراسة الفلسفة" في "335" قبل الميلاد، حيث أملى هذا الكتاب على طلابه في "الليسيه Lyceum"[*] – في – مكان إقامته، وحيث قال: (إن ملكة العقل هي آخر ما ينشأ من ملكات – منذ الطفولة حتى الرجولة – و – هي بطبيعتها آخر ما يتكون عند الإنسان، ولهذا كانت هي الخير الوحيد الذي تطمح إليه الشيخوخة، فإذا سلمنا بهذا كله تبين لنا أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا، وأن استخدامها– منهجياً بالفلسفة – هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا..... إننا نعيش لكي نفكر..... ولكي نتعلم)[1]، وحتى "كارل بوبر" الذي حارب الايديولوجيات النازية والشيوعية الى يوم وفاته 1994م[2]، وهو القائل: (إن المنهج الذي يفسر كل شيء يمكن أن يحدث، هو منهج لا يفسر شيئاً)،[3] في نقده للايديولوجيات اليسارية، ليؤكد أن مهمة العلم كما في مهمة كل معرفة أي الترجيحية المعرفية الفلسفية كغاية قصوى لكل يقين تقدمه الفلسفة لكل المعارف، والترجيحية "Plausibility" المعرفية هي أساس كل تواضع علمي وفلسفي في ما يسمى باليقين، كأمر لا يمكن تعلمه من أي "دوغما" ايديولوجية، لأنه

(*) اسم المكان الذي كان يسكنه ويدرس فيه أرسطو، ثم صار يعني الجامعات والمدارس العليا.

(1) أرسطو، البحث على الفلسفة، التنوير والطباعة وانشر، بيروت، ص 38.

(2) درس القرن العشرين، مرجع سابق، ص 8، وانظر أيضاً كتابه، بؤس الايديولوجيا، دار الساقي، لبنان 1992.

(3) Karl Popper, the Poverty of Historicism, Routledge, London 2002, P 142.

رهن البحث الفلسفي المنفتح على كل الاحتمالات والحلول الفكرية، كدربة وموهبة فلسفية بحتة، تنتج عن الحوار العقلي المستمر مع أفكار الفلاسفة عبر آلاف من السنين، على أن يعني الحوار – كل حوار مهما كان شأنه – أن نقدم أصلب ما عندنا من أفكار، لنحكها على أفكار من سبقونا قبل من هم أمامنا، والذي يصمد من هذه الأفكار هو المرجح صحته فلسفياً.

فخلال ألفين وثلاثمئة وتسعة وعشرين "2329"، بين "أرسطو" و"بوبر" والفلسفة تقاوم الدوغمائيات والايديولوجيات، وتسعى لان ترسخ في الذهن الإنساني الروابط الفكرية التي تحدد الفكر الإنساني السابق باللاحق دون تعصب، مما يدفعنا الى اتخاذ قراراتنا حول كل أمر بصورة عقلانية بحتة هي؛ الأقرب الى الصواب، في كل ما يعرض علينا او يصيب رواقنا الفكري والواقعي من تهديدات تنتج عن القدر او الآخرين.

واليوم إزاء هذا التراجع الفكري والواقعي – الفيزيقي – العربي نتيجة التدمير المستمر والمتناوب لعواصم هذه الأمة، خلال كل عقد من الزمن منذ "هولاكو" و"الصليبية" الى اليوم، وما ينتج عنه من أقدار تتلعب بحدود أفكار الناشئة لتحد من نشاطاتهم، وأفكارهم على قدر سواء، تبرز عبارات مثل بلا فلسفة "لتزيد الطين بلة"، بلة تجفف لا ترطب الفكر العربي الناشئ، والأسوأ أن تبنيها كالانتحار يأتي من ذواتنا الجاهلة التي لا تزيدها المؤسسات التعليمية إلا جهلاً بالتنكر للفلسفة.

فلطالما كان الهدف من كل تدمير هو: الإلغاء والإقصاء، فيعني أن من يريد أن يدمر حضارتي ليدمرني ولا يريدني أن أصل الى النضج الذي يسمح لي بالمشاركة في ملكة العقل، "التي هي الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا"، فانا لا أصير إنساناً حتى أشارك بحاضر، ومصير العقل البشري ككل، ولما كانت خلاصة العقل البشري بالفلسفة، سواء ارتدت على العلم او على الدين او على الفن، او بقيت في مجرداتها الميتافيزيائية التي تضع الأساس لكل ارتداداتها المعرفية، فبقدر

هذا او ذاك – ولا غنى للأول عن الثاني – تتكشف علاقتي بالعقول الإنسانية الكبرى من فلاسفة الماضي والحاضر، وحتى بزلاتهم الفكرية التي أدت الى الدوغمائيات الايديولوجية، فيبقى أمامي مخاض تاريخ الفكر الصافي الذي غربلته الأيام بالأقدار، عليه أحاول تثبيت خطواتي لفهم المصير.

فأنا (لا أكون إنساناً حتى أشارك في مصير العقل البشري)[1]، كمل قال "جاسبر" عن حق، أما باقي الأشياء المتغيرة التي تبدو للناس مهمة فهي ليست سوى سراب، سراب التغير عند من لا يَجِدُ ليجد عند المطلق مصيره؛ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور 39].

فإذا رأى العلم أن (الطريق إلي وإليك يبدأ بلقاء "بروتونين" في مركز الشمس منذ بلايين السنين)[2]، ثم أكد أننا حين نأخذ (نفساً عميقاً – نكون – قد استنشقنا في التو ذرات الأكسجين التي تنفسها من قبل كل من نفخت فيه الحياة، وفي وقت او آخر احتوى جسدك على ذرات كانت مرة جزءاً من "موسى" او من "اسحق نيوتن)[3]، فأين هذين "البروتونين" بي الآن؟! وأين الأكسجين الذي تنفسته حين كان أول مرة معي قبل أن اكبر وأشيخ؟!

البروتونات الشمسية ثوابت وكذلك ذرات الأكسجين تلعبان دور المتغيرات بثابت "أناي" الذي هو كلٌ جزؤه عقلي، والذي بدوره جزء من العقل البشري ككل، وهذا الأخير من تجلي قوانين عقل كلي مخلوق – شأنه شأن المادة التي صنعت الانفجار الأول – من الله.

فإذا أنا لم اعبر عن عقلي الجزئي هذا، لا أشارك في مصير العقل البشري، والذي لا يقبل إلا ما هو منطقي– لأن المنطق كناية عن قوانين الفكر بصورة عامة

---

[1] تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 58.

[2] فرانك كلوز، النهاية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1994م، ص 114.

[3] المرجع السابق، ص 245.

لفهم كل قانون يحكمنا بصورة خاصة – وكل ما هو منطقي هو حتماً فلسفي لأن به حقيقة مرجحة.

بالفلسفة نترك في مسيرة العقل الإنساني ما تركته بروتونات الشمس او ذرات الأكسجين من مساعدات الحياة، التي تتبادلها الناس من مادة عبر العصور، ولأن الإنسان ليس مادة فقط هو بحاجة للفكر الفلسفي المنضبط بالمنطق، والذي يحرمك من ذلك، يحرمك من إنسانيتك، سواء كان فرداً يعادي الفلسفة، او دولة تفرض الإيديولوجيا على شعبها، او أمة تقهر أخرى لتلغي حضارتها وفكرها، تلك هي الوظيفة الشيطانية للتوتاليتاريات المحلية مهما ادعت أنها ضد الاستعمار: هي خادمته، بسبب هذا التلاقي الشرير بين الدوغمائيات الايديولوجية المحلية الناتجة عن: "بلا فلسفة"، والقهر الخارجي الاستعماري. وهذا يعني أن "بلا فلسفة" تخرج من اثنين عندنا هما:

الغر الجاهل، والايديولوجي الحانق.

ليتمسك الأول بالتكنولوجيا، وكأنها لا تأتي إلا من فراغ لا من فكر، وبسبب خشية الايديولوجي من تغير فلسفته، التي ظنها الكلمة الأخيرة في الفكر الإنساني، لان الايديولوجي يأخذ فلسفته مأخذ العقيدة الدينية كما أشرنا، (وكل تابعية الحضارات الشرقية للغرب – اليوم – هي في أنه كلما برز عند الغرب – فلسفة – او مذهب فلسفي يتبنونه)[1]... وكل ذلك ناتج عن الظن – الصوفي – الايديولوجي الساذج بأن الفلسفة عقيدة لا تتغير.

ولأنها كذلك فيجب أن تكون مقدسة لأنهم غير قادرين على فهم مخاض الفلاسفة الغربيين الدائم، الذي يؤكد ترجيح المعارف الجديدة في كل سياق فلسفي دوماً، مما قد يغير بنيته.

فالفلسفة الماركسية مثلاً ليست بديلاً عن البوذية، لسبب بسيط هو أن أحداً من الفلاسفة – حتى أكثرهم وثوقية – ماركس – لا يستطيع أن يدعي أن الفلسفة حكمة.

---

[1] هاني يحيى نصري، من "الصوفية" رؤية للعالم" دار الفكر، دمشق، عام 2008م، ص 307.

لأنها في بنية صيغتها الأساسية الإغريقية: حب الحكمة لا ادعاءها. وبسبب هذا الخطأ حارب الماركسيون الصينيون البوذية، لأنهم أرادوا الماركسية بديلاً عنها.

(كذلك حال الهند مع اشتراكية "نهرو"، وقياساً عندنا كشعب صوفي لا فلسفي تجد التخبط ذاته، ولن أحرج الناشر بأسماء المتخبطين)[1]، فكما يأخذ الصوفي مذهبه على أنه نتاج الحقيقة الإلهية "Theo"، فمذهبه صوفيا أي حكمة، وليس "فيلو- صوفيا" أي حب الحكمة، "كذلك إذا تحول أتباعه نحو أي مذهب فلسفي، عاملوه معاملة آبائهم "للالهيات Theo"، وهم يدعون التقدمية.

وهذا الموقف ليس حكراً على الشيوعي البنغلادشي او الهندي او من أي عالم ثالث، بل تجده عند كل دوغماطي ايديولوجي يعتبر استقراءات مذهبه الفلسفي لا يصيبها الخطأ من بين أيديها ولا من خلفها.

والواقع أن صلة الاستقراء بالمفاهيم هي التي تعرضه دوماً للخطأ، لأنه قائم على تحويل المشاهدة الى مفهوم يمكن ترميزه كمبيوترياً أيضاً، أي يمكن وضعه في معادلات فكرية او رقمية، وقد ظن دعاة الاستقراء أن هذا هو الاستقراء الكامل.

ولأن قاعدة – ثابت – الاستقراء هو المشاهدة، وهي معرضة دوماً للتغير، فالمفاهيم يجب أن تتغير أيضاً، وإلا وقع الاستقراء بالدوغما!! وهنا تأتي أهمية الفلسفة الحرة من كل ايديولوجيا ودوغما، لتعيد الإنسان الى ثابت ثوابت كل استقراء إنساني في بنيته الأساسية، وأعني التجريدات الفكرية التي تعبر عنها كل رموز الحياة أمام الإنسان.

وهنا أصل الى ضرورة أن أضع القارئ أمام مثال مشخص لأقوى اتجاه فلسفي تنكر للفلاسفة خلال القرنين الماضيين، وهو: "الماركسية" في استقراءاتها الاقتصادية التي ما زلنا – في العالم الثالث – نعاني منها.

---

[1] المرجع السابق.

ففي القرن التاسع عشر صار من الواضح لكل ملاحظ يراقب التحولات التي أحدثها التصنيع في الغرب، أن الديموقراطيات هناك أخذت صيغة مؤسساتية، وهذا يعني أن مساهمات الشركات الكبرى في الحملات الانتخابية قد نزعت من يد الأفراد خارج تنظيماتها الديمقراطية الفردية، التي كانت الحلم الرومانطيقي عند الغرب باستعادة الحضارة الإغريقية، والادعاء بأنهم ورثتها، وهكذا صارت الديموقراطيات الغربية – ملكية أو جمهورية – ديموقراطيات مؤسساتية، أي تحكمها المؤسسات الصناعية الكبرى، وبذلك صار بإمكان هذه المؤسسات تسخير الدولة – بكل قواها – لمصالحها الشخصية.

ولأن مصالح القوى العاملة آن ذاك تتعارض مع هذا الصنف من الديمقراطية، تحركت تلك القوى لتشكل مؤسسات خاصة بها لتحفظ حقوقها، فظهرت النقابات العمالية التي يستدعي مفهوم التوازن الاجتماعي ظهورها ووجودها، والذي لم تعارضه المؤسسات الصناعية لأجل الاستقرار والازدهار لها ولمجتمعاتها.

وضمن هذا التعارض بمفهومه "الهيغلي" بالغ "ماركس" في تحيزه "للبروليتاريا" – العمال – داعياً الى قتل البقرة بدل اقتسام الحليب، مضخماً الحنق والاستياء اليهودي ليسقطهما على القوى العاملة "Resentment"، ويطالبها بأخلاق مشابهة، لأنه "استقرأ" إمكان الاستحواذ على المؤسسات المالية والصناعية بالمؤسسات العمالية، فأطلق صرخته: "يا بروليتاريا العالم اتحدوا"، ولكن على أساس علماني لا قومي ولا ديني ولا أسري، بل شيوعي بكل معنى الكلمة التي تغير كافة الأخلاق والبنى الاجتماعية الغربية!!

ولعل الأساس الذي بنى عليه "ماركس" تصوراته هذه ليس من أجل عدالة اجتماعية، بل من الاستقراء الذي صور له أن المستقبل سيؤمن نصراً ثورياً بروليتارياً شبيهاً بالثورة الفرنسية السابقة، وأن هذا الاستقراء هو الذي يمكن من فهم صيرورة الاقتصاد العالمي الصناعي القادم بكل عنفه.

والذي أدى الى ذلك ودعمه، الملاحظات التي ادعت أنها هي الثوابت وراء الاقتصاد العالمي الصناعي القادم، دون أن يخطر لا ببال "ماركس" ولا ببال الثوريين المتحمسين له، إمكان أن يتحول العصر الصناعي في القرن الواحد والعشرين – بعد سبعن سنة فقط من انتصار الشيوعية "اللينينية" في روسيا – من الحاجة الى البروليتاريا الى الحاجة إلى الكوغنيتاريا "Cognitaria" .

وقد كان حريا به أن يدرك ذلك لأنه كفيلسوف كان عليه أن لا يركب موجة الإيديولوجيات الشائعة في عصره، ليصنع واحدة تبدو الأكثر استقطاباً للأميين والجهلة فكان عليه أن يدرك أن الفكر الفلسفي حتى لو أراد أن يكون "ميكيافيلياً" هو: في بنيته الأساسية يتجه نحو متابعة كل "Cognition"(*) معرفة تؤثر في حياة الناس، لا متابعة ميول الغوغاء العاطفية.

فالصناعة الثقيلة كمية كانت او نوعية تحتاج الى الخبراء لا كمشرفين عليها فقط، بل هي في تحولاتها النوعية المستقبلية لا يمكنها الاستمرار بالبروليتاريا الجاهلة، بل بالخبراء "Cognitaria" الممارسون لا المشرفون فقط، لأن العقل كأداة لكل تفلسف هو الذي يفعل لا الذي ينفعل بالأمية والجهل، والتجحيش البروليتاري الذي يريد من العامل حمار طاحونة ساقية، مهما كافأه على ذلك من سيطرة يهينه. لقد وصل الاقتصاد اليوم الى الرمزية العالية، وهو في تصاعد بهذا الاتجاه، وقد بدأت هذه الرمزية الاقتصادية منذ أن استبدلت العملات الذهبية والفضية والتي كانت قيمتها بوزنها، بقيمة ورقية – كاغد – تحفظها البنوك المركزية في كل ورقة على حدة، ولكن حين كان يهتز كيان دولة ما بسبب الحرب او الاضطرابات من كل نوع صارت تهبط قيمة عملاتها، وفي عكس ذلك تصعد، وبهذا صار المال سلعة قابلة للبيع وللشراء بحد ذاته.

ولما كان كل اتجاه تحولي جديد، سواء فرضه المجتمع أم فرض عليه، لا بد من لحظة تاريخية يصل فيها الى أقصى مداه، مثل التحول في الأزياء الذي وصل

(*) Cognition : تعني نوعية الفهم والإدراك لا كميته.

اليوم الى مدى لم يعد له فيه – وخاصة بالزي النسائي – قاعدة متبعة، كذلك الأمر بالنسبة الى الطلب على بعض البضائع ذات الاستهلاك المؤقت "Disposal" للرحلات مثلاً، الذي يصل اليوم ويطال معظم مشترياتنا بسبب كثرة وسهولة السفر بالطائرات ووسائل النقل الأخرى، وبسبب غلاء أجور العمالة المنزلية تفضل ربات البيوت هذا الأمر بالطعام واللباس وسائر أدوات المعيشة لرخص ثمن هذه المنتوجات وسرعة تداولها.

هكذا لا نكاد نجد بضاعة غير قابلة للتصريف السريع، او مصممة للاحتفاظ والإصلاح، خاصة وان نماذجها من أجل تحسين الأداء لا التصميم لتتغير بتغير الطلب، وما على القارئ سوى النظر الى الأجهزة الالكترونية التي اشتراها من عدة سنوات كيف لم تعد لها لا صيانة ولا قطع غيار، وإذ ينطبق هذا على آلات التصوير والأجهزة المكتبية والكمبيوترات، ينطبق أيضاً على السيارات التي لم تعد تصمم كي تصلح بعد حادث كبير، بل هي مصممة لحماية السائق- قدر الإمكان – لتصبح ركاماً للرمي بعد ذلك، تجاوباً مع الطلب المتزايد من الزبائن على الحماية من الحوادث، فلم يعد بمقدور من يشتري سيارة قيادتها عشرون سنة او أكثر كما كنا نفعل.

وهذه الأمثلة هي من أجل أن ابرز للقارئ حقيقة فلسفية مفادها، أن تحرك الطبيعة او الناس كجزء من الطبيعة بأي اتجاه، لا بد من الوصول الى أقصى مطالبه، كذلك حصل بدماغ الإنسان عبر التطور سنة الله في خلقه.

ومع تطور أدمغتنا زاد استخدامنا للرموز التي كانت أدواتنا من اجل المشخصات، فإذا هي اليوم ومع بداية نهاية هذا الشوط تطال حياتنا المشخصة بكل أبعادها.

والاقتصاد كبعد هام من هذه الأبعاد ولارتباطه بمعيشتنا أصبح أكثر رمزية مما كان على وجه التاريخ، كأمر لم يخطر ببال لا ماركس ولا أتباعه من الاشتراكيين الذين اقتصرت أبصارهم – بل قصروها – على الإنتاج وكأنه ثابت لا

يغيره الطلب في السوق من مطالب الحياة العصرية ومستجداتها، لذلك لم يفكروا بشيء اسمه الإنتاج الرمزي.

فبطاقات الائتمان لم تعد من – كاغد – بل هي قطع "بتروكيمائية" بلاستيك، تؤمن الدفع الفوري من رقم حسابك بالبنك، مع أرباح البنك دون إجراءات ولا علاقات شخصية.

ومراكز البيع الكبيرة "سوبرماركت" تبيع وتشتري دون ما كان يسمى بعلاقة مع الزبون، وكذلك كل الحوالات البنكية، وتحويلات الرواتب، وشبكات الاتصال والحواسيب.... الخ.

وحتى تدخل الآلات مسبقة البرمجة في الصناعة يجري على هذا المنوال مما يعني أننا أصبحنا نواجه بشكل واضح أقصى مطالب الرمزية في حياتنا اليومية، على أن لا ننسى أن إطلاق هذا المطلب الرمزي من كل عقالاته التي تعدت الاقتصاد الى الحروب، هو الذي نراه بالطائرات القاذفة دون طيار، والمشاة الآلية التي تتحرك مع الجيوش في كشف الألغام وتهيئة ساحات – مدن(*) – القتال.

فلا في الحرب ولا في السلم يوجد مكان الآن لا للبروليتاريا ولا للبرجوازية، ولا لدول العالم الثالث العشائرية العصبية، لأن المكان تشغله المؤسسات الاقتصادية الأكثر رمزية في اقتصادها من سواها، وهي تقدم للذين لا يفهمون إلا بالتشخيص رؤساء دولها: تارة من الممثلين – ريغان – وأخرى من الملونين – اوباما – وبينهما من المعاتيه – بوش – او من "Crusade" القرن العشرين – طوني بلير – الذي غير دينه من البروتستانتية الى الكاثوليكية ليبقى صليبياً في اللجنة الرباعية ضد الشرق الأوسط وفلسطين.

كل هذه الرومنطيقيات بضرورة تساوي فرص الجميع لرئاسة الجمهورية سواء كانوا ممثلي هوليود او من رومانطيقية عرقية او كاوبوي "Cowboy" او

(*) أصبحت المدن ساحات الحرب.

صليبي "Grusade"، مجرد واجهات لفلسفة سيطرة الاقتصاد عالي الرمزية بالعولمة على العالم، من رجال دربوا على كيفية الوصول الى الحقائق الاقتصادية التي تمسك زمام العالم، دون أوهام الايديولوجيات الفلسفية السابقة، بل باستخدام أفضل أدوات الفلسفة أي التجريد.

فلسفتهم الرمزية العلمية وأدواتهم تقاناتها بالاتصالات الكونية، لذلك قال "ألفين توفلر" المستشار الاقتصادي في البيت الأبيض منذ "ريغان": (إن السلطة هي في الطريق الى التحول، على مئة جبهة تقريباً وطبيعتها هو هذا الخليط من القوة والثروة والمعرفة، الذي يتغير بمقدار ما ينتقل الى الاقتصاد عالي الرمزية)[1]، وأداة الانتقال الى كل ما هو عالي الرمزية هي الفلسفة بعظيم تجريداتها إزاء ومن أجل كل مشخص يشكل ذات الإنسان المجردة.

وكما تستجيب المؤسسات الكبرى التي تحكم اليوم عالمية عولمة العالم الى مطالب السوق، من أجل زيادة أرباحها بتحقيق مزيد من السلامة في منتجاتها الاستهلاكية، كذلك تستجيب للجيوش بالبدائل التكنولوجية التي تخفف الإصابات، سوف تستجيب الى المطلب الفلسفي – منذ الإغريق بديموقراطيتهم – بضرورة إنهاء التسلط الدكتاتوري، لا مجرد إخفاؤه، كما تفعل اليوم.

وقد نقل "جاسبر" بهذا السياق عن "أفلاطون" قوله: (ما يمكن أن يكون عظيماً في الشر قد يكون أيضاً عظيماً في الخير.... بينما تعجز الطبيعة الضعيفة عن إنجاب أي شيء عظيم لا في الخير ولا في الشر)[2]، ولا تضعف الطبيعة الإنسانية بأكثر مما تضعف، إلا إذا حجزت عن الفكر التفلسف، ورموزه التجريدية، وخاصة اليوم حيث نعيش بعالم رمزي بكل معنى الكلمة، فلا يمكننا أن نساهم فيه دون دربة على التجريدات الفلسفية الحرة، فلا يعني استبعاد الفلسفة إلا الخروج من العالم ونحن فيه.

---

(1) ألفين توفلر، تحول السلطة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1991م، ص 83.

(2) كارل جاسبر، عظمة الفلسفة، منشورات عويدات، بيروت 1988م، ص 162.

السيرة الذاتية الأكاديمية للمؤلف

الإسم: الدكتور هاني يحيى نصري.

تاريخ الميلاد: 1366 هـ. / 1946 م.

المؤهلات العلمية:

- ليسانس - بكالوريوس في الفلسفة وعلم الاجتماع، جامعة دمشق، 1970.
- دبلوم الدراسات العليا في التربية، كلية التربية، جامعة دمشق، 1971.
- دبلوم العلوم الإنسانية في الدراسات الشرقية والإجتماعية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1973.
- شهادة الماجيستير بدرجة امتياز ببحثه حول مفهوم "العصبية" عند ابن خلدون، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، 1974.
- شهادة الدكتوراه في الفلسفة والعلوم الإنسانية بدرجة امتياز، جامعة فوردهام، نيويورك، 1979.
- أستاذ علم الاجتماع المساعد في جامعة الملك عبد العزيز بكلية الآداب، جدة، 1979.
- عضو نادي الرئاسة في جامعة فوردهام في نيويورك كمستشار.
- شهادة شكر وتقدير من جامعة الملك عبد العزيز لانجازاته عن عام 1401/ 1402 للهجرة.
- عضو هيئة تحرير مؤسس لمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية من قبل مجلس الكلية عام 1401 - 1406 للهجرة، بجامعة الملك عبد العزيز.
- رئيس لقسم الاجتماع في جامعة الملك عبد العزيز، 1403 - 1405 للهجرة.
- أستاذ مشارك في جامعة فوردهام في نيويورك، 1988م - 1992 م.

- عضو اتحاد الكتاب العرب "لجنة الدراسات والبحوث" 1997.
- أستاذ في جامعة: American Academy of Technology, Affiliation، مع جامعة بارينغتون وجامعة Arcatech من عام 1999 – 2005 م.
- أستاذ في جامعة NDU 2006 م.
- أستاذ في جامعة IUST 2010 م.
- حائز على شهادة أفضل كتاب عربي في معرض الشارقة الدولي للكتاب عام 2010 م.
- Email address: hanibael@scs-net.org

الأبحاث العلمية:

- المسيحان والعصبية في الإسلام والصهيونية، مطابع الكريم الحديثة، لبنان، 1973.
- Ibn Abd Al-Wahhab's Philosophy of Society: An Alternative to the Tribal Mentality, Fordham University Library, N.Y., 1979.
- في سبيل علم اجتماع إسلامي، دار المجمع العلمي، جدة، 1979.
- شارك في ترجمة كتاب: Urbanization in the Middle East "التمدين في الشرق الأوسط"، دار القلم، بيروت، 1980.
- Text in Sociology (level III), Jeddah: Dar Al Bayan, 1982.
- Text in Sociology (level II), Jeddah: Dar Al-Bayan, 1982.
- عصبية لا طائفية، دار القلم، بيروت، 1980.
- فلسفة التصوف: طاقات وقدرات، دار مجلة الثقافة، دمشق، 1990.
- بين الإرادة والإنجاب، دار مجلة الثقافة، دمشق، 1992.
- The Rahmanic Verses: A Commentary on Atheism in Islam, Beirut: Dar Al-Asalah, 1995.
- ترجمة بحث واشنطن أيرفينغ حول الحضارة الإسلامية في الأندلس: الحمرا، دار الإنماء الحضاري، حلب، 1996.

- الوجود والموت والخلود، دار القلم، بيروت، 1996.
- ذهنية الإلغاء، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، 1998.
- The History of the Prophet Muhammad, Beirut: Dar Al-Arkam, 1998.
- الفكر والوعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت، 1998.
- الميتافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 1998.
- الحب والفاجعة، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، 1999.
- ترجمة بحث واشنطن أيرفينغ، محمد وخلفاؤه، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 1999.
- أخبار سقوط غرناطة، دار الانتشار العربي، بيروت، 2000.
- نقض الإلحاد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت، 2000.
- إشكالية الشر، دار علاء الدين، دمشق، 2001.
- دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مجد، بيروت، 2002.
- منهج البحث العلمي، مجد، بيروت، 2003.
- المنطق والابستيمولوجيا: معيار العلم والمعرفة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2003.
- علم النفس: دراسة الحواس الداخلية عبر السلوك اليومي للإنسان، دار الأرقم، بيروت، 2005.
- الإسلام ليس إيديولوجيا، دار الفكر، دمشق 2009م، الفائز بجائزة **أفضل كتاب عربي** في معرض الشارقة الدولي للكتاب لعام 2010.
- الصوفية رؤية – حوارية – دار الفكر، دمشق 2009 م.
- "الفلسفة الأميركية والعولمة" سيطرة البرغماتية على العولمة، دار الفكر، دمشق 2010.

الفهرس

الباب الثامن

الباب التاسع

2013/3/921